شرح

نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

(٥٨٦ - ٦٥٦)

الجزء الأول

تحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بتحقيق
محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء الأول

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله [الواحدِ العدْل](1). الحمد لله الذى تفرّد بالكمال؛ فكلُّ كاملٍ سواه منقوص، واستوعبَ عمومَ المحامد والمادح؛ فكلُّ ذى عمومٍ عداه مخصوص؛ الذى وزّع مُنفِساتِ نعَمه بين مَنْ يشاء من خَلْقه، واقتضت حكمتُه أن نافسَ الحاذقَ فى حِذْقه فاحتُسِب به عليه من رزقه، وزَوَى(2) الدنيا عن الفضلاء فلم يأخذْها الشريفُ بشرفه، ولا السابق بسبْقه. وقدّم المفضولَ على الأفضل لمصلحة اقتضاها التكليف، واختصّ الأفضلَ من جلائل المآثر ونفائس المفاخر بما يعظُم عن التشبيه، ويجِلّ عن التكييف. وصلّى الله على رسوله محمد؛ الذى(3) المكنيّ عنه شُعاع من شمسه، وغصن من غَرْسه، وقوة من قُوَى نفسه، ومنسوب إليه نسبةَ الغدِ إلى يومه واليوم إلى أمسه؛ فما هما إلّا سابق ولاحق، وقائد وسائق، وساكت وناطق، ومُجلٍّ ومُصَلٍّ؛ سبقا لمحةَ البارق، وأنارا سُدْفة الغاسق؛ صلّى الله عليهما ما استُخْلِبَ(4) خَبِيرٌ، وتفاوح حِراء وثَبِير(5).

وبعد، فإنّ مراسمَ المولى الوزير الأعظم، الصاحب(6)، الصدر الكبير المعظّم العالم العادل المظفّر المنصور المجاهد، المرابط(7)، مؤيّد الدين عضد الإسلام، سيد وزراء الشرق والغرب، أبى طالب(8)

---

(1) تكملة من ب. (2) زوى الدنيا: نحاها وصرفها. (3) فى ا: «والذى».

(4) استخلب، بالبناء للمجهول: قطع. والخبير: النبات، وورد فى حديث طهفة: «ونستخلب الخبير»، قال ابن الأثير: الخبير: النبات والعشب، شبه بخبير الإبل؛ وهو وبرها. النهاية ١: ٢٨٠

(٥) يقال: هما جبلان يتناوحان؛ إذا كانا متقابلين؛ وثبير: جبل شامخ بمكة يقابل حراء؛ وهو أرفع من ثبير. ياقوت ٣: ٢٤٠ (6) ب: «صاحب». (7) ا: «والمرابط».

(8) فى الطبعة الأولى: «أبى محمد بن أحمد»، وهو خطأ.

محمد بن أحمد بن محمد العلقمي[١]، نصير أمير المؤمنين — أسبغ الله عليه من ملابس النعم أضفاها، وأحلّه من مراقب السعادة ومراتب السيادة أشرفها وأعلاها — لما شرّفتْ عيدَ دولته، ورحيبَ نعمته بالاهتمام بشرح " نهج البلاغة " — على صاحبه أفضل الصلوات، وأزكى أطيب التحيات — بادر إلى ذلك مبادرةَ مَنْ بعثه مِن قبلُ عزمٌ، ثم حَمَله[٢] أمرٌ جزْم، وشرع فيه بادِىَ الرأى شروع مختصِر، وعلى ذكْر الغريب والمعنى مقتصِر؛ ثم تعقّب الفِكر، فرأى أنّ هذه النُّغْبة[٣] لاتَشفى أواما، ولاتزيد الحائمَ إلا حِياما، فتنكّب ذلك المسلك، ورفض ذلك المنهج، وبسط القول فى شرحه بسطاً اشتمل على الغريب والمعانى وعلم البيان، وما عساه يشتبه ويُشكِل من الإعراب والتصريف، وأوْرَد فى كلّ موضع مايطابقه من النظائر والأشباه، نثراً ونظماً، وذكَر مايتضمّنه من السِّيَر والوقائع والأحداث فصلا فصلا. وأشار إلى ماينطوى عليه من دقائق علم التوحيد والعدل إشارة خفيفة، ولوّح إلى مايستدعى الشرحُ ذِكرَه من الأنساب والأمثال والنُّكت تلويحاتٍ لطيفة، ورصّعه من المواعظ الزهدية، والزواجر الدينية، والحِكَم النفسية، والآداب الخلقية، المناسبة لِفِقَره، والمشاكلة لِدُرره، والمنتظمة مع معانيه فى سِمْط، والمتّسقة مع جواهره فى لَطٍّ[٤]، بمايهزأ بشنوف النُّضّار، ويُخجِل قِطَع الرّوض غِبّ القِطار. وأوضحَ ما يومئ إليه من المسائل الفقهيّة، وبرهن على أنّ كثيراً من فصوله داخل فى باب المعجزات المحمدية؛ لاشتمالها على

---

(١) هو مؤيد الدين أبو طالب محمد بن أحمد بن العلقمي البغدادى، وزير المستعصم بالله، الخليفة العباسى. اشتغل فى صباه بالأدب، ففاق فيه، وكتب خطا مليحا، وترسل ترسلا فصيحا، وكان لبيبا كريما، رئيسا متمسكا بقوانين الرياسة، خبيرا بأدوات السياسة، محبا للأدب، مقربا لأهل العلم، اقتنى كتبا كثيرة نفيسة، وصنف الناس له؛ منهم الصغانى، صنف له العباب، وهذا المصنف الذى ألف برسمه، وكان ممدحا، مدحه الشعراء، وانتجعه الفضلاء، وأخباره الطيبة كثيرة وجلية. توفى سنة ٦٥٦. الفخرى ٢٩٥، ٢٩٦. (٢) ب، ج: « حركه ». (٣) النغبة فى الأصل: الجرعة من الماء. وفى ا: « البغية »، والأجود ما أثبته من ب. (٤) اللط، بالفتح: القلادة.

الأخبار الغيبية ، وخروجها عن وسع الطبيعة البشرية . وَبَيَّن من مقامات العارفين ؛ التى يَرمِز إليها فى كلامه ما لا يعقله إلا العالمون ، ولا يُدرِكه إلا الروحانيون المقرَّبون . وكشف عن مَقاصده عليه السلام فى لفظة يرسلها ، ومعضِلَةٍ[1] يَكنِي عنها ، وغامضة يعرِّض بها ، وخَفَايا يُجمجِم[2] بذكرها ، وهَنَاتٍ تجيش فى صدره فينفُثُ بها نَفْثةَ المصدور ، ومُرْمِضاتٍ مؤلمات يشكوها فيستريح بشكواها استراحةَ المكروب .

فخرج هذا الكتاب كتاباً كاملاً فى فَنّه ، واحداً بين أبناء جنسه ، مُمْتِعاً بمحاسنه ؛ جليلةً فوائدُه ، شريفة مقاصدُه ، عظيماً شأنه ، عالية منزلته ومكانه ؛ ولا عجبَ أن يُقرَّب بسيِّد الكتُب إلى سيد الملوك ، وبجامع الفضائل إلى جامع المناقب ، وبواحد العصر إلى أوحد الدهر ؛ فالأشياء بأمثالها أليق ، وإلى أشكالها أقرب ؛ وشِبهُ الشىء إليه منجذِب ، ونحوه دانٍ ومقترب .

ولم يشرحْ هذا الكتاب قبلى — فيما أعلمه — إلا واحد ؛ وهو سعيد بن هبة الله بن الحسن الفقيه المعروف بالقُطْب الراوندى[3] ، وكان من فقهاء الإماميّة ، ولم يكن من رجال هذا الكتاب ، لاقتصاره مدّةَ عمره على الاشتغال بعلم الفقه وحده ، وأنَّى للفقيه أن يشرح هذه الفنون المتنوعة ، ويخوضَ فى هذه العلوم المتشعبة ! لا جَرَمَ أنَّ شرحه لا يخفى حالُه عن الذكىّ ، وجَرَى الوادى فطَمَّ على القَرِىّ[4] . وقد تعرَّضتُ فى هذا الشرح لمناقضته

---

(١) كذا فى ج ، وجمجم بالكلام : لم يبينه ، وفى ا ، ب : « يحجم » .

(٢) ا : « معضلة » ، بدون الواو . (٣) هو سعيد بن هبة الله بن الحسن الراوندى ، أحد فقهاء الشيعة ؛ وتصانيفه كثيرة متنوعة ؛ أسمى كتابه فى شرح النهج « منهاج البراعة فى شرح نهج البلاغة » ، وتوفى سنة ٥٧٣ . لسان الميزان ٣ : ٤٨ ، روضات الجنات ٣٠٢ . (٤) جرى الوادى فطم على القرى ، مثل ؛ قال الميدانى فى شرحه : أى جرى سَيل الوادى فطم ، أى دفن ؛ يقال : طم السيل الركيّة ؛ أى دفنها . والقرى : مجرى الماء فى الروضة ، والجمع أقرية وقريان ، و « على » من صلة المعنى ؛ أى أتى على القرى ؛ يعنى أهلكه بأن دفنه ؛ يضرب عند تجاوز الشىء حده » . مجمع الأمثال ١ : ١٥٩

فى مواضع يسيرة اقتضت الحال ذكرها ، وأعرضت عن كثير مما قاله ، [إذ] لم أر فى ذكره ونقضه كبير فائدة .

•••

وأنا قبل أن أشرعَ فى الشرح أذكر أقوالَ أصحابِنا رحمهم الله فى الإمامة والتفضيل والبُغاة والخوارج . ومُتْبِــعٌ ذلك بذكر نسب أمير المؤمنين عليه السلام ، ولمع يسيرة من فضائله ، ثم أثلّث بذكر نسب الرضىّ أبى الحسن محمد بن الحسين الموسوىّ رحمه الله ، وبعض خصائصه ومناقبه . ثم أشرع فى شرح خطبة " نهج البلاغة " التى هى من كلام الرضىّ أبى الحسن رحمه الله[1] ؛ فإذا انتهيت من ذلك كلّه ابتدأت بعون الله وتوفيقه فى شرح كلام أمير المؤمنين عليه السلام شيئاً فشيئاً .

ومن الله سبحانه أستمدّ المعونة ، وأستدرّ أسبابَ العِصْمة ، وأستميح غمائم الرحمة ، وأمترى أخلاف البركة ، وأشيمُ بارق النماء والزيادة ، فما المرجوّ إلا فضلُه ، ولا المـأمول إلا طَوْله ، ولا الوثوق إلا برحمته ، ولا السكون إلا إلى رأفته ، ﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ • رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[2] .

---

(١) ب : « رضى الله عنه » .   (٢) سورة الممتحنة ٤ ، ٥ .

القول فيما يذهب إليه أصحابنا المعتزلة
فى الإمامة والتفضيل والبغاة والخوارج

اتفق شيوخُنا كافة رحمهم الله ؛ المتقدّمون منهم والمتأخرون ، والبصريّون والبغداديون على أنّ بيعة أبى بكر الصديق بَيْعة صحيحة شرعية ، وأنّها لم تكن عن نصّ ، وإنما كانت بالاختيار الذى ثبتَ بالإجماع ، وبغير الإجماع كونُه طريقاً إلى الإمامة .

واختلفوا فى التفضيل ، فقال قدماء البصريين كأبى عثمان عمرو بن عُبيد ، وأبى إسحاق إبراهيم بن سيار النظّام ، وأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، وأبى معن ثُمامة بن أشرس ، وأبى محمد هشام بن عمرو الفُوَطىّ ، وأبى يعقوب يوسف بن عبد الله الشحّام ، وجماعة غيرهم : إن أبا بكر أفضلُ من علىّ عليه السلام ؛ وهؤلاء يجعلون ترتيبَ الأربعة فى الفضل كترتيبهم فى الخلافة .

وقال البغداديّون قاطبة ؛ قدماؤهم ومتأخروهم ، كأبى سهل بِشر بن المعتمر ، وأبى موسى عيسى بن صبيح ، وأبى عبد الله جعفر بن مبشّر ، وأبى جعفر الإسكافىّ ، وأبى الحسين الخيّاط ، وأبى القاسم عبد الله بن محمود البلْخِىّ وتلامذته : إنّ عليًّا عليه السلام أفضلُ من أبى بكر .

وإلى هذا المذهب ذهب من البصريين أبو علىّ محمد بن عبد الوهاب الجُبّائىّ أخيرا ، وكان من قبلُ من المتوقّفين ، كان يميل إلى التّفضيل ولا يصرّح به ، وإذا صنّف ذهب إلى الوقف فى مصنّفاته . وقال فى كثير من تصانيفه : إن صحّ خبرُ الطّائر فعلىٌّ أفضل[1] .

---

(١) يشير إلى ماروواه الترمذى فى باب المناقب ١٣ : ١٧٠ ، بسنده عن أنس بن مالك ، ولفظه : كان عند النبى صلى الله عليه وسلم طير ، فقال : « اللهم ائتنى بأحب خلقك إليك يأكل معى هذا الطير » ، فجاء على فأكل معه . قال أبو عيسى : هذا حديث غريب لايعرف من حديث السدى إلا من هذا الوجه .

ثم إن قاضيَ القضاة رحمه الله ذكر فى شرح " المقالات " لأبى القاسم البلخيّ أنّ أبا علىّ رحمه الله ما مات حتى قال بتفضيل علىّ عليه السلام ، وقال : إنه نقل ذلك عنه سماعاً ؛ ولم يوجد فى شىء من مصنفاته . وقال أيضاً : إن أبا علىّ رحمه الله يوم مات استدنَى ابنه أبا هاشم إليه ، ـ وكان قد ضَعُفَ عن رفع الصوت ـ فألقى إليه أشياء ، من جملتها القولُ بتفضيل علىّ عليه السلام .

وممن ذهب من البصريين إلى تفضيله عليه السلام الشيخ أبو عبد الله الحسين ابن علىّ البصرىّ رضى الله عنه ، كان متحقّقاً بتفضيله ، ومبالغاً فى ذلك ، وصنّف فيه كتابا مفردا .

وممن ذهب إلى تفضيله عليه السلام من البصريين قاضى القضاة أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد رحمه الله ؛ ذكر ابنُ متّويه عنه فى كتاب " الكفاية " فى علم الكلام أنه كان من المتوقفين بين علىّ عليه السلام وأبى بكر ، ثم قطع على تفضيل علىّ عليه السلام بكامل المنزلة .

ومن البصريين الذاهبين إلى تفضيله عليه السلام أبو محمد الحسن بن مَتّويه صاحب " التذكرة " نصّ فى كتاب " الكفاية " على تفضيله عليه السلام على أبى بكر ؛ واحتجّ لذلك ، وأطال فى الاحتجاج .

فهذان المذهبان كما عرفت .

وذهب كثير من الشيوخ رحمهم الله إلى التوقّف فيهما ؛ وهو قول أبى حذيفة واصل ابن عطاء ، وأبى الهُذَيْل محمد بن الهُذَيْل العلاّف ؛ من المتقدمين . وهما ـ وإن ذهبا إلى التوقّف[1] بينه عليه السلام وبين أبى بكر وعمر ـ قاطعان على تفضيله على عثمان .

---

(١) ب : « الوقف » .

ومن الذاهبين إلى الوقف الشيخ أبو هاشم عبد السلام بن أبي عليّ رحمهما الله والشيخ أبو الحسين محمد بن عليّ بن الطيّب البصريّ رحمه الله .

وأمّا نحن فنذهب إلى ما يذهب إليه شيوخنا البغداديون ؛ من تفضيله عليه السلام . وقد ذكرنا في كتبنا الكلامية ما معنى الأفضل ؛ وهل المراد به الأكثر ثوابًا أو[1] الأجمعُ لمزايا الفضل والخلال الحميدة ، وبيّنّا أنه عليه السلام أفضلُ على التفسيرين معا . وليس هذا الكتاب موضوعا لذكر الحِجاج في ذلك أو في غيره من المباحث الكلاميّة لنذكرَه ، ولهذا موضع هو أملك به .

* * *

وأمّا[2] القول في البغاة عليه[3] والخوارج ، فهو على[4] ما أذكره لك :

أما أصحاب الجمل فهم عند أصحابنا هالكون كلّهم إلا عائشة وطلحة والزبير ؛ [5]رحمهم الله[5] فإنهم تابوا ، ولولا التوبة لحكِم لهم بالنار لإصرارهم على البغي .

وأما عسكر الشام بصِفّين فإنهم هالكون كلّهم عند أصحابنا لا يُحْكَم لأحد منهم إلاّ بالنار ؛ لإصرارهم على البغي وموتهم عليه ؛ رؤساؤهم والأتباع جميعاً .

وأما الخوارج فإنّهم مرقوا عن الدين بالخبر النبويّ المجمَع عليه ؛ ولا يختلف أصحابنا في أنهم من أهلِ النار .

وجملة الأمر أنّ أصحابنا يحكمون بالنار لكلّ فاسق مات على فِسْقه ؛ ولا ريب في أنّ الباغيَ على الإمام الحقّ والخارجَ عليه بشبهة أو بغير شبهة فاسق ؛ وليس هذا مما يخصّون به عليًّا عليه السلام ، فلو خرج قوم من المسلمين على غيره من أئمة الإسلام العدول[6] لكان حكمُهم حكمَ من خرج على عليّ صلوات الله عليه .

وقد برِئ[7] كثير[8] من أصحابنا من قوم من الصحابة أحبطوا ثوابهم؛ كالمغيرة بن شعبة

---

(١) ب : « أم » . (٢) ب ، ج : « فأما » . (٣) ساقطة من ا .
(٤) ا : « فعلى ما أذكره » . (٥-٥) ساقط من ب . (٦) ب ، ج : « من أئمة العدل » .
(٧) ب : « يرى » ، تصحيف . (٨) كذا في ب ، ج ، وفي ا : « قوم » .

وكان شيخنا أبو القاسم البلخى إذا ذكر عنده عبد الله بن الزّبير ، يقول : لا خيرَ فيه . وقال مرة : لا يعجبنى صلاته وصومه ؛ وليسا بنافعين له مع قول رسول الله صلى الله عليه وآله لعلىّ عليه السلام : « لا يُبغضك إلا منافق » . وقال أبو عبد الله البصرىّ رحمه الله لما سئل عنه : ما صحّ عندى أنه تاب من يوم الجمل ؛ ولكنه استكثر مما كان عليه .

فهذه هى المذاهب والأقوال ؛ أمّا الاستدلال عليها فهو مذكور فى الكتب الموضوعة لهذا الفن .

القول فى نسب أمير المؤمنين علىّ عليه السّلام
وذكر لُمَع يَسيرة من فضائله

هو أبو الحسن علىّ بن أبى طالب ـ واسمه عبدمناف ـ بن عبدالمطلب ـ واسمه شيبة ـ ابن هاشم ـ واسمه عمرو ـ بن عبد مناف بن قصىّ . الغالبُ عليه من الكنية عليه السلام أبو الحسن . وكان ابنه الحسن عليه السلام يدعوه فى حياة رسول الله صلى الله عليه وآله أبا الحسين ، ويدعوه الحسين عليه السلام أبا الحسن ، ويدعوّان رسول الله صلى الله عليه وآله أباهما ، فلما تُوفِّىَ النبىّ صلى الله عليه وآله [1] دعوّاه بأبيهما .

وكنّاه رسول الله صلى الله عليه وآله أبا تراب ، وَجَده نائما فى تراب ، قد سقط عنه رداؤه ، وأصاب التراب جَسَده ، فجاء حتى جلس عند رأسه ،وأيقظه ، وجعل يمسح التراب عن ظهره ويقول له : اجلس ؛ إنما أنت أبو تراب [2] . فكانتْ من أحبّ كناه إليه صلوات الله عليه ، وكان يفرح إذا دُعِىَ بها ، وكانت تَرَغَّب بنو أمية خطباءها [3]

---

(١) ساقطة من ا .

(٢) رواية الخبر كما فى صحيح البخارى ، فى كتاب فضائل الصحابة ٢ : ٣٠٠ ؛ بسنده عن عبد الله ابن مسلمة : « أن رجلا جاء إلى سهل بن سعد ، فقال : هذا فلان ـ لأمير المدينة ـ يدعو عليا عند المنبر ، قال : فيقول ماذا ؟ قال : يقول له : أبو تراب . فضحك ، قال : والله ما سماه إلا النبى صلى الله عليه وسلم ، وما كان له اسم أحب إليه . فاستطعمت الحديث سهلا ، وقلت : ياأبا عباس ، كيف ؟ قال : دخل على على فاطمة ، ثم خرج فاضطجع فى المسجد ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أين ابن عمك؟ قالت : فى المسجد ، فخرج إليه فوجد رداءه قد سقط عن ظهره ، وخلص التراب إلى ظهره ، فجعل يمسح التراب عن ظهره فيقول : اجلس ياأبا تراب ، مرتين » . ولهذا الخبر رواية أخرى ذكرها صاحب الرياض النضرة فى ٢ : ١٥٤ .

(٣) ب ، ج : « قدعت بنوأمية » ، وماأثبته من ا .

أن يسبُّوه بها على المنابر، وجعلوها نقيصة له ووصمة عليه؛ فكأنما كسوه بها الحُلِيَّ والحُلَل؛ كما قال الحسن البصريّ رحمه الله.

وكان اسمه الأول الذى سمّته به أمه حَيْدَرة، باسم أبيها أسد بن هاشم – والحيدرة: الأسد – فغيّر أبوه اسمه، وسمّاه عليّاً.

وقيل: إن حيدرةَ اسمٌ كانت قريش تسمّيه به. والقول الأول أصحّ؛ يدلّ عليه خبرُه [١] يوم بَرَز إليه مَرْحب، وارتجز عليه فقال:

« أنا الذى سمّتنِى أمّى مَرْحَبا [٢] »

فأجابه عليه السلام رجزاً:

« أنا الذى سمّتنِى أمى حَيْدَرَهْ [٣] »

ورجزُهما معا مشهور منقول لا حاجة لنا الآن إلى ذكره.

وتزعم الشيعة أنه خوطب فى حياة رسول الله صلى الله عليه وآله بـ « أمير المؤمنين »، خاطبه بذلك جِلّة المهاجرين والأنصار، ولم يثبتْ ذلك فى أخبار المحدّثين؛ إلا أنهم قد رووْا ما يُعطِى هذا المعنى، وإن لم يكن اللفظُ بعينه، وهو قول رسول الله صلى الله عليه وآله له: « أنت يَعْسُوب الدّين والمالُ يعسوب الظَّلَمة »، وفى رواية أخرى: « هذا يعسوب المؤمنين،

(١) الخبر رواه مسلم مفصلا بسنده عن إياس بن سلمة عن أبيه، فى كتاب الجهاد والسير ص ١٤٣٣ – ١٤٤١، فى غزوة خيبر.

(٢) رواية مسلم:

قَدْ عَلِمَتْ خَيْبَرُ أَنّى مَرْحَبُ ... شَاكِى السِّلَاحِ بَطَلٌ مُجَرَّبُ

« إِذَا الْحُرُوبُ أَقْبَلَتْ تَلَهَّبُ »

(٣) بقيته، كما رواه مسلم:

كَلَيْثِ غَابَاتٍ كَرِيهِ الْمَنْظَرَهْ ... أُوفِيهِمُ بِالصَّاعِ كَيْلَ السَّنْدَرَهْ

والسندرة: مكيال واسع.

وقائد الغرّ المحجّلين » (١) . واليعسوب : ذَكَر النّحل وأميرها . روى هاتين الروايتين أبو عبد الله أحمد بن حنبل الشيبانيّ في " المسند " في كتابه " فضائل الصحابة " ، ورواها أبو نُعَيم الحافظ في " حلية الأولياء " (٢) .

ودُعِي بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله بوصيّ رسول الله، لوصايته إليه بما أراده. وأصحابنا لا ينكرون ذلك ، ولكن يقولون : إنها لم تكن وصيةً بالخلافة ، بل بكثير من المتجددات بعده ، أفضى بها إليه عليه السلام . وسنذكر طرفاً من هذا المعنى فيما بعد.

وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف بن قصيّ ، أوّل هاشمية وَلَدَت لهاشميّ ، كان عليّ عليه السلام أصغرَ بنيها ، وجعفر أسنّ منه بعشر سنين، وعَقِيل أسنّ منه بعشر سنين ، وطالب أسنّ من عَقِيل بعشر سنين ؛ وفاطمة بنت أسد أمّهم جميعاً .

وأمّ فاطمة بنت أسد فاطمة (٣) بنت هَرِم بن رواحة بن حُجْر بن عبد بن مَعِيص [ابن عامر بن لؤيّ . وأمها حدية بنت [4] (٤) وهب بن ثعلبة بن وائلة بن عمرو بن شيبان ابن محارب بن فهر . [وأمّها فاطمة بنت عُبَيد بن منقذ بن عمرو بن معيص بن عامر بن لؤيّ. وأمّها سلمى بنت عامر بن ربيعة بن هلال بن أُهَيب بن ضبّة بن الحارث بن فهر] (٤). وأمها عاتكة بنت أبي هَمْهَمة ـ واسمه عمرو بن عبد العزّى ـ بن عامر بن عُمَيرة بن وديعة (٥) بن الحارث ابن فِهر ، [وأمّها تُماضر بنت عمرو بن عبد مناف بن قصيّ بن كلاب بن مرّة بن كعب ابن لؤي] (٤) ، وأمها حبيبة؛ وهي أمة الله بنت عبد ياليل بن سالم بن مالك بن حُطَيط بن جُشَم ابن قسيّ ؛ وهو ثقيف. وأمّها فلانة بنت مخزوم بن أسامة بن ضبع (٦) بن وائلة بن نصر ابن صعصعة بن ثعلبة بن كنانة بن عمرو بن قَين بن فَهْم بن عمرو بن قيس بن عَيلان

---

(١) ورواه أيضا الطبراني في الكبير ، ونقله صاحب الرياض النضرة ٢ : ١٥٥ ؛ مع اختلاف في اللفظ.

(٢) حلية الأولياء ١ : ٦٣ ، بسنده عن أنس ، ولفظه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أنس ، أول من يدخل من هذا الباب أمير المؤمنين ، وسيد المسلمين ، وقائد الغر المحجلين ، وخاتم الوصيين » .

(٣) في مقاتل الطالبيين : « وتعرف بحبي بنت هرم » .

(٤) تكملة من مقاتل الطالبيين . (٥) مقاتل الطالبيين : « ابن أبي وديعة » .

(٦) كذا في ب ، وفي ا : « ضبيح » ، وفي مقاتل الطالبيين « صبح » .

ابن مضر . وأمها رَيْطة بنت يسار بن مالك بن حُطَيط بن جُشَم بن ثقيف . وأمها كلة[١] بنت حصين بن سعد بن بكر بن هوازن . وأمها حُبّى بنت الحارث بن النابغة بن عميرة ابن عوف بن نصر بن بكر بن هوازن . ذكر هذا النسب أبو الفرج علىّ بن الحسين الأصفهانىّ فى كتاب "مقاتل الطالبيين"[٢] .

أسلمت فاطمة بنت أسد بعد عشرة من المسلمين ؛ وكانت الحادية عشرة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يكرمها ويعظّمها ويدعوها : «أمى» ، وأوصتْ إليه حين حضرتْها الوفاة ، فقَبِل وصيتّها ، وصلّى عليها ، ونزَل فى لحدها ، واضطجع معها فيه بعد أن ألبسها قميصَه ، فقال له أصحابه : إنّا ما رأيناك صنعتَ يارسول الله بأحد ماصنعتَ بها ، فقال : « إنّه لم يكن أحدٌ بعد أبى طالب أبرّ بى منها ، إنما ألبسْتُها قميصى لتُكسَى من حُلَل الجنة ، واضطجعتُ معها ليهونَ عليها ضغطةُ القبر » .

وفاطمة أوّل امرأة بايعت رسول الله صلى الله عليه وآله من النّساء .

وأمّ أبى طالب بن عبد المطلب فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم . وهى أمّ عبدالله ، والد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأمّ الزبير بن عبدالمطلب ؛ وسائرُ ولد عبد المطلب بَعْدُ لأمهات شتى .

واختُلف فى مولد علىّ عليه السلام أين كان ؟ فكثير من الشيعة يزعمون أنه ولد فى الكعبة ، والمحدّثون لا يعترفون بذلك ، ويزعمون أنّ المولود فى الكعبة حكيم بن حِزام بن خُويلد بن أسد بن عبد العزّى بن قصىّ .

واختلف فى سنّه حين أظهر النبىّ صلى الله عليه وآله الدعوة ، إذ تكامل له صلوات الله عليه أربعون سنة ، فالأشهرُ من الروايات أنه كان ابنَ عشر . وكثير من أصحابنا المتكلّمين يقولون : إنه كان ابن ثلاث عشرة سنة ؛ ذكر ذلك شيخنا أبو القاسم البلخىّ وغيره من شيوخنا .

(١) مقاتل الطالبيين : « كلة بنت قصية » . (٢) فى ترجمة جعفر بن أبى طالب ص ٧ .

والأوّلون يقولون : إنّه قتل وهو ابن ثلاث وستين سنة ، وهؤلاء يقولون : ابن ستّ وستين ، والروايات فى ذلك مختلفة . ومن الناس من يزعم أن سنّه كانت دون العشر ، والأكثر الأظهر خلاف ذلك .

وذكر أحمد بن يحيى البلاذرىّ وعلىّ بن الحسين الأصفهانىّ أنّ قريشاً أصابتها أزمة وقَحْط ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله لعمّيه ؛ حمزة والعباس : « ألا نحمل ثِقَلَ أبى طالب فى هذا المَحْل ! » ، فجاءوا إليه وسألوه أن يدفع إليهم ولده ليكفوه أمرهم ، فقال : دَعُوا لى عَقِيلا وخذوا مَنْ شئتم — وكان شديد الحبّ لعَقِيل — فأخذ العباس طالبا ، وأخذ حمزة جعفراً ، وأخذ محمد صلى الله عليه وآله عليًّا ، وقال لهم : « قد اخترت — من اختاره الله لى عليكم — عليًّا » ، قالوا : فكان علىّ عليه السلام فى حِجْر رسول الله صلى الله عليه وآله ، منذ كان عمره ستّ سنين .

وكان ما يُسْدِى إليه صلواتُ الله عليه من إحسانه وشفقته وبِرّه وحسن تربيته ؛ كالمكافأة والمعاوضة لصنيع أبى طالب به ؛ حيث مات عبد المطلب وجعله فى حِجْره . وهذا يطابق قوله عليه السلام : لقد عبدتُ اللهَ قبل أنْ يعبدَه أحد من هذه الأمة سبع سنين ، وقوله : كنت أسمع الصوت وأبصر الضوء سنين سبعاً ؛ ورسول الله صلى الله عليه وآله حينئذ صامت ما أُذِنَ له فى الإنذار والتبليغ ؛ وذلك لأنه إذا كان عمرُه يوم إظهار الدعوة ثلاث عشرة سنة ، وتسليمه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله من أبيه وهو ابن ستّ ؛ فقد صحّ أنه كان يعبد الله قبل الناس بأجمعهم سبع سنين ؛ وابن ستّ تصحّ منه العبادة إذا كان ذا تمييز ، على أنّ عبادةَ مثله هى التعظيم والإجلال وخشوع القلب ، واستخذاء الجوارح إذا شاهد شيئا من جلال الله سبحانه وآياته الباهرة ، ومثلُ هذا موجود فى الصبيان .

وقُتِل عليه السلام ليلة الجمعة لثلاث عشرة بَقِين من شهر رمضان ، سنة أربعين فى

رواية أبي عبد الرحمن السُّلمِيّ[(١)] — وهي الرواية المشهورة — وفي رواية أبي مِخنف أنّها كانت لإحدى عشرة ليلةً بَقِين من شهر رمضان، وعليه الشيعةُ في زماننا.

والقول الأول أثبتُ عند المحدّثين، والليلة السابعة عشرة من شهر رمضان هي ليلة بدر، وقد كانت الروايات وردت أنه يقتل في ليلة بدر، عليه السلام.

وقبره بالغَرِيّ.

وما يدّعيه أصحاب الحديث — من الاختلاف في قبره، وأنّه حُمِل إلى المدينة، أو أنه دفن في رحبة الجامع، أو عند باب قصر الإمارة، أو نَدّ البعير الذي حُمِل عليه فأخذته الأعراب — باطل كلّه، لا حقيقة له، وأولاده أعرفُ بقبره؛ وأولاد كلّ الناس أعرفُ بقبور آبائهم من الأجانب؛ وهذا القبر الذي زاره بنوه لما قدِموا العراق، منهم جعفر بن محمد عليه السلام وغيرُه من أكابرهم وأعيانهم.

وروى أبو الفرج في "مقاتل الطالبيين" بإسناد[(٢)] ذكره هناك أنّ الحسين عليه السلام لما سئل: أين دفنتم أميرَ المؤمنين؟ فقال: خرجنا به ليلا من منزله بالكوفة، حتى مررنا[(٣)] به على مسجد الأشعث، حتى انتهينا به إلى الظَّهْر بجنب الغَرِيّ.

وسنذكر خبر مقتله عليه السلام فيما بعد.

فأما فضائله عليه السلام؛ فإنها قد بلغت من العِظَم والجلالة والانتشار والاشتهار مبلغًا يسمُجُ معه التعرّض لذكرها، والتصدّي لتفصيلها؛ فصارت كما قال أبو العيناء لعبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل والمعتمد: رأيتُني فيما أتعاطَى من وصف فضلك، كالمخبِرِ عن ضَوْء النهار الباهر، والقمرِ الزاهر، الذي لا يخفى على الناظر؛ فأيقنت أنّي حيث انتهى بيَ القولُ منسوب إلى العَجْز، مقصّر عن الغاية، فانصرفت عن الثناء عليك إلى الدعاء لك، ووكلت الإخبارَ عنك إلى علم الناس بك.

وما أقولُ في رجل أقرّ له أعداؤه وخصومه بالفضل، ولم يمكنهم جَحْدُ مناقبه،

(١) نقلها أبو الفرج في مقاتل الطالبيين ٤٠. (٢) مقاتل الطالبيين ص ٤٢: «الحسن».
(٣) كذا في الأصول ومقاتل الطالبيين والأجود: «فررنا».

ولا كتمانُ فضائله ، فقد علمتَ أنه استولى بنو أميةَ على سلطان الإسلام في شرق الأرضِ وغربها ، واجتهدوا بكلّ حيلة في إطفاء نوره ، والتحريضِ عليه ، ووضع المعايب والمثالب له ، ولعنوه على جميع المنابر ، وتوعّدوا مادِحِيه ، بل حبسوهم وقتلوهم ، ومنعوا من رواية حديث يتضمّن له فضيلة ، أو يرفع له ذكرا ، حتى حظَروا أنْ يسمّى أحد باسمه ؛ فما زاده ذلك إلا رفعةً وسُمُوًّا ؛ وكان كالمسك كلّما سُتِرَ انتشر عَرْفه ، وكلّما كُتِمَ تَضوّعَ نَشْرُه ؛ وكالشمس لا تُسْتَرُ بالراح ، وكضوْء النهار إن حُجِبت عنه عين واحدة ، أدركته عيون كثيرة .

وما أقول في رجل تُعْزَى إليه كلُّ فضيلة ، وتنتهي إليه كل فِرْقة ، وتتجاذبه كلُّ طائفة ، فهو رئيس الفضائل ويَنبوعها ، وأبو عُذْرِها ، وسابق مضمارها ، ومجلّى حَلْبتها؛ كلُّ مَنْ بزغ فيها بعده فمنه أخذ ، وله اقتفى ، وعلى مثاله احتذى .

وقد عرفتَ أنّ أشرف العلوم هو العلم الإلهيّ ، لأنّ شرف العلم بشرف المعلوم ، ومعلومه أشرف الموجودات ، فكان هو أشرفَ العلوم . ومن كلامه عليه السلام اقتبس ، وعنه نقل ، وإليه انتهى ، ومنه ابتدأ ، فإنّ المعتزلة[1] — الذين هم أهلُ التوحيد والعدْل ، وأرباب النظر ، ومنهم تعلّم الناس هذا الفن — تلامذتُه وأصحابه ؛ لأنّ كبيرَهم واصل بن عطاء تلميذُ أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفيّة[2] ، وأبو هاشم تلميذ أبيه ، وأبوه تلميذه عليه السلام . وأما الأشعرية فإنهم ينتمون إلى أبي الحسن عليّ بن [إسماعيل بن][3] أبي بشر الأشعريّ ، وهو تلميذ أبي عليّ الجُبّائيّ ، وأبو عليّ أحد مشايخ المعتزلة ؛ فالأشعرية ينتهون بأَخَرَةٍ إلى أستاذ المعتزلة ومعلّمهم ، وهو عليّ بن أبي طالب عليه السلام .

وأما الإمامية والزيدية فانتماؤهم إليه ظاهر .

* * *

(١) انظر أمالي المرتضى ١ : ١٤٨ وما بعدها ؛ في كلام للمؤلف عن سند المعتزلة إلى علي عليه السلام .
(٢) هو إمام الكيسانية ؛ وعنه انتقلت البيعة إلى بني العباس . تنقيح المقال ٢ : ٢١٢ .
(٣) من ابن خلكان ١ : ٣٢٦

ومن العلوم علم الفقه ، وهو عليه السلام أصله وأساسه ، وكلّ فقيه في الإسلام فهو عيال عليه ، ومستفيد من فقهه ؛ أما أصحابُ أبي حنيفة كأبي يوسف ومحمد وغيرهما فأخذوا عن أبي حنيفة ، وأما الشافعيّ فقرأ على محمد بن الحسن ، فيرجع فقهه أيضاً إلى أبي حنيفة ، وأما أحمد بن حنبل فقرأ على الشافعيّ ، فيرجع فقهه أيضاً إلى أبي حنيفة ؛ وأبو حنيفة قرأ على جعفر بن محمد عليه السلام ، وقرأ جعفر على أبيه عليه السلام ، وينتهي الأمر إلى عليّ عليه السلام . وأما مالك بن أنس فقرأ على ربيعة الرأي ، وقرأ ربيعة على عِكْرمة ، وقرأ عِكْرمة على عبدالله بن عباس ، وقرأ عبدالله بن عباس على عليّ بن أبي طالب[1] ؛ وإن شئت فرددت[2] إليه فقهَ الشافعيّ بقراءته على مالك كان لك ذلك ؛ فهؤلاء الفقهاء الأربعة .

وأما فقه الشيعة فرجوعه إليه ظاهر . وأيضاً فإنّ فقهاء الصحابة كانوا : عمر بن الخطاب وعبد الله بن عباس؛ وكلاهما أخذ عن عليّ عليه السلام . أما ابنُ عباس فظاهر ، وأمّا عمر فقد عَرَف كلّ أحدٍ رجوعَه إليه في كثير من المسائل التي أشكلت عليه وعلى غيره من الصحابة، وقولَه غير مرّة: «لولا عليٌّ لهلك عمر»، وقولَه: «لا بقيتُ لمعضلة ليس لها أبو الحسن»، وقوله: «لا يُفتيَنّ أحد في المسجد وعليّ حاضر»؛ فقد عُرِف بهذا الوجه أيضاً انتهاء الفقه إليه.

وقد روت العامة والخاصّة قوله صلى الله عليه وآله : « أقضاكم عليّ »[3]، والقضاء هو الفقه ؛ فهو إذاً أفقهُهم . وروى الكلّ أيضاً أنه عليه السلام قال له وقد بعثه إلى اليمن قاضياً: « اللهمّ اهدِ قلبه وثبّت لسانه » ، قال : فما شككتُ بعدها في قضاء بين اثنين[4] ،

---

(١) ب : « عن علي » . (٢) في الأصول : « رددت » .

(٣) نقله السيوطي في الجامع الصغير ١ : ٥٨ عن مسند أبي يعلى بلفظ : « أرأف أمتي بأمتي أبو بكر ، وأشدهم في دين الله عمر ، وأصدقهم حياء عثمان ، وأقضاهم علي ... » وضعفه .

(٤) رواه أبو داود في كتاب الأقضية ٣ : ٤٠٩ بسنده عن علي ، ولفظه : بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن قاضيا فقلت : يارسول الله ، ترسلني وأنا حديث السن ، ولا علم لي بالقضاء ! فقال : « إن الله سيهدي قلبك ويثبت لسانك ، فإذا جلس بين يديك الخصمان فلا تقضين حتى تسمع من الآخر كما سمعت من الأول ، فإنه أحرى أن يتبين لك القضاء » ، قال : فما زلت قاضيا — أو ماشككت في قضاء بعد .

وهو عليه السلام الّذى أفتى فى المرأة التى وضعت لستة أشهر ، وهو الذى أفتى فى الحامل الزانية[(١)] ؛ وهو الذى قال فى المِنْبَرِيَّة[(٢)] :صار ثُمُنُها تُسْعا . وهذه المسألة لو فكّر الفَرَضِيّ فيه فكراً طويلا لاستُحسن منه بعد طول النظر هذا الجواب ، فما ظنّك بمن قاله بديهة، واقتضبه ارتجالا !

ومن العلوم علم تفسير القرآن، وعنه أُخِذَ ، ومنه فُرِّع .وإذا رجعتَ إلى كتب التفسير علمتَ صحة ذلك ؛ لأنّ أكثره عنه وعن عبد الله بن عباس،وقد علم الناس حالَ ابن عباس فى ملازمته له ، وانقطاعه إليه،وأنّه تلميذُه وخرِّيجه .وقيل له:أين علمك من علم ابن عمّك ؟ فقال : كنِسْبة قطرة من المطر إلى البحر المحيط .

ومن العلوم علمُ الطريقة والحقيقة وأحوال التصوّف ؛ وقد عرفتَ أن أربابَ هذا الفنّ فى جميع بلاد الإسلام إليه ينتهون ، وعنده يقفون ؛ وقد صرّح بذلك الشِّبْلِيّ ، والجُنَيد ، وسَرِيّ[(٣)] ، وأبو يزيد البِسْطامىّ ، وأبو محفوظ معروف الكَرْخىّ ؛ وغيرهم . ويكفيك دلالة على ذلك الخِرْقة[(٤)] التى هى شعارهم إلى اليوم ، وكونهم يُسنِدونها بإسناد متّصل إليه عليه السلام .

---

(١) ذكر القرطبى فى تفسيره ١٦ : ١٩٣ ؛ عند الكلام على تفسير قوله تعالى : ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾ أن عثمان قد أتى بامرأة قد ولدت لستة أشهر ، فأراد أن يقضى عليها بالحد ، فقال له على رضى الله عنه : ليس ذلك عليها ، قال الله تعالى :﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾ .

(٢) سميت المنبرية ؛ لأنه سئل عنها وهو على المنبر ؛ فأفتى من غير روية ؛ وبيانها أنه سئل فى ابنتين وأبوين وامرأة ؛ فقال : صار ثمنها تسعا ، قال أبو عبيد : أراد أن السهام عالت حتى صار للمرأة التسع ، ولها فى الأصل الثمن ؛ وذلك أن الفريضة لو لم تعل كانت من أربعة وعشرين ، فلما عالت صارت من سبعة وعشرين ، فللابنتين الثلثان : ستة عشر سهما ، وللأبوين السدسان : ثمانية أسهم ، وللمرأة ثلاثة من سبعة وعشرين ؛ وهو التسع ، وكان لها قبل العول ثلاثة من أربعة وعشرين ؛ وهو الثمن . وانظر النهاية لابن الأثير ٣ : ١٣٩ ، واللسان ١٣ : ٥١٢ ، وحاشية البقرى على متن الرحبية ٣٤

(٣) هو سرى بن المغلس السقطى ؛ خال الجنيد وأستاذه ، وصاحب معروف الكرخى ؛ وأول من تكلم ببغداد فى لسان التوحيد وحقائق الأحوال . مات سنة ٢٥١ . (طبقات الصوفية للسلمى ص ٤٨)

(٤) فصل السهروردى فى الباب الثانى عشر من كتابه عوارف المعارف (٤ : ١٩١ وما بعدها — على هامش الإحياء) الكلام فى شرح خرقة المشايخ الصوفية ولبسها .

ومن العلوم علم النحو والعربية ؛ وقد علم الناس كافة أنّه هو الذى ابتدعه وأنشأه ، وأملى على أبى الأسود الدؤلىّ جوامعه وأصوله ، من جملتها : الكلام كلّه ثلاثة أشياء : اسم وفعل وحرف ، ومن جملتها تقسيم الكلمة إلى معرفة ونكرة، وتقسيم وجوه الإعراب إلى الرفع والنصب والجر والجزم [1] ، وهذا يكاد يُلحق بالمعجزات ؛ لأن القوة البشرية لا تفِى بهذا الحصر ، ولا تنهض بهذا الاستنباط .

وإن رجعت إلى الخصائص الخُلقيّة والفضائل النفسانية والدينية وجدتّه ابن جَلاها وطَلّاع ثناياها [2]

* * *

وأما الشجاعة فإنه أنسى الناسَ فيها ذِكر مَنْ كان قبله، ومحا اسمَ من يأتى بعده، ومقاماتُه فى الحرب مشهورة يُضرب بها الأمثال إلى يوم القيامة ؛ وهو الشجاع الذى مافرّ قطّ ، ولا ارتاع من كتيبة ، ولا بارز أحداً إلا قتله ؛ ولا ضرب ضربة قطّ فاحتاجت الأولى إلى ثانية؛ وفى الحديث : « كانَتْ ضَرَباتهُ وِتْراً » . ولما دعا معاويةَ إلى المبارزة ليستريح الناس من الحرب بقتل أحدهما ، قال له عمرو : لقد أنصفك ، فقال معاوية : ماغششتنى منذ نصحتنى إلا اليوم ، أتأمرنى بمبارزة أبى الحسن وأنت تعلم أنه الشجاع المطرِق! أراك طمعت فى إمارة الشام بعدى ! وكانت العرب تفتخر بوقوفها فى الحرب فى مقابلته ، فأما قتلاه فافتخارُ رهطِهم بأنّه عليه السلام قتلهم أظهرُ وأكثر ، قالت أخت عمرو ابن عبد وَدّ ترثيه :

لو كان قاتلُ عمرٍو غيرَ قاتِلِهِ ... بكيتُه أبداً مادُمْتُ فى الأبدِ [3]

---

(١) معجم الأدباء ١٤ : ٢ : ٤ — ٥٠ (٢) اقتباس من قول سحيم بن وثيل الرياحى :

أنا ابْنُ جَلا وَطَلّاعُ الثَّنايا ... مَتَى أضَعِ العِمامَةَ تعرفُونِى

وابن جلا ، أى الواضح الأمر ؛ وطلاع الثنايا : كناية عن السمو إلى معالى الأمور ، والثنايا فى الأصل : جمع ثنية ، وهى الطريق فى الجبل . وانظر اللسان ١٨ : ١٦٥

(٣) من أبيات ذكرها صاحب اللسان ٨ : ٣٩٥ ، وروايته :

لَوْ كانَ قاتِلُ عَمْرٍو غَيْرَ قاتِلِهِ ... بكيتُهُ ما أقامَ الرُّوحُ فى جَسَدِى

لـكِنَّ قاتِلَهُ مَنْ لا يُعابُ بِهِ ... وَكانَ يُدْعَى قديماً بيضة البَلَدِ

لكنّ قاتِلَهُ مَنْ لا نظــير له   وكان يُدْعَى أبوه بَيْضةَ البَلَدِ [1]

وانتبه يوماً معاوية ، فرأى عبد الله بن الزُّبير جالساً تحت رجليه على سريره فقعد ، فقال له عبد الله يداعبه: ياأميرَ المؤمنين، لوشئت أن أفتِكَ بك لفعلت ، فقال: لقد شَجُعْتَ بعدنا يا أبا بكر ! قال: وما الذي تنكره من شجاعتي وقد وقفتُ في الصفِّ إزاء عليّ بن أبي طالب ! قال : لا جَرَم ، إنّه قتلك وأباك بيسرى يديه ، وبقيتِ اليمنى فارغةً ، يطلب مَنْ يقتله بها .

وجملة الأمر أنّ كلَّ شجاع في الدنيا إليه ينتهي ، وباسمه ينادى في مشارق الأرض ومغاربها .

***

وأما القوّة والأيْد فبه يُضرب المثل فيهما؛ قال ابن قتيبة في " المعارف " : ماصارَعَ أحداً قطّ إلا صرَعه [2] . وهو الذي قلَع بابَ خَيْبَر ، واجتمع عليه عُصبة من الناس ليقلبوه فلم يقلبوه ؛ وهو الذي اقتلع هُبَلَ من أعلى الكعبة، وكان عظيماً جداً ، وألقاه [3] إلى الأرض. وهو الذي اقتلع الصخرة العظيمة في أيام خلافته عليه السلام بيده بعد عجز الجيش كله عنها، وأنبط [4] الماء من تحتها .

***

وأمّا السخاء والجود فحاله فيه ظاهرة؛ وكان يصوم ويَطْوِي ويُؤثر بزاده ؛ وفيه أنزل: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً ﴾ [5] . وروى المفسرون أنه لم يكن يملك إلا أربعة دراهم ؛ فتصدّق بدرهم ليلاً وبدرهم نهاراً ، وبدرهم سرًّا وبدرهم علانية ؛ فأنزل فيه : ﴿ ٱلَّذِينَ

---

(١) بيضة البلد ، يريد علي بن أبي طالب ، أي أنه فرد ليس مثله في الشرف كالبيضة التي هي تريكة وحدها ، ليس معها غيرها ، كذا فسره في اللسان .

(٢) المعارف ٢١٠ ، وبعدها : « شديد الوثب قوى الضرب » .

(٣) ب : « فألقاه » .   (٤) ب ج : « فأنبط » .

(٥) سورة الإنسان ٩ ، ١٠ .

يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ [١] .

وروى عنه أنه كان يَسقِي بيده لنخلِ قوم من يهود المدينة ، حتى مَجَلَت [٢] يده ، ويتصدق بالأجْرة ، ويشدُّ على بطنه حجَرا .

وقال الشعبيّ وقد ذكره عليه السلام : كان أسخَى الناس ؛ كان على الخُلُق الذى يحبّه الله : السخاء والجود ، ماقال : « لا » لسائل قطّ .

وقال عدوّه ومُبْغضه الذى يجتهد فى وَصْمه وعيبه معاوية بن أبى سفيان لِمحْفَن [٣] بن أبى محْفَن الضبيّ لما قال له : جئتك مِنْ عند أبخل الناس ، فقال : ويحك ! كيف تقول إنه أبخل الناس ، لو مَلَك بيتاً من تِبْر وبيتاً من تِبْن لأنفد تِبْره قبل تِبْنه .

وهو الذى كان يكنُس بيوت الأموال ويصلِّى فيها . وهو الذى قال : ياصفراء ، ويابيضاء ، غرّى غيرى ، وهو الذى لم يخلِّفْ ميراثاً ، وكانت الدنيا كلّها بيده إلّا ما كان من الشام .

***

وأما الحلم والصفح فكان أحلمَ الناس عن ذَنب ، وأصفحَهم عن مسىء ؛ وقد ظهر صحّة ماقلناه يومَ الجمل ؛ حيث ظفِر بمرْوان بن الحكم ـ وكان أعدَى الناس له ، وأشدّهم بغضاً ـ فصفح عنه .

وكان عبد الله بن الزّبير يشتِمه على رءوس الأشهاد ، وخطب يوم البصرة فقال : قد أتاكم الوَغْد [٤] اللئيم علىّ بن أبى طالب . وكان علىّ عليه السلام يقول : مازال الزبير

(١) سورة البقرة ٢٧٤ ، وللمفسرين فى هذه الآية أسباب أخرى للنزول ، ذكرها القرطبى فى التفسير ١٩ : ١٢٨ ، وانظر أيضا أسباب النزول للواحدى ٢٣١

(٢) مجلت يده ، أي ثخن جلده وتعجر وظهر فيه مايشبه البثر من العمل بالأشياء الصلبة الخشنة ، ومنه حديث فاطمة : أنها شكت إلى على مجل يديها من الطحن . النهاية لابن الأثير ٤ : ٨٠

(٣) أورده الذهبي فى المشتبه ص ٥٧٣ ، وقال : « وفد على معاوية » .

(٤) فى ب : « الوغب » ، وهما بمعنى .

رجلاً منّا أهلَ البيت حتى شبّ عبد الله ، فظفر به يوم الجمل ، فأخذه أسيراً ، فصفح عنه ، وقال : اذهب فلا أرينّك ؛ لم يزده على ذلك .

وظفِر بسعيد بن العاص بعد وقعة الجمل بمكّة ـ وكان له عدوًّا ـ فأعرض عنه ولم يقلْ له شيئاً .

وقد علمتَ ما كان من عائشة فى أمره ، فلما ظفِر بها أكرمها ، وبعث معها إلى المدينة عشرين امرأة من نساء عبد القيس عمَّمَهنّ بالعمائم وقلّدهنّ بالسيوف ، فلما كانت ببعض الطريق ذكرته بما لا يجوز أن يُذكَر به ، وتأفّفت وقالت : هتَك سترى برجاله وجنده الذين وكّلهم بى . فلما وصلت المدينة ألقى النساء عمائمهنّ ، وقلن لها : إنما نحن نسوة .

وحاربه أهل البصرة ، وضربُوا وجهه ووجوه أولاده بالسيوف ، وشتموه ولعنوه ، فلما ظفِر بهم رفع السيف عنهم ، ونادَى مناديه فى أقطار العسكر : ألَا لا يُتْبَع[1] مُولٍّ ، ولا يُجْهَزُ على جَرِيح ، ولا يُقتَل مستأسر ، ومَنْ ألقى سلاحه فهو آمن ، ومن تحيّز إلى عسكر الإمام فهو آمن . ولم يأخذ أثقالَهم ، ولا سبَى ذراريّهم ، ولا غنِم شيئاً من أموالهم ، ولو شاء أن يفعل كلّ ذلك لفعل ، ولكنه أبى إلا الصفح والعفو ؛ وتقيّل سنةَ رسول الله صلى الله عليه وآله يوم فتح مكة ، فإنه عفا والأحقاد لم تبرد ، والإساءة لم تُنْسَ .

ولما ملك عسكر معاوية عليه الماء ، وأحاطوا بشريعة الفرات ، وقالت رؤساء الشام له : اقتلهم بالعطش كما قتلوا عثمان عطشاً ، سألهم علىّ عليه السلام وأصحابه أن يشرعوا[2] لهم شِرْبَ الماء ، فقالوا : لا والله ، ولا قطرة حتى تموت ظمأ كما مات ابن عفان ؛ فلما رأى عليه السلام أنه الموتُ لامحالَة تقدّم بأصحابه ، وحمل على عساكر معاوية حَمَلاتٍ كثيفة ، حتى أزالهم عن مراكزهم بعد قتل ذَريع ؛ سقطت منه الرءوس والأيدى ، وملكوا عليهم

(١) ا : « لا يتبع مول » . (٢) كذا فى ا ، وفى ب : « يسوغوا » .

الماء ، وصار أصحاب معاوية فى الفَلاة ، لا ماء لهم ، فقال له أصحابه وشيعتُه : امنعهم الماء يا أمير المؤمنين كما منعوك ، ولا تَسقِهم منه قطرة ، واقتلهم بسيوف العطش ، وخذهم قبضاً بالأيدى فلا حاجة لك إلى الحرب ، فقال : لا والله لا أكافئهم بمثل فعلهم ، أفسِحوا لهم عن بعض الشَّريعة ، ففى حدّ السيف ما يغنى عن ذلك . فهذه إن نَسَبْتَها إلى الحلم والصفح فناهيك بها جمالا وحسنا ، وإن نسبتَها إلى الدين والورع فأخلِقْ بمثلها أن تصدر عن مثله عليه السلام !

* * *

وأما الجهاد فى سبيل الله فمعلوم عند صديقه وعدوّه أنه سيّد المجاهدين ؛ وهل الجهاد لأحد من الناس إلا له ! وقد عرفتَ أنّ أعظمَ غزاة غزاها رسول الله صلى الله عليه وآله وأشدّها نكاية فى المشركين بدر الكبرى ؛ قُتِل فيها سبعون من المشركين ، قَتَل علىّ نصفَهم ، وقَتَل المسلمون والملائكة النصف الآخر . وإذا رجعتَ إلى مغازى محمد بن عمر الواقدىّ وتاريخ الأشراف لأحمد بن يحيى بن جابر البلاذُرىّ وغيرهما علمت صحة ذلك ؛ دعْ مَن قتله فى غيرها كأُحُد والخندق وغيرهما ؛ وهذا الفصل لا معنى للإطناب فيه ؛ لأنه من المعلومات الضرورية ، كالعِلم بوجود مكّة ومصر ونحوهما .

* * *

وأمّا الفصاحةُ فهو عليه السلام إمام الفصحاء ، وسيد البلغاء ؛ وفى كلامه[1] قيل : دون كلام الخالق ، وفوق كلام المخلوقين . ومنه تعلّم الناس الخطابة والكتابة ، قال عبد الحميد بن يحيى : حفظتُ سبعين خطبة من خطب الأصلع ، ففاضت ثم فاضت . وقال ابن نُباتة[2] : حفظت من الخطابة كنزاً لا يزيده الإنفاق إلا سعة وكثرة ، حفظت مائة فصل من مواعظ علىّ بن أبى طالب .

ولما قال مِحفن بن أبى مِحفن لمعاوية : جئتك من عند أعيا الناس ، قال له : ويحك !

(١) ب : « وعن كلامه » . (٢) هو عبد الرحيم بن محمد بن محمد بن إسماعيل الفارق الجذامى.

كيف يكون أعيا الناس ! فو الله ما سنّ الفصاحة لقريش غيره . ويكفى هذا الكتاب الذى نحن شارحوه دلالة على أنه لايجارَى فى الفصاحة ، ولايبارَى فى البلاغة . وحسبك أنه لم يدوَّنْ لأحدٍ من فصحاء الصحابة العُشْر ولا نصف العُشْر مما دُوِّن له ، وكفاك فى هـذا الباب ما يقوله أبو عثمان الجاحظ فى مدحه فى كتاب " البيان والتبيين " وفى غيره من كتبه .

***

وأما سجاحة الأخلاق ، وبِشْر الوجه ، وطلاقة المحيّا والتبسم ، فهو المضروبُ به المثل فيه ؛ حتى عابه بذلك أعداؤه ؛ قال عمرو بن العاص لأهل الشام : إنه ذو دُعابة شديدة . وقال علىّ عليه السلام فى ذاك : عجباً لابن النابغة ! يزعم لأهل الشام أن فىّ دعابة ، وأنّى امرؤ تِلْعابة ، أعافس وأمارس[(١)] . وعمرو بن العاص إنما أخذها عن عمر ابن الخطاب لقوله له لما عزم على استخلافه : لله أبوك لولا دُعابة فيك ! إلا أنّ عمر اقتصر عليها ، وعمرو زاد فيها وسمّجها .

قال صعصعة بن صُوحان وغيره من شيعته وأصحابه : كان فينا كأحدنا ، لِين جانب ، وشدّة تواضع ، وسهولة قِياد ، وكنا نهابه مهابة الأسير المربوط للسّياف الواقف على رأسه .

وقال معاوية لقيس بن سعد : رحِم الله أبا حسن ؛ فلقد كان هشًّا بشًّا ، ذا فُكاهة . قال قيس : نعم ، كان رسول الله صلى الله عليه وآله يمزَحُ ويبتسم إلى أصحابه ، وأراك تُسِرّ حَسْواً فى ارتِغاء[(٢)] ، وتعيبه بذلك ! أمَا والله لقد كان مع تلك الفكاهة والطلاقة أهيبَ من ذى لِبْدتين قد مسّه الطَّوى ؛ تلك هيبة التقوى ، وليس كما يهابك طَغامُ أهل الشام .

(١) التلعابة ، بفتح التاء وكسرها : الكثير اللعب والمرح . والمعافسة : الملاعبة أيضا . والممارسة : ملاعبة النساء . والخبر أورده ابن الأثير فى النهاية ١ : ١١٧ ، و٣ : ٥٩ ، ١١٠ ، و٤ : ٥٩ ، ٨٩ .
(٢) فى المثل : « هو يسر حسوا فى ارتغاء » ، يضرب لمن يظهر أمرا وهو يريد غيره . اللسان ١٩ : ٤٦ .

وقد بقيَ هذا الخُلقُ متوارَثاً متناقَلا فى محبِّيه وأوليائه إلى الآن ، كما بقيَ الجفاء والخشونة والوعورة فى الجانب الآخر ، ومَنْ له أدنى معرفة بأخلاق الناس وعوائدهم يعرف ذلك .

***

وأمّا الزهد فى الدنيا فهو سيِّد الزهاد ، وبدَل الأبدال ، وإليه تشدُّ الرحال ، وعنده تُنفَضُ الأحلاس ؛ ما شبِعَ من طعام قطّ . وكان أخشنَ الناس مأكلا وملبساً ؛ قال عبد الله بن أبى رافع : دخلت إليه يوم عيد ، فقدّم جراباً مختوماً ، فوجدنا فيه خبزَ شعير يابساً مرضوضاً ، فقُدِّم فأكل ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، فكيف تختمه ؟ قال : خفت هذين الولدين أن يلُتّاه بسمن أو زيت .

وكان ثوبه مرقوعاً بجلد تارة وليف أخرى ، ونعلاه من ليف . وكان يلبَس الكِرْباسَ[1] الغليظ ، فإذا وجد كمّه طويلا قطعه بشَفرة ، ولم يخِطْه ، فكان لا يزال متساقطاً على ذراعيه حتى يبقى سَدًى لا لُحْمة له . وكان يأتدم إذا ائتدم بخلّ أو بملح ، فإن ترقّى عن ذلك فبعض نبات الأرض ، فإن ارتفع عن ذلك فبقليل من ألبان الإبل . ولا يأكل اللحم إلّا قليلا ، ويقول : لا تجعلوا بطونَكم مقابر الحيوان . وكان مع ذلك أشدَّ الناس قوّة وأعظمهم أيداً ، لا يُنقِض[2] الجوع قوّته ، ولا يَخُوِّن[3] الإقلالُ مُنّته . وهو الذى طلّق الدنيا ، وكانت الأموال تُجبى إليه من جميع بلاد الإسلام إلا من الشام ، فكان يفرّقها ويمزّقها ، ثم يقول :

هـــذا جَنَاىَ وخِيارُه فيه ... إذْ كُلّ جانٍ يدُه إلى فيه[4]

---

(١) الكرباس بالكسر : ثوب من القطن الأبيض ، معرب .

(٢) ب ، ج : « ينقص » .

(٣) يخون : ينقص ، وفى ب : « يخور » ، وماأثبته عن ا ، ج .

(٤) البيت أنشده عمرو بن عدى حينما كان غلاما ، وكان يخرج مع الخدم يجتنون للملك (جذيمة الأبرش) الكمأة ، فكانوا إذا وجدوا كمأة خيارا أكلوها وأتوا بالباقى إلى الملك ، وكان عمرو لا يأكل منه ، ويأتى به كما هو ، وينشد البيت . وانظر القاموس ٣ : ٢٥٩ — ٢٦٠ ، وحديث على ورد مفصلا فى حلية الأولياء ١ : ٨١ .

وأمّا العبادة فكان أعبدَ الناس وأكثرَهم صلاة وصوماً ؛ ومنه تعلّم الناس صلاة الليل ، وملازمة الأوراد وقيام النافلة ؛ وما ظنّك برجل يبلغ من محافظته على وِرده أن يُبْسَطُ له نِطَعٌ بين الصفّين ليلة الهرير ، فيصلى عليه وِرْدَه ، والسهام تقع بين يديه وتمرّ على صِماخيه يميناً وشمالا ، فلا يرتاع لذلك ، ولا يقوم حتى يفرُغ من وظيفته ! وما ظنك برجل كانت جبهته كثَفِنة البعير لطول سجوده !

وأنت إذا تأمّلت دعواتِه ومناجاتِه ، ووقفتَ على ما فيها من تعظيم الله سبحانه وإجلاله ، وما يتضمّنه من الخضوع لهيبته ، والخشوع لعزّته والاستخذاء له ، عرفتَ ماينطوِى عليه من الإخلاص ، وفهمت من أىّ قلبٍ خرجتْ ، وعلى أىّ لسان جرت!

وقيل لعلىّ بن الحسين عليه السلام ــ وكان الغايةَ فى العبادة : أين عبادتك من عبادة جَدّك ؟ قال : عبادتى عند عبادة جدّى كعبادة جدّى عند عبادة رسول الله صلى الله عليه وآله .

* * *

وأمّا قراءته القرآن واشتغاله به فهو المنظور إليه فى هذا الباب ؛ اتفق الكلّ على أنه كان يحفظ القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله ، ولم يكن غيره يحفظه ، ثم هو أوّلُ مَنْ جَمعه ؛ نقلوا كلّهم أنّه تأخّر عن بيعة أبى بكر ، فأهل الحديث لا يقولون ما تقوله الشيعة من أنه تأخر مخالفة للبيعة ؛ بل يقولون : تشاغل بجمع القرآن ؛ فهذا يدلّ على أنه أوّلُ مَن جمع القرآن ؛ لأنه لو كان مجموعاً فى حياة رسول الله صلى الله عليه وآله لما احتاجَ إلى أن يتشاغل[1] بجمعه بعد وفاته صلى الله عليه وآله . وإذا رجعتَ إلى كتب القراءات وجدت أئمة القراء كلهم يرجعون إليه ؛ كأبى عمرو بن العلاء وعاصم ابن أبى النَّجود وغيرهما ؛ لأنهم يرجعون إلى أبى عبد الرحمن السُّلَمِىّ القارئ ،

(١) ب : « تشاغل » .

وأبو عبد الرحمن كان تلميذه ، وعنه أخذ القرآن ؛ فقد صار هذا الفنّ من الفنون التى تنتهى إليه أيضاً ، مثل كثير مما سبق .

***

وأمّا الرأىُ والتدبير فكان من أسَدّ الناس رأياً ، وأصحِّهم تدبيراً ؛ وهو الذى أشار على عمر بن الخطاب لما عزم على أنْ يتوجّه بنفسه إلى حرب الروم والفرس بما أشار . وهو الذى أشار على عثمان بأمور كان صلاحه فيها ، ولو قبلها لم يحدُث عليه ما حدث . وإنّما قال أعداؤه : لا رأيَ له ؛ لأنه كان متقيِّداً بالشريعة لا يرى خلافَها ، ولا يعمل بما يقتضى الدِّينُ تحريمه . وقد قال عليه السلام : لولا الدينُ والتّقى لكنتُ أدهى العرب . وغيره من الخلفاء كان يعمل بمقتضى مايستصلِحُه ويستوفقه ؛ سواء أكان مطابقاً للشرع أم لم يكن ؛ ولا ريب أنّ مَنْ يعمل بما يؤدّى إليه اجتهاده ، ولا يقف مع ضوابط وقيود يمتنع لأجلها مما يرى الصلاح فيه ، تكون أحواله الدنيوية إلى الانتظام أقرب ، ومَن كان بخلاف ذلك تكون أحواله الدنيوية إلى الانتثار أقرب .

***

وأما السياسةُ فإنه كان شديدَ السياسة ، خشِناً فى ذات الله ، لم يراقب ابنَ عمّه فى عمل كان ولّاه إياه ، ولا راقب أخاه عَقيلا فى كلام جبَهه به . وأحرق قوماً بالنار، ونقض دار مَصْقَلة بن هُبَيرة ودار جرير بن عبد الله البَجَلىّ ، وقطع جماعةً وصلب آخرين .

ومن جملة سياسته فى حروبه أيام خلافته بالجمل وصِفّين والنهروان ، وفى أقلّ القليل منها مقْنَع ، فإنّ كلّ سائس فى الدنيا لم يبلغ فتكه وبطشه وانتقامه مبلغ العشر مِمّا فعل عليه السلام فى هذه الحروب بيده وأعوانه .

فهذه هى خصائص البَشَر ومزاياهم قد أوضحنا أنه فيها الإمام المتبع فعلُه، والرئيس المقتفىَ أثره .

***

وما أقول فى رجلٍ تحبّه أهلُ الذّمة على تكذيبهم بالنبوّة ، وتعظمه الفلاسفة على معاندتهم لأهل الملّة ، وتصوِّرُ ملوك الفرنج والروم صورتَه فى بِيَعها وبيوت عباداتها ،

حاملا سيفَه ، مشمّراً لحربه ، وتصوَّر ملوكُ الترك والدَّيلم صورته على أسيافها ؛ كان على سيفِ عَضُد الدولة بن بُوَيْه وسيف أبيه ركن الدولة صورتُه ، وكان على سيف إلب أرسلان وابنه مَلِكشاه صورته ، كأنهم يتفاءلون به النصر والظفر .

وما أقولُ فى رجل أحبّ كلٌّ واحدٍ أن يتكثّر به ، ووَدّ كلٌّ أحدٍ أن يتجمّل ويتحسّن بالانتساب إليه ؛ حتى الفتوّة التى أحسن ماقيل فى حدّها ألّا تستحسنَ من نفسك ماتستقبحه من غيرك ، فإنّ أربابها نسبوا أنفسهم إليه ، وصنّفوا فى ذلك كتبا ، وجعلوا لذلك إسنادا أنهوْه إليه ، وقصَروه عليه ، وسمَّوْه سيّدَ الفتيان ، وعضدوا مذهبهم إليه بالبيت المشهور المروىّ ، أنه سُمِع من السماء يوم أُحُد :

لا سيفَ إلا ذو الفَقا ... رِ ولا فَتَى إلا على

وما أقول فى رجل أبوه أبو طالب سيّد البطحاء ، وشيخ قريش ، ورئيس مكة ، قالوا : قلّ أنْ يسوّد فقير وساد أبو طالب وهو فقير لا مال له ، وكانت قريش تسميه الشيخ .

وفى حديث عفيف الكِنْدىّ ؛ لما رأى[1] النبىّ صلى الله عليه وآله يصلّى فى مبدأ الدعوة ، ومعه غلام وامرأة ، قال : فقلت للعباس : أىّ شىء هذا ؟ قال : هذا ابن أخى ، يزعم أنّه رسولٌ من الله إلى الناس ، ولم يتبعه على قوله إلا هذا الغلام ــ وهو ابن أخى أيضاً ــ وهذه الامرأة ، وهى زوجته ــ قال : فقلتُ : ماالذى تقولونه أنتم ؟ قال : ننتظر مايفعل الشيخ ــ يعنى أباطالب . وأبو طالب هو الذى كَفَل رسولَ الله صلى الله عليه وآله صغيراً ، وحماه وحاطه كبيراً ، ومنعه من مشركى قريش ، ولقِىَ لأجله عَنَتاً عظيما ، وقاسى بلاء شديدا ، وصبرَ على نصره والقيام بأمره . وجاء فى الخبر أنّه لما توفّىَ أبو طالب أوحِى إليه عليه السلام وقيل له : اخرج منها ، فقد مات ناصرك .

وله مع شرف هذه الأبوّة : أنّ ابن عمه محمد سيدُ الأولين والآخرين وأخاه جعفر ذو الجناحين ، الذى قال له رسول صلى الله عليه وآله : «أشبهتَ خَلْقى وخُلُقى » ، فمرّ يحجل

---

(١) الخبر فى أسد الغابة ٣ : ٤١٤ مع اختلاف فى الرواية .

فرحاً ؛ وزوجته سيدة نساء العالمين ، وابنيه سيّدا شباب أهل الجنة ؛ فآباؤه آباء رسول الله ، وأمهاته أمهات رسول الله ، وهو مسوط بلحمه ودمه ، لم يفارقه منذ خلق الله آدم ، إلى أن مات عبدالمطلب بين الأخوين عبد الله وأبي طالب ؛ وأمّهما واحدة ، فكان منهما سيّدا الناس ؛ هذا الأول وهذا التالي ، وهذا المنذر وهذا الهادي !

وما أقول في رجل سَبَق الناس إلى الهدى ، وآمن بالله وعبدَه وكلّ من في الأرض يعبد الحجر ، ويجحد الخالق ؛ لم يسبِقْه أحد إلى التوحيد إلا السابق إلى كلّ خير محمد رسول الله صلى الله عليه وآله .

ذهب أكثر أهل الحديث إلى أنه عليه السلام أوّل الناس اتباعا لرسول الله صلى الله عليه وآله إيماناً به ، ولم يخالف في ذلك إلا الأقلّون . وقد قال هو عليه السلام : أنا الصدّيق الأكبر ؛ وأنا الفاروق الأول ، أسلمت قبل إسلام الناس ، وصلّيت قبل صلاتهم . ومن وقف على كتب أصحاب الحديث تحقّق ذلك وعلمه واضحاً . وإليه ذهب الواقديّ وابن جرير الطبريّ ، وهو القول الذي رجحه ونصره صاحب كتاب " الاستيعاب " [(١)]

ولأنّا إنما نذكر في مقدمة هذا الكتاب جملةً من فضائله عَنَّت بالعَرَض لا بالقصد؛ وجب أن نختصر ونقتصر ، فلو أردنا شرحَ مناقبه وخصائصه لاحتجْنا إلى كتاب مفرد يماثل حَجْم هذا بل يزيد عليه ، وبالله التوفيق [(٢)] .

---

(١) الاستيعاب لابن عبد البر النمرى القرطبي ٢ : ٤٥٧ .

(٢) وانظر ترجمته وأخباره أيضا في أسد الغابة ٤ : ١٦ـ٤٠ ، والاستيعاب ٣ : ١٠٨٩ـ١١٣٣ والإصابة ٤ : ٢٦٩ ـ ٢٧١ ، وإنباه الرواة ١ : ١٠ ـ ١٢ ، وتاريخ الإسلام للذهبي ٢ : ١٩١ ـ ٢٠٧ ، وتاريخ بغداد ١ : ١٣٣ ـ ١٣٨ ، وتاريخ أبي الفدا ١ : ١٨١ ـ ١٨٢ ، وتاريخ الطبرى ٦ : ٨٨ ـ ٩١ ، وتاريخ ابن كثير ٧ : ٣٢٢ ـ ٣٦١ ، و ٨ : ١ ـ ١٣ ، وتذكرة الحفاظ ١ : ١٠ ـ ١٣ ، وتهذيب الأسماء واللغات ١ : ٣٤٤ ـ ٣٤٩ ، وتهذيب التهذيب ٧ : ٣٣٤ ـ ٣٣٩ ، وحلية الأولياء ١ : ٦١ ـ ٨٧ ، والرياض النضرة ٢ : ١٥٣ ـ ٢٤٩ ، وشذرات الذهب ١ : ٤٩ـ٥١ ، وصفوة الصفوة ٣ : ١١٩ ـ ١٤٤ ، وطبقات ابن سعد ٢ : ٣٣٧ / ٣ : ١٩ / ٦ : ١٢ ، وطبقات القراء لابن الجزرى ١ : ٥٤٦ ـ ٥٤٧ ، ومروج الذهب ٢ : ٤٥ ـ ٥٠ ، والمعارف ٢٠٣ ـ ٢١٨ ، ومعجم الأدباء ١٤ : ٤١ ـ ٥٠ ، ومعجم الشعراء ٢٧٩ ـ ٢٨٠ ، ومقاتل الطالبين ٢٤ ـ ٤٥ ، والنجوم الزاهرة ١ : ١١٩ ـ ١٢٠ .

القول فى نسب الرضى أبى الحسن رحمه الله
وذكر طرف من خصائصه ومناقبه

هو أبو الحسن محمد بن أبى أحمد الحسين بن موسى بن محمد بن موسى بن إبراهيم ابن موسى بن جعفر الصادق عليه السلام . مولده سنة تسع وخمسين وثلثمائة .

وكان أبوه النقيب أبو أحمد جليلَ القدر ، عظيم المنزلة فى دولة بنى العباس ودولة بنى بُوَيْه، ولُقّب بالطاهر ذى المناقب، وخاطبه بهاء الدولة أبو نصر بن بويه بالطّاهر الأوحد، وولىَ نقابة الطالبيّين خمس دفعات، ومات وهو متقلّدها بعد أن حالفته الامراض، وذهب بصره ، وتوفّىَ عن سبع وتسعين سنة ، فإن مولده كان فى سنة أربع وثلثمائة ، وتوفّىَ سنة أربعمائة . وقد ذكر ابنه الرضىّ أبو الحسن كمّيّة عمره فى قصيدته التى رثاه بها ، وأولها :

وَسَمَتْكَ حاليـــةُ الربيعِ المُرْهِمِ ... وسقتْكَ ساقيةُ الغَمَامِ المُرْزِمِ (١)

سَبْعٌ وتسعون اهتبلْنَ لكَ العِـــدَا ... حتى مَضَوْا وغبرتَ غَــيرَ مذمَّمِ

لم يلحقوا فِيهاَ بشأوِكَ بَعْـــدَ مَا ... أمَلُوا فعاقهمُ اعتراضُ الأزْلَمِ (٢)

إلا بقايا من غُبَـــارِكَ أصْبَحتْ ... غُصَصاً وأقذاءً لعينٍ أو فَمِ

إن يَتبعوا عَقِبَيْكَ فى طلب العلا ... فالذئب يَعْسِلُ فى طريق الضَّيْغَمِ (٣)

ودفن النقيب أبو أحمد أولا فى داره ، ثم نقل منها إلى مشهد الحسين عليه السلام .

وهو الذى كان السفيرَ بين الخلفاء وبين الملوك من بنى بُوَيْه والأمراء من بنى حمْدان وغيرهم . وكان مباركَ الغرّة ميمونَ النقيبة ، مَهيباً نبيلا ؛ ماشرع فى إصلاح أمر فاسد

---

(١) ديوانه ، لوحة ١٥٣ .

(٢) الأزلم : الدهر .

(٣) عسل الذئب : مضى مسرعا واضطرب فى عدوه .

إلا وصَلَح على يديه ، وانتظم بحسن سفارته ، وبركة هِمّته ، وحسنِ تدبيره ووساطته . ولاستعظامِ عَضُد الدولة أمرَه ، وامتلاء صدرِه وعينه به حين قدم العراق ما[1] قبض عليه وحَمَله إلى القلعة بفارس ؛ فلم يزل بها إلى أن مات عضد الدولة ، فأطلقه شرفُ الدولة أبو الفوارس شيرذيل بن عضد الدولة ، واستصحبه فى جملته حيث قدم إلى بغداد ، وملك الحضْرة . ولما توفِّىَ عضد الدولة ببغداد كان عمرُ الرضىّ أبى الحسن أربع عشرة سنة ، فكتب إلى أبيه وهو معتقَل بالقلعة بشِيراز :

أبْلغَا عَنِّىَ الحسينَ أَلُوكاً ... أنّ ذا الطود بَعْدَ عَهدِكَ ساخا [2]
والشِّهابَ الّذى اصطليتَ لظاه ... عَكَستْ ضوءهُ الخطوبُ فباخَا [3]
والفَنِيقَ الّذِى تَدَرّع طولَ الأ ... رضِ خوّى به الرّدَى وأناخَا [4]
إن يَرِدْ موردَ القذى وهو راضٍ ... فبما يكرع الزلال النُّقاخا [5]
والعُقابُ الشّغواء أهبطها النِّيقُ ... وقد أرْعَبَ النجوم صِياخا [6]
أعجلتْها المنونُ عنّا ولكن ... خلّفَت فى ديارنا أفراخا
وعلى ذاك فالزمانُ بهِمْ عا ... دَ غُلاماً من بعد ما كان شاخا

وأمّ الرضىّ أبى الحسن فاطمة بنت الحسين [بن أحمد][7] بن الحسن الناصر الأصمّ ، صاحب الدَّيْلم ، وهو أبو محمد الحسن بن علىّ بن الحسن بن علىّ بن عمر بن علىّ ابن أبى طالب عليهم السلام . شيخ الطالبيّين وعالمهم وزاهدهم ، وأديبهم وشاعرهم ؛

---

(١) ما هنا مصدرية .
(٢) لوحة ١٨٢ ، والألوك : الرسالة .
(٣) باخ : سكن وفتر .
(٤) الفنيق فى الأصل : الفحل المكرم لا يؤذى لكرامته على أهله ولا يركب .
(٥) النقاخ : البارد العذب الصافى .
(٦) الشغواء من وصف العقاب ؛ قيل لها ذلك لفضل فى منقارها الأعلى على الأسفل . والنيق : حرف من حروف الجبل .
(٧) تكملة من ا ، ج .

ملك بلادَ الديْلم والجَبل ، ويلقّب بالناصر للحقّ ، جرتْ له حروب عظيمة مع السامانيّة ، وتوفِّيَ بطَبَرِستان سنة أربع وثلاثمائة ، وسنُّه تسع وسبعون سنة . وانتصب فى منصبه الحسن ابن القاسم بن الحسين الحسَنيّ ؛ ويلقّب بالداعى إلى الحق .

وهى أمّ أخيه أبى القاسم علىّ المرتضى أيضاً .

وحفظ الرضيّ رحمه الله القرآن بعد أن جاوز ثلاثين سنة فى مدّة يسيرة ، وعَرَف من الفقه والفرائض طرَفاً قويّاً . وكان رحمه الله عالما أديباً ، وشاعراً مُفْلِقاً ، فصيحَ النظم ضخم الألفاظ ، قادراً على القريض ، متصرّفاً فى فنونه ؛ إنْ قَصَد الرِّقّةَ فى النسيب أتى بالمعجَب المُعجاب ، وإن أراد الفخامة وجزالة الألفاظ فى المدح وغيره[1] أتى بما لا يُشَقّ فيه غباره ، وإن قصَدَ فى المراثى جاء سابقاً والشعراء منقطعٌ أنفاسها على أثره . وكان مع هذا مترسِّلا ذا كتابة قوية . وكان عفيفاً شريف النفس ، عالىَ الهمّة ، ملتزما[2] بالدّين وقوانينه ، ولم يقبل من أحدٍ صِلة ولا جائزة، حتى إنّه ردّ صِلات أبيه ؛ وناهيك بذلك شرفَ نفسٍ ، وشدّةَ ظَلَف[3] . فأمّا بنو بُوَيه فإنهم اجتهدوا على قبوله صِلاتهم فلم يَقْبَل .

وكان يرضى بالإكرام وصيانة الجانب وإعزاز الأتباع والأصحاب . وكان الطائع[4] أكثرَ ميلا إليه من القادر[5] ؛ وكان هو أشدّ حبّاً وأكثر ولاء للطائع منه للقادر ؛ وهو القائل للقادر فى قصيدته التى مدحه بها ، منها :

---

(١) ساقطة من ا

(٢) ب ، ج : « مستلزما » وما أثبته عن ا

(٣) الظلف ، من ظلف نفسه عن الشىء يظلفها ظلفاً : منعها مما إليه تميل .

(٤) هو أبو بكر عبد الكريم الطائع لأمر الله ؛ بويع الخلافة له سنة ٣٦٣ ؛ ثم خلع ، وقبض عليه الديلم سنة ٣٨١ ، وبويع لأخيه القادر ؛ لحمل إليه الطائع، وبقى عنده إلى أن توفى سنة ٣٩٣ . الفخرى : ٢٥٤ ، وابن الأثير حوادث ٣٨١ .

(٥) هو أبو العباس أحمد بن إسحاق بن المقتدر ، المعروف بالقادر ؛ بويع له بالخلافة بعد خلع أخيه ؛ وتوفى سنة ٤٢٢ . الفخرى ٢٥٤ .

عَطفاً أميرَ المؤمنين فإنّنا ... في دَوْحَةِ العَلياءِ لا نتفرّقُ[1]

مابيننا يوم الفَخارِ تفاوتٌ ... أبداً كِلانا في المعالي مُعْرِقُ

إلا الخلافةَ شرّفتك فإنّني[2] ... أنا عاطِلٌ منها وأنتَ مطوّقُ

فيقال : إنّ القادر قال له : على رغم أنفِ الشريف !

وذكر الشيخ أبو الفرج بن الجوزيّ في التاريخ في وفاة الشيخ أبي إسحاق إبراهيم ابن أحمد بن محمد الطبريّ الفقيه المالكيّ ، قال : كان شيخَ الشهود المعدّلين ببغداد ومتقدّمَهم ، وسمع الحديثَ الكثير ، وكان كريماً مُفضِلاً على أهل العلم ، قال : وعليه قرأ الشريف الرضيّ رحمه الله القرآن وهو شاب حَدَث [السنّ][3] ، فقال له يوماً : أيّها الشريف ، أين مقامك؟ قال : في دار أبي بباب مُحوّل[4] ، فقال : مثلك لا يُقيم بدار أبيه ، قد نَحلتُك داري بالكرخ ، المعروفة بدار البركة . فامتنع الرضيّ من قبولها وقال له : لم أقبلْ من أبي قطّ شيئاً ، فقال : إن حقّي عليك أعظمُ من حقّ أبيك عليك ؛ لأني حفّظتك كتاب الله تعالى . فقبِلها[5] .

وكان الرضيّ لعلو همّته تنازعُه نفسُه[6] إلى أمورٍ عظيمة يجيش بها خاطره ، وينظِمُها في شعره ، ولا يجد من الدهر[7] عليها مساعدة ، فيذوب كمداً ، ويفنى وجدًا ، حتى توفّيَ ولم يبلغ غرَضاً .

فمن ذلك قوله :

ما أنا للعَلياءِ إنْ لم يَكُنْ ... مِنْ وَلَدِي ما كان من وَالِدِي[8]

وَلا مَشَتْ بِي الخيلُ إنْ لم أطأْ ... سريرَ هذا الأصيدِ الماجدِ[9]

---

(١) ديوانه ، لوحة ٤٠ . (٢) الديوان : « ميزتك وإنني » .

(٣) تكملة من ا

(٤) باب محول ، بضم الميم وفتح الحاء وتشديد الواو ولام : محلة كبيرة من محال بغداد ؛ كانت متصلة بالكرخ .

(٥) المنتظم (حوادث سنة ٣٩٣) . (٦) ا : « في » ، وما أثبته عن ب .

(٧) ا : « في الدهر » ؛ وما أثبته عن ب . (٨) ديوانه ، لوحة ٨٩ .

(٩) ديوانه : « الأغلب الماجد » .

ومنه قوله :

مَتَى تَرانِي مُشِيحاً فى أوائِلِهِمْ   يَطْفُو بِىَ النَّقْعُ أحْياناً ويُخْفِينى (١)

[لَتَنظُرَنِّى مُشِيحاً فى أوائلها   يغيب بى النقع أحياناً ويُبْدِينى] (٢)

لا تعرفونىَ إلا بالطِّعان وقَدْ   أضحى لِثَامِى مَعْصُوباً بِعِرْنِينى (٣)

ومنه قوله يعنى نفسه :

فواعَجَبا مِمَّا يَظُنُّ محمدٌ   ولَلظَّنُّ فى بعض المواطن غَدَّار (٤)

يؤمّل أنّ المُلْكَ طوعُ يمينه (٥)   ومِنْ دون ما يرجو المقدِّرُ أقدار

لئن هو أعْفَى للخلافة لِمَّةً   لها طُرَرٌ فوق الجبين وأطرارُ

ورام العلا بالشِّعرِ والشِّعر دائباً   ففى الناس شُعْرٌ خاملون وشُعَّارُ (٦)

وإنى أرى زنداً تواتر قَدْحُه   ويُوشِكُ يوماً أنْ تكونَ له نارُ

ومنه قوله (٧)

لا هَمَّ قلبى بِرُكُوبِ العُلا   يوْماً ولا بُلَّتْ يَدِى بالسَّماح (٨)

---

(١) ديوانه ص ٥٢٢ — (مطبعة نخبة الأخبار) ، من قصيدة يذكر فيها القبض على الطائع لله ، ويصف خروجه من الدار سليما ، وأنه حين أحس بالأمر بادر ونزل دجلة ، وتلوم من تلوم من القضاة والأشراف والشهود ، فامتهنوا وأخذت ثيابهم . ومطلعها :

لَوَاعِجُ الشَّوْقِ تُخْطِيهِم وتُصْمِينِي   وَاللَّوْمُ فِي الحُبِّ يَنْهَاهُمْ وَيُغْرِينِي

وَلَوْ لَقُوا بَعْضَ ما أَلْقَى نَعِمْتُ بِهِمْ   لَكِنَّهُمْ سَلِمُوا مِمَّا يُعَنِّينِي

(٢) هذا البيت لم يذكر فى الأصول ؛ وهو فى المطبوعة المصرية والديوان .

(٣) الديوان : « إذا » .

(٤) ديوانه ، لوحة ٢١٤ ؛ وروايته : « غرار » ، وفى ا : « بعض المواضع » .

(٥) الديوان : « يقدر أن الملك » .   (٦) شعر : جمع أشعر ، وهو كثير الشعر طويله .

(٧) ديوانه ، لوحة ٨٤ ، من قصيدة أولها :

نَبَّهْتُهُمْ مِثْلَ عَوَالِي الرِّمَاحْ   إلَى الوَغَى قَبْلَ نُجُومِ الصَّبَاحْ

فَوَارِسٌ نَالُوا المُنَى بِالقَنَا   وَصَافَحُوا أَغْرَاضَهُمْ بِالصِّفَاحْ

(٨) الديوان : « ولا بل يدى » .

إنْ لم أنلهـــا باشتراطٍ كما ... شئتُ على بيضِ الظُّبى وَاقْتِراح (١)

أفوزُ مِنهـــا بالَّلبابِ الَّذِي ... يُنْهِي الأماني نَيْلُه والصُّراحْ

فَمَا الَّذِي يقْعدُنِي عَنْ مَدًى ... ماهو بالبَسْلِ ولا بالَّلقـــاحْ

يَطْمَحُ من لاَ مَجْدَ يَسْمُو بِهِ ... إنِّي إذاً أعْذَرُ عندَ الطِّماحْ

أمَّا فتًى نالَ الْمُنى فاشتفى ... أو بطلٌ ذاقَ الرَّدى فاستراحْ !

وفى هذه القصيدة ماهو أخْشَنُ مسًّا ، وأعظم نِكاية ؛ ولكنَّا عدلنا عنه وتخطَّيناه، كراهية لذ كْره . وفى شعره الكثير الواسع من هذا النَّمط .

* * *

وكان أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الصابى (٢) الكاتب له صديقاً ، وبينهما لُحمة الأدب ووشائجه ، ومراسلات (٣) ومكاتبات بالشعر ، فكتب الصابى إلى الرضىّ في هذا النَّمط :

أبا حَسَنٍ لى فى الرِّجالِ فِراسةٌ ... تَعوَّدْتُ مِنْهَا أن تقولَ فتصدُقَا (٤)

وَقَدْ خبَّرتْنِى عَنكَ أنَّكَ ماجدٌ ... سَتَرْقَى إلى العلياء أبْعَدَ مُرْتَقَى (٥)

فوفَّيتُكَ التعظيمَ قَبْلَ أوانِه ... وقلتُ : أطال اللهُ لِلسَّيد البَقـــا

(١) الظبى : جمع ظبة ؛ وهو حد السيف .

(٢) هو أبو إسحاق الصابى ، صاحب الرسائل المشهورة ، كان كاتب الإنشاء ببغداد عن الخليفة ، وعن عز الدولة بختيار بن معز الدولة بن بويه الديلمي ؛ وكان صابئيا متشددا فى دينه ، وجهد عليه عز الدولة أن يسلم فلم يفعل ؛ ولكنه كان يصوم شهر رمضان مع المسلمين ، ويحفظ القرآن الكريم أحسن حفظ ، ويستعمله فى رسائله ؛ ولما مات رثاه الشريف بقصيدته الدالية المشهورة :

أرأيتَ مَنْ حَمَلُوا عَلَى الأعْوادِ ... أرأيتَ كيفَ خبا ضِياءُ النَّادِى

وعاتبه الناس فى ذلك لكونه شريفا يرثى صابئا ؛ فقال : إنما رثيت فضله . توفى سنة ٣٨٤ . (ابن خلكان ١ : ١٢) .

(٣) ب : « وبينهما مراسلات » .

(٤) ديوان الرضى ، لوحة ١٩٤ .

(٥) الديوان : « من العلياء » .

وأضمرْتُ منه لفظة لم أبُحْ بهـــا   إلى أن أرى إظهارهـــا ليَ مُطلَقا
فإن مِتّ أو إن عشتُ فاذكر بِشارتي   وأوجِبْ بهـــا حَقًّا عليكَ مُحَقَّقا
وكن لىَ فى الأولاد والأهلِ حافظاً   إذا ما اطمأنّ الجنبُ فى مَضجَعِ البَقا

فكتب إليه الرضىّ جوابا عن ذلك قصيدةً ، أولها :

سَنَنْتَ لهـــذا الرُّمح غَرْبًا مُذَلَّقا   وأجْرَيْتَ فى ذَا الهُنْدُوانىّ رَوْنَقا (١)
وَسوَّمْتَ ذا الطِّرفَ الجوادَ وإنّما (٢)   شَرَعْتَ لَهُ نَهْجاً فَخَبَّ وَأعْنَقـــا

وهى قصيدة طويلة ثابتة فى ديوانه ، يَعِدُ فيها نفسه ، ويَعِدُ الصابئَ أيضاً ببلوغ آماله ، إن ساعد الدهرُ وتمّ المرلم . وهذه الأبياتُ أنكرها الصابى لما شاعتْ ، وقال: إنى عملتها فى أبى الحسن علىّ بن عبدالعزيز بن حاجب النعمان ، كاتب الطائع؛ وما كانَ الأمرُ كما ادّعاه؛ ولكنه خاف على نفسه .

* * *

وذكر أبو الحسن الصابى (٣) وابنهُ غرس النعمة محمد فى تاريخهما أنّ القادر بالله عقد مجلسا أحضر فيه الطاهر أبا أحمد الموسوىّ وابنه أبا القاسم المرتضى وجماعة من القضاة والشهود والفقهاء ، وأبرز إليهم أبيات الرضىّ أبى الحسن التى أولها :

مَامُقامِى عَلَى الهَوَانِ وَعِنْدِى   مِقْوَلٌ صَارِمٌ وأنْفٌ حَمِيُّ (٤)
وإباءٌ مُحَلِّقٌ بى عَنِ الضَّيْـــمِ   كما زَاغَ طَائِرٌ وَحْشِىُّ
أىُّ عُـــذْرٍ له إلى المجد إن ذلّ غلامٌ فى غِمْـــدِهِ المَشْرَفِىُّ

---

(١) ديوانه ، لوحة ١٩٤ .   (٢) الطرف : الفرس الأصيل .

(٣) هو هلال بن المحسن بن إبراهيم الصابى ، حفيد أبى إسحاق الصابى . ذكر صاحب كشف الظنون ٢٩٠ أن ثابت بن قرة الصابى كتب تاريخاً من سنة ١٩٠ إلى سنة ٣٦٣ ؛ وذيله ابن أخته هلال ابن محسن الصابى ، وانتهى إلى سنة ٤٤٧ ، وذيله ولده غرس النعمة محمد بن هلال ، ولم يتم .

(٤) ديوانه ٥٤٦ (مطبعة نخبة الأخبار) .

أَحمِلُ الضَّيمَ فى بلادِ الأعادى(١) وبمصرَ الخليفــــةُ العَلَوِىُّ
مَنْ أبوه أبى ومولاه مولا ىَ إذا ضامنِى البعيــدُ القَصِىُّ
لَفَّ عِرْقِى بِعِرْقِهِ سيِّــدا النَّا سِ جميعاً : محمــدٌ وعَلِىُّ

وقال القادر للنقيب أبى أحمد : قل لولدك محمد : أىُّ هوانٍ قد أقام عليه عندنا ! وأىُّ ضَيمٍ لَقِىَ من جهتنا ! وأىّ ذلٍّ أصابه فى مملكتنا(٢) ! وما الذى يعمل معه صاحبُ مصر لو مضى إليه ؟ أكان يصنع إليه أكثرَ من صنيعنا(٣) ؟ ألم نولِّه النِّقابة! ألم نولِّه المظالم ! ألم نستخلفه على الحرَمين والحجاز وجعلناه أميرَ الحجيج ! فهل كان يحصُل له من صاحب مصر أكثرُ من هذا ! ماتظنّه كان يكون — لو حصل عنده — إلا واحداً من أبناء الطالبيِّين بمصر . فقال النقيب أبو أحمد : أمّا هذا الشعر فمّا لم نسمعه منه ، ولا رأيناه بخطّه ، ولا يبعد أنْ يكونَ بعضُ أعدائه نَحَلَه إياه ؛ وعزَاه إليه ، فقال القادر : إن كان كذلك ؛ فلتكتب الآن محضراً يتضمّن القَدْح فى أنساب ولاة مصر ، ويكتب محمد خطّه فيه . فكَتَب(٤) محضراً بذلك ، شَهِد فيه جميعُ مَنْ حضر المجلس ؛ منهم النقيب أبو أحمد وابنه المرتضَى ، وحُمِل المحضر إلى الرضىّ ليكتب خطّه فيه ، حَمَله أبوه وأخوه ، فامتنع من سَطْر(٥) خطّه ، وقال : لا أكتب ، وأخاف دعاة صاحب مصر ، وأنكر الشعر ، وكَتَبَ خطّه ، وأقسم فيه أنه ليس بشعره ؛ وأنه لا يعرفه . فأجبره أبوه على أن يكتب(٦) خطّه فى المحضر ، فلم يفعل ، وقال : أخافُ دعاةَ المصريين وغِيلَتَهم لى ، فإنهم معروفونَ بذلك ، فقال أبوه : ياعجباه ! أتخافُ مَنْ بينك وبينه ستّمائة فرسخ ، ولا تخاف مَنْ بينك وبينه مائة ذراع ! وحلف ألّا يكلمه ؛ وكذلك المرتضَى ، فعلا ذلك تقيّةً وخوفاً من القادر ،

---

(١) الديوان : « ألبس الذل فى ديار الأعادى » .
(٢) ب : « فى ملكنا » . (٣) ب : « ضيعنا » .
(٤) ب: « فكتب محضر » ، بالبناء للمجهول .
(٥) ب: « تسطير » . (٦) ب : « يسطر » .

وتسكيناً له . ولما انتهى الأمر إلى القادر سكت على سوء أضمره ، وبعد ذلك بأيام صرَفه عن النّقابة ، وولاها محمد بن عمر النّهرسابسيّ [1] .

***

وقرأت بخطّ محمد بن إدريس الحليّ الفقيه الإماميّ ، قال : حكى أبو حامد أحمد بن محمد الإسفرَايينيّ الفقيه الشافعيّ ، قال : كنتُ يوماً عند فخر الملك أبي غالب محمد بن خلف وزير بهاء الدولة ، وابنه سلطان الدولة ، فدخل عليه الرضيّ أبو الحسن ، فأعظمه وأجلّه ورفع من منزلته ، وخلّى ما كان بيده من الرّقاع والقصص ، وأقبلَ عليه يحادثه إلى أن انصرف ، ثم دخل بعد ذلك المرتضَى أبو القاسم رحمه الله ؛ فلم يعظّمه ذلك التعظيم ، ولا أكرمه ذلك الإكرام ، وتشاغَل عنه برقاع يقرؤها ، وتوقيعات يُوقّع بها ، فجلس قليلاً ، وسأله أمراً فقضاه ، ثم انصرف .

قال أبو حامد : فتقدّمتُ إليه وقلت له : أصلح الله الوزير ! هذا المرتضَى هو الفقيه المتكلّم صاحب الفنون ، وهو الأمثل والأفضل منهما ؛ وإنما أبو الحسن شاعر . قال : فقال لي : إذا انصرف الناس وخلا المجلس أجبتُك عن هذه المسألة .

قال : وكنت مجمعاً على الانصراف ، فجاءني أمرٌ لم يكن في الحساب ، فدعت الضرورة إلى ملازمة المجلس إلى أن تقوّض الناس واحداً فواحداً ، فلمّا لم يبقَ إلا غلمانُه وحجّابه ، دعا بالطعام ، فلما أكلنا وغسل يديه وانصرف عنه أكثرُ غلمانه ، ولم يبق عنده غيري قال لخادم : هات الكتابين اللذين دفعتهما إليك منذ أيام ، وأمرتُك أن تجعلَهما في السَّفَط [2] الفلانيّ . فأحضرَهما ، فقال : هذا كتاب الرضيّ ، اتصل بي أنه قد ولد له ولد ، فأنفذتُ إليه ألفَ دينار ، وقلت له : هذه للقابلة ، فقد جرتِ العادة أن يحمل الأصدقاء

---

(١) النهرسابسي منسوب إلى نهرسابس ، فوق واسط بيوم (ياقوت) .
(٢) السفط بالتحريك ، كالجوالق .

إلى أخِلاّئهم وذوى مودّتهم مثلَ هذا فى مثل هذه الحال؛ فردّها وكتب إلىّ هذا الكتاب فاقرأه. قال: فقرأته، وهو اعتذار عن الرّد، وفى جُملته: إنّنا أهلَ بيت لا نُطلع على أحوالنا قابلةً غريبة؛ وإنما عجائزنا يتولّين هذا الأمرَ من نسائنا، ولسن ممّن يأخذن أجرة، ولا يقبلن صِلَة؛ قال: فهذا هذا.

وأما المرتضَى فإنّنا كنا قد وزّعنا وقسّطنا على الأملاك ببادوريا تقسيطاً نصرفه فى حَفْر فُوّهة النهر المعروف بنهر عيسى، فأصاب مِلْكاً للشريف المرتضَى بالناحية المعروفة بالدّاهرية من التقسيط عشرون درهماً، ثمنُها دينار واحد، قد كتب إلىّ منذ أيام فى هذا المعنى هذا الكتاب، فاقرأه. فقرأته؛ وهو أكثر من مائة سَطْر، يتضمّن من الخضوع والخشوع والاستمالة والهزّ والطلب والسؤال فى إسقاط هذه الدراهم المذكورة عن أملاكه المشار إليها مايطول شرحه.

قال فخر الملك: فأيّهما ترى أولَى بالتعظيم والتبجيل؟ هذا العالم المتكلّم الفقيه الأوحد ونفسُه هذه النفس، أم ذلك الذى لم يُشْهَرْ إلا بالشعر خاصّة، ونفسُه تلك النفس! فقلت: وفّق الله تعالى سيدَنا الوزير، فما زال موفقاً؛ والله ماوضع سيدنا الوزير الأمرَ إلا فى موضعه، ولا أحلّه إلا فى محلّه. وقمت فانصرفت.

***

وتوفّىَ الرضىّ رحمه الله فى المحرّم من سنة أربع وأربعمائة، وحضر الوزير فخرُ الملك وجميع الأعيان والأشراف والقضاة جنازتَه والصلاة عليه، ودفن فى داره بمسجد الأنباريّين بالكَرْخ، ومضى أخوه المرتضَى من جَزَعه عليه إلى مشهد موسى بن جعفر عليهما السلام؛ لأنه لم يستطع أن ينظرَ إلى تابوته ودفنه، وصلّى عليه فخرُ الملك أبو غالب، ومضى بنفسه آخر النهار إلى أخيه المرتضى بالمشهد الشريف الكاظمى، فألزمه بالعَوْد إلى داره.

وبما رثاه به أخوه المرتضى الأبيات المشهورة التي من جملتها[١] :

يالِلرِّجالِ لِفَجْعَةٍ جذَمَتْ يدى ووددت لو ذهبت علىَّ براسِي[٢]
مازلتُ آبَى وِرْدَها حتى أتت[٣] فحسوتُها فى بعض ما أنا حَاسى
ومَطَلْتُها زمناً فلمّا صممت لم يَثْنِها مَطْلِى وطولُ مِكاسى
لله عُمْرك من قصـــير طاهرٍ ولربَّ عُمْرٍ طالَ بالأدناس !

***

وحدثنى فخار بن معدّ العلوىّ الموسوىّ رحمه الله ، قال : رأى المفيد أبو عبد الله محمد ابن النعمان الفقيهُ الإمام فى منامه كأنّ فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم دخلت عليه وهو فى مسجده بالكَرْخ ، ومعها ولداها : الحسن والحسين عليهما السلام ، صغيرين ، فسلّمتهما إليه ، وقالت له : علّمهما الفقه . فانتبه متعجّباً من ذلك ، فلما تعالى النهار فى صبيحة تلك الليلة التى رأى فيها الرؤيا دخلت إليه المسجد فاطمة بنت الناصر ، وحولها جواريها ، وبين يديها ابناها : محمد الرضىّ وعلىّ المرتضى صغيرين ، فقام إليها وسلّم عليها ، فقالت له : أيّها الشيخ ، هـذان ولداى قد أحضرتُهما لتعلّمهما الفقه ، فبكى أبو عبد الله وقصّ عليها المنام ، وتولّى تعليمهما الفقه[٤] ، وأنعم الله عليهما ، وفتح لهما من أبواب العلوم والفضائل ما اشتهر عنهما فى آفاق الدنيا ؛ وهو باقٍ ما بَقِىَ الدهر[٥]

(١) ب : « التى من جملة مرثيته » ؛ وما أثبته عن ا .

(٢) ديوانه ٢ : ١٣١ .

(٣) الديوان : « مازلت أحذر وردها » .

(٤) ساقطة من ب

(٥) وانظر ترجمة الشريف الرضى أيضا فى أخبار المحمدين من الشعراء ٨٨ – ٨٩ ، وإنباه الرواة ٣ : ١١٤ – ١١٥ ، وتاريخ ابن الأثير ٧ : ٢٨٠ ، وتاريخ بغداد ٢ : ٢٤٦ – ٢٤٧ ، وتاريخ أبى الفدا ٢ : ١٤٥ ، وتاريخ ابن كثير ١٢ : ٣ – ٤ ، وابن خلكان ٢ : ٢ – ٤ ، ودمية القصر ٧٣ – ٧٥ ، وروضات الجنات ٥٢٣ – ٥٧٩ ، وشذرات الذهب ٣ : ١٨٢ – ١٨٤ ، وعيون التواريخ (وفيات ٤٠٦) ، ولسان الميزان ٥ : ١٤١ ، ومرآة الجنان ٣ : ١٨ – ٢٠ ، والمنتظم لابن الجوزى (وفيات ٤٠٦) ، والنجوم الزاهرة ٤ : ٢٤٠ ، والوافى بالوفيات ٢ : ٣٧٤ – ٣٧٩ ، ويتيمة الدهر ٣ : ١١٦ – ١٣٥ . وله أيضا ترجمة فى مقدمة كتابه المجازات النبوية (طبع بغداد) منقولة عن كتاب « تأسيس الشيعة الكرام لفنون الإسلام » ، بتحقيق السيد حسن صدر الدين .

القول فى شرح خطبة نهج البلاغة

قال الرضىّ رحمه الله :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أمّا بعدَ حَمْدِ[1] الله الّذى جَعَلَ الحمدَ ثمناً لنعمائِه ، ومَعاذاً مِنْ بَلائِه ، ووَسيلًا إلى جِنانِه ، وسَبَباً لزيادَة إحسانه . والصَّلاةُ على رسُوله نبيّ الرَّحمة ، وإمام الأئمة ، وَسِرَاجِ الأمّة ، المنتجَب مِنْ طينة الكَرَم ، وسُلالةِ المجْد الأقْدَمِ ، ومَغْرِس الفَخار المُعْرِق ، وفَرْع العلاء المُثْمر المورِق ؛ وعلى أهلِ بيته مصابيح الظُّلَم ، وعِصَم الأمَم ، ومَنار الدِّين الوَاضِحة ، ومثاقيلِ الفَضْل الرّاجِحَة . فصلّى الله عليهم أجمعِينَ ، صَلاةً تكونُ إزاءً لِفَضْلِهِمْ ، ومُكافَأةً لِعَمَلِهِمْ ، وكِفاءً لِطِيب أصْلِهِمْ وفَرْعِهِمْ ، ما أنار[2] فجرٌ طالعٌ ، وخَوَى نجمٌ ساطِعٌ[2] .

* * *

الشّرْحُ :

اعلم أنّى لا أتعرّضُ فى هذا الشرح للكلام فيما قد فرغ منه أئمةُ العربية ، ولا لتفسير ما هو ظاهر مكشوف ؛ كما فعل القُطْب الرّاونديّ ؛ فإنه شَرَعَ أولا فى تفسير قوله : « أمّا بعد » ، ثم قال : هذا هو فصل الخطاب ، ثم ذكر ما معنى الفصل ، وأطال فيه ، وقسّمه أقساماً ، يشرح ماقد فرغ له منه ، ثم شرح الشرح . وكذلك أخذ يفسّر قوله : « من بلائِه » ، وقوله : « إلى جِنانه » ، وقوله : « وسبباً » ، وقوله : « المجد » ، وقوله :

(١) ا : « حمداً » .

(٢ ـ ٢) ب : « ما أنار فجر ساطع ، وخوى نجم طالع » . وكذا فى مخطوطة النهج .

« الأقدم » ، وهذا كلّه إطالةٌ وتضييعٌ للزّمان من غير فائدة ؛ ولو أخذنا بشرحِ[1] مثلِ ذلك لوجب أن نشرح لفظة « أمّا » المفتوحة ، وأنْ نذكر الفصل بينها وبين « إمّا » المكسورة ، ونذكر : هل المكسورة من حروف العطف أولا ؟ ففيه خلاف ، ونذكر هل المفتوحة مركّبة أو مفردة ؟ ومهملة أو عاملة ؟ ونفسرّ معنى قول الشاعر :

أَبَا خُرَاشَةَ أَمَّا كُنْتَ ذا نفرٍ ... فإنّ قومِيَ لَمْ تأكُلْهُمُ الضَّبُعُ[2]

بالفتح ؛ ونذكر « بَعْدُ » لِمَ ضُمّت إذا قطعت عن الإضافة ؟ ولِمَ فتحت ها هنا حيث أضيفت ؟ ونخرج عن المعنى الذى قصدناه من موضوع الكتاب إلى فنون أخرى قد أحكمها أربابُها .

ونبتدئْ الآن فنقول : قال لى إمام من أئمة اللغة فى زماننا : هو الفِخار ، بكسر الفاء ، قال : وهذا ممّا يغلَط فيه الخاصّة فيفتحونها ، وهو غير جائز ، لأنه مصدر « فاخر » ، وفاعَل يجيء مصدره على « فِعال » بالكسر لا غير ، نحو : قاتلت قِتالا ، ونازلت نِزالا ، وخاصمت خِصاماً ، وكافحت كِفاحاً ، وصارعت صِراعاً . وعندى أنّه لا يبعد أن تكون الكلمة مفتوحة الفاء ، وتكون مصدر « فَخَر » لا مصدر « فاخر » ، فقد جاء مصدر الثلاثىّ — إذا كان عينه أو لامه حرف حلْق — على « فَعال » ، بالفتح ، نحو سَمح سَماحا ، وذهب ذَهابا ؛ اللهمّ إلا أن يُنقل ذلك عن شيخ أو كتاب موثوق به نقلاً صريحاً ، فتزول الشبهة . والعِصَم : جمع عِصْمة ، وهو ما يعتصم به . والمنار : الأعلام ، واحدها مَنارة ، بفتح الميم . والمثاقيل : جمع مثقال ، وهو مقدار وَزْن الشىء ، تقول : مثقال حبّة ، ومثقال قيراط ، ومثقال دينار ؛ وليس كما تظنه العامة أنه اسم للدينار خاصة ؛ فقوله : « مثاقيل الفضل » ، أى زِنات الفضل ، وهذا من باب الاستعارة . وقوله : « تكون إزاء لفضلهم » ، أى مقابلة له . ومكافأة ، بالهمز ، من كافأته أى جازيته ، وكِفاء ، بالهمز والمد ، أى نظيراً .

---

(١) كذا فى ج ، وهو الصواب ، وفى باقى الأصول : « لشرح » .
(٢) البيت لعباس بن مرداس السلمى ، وأبو خراشة كنية خفاف بن ندبة — (اللسان ٨ : ١٨٣) .

وخوى النجم ، أي سقط . وطينة الكرَم : أصله . وسلالة المجد فرعه . والوَسيل : جمع وسيلة وهو ما يُتقرَّب به ، ولو قال : « وسَبيلا إلى جِنانه » لكان حسنا ، وإنّما قصد الإغراب ، على أنا قد قرأناه كذلك في بعض النسخ . وقوله : « ومكافأة لعملهم » إنْ أراد أن يجعلَه قرينة « لفضلهم » كان مستقبَحاً عند مَنْ يريد البديع ، لأنّ الأولى ساكنة الأوسط ، والأخرى متحركة الأوسط ، وأمّا من لا يقصد البديع كالكلام القديم فليس بمستقبَح . وإن لم يُرِدْ أن يجعلَها قرينة بل جعلها من حشو السجعة الثانية ، وجعل القرينة « وأصلهم » ، فهو جائز ، إلاّ أنّ السجعة الثانية تطول جدًّا . ولو قال عِوَض « لعملهم » ، « لفِعْلهم » لكان حسناً .

***

قال الرضيّ رحمه الله :

فإني كنتُ في عُنفوان السِّنّ ، وغضاضة الغُصْن ، ابتدأتُ تأليفَ كتابٍ في خَصائِصِ الأئمة عليهم السلام ، يشتمِل على محاسِنِ أخبارِهم ، وجواهِرِ كلامِهِمْ ، حداني عَلَيْه غرضٌ ذكرتُه في صَدْرِ الكتاب ، وجعلتُه أمَامَ الكلام . وفرغْتُ من الخصائِصِ التي تخصّ أميرَ المؤمنين عليًّا ، صلواتُ الله عليه ، وعاقَتْ عن إتمام بقيّة الكتابِ مُحاجزاتُ الأيّام ، ومُماطَلاتُ الزّمان . وكنتُ قد بوّبْتُ ما خرج من ذلك أبوابًا ، وفصّلتُه فصولًا ، فجاء في آخرِها فَصْلٌ يتضمّن محاسنَ ما نُقل عنه عليه السلام ؛ من الكلامِ القَصير ، في المواعِظِ والحِكَمِ والأمثال والآدابِ ؛ دُونَ الخُطَبِ الطَّويلة ، والكُتُبِ المبْسوطة ؛ فاستحسنَ جماعةٌ من الأصدقاء ما اشتمل عليه الفصلُ المقدّم ذكره ، معجَبين ببدائعه ، ومتعجّبين من نواصِعِه ؛ وسألوني عِندَ ذلك أنْ أبدأ بتأليف كتابٍ يحتوي على مُختارِ كلامِ أمير المؤمنين عليه السلام في جميع فُنونه ، ومتشعّبات غُصونه ، من خُطَبٍ وكُتُب ، ومواعظَ وأدبٍ ؛ علمًا أنّ ذلك يتضمّن من عجائب البَلاغةِ ، وغرائبِ الفَصاحةِ ، وجواهِرِ العربية ، وثواقِبِ الكَلِمِ الدينية والدُّنياوِيّة ؛ ما لا يوجدُ مجتمعًا في كلامٍ ، ولا مجموعَ الأطراف

فى كتاب ؛ إذْ كانَ أميرُ المؤمنين عليه السَّلاَم مَشْرَع الْفَصَاحَة ومَوردَها ، ومَنْشَأَ الْبَلاَغَةِ ومَوْلِدها ؛ ومنه عليه السلام ظهرَ مَكْنُونُها ، وعنه أُخِذَتْ قوانينُها ، وعلى أمثلتِه حَذَا كلّ قائِل خطيبٍ ، وبكلامِه استعانَ كلّ واعظٍ بليغ ؛ ومع ذلك فقد سَبَق وقصّروا ، وتقدّم وتأخّروا ؛ لأنّ كلامَه عليه السلام الكلامُ الذى عليه مَسْحةٌ من العلم الإلهىّ ، وفيه عَبقةٌ من الكلام النبوىّ .

* * *

الشَّرْحُ :

عُنفوان السنّ : أوّلها . ومُحاجزات الأيام : ممانعاتها . ومُماطلات الزمان: مدافعاته. وقوله : «معجَبين» ثم قال : و « متعجِّبين » ، فـ « معجَبين » من قولك : أُعجِب فلان برأيه وبنفسه فهو معجَب بهما ، والاسم العُجْب بالضم ؛ ولا يكون ذلك إلا فى المستحسَن ، و « متعجِّبين » من قولك : تعجّبت من كذا ، والاسم العَجَب . وقد يكون فى الشىء يُستحسن ويُستقبح ويُتهوّل منه ويستغرب ؛ ومراده هنا التهوّل والاستغراب ؛ ومن ذلك قول أبى تمام :

أبدَتْ أسًى إذ رَأتْنِي مُخْلِسَ القَصَبِ وآلَ ما كان من عُجْبٍ إلى عَجَبِ [1]

يريد أنها كانت معجَبة به أيام الشبيبة لحسنه ؛ فلما شاب انقلب ذلك العُجْب عَجَباً ؛ إما استقباحاً له أو تهوّلاً منه واستغراباً . وفى بعض الروايات : « معجِّبين ببدائعه » ، أى أنهم يعجِّبون غيرهم . والنواصع : الخالصة . وثواقب الكلم : مضيئاتها ؛ ومنه الشهاب الثاقب . وحذا كلّ قائل : اقتفى واتّبع . وقوله : «مَسْحة» يقولون : على فلان مَسْحة من جمال ؛ مثل قولك : شىء ، وكأنه هاهنا يريد ضوءاً وصقالا . وقوله : « عَبقة » أى رائحة،

(١) ديوانه ١ : ١١٥ ؛ مطلع قصيدة يمدح فيها الحسن بن سهل . المخلس ، من قولهم : أخلس رأسه إذا صار فيه بياض وسواد . والقصب : جمع قصبة ؛ وهى خصلة من الشعر تجعل كهيئة القصبة الدقيقة . (من شرح الديوان) .

ولو قال عِوض « العلم الإلٰهىّ » : « الكتاب الإلٰهىّ » لكان أحسن .

***

قال الرضىّ رحمه الله :

فأجبتُهم إلى الابتداء بذَلِكَ ، عالماً بما فيه من عَظِيمِ النَّفْعِ ، وَمَنْشُورِ الذِّكْرِ ، وَمَذْخُورِ الأجْرِ . واعتمدتُ بِهِ أن أبيّن مِنْ عظيم قَدْر أمير المؤمنين عليه السّلامُ فى هذِهِ الفَضِيلةَ ، مُضَافةً إلى المحاسنِ الدَّثِرة ، والفضائل الجمّة ، وأنّه انفَرَدَ ببلوغ غايَتِها عن جميع السَّلَفِ الأوَّلِينَ ، الّذين إنّما يُؤثَرُ عَنْهُمْ مِنْها القليلُ النّادِرُ ، والشّاذُّ الشارِدُ ؛ فأمّا كلامُه عليه السلام فهو البَحْرُ الّذى لا يُساجَل ، والجمّ الذى لا يُحافَل ، وأردْتُ أن يسوغَ لِى التَّمثُّل فى الافتخارِ بِهِ صلواتُ الله عليه بقول الفَرَزْدَق :

أولئِك آبائى فجِئْنِى بمثْلِهِمْ إذَا جَمَعَتْنا يا جَرِيرُ المَجَامِعُ

***

الشّرْحُ :

المحاسن الدَّثِرَة : الكثيرة ، مالٌ دَثِر ، أى كثير ، والجمّة مثله . ويؤثر عنهم ، أى يحكَى وينقل ، قلته آثراً ، أى حاكياً . ولا يساجَل ، أى لا يكاثَر ، أصلُه من النزْع بالسَّجْل ، وهو الدَّلو الملىء[1] ، قال :

مَنْ يُسَاجِلْنِى يُسَاجِلْ ماجِداً يملأ الدَّلو إلى عَقْدِ الكَرَبْ[2]

ويروى : « ويساحَل » ، بالحاء ، من ساحل البحر وهو طرَفه ، أى لا يشابه فى بُعْد ساحِله . ولا يحافَل ، أى لا يفاخَر بالكثرة ، أصلُه من الحفْل ، وهو الامتلاء ، والمحافلة : المفاخرة بالامتلاء ، ضرع حافل ، أى ممتلىء .

---

(١) الدلو ، تذكر وتؤنث .

(٢) للفضل بن عباس بن عتبة بن أبى لهب ، اللسان ١٣ : ٣٤٦ ، ونقل عن ابن برى : « أصل المساجلة ، أن يستق ساقيان فيخرج كل واحد منهما فى سجله مثل مايخرج الآخر ؛ فأيهما نكل فقد غلب ؛ فضربته العرب أصلا للمفاخرة » .

والفرزدق ، همّام بن غالب بن صعصعة التميمىّ . ومن هذه الأبيات (١) :

ومنّا الذى اختيرَ الرجالَ سَماحَةً ... وجُوداً إذا هبّ الرياحُ الزعازعُ (٢)
ومنّا الذى أحيا الوئيدَ وغالبٌ ... وعمرٌو ؛ ومنّا حاجبٌ والأقارعُ (٣)
ومنّا الذى قاد الجيادَ على الوجا (٤) ... بنجْرَان حتّى صبّحته النزائعُ
ومنّا الذى أعطَى الرَّسُولُ عَطيّةً ... أسارى تميمٍ والعيونُ هوامعُ

النزائع : الكرام من الخيل . يعنى غزاةَ الأقرع بن حابس قبل الإسلام بنى تَغْلِب بنَجْران ، وهو الذى أعطاه الرسولُ يوم حُنَين أسارى تميم ـ

ومنّا غداةَ الرَّوْع فرسانُ غارةٍ ... إذا مَنَعَتْ بعد الزِّجاج الأشاجعُ (٥)
ومنّا خطيب لا يعاب وحامِلٌ ... أغرّ إذا التفّتْ عليه المجامعُ (٦)

ـ أى إذا مُدّت الأصابع بعد الزِّجاج إتماماً لها ؛ لأنها رماح قصيرة . وحامل ، أى حاملٌ للدِّيات ـ

---

(١) من نقيضته لقصيدة جرير التى أولها :

ذَكَرْتُ وِصالَ الْبِيضِ وَالشَّيْبُ شائِعٌ ... وَدارُ الصِّبا مِنْ عَهْدِهِنَّ بَلاقِعُ

وهما فى النقائض ٦٨٠ ـ ٧٠٥ ؛ ويختلف ترتيب القصيدة هنا عن ترتيبها هناك .

(٢) رواية النقائض : « منا الذى اختير » ؛ بحذف الواو ؛ وهو مايسمى بالخرم ؛ فتحذف الفاء من « فعولن » ؛ فى أول البيت من القصيدة . وانظر خبر غالب بن صعصعة أبو الفرزدق ، مع عمير بن قيس الشيبانى وطلبة بن قيس بن عاصم المنقرى فى الأغانى ١٩ : ٥ (طبعة الساسى) .

(٣) الذى أحيا الوئيد ؛ هو جده صعصعة بن ناجية بن عقال ، وغالب أبوه ، وعمرو بن عمرو بن عدس ، والأقارع : الأقرع وفراس ابنا حابس بن عقال ؛ وانظر أخبار هؤلاء جميعا فى شرح النقائض .

(٤) الوجا : الحفا .

(٥) منعت ، يريد ارتفعت بالسيوف بعد الطعان بالرماح . والأشاجع : عصب ظاهر الكف . وفى الديوان « فتيان غارة » .

(٦) قوله : « خطيب » يعنى شبة بن عقال بن صعصعة . والحامل ، يعنى عبد الله بن الحكيم بن الفد من بنى حوى بن سفيان بن مجاشع ، الذى حمل الحمالات يوم المربد حين قتل مسعود بن عمرو العتكى ، وكان يقال له القرين . والأغر من الرجال : المعروف ، كما يعرف الفرس بغرته فى الخيل ؛ يقول : فهو معروف فى الكرم والجود . (من شرح النقائض) .

أولئكَ آبائِي فجئني بمثلِهِمْ ... إذَا جمعتنَا يَاجَرِيرُ المجامعُ
بهم أعتلي ما حمّلتنيه دارمٌ (١) ... وَأصرَعُ أقراني الذِينَ أصارعُ
أخذنَا بآفاقِ السَّمَاءِ عليكُمُ ... لنَا قمرَاها والنُّجُومُ الطَّوالعُ (٢)
فَوَاعجبا حتى كُلَيْبٌ تَسُبُّنِي ... كأنَّ أباهَا نَهْشَلٌ أو مُجاشعُ !

* * *

قال الرضيّ رحمه الله :

ورأيت كلامَه عليه السَّلامَ يدورُ على أقطاب ثلاثة: أولها الخُطَب والأوامِر، وثانيها الكُتُبُ والرسائلُ، وثالثها الحِكَمُ والمواعظ؛ فأجمعتُ بتوفيقِ اللهِ سُبْحانَه على الابتداء باختيارِ محاسِنِ الخُطَبِ، ثمّ محاسِنِ الكُتُبِ، ثم محاسن الحِكَم والأدب، مُفرِداً لكلِّ صِنفٍ من ذلك باباً، ومفصِّلاً فيه أوراقاً، ليكونَ مقدِّمة لاستدراكِ ما عساهُ يشذّ عنّي عاجِلاً، ويقَعُ إليّ آجلاً. وإذا جاء شيء من كلامِهِ الخارجِ في أثناء حِوارٍ، أو جوابِ سؤالٍ، أو غرضٍ آخرَ من الأغراض في غير الأنحاء التي ذكرتُها، وقرَّرتُ القاعدةَ عليها، نسبتُه إلى أليَقِ الأبواب بِهِ، وأشدِّها ملامحةً لغرَضِهِ. وربّما جاء فيما أختارُه من ذلك فصولٌ غيرُ مُتّسقة، ومحاسنُ كَلِمٍ غير مُنتظمة، لأنّي أوردُ النُّكَتَ واللُّمَعَ، ولا أقصِد التَّتالِيَ والنَّسَقَ.

الشَّرْحُ :

قوله : « أجمعت على الابتداء »، أي عزمت. وقال القُطب الراونديّ : تقديره : أجمعتُ عازماً على الابتداء، قال : لأنه لا يقالُ إلا أجمعت الأمرَ، ولا يقال : أجمعت على الأمر، قال سبحانه : ﴿ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ ﴾ (٣).

---

(١) النقائض : « ما حملتني مجاشع ».
(٢) قمراها : الشمس والقمر، فغلب المذكر مع حاجته إلى إقامة البيت.
(٣) سورة يونس ٧١.

هذا الذى ذكره الرّاوندىّ خلاف نصّ أهل اللغة ؛ قالوا : أجمعتُ الأمرَ ، وعلى الأمر ؛ كلّه جائز ، نصّ صاحب " الصّحاح "[1] على ذلك .

والمحاسن : جمع حَسَن ، على غير قياس ، كما قالوا : الملامح والمذاكر[2] ؛ ومثله المقابح . والحِوار ، بكسر الحاء : مصدر حاورتُه ، أى خاطبته ، والأنحاء : الوجوه والمقاصد . وأشدّها مُلاحة لغرضه ، أى أشدّها إبصاراً له ونظرا إليه ، من لحت الشىء ؛ وهذه استعارة . يقال : هذا الكلام يَلمح الكلامَ الفلانىّ ، أى يُشابهه ؛ كأنّ ذلك الكلام يُلمَحُ ويُبصَر من هذا الكلام .

***

قال الرضىّ رحمه الله :

ومِنْ عجائبه عليه السلام التى انفرد بها ، وأمِنَ المشاركةَ فيها ؛ أنّ كلامَه الواردَ فى الزّهد والمواعظ ، والتّذكير والزّواجر ؛ إذا تأمّله المتأمّل ، وفكّر فيه المُفكِّر[3] ، وخلَع من قلبه أنّهُ كلامُ مثلِه ، ممّن عَظُم قَدْرُه ونفَذ أمرُه ، وأحاطَ بالرّقاب مُلْكه ، لم يعترضْه الشكّ فى أنّه كلامُ مَنْ لا حظّ له فى غيرِ الزّهادة ، ولا شُغْلَ له بغيرِ العِبادة ، قد قَبَع فى كِسْر بيتٍ ، أو انقطع إلى[4] سَفْح جبلٍ ، لا يَسمعُ إلا حسَّه ، ولا يرَى إلا نفسَه ؛ ولا يكادُ يوقِن بأنّه كلامُ مَنْ يَنغمِس فى الحرب ، مُصْلِتاً سيفَه ، فيَقطُّ الرّقابَ ، ويُجدّلُ الأبطالَ ، ويعودُ به يَنطُفُ دماً ، ويقطرُ مُهَجاً ؛ وهو مع تلك الحالِ زاهدُ الزّهاد ، وبَدَلُ الأبدال . وهذِه من فضائله العجيبة ، وخَصائصه اللّطيفة ، التى جَمع بها بين الأضداد ، وألّف بين الأشتات ، وكثيراً ما أذاكِرُ الإخوان بها ، وأستخرجُ عَجَبَهم منها ؛ وهى موضع العِبْرة بها[5] ، والفِكْرة فيها .

---

(١) الصحاح ٣ : ١١٩٨
(٢) ب : « المذاكير » ، وما أثبته عن ا .
(٣) ب : « المتفكر » وما أثبته عن ا
(٤) مخطوطة النهج : « فى سفح » .
(٥) كلمة « بها » ساقطة من ب ؛ وهى فى ا

الشرح :

قَبَعَ القُنْفُذ يَقْبَع قُبوعاً ، إذا أدخل رأسَه فى جلده ، وكذلك الرّجل إذا أدخل رأسه فى قيصه ؛ وكلّ مَنِ انزوى فى جُحْر أو مكان ضَيّق فقد قَبَع . وكِسْر البيت : جانب الخِباء . وسفْح الجبل : أسفله ، وأصلُه حيث يَسْفَحُ فيه الماء . ويقطّ الرقاب : يقطعها عَرْضاً – لا طولا كما قاله الرّاوندىّ – وإنما ذاك القَدّ ، قددته طولا ، وقططته عرضاً . قال ابن فارس صاحب " المجمل " : قال ابنُ عائشة : كانتْ ضربات علىّ عليه السلام فى الحرب أبْـكاراً ، إن اعْتلى قَدّ ، وإن اعترض قَطّ . ويُجَدِّل الأبطال : يُلْقِيهم على الجدالة ، وهى وجـهُ الأرض . وينطُف دما : يقطر . والأبدال : قوم صالحون لا تخلو الأرض منهم ، إذا مات أحدُهم أبدَل الله مكانه آخر ، قد وَرَدَ ذلك فى كثير من كُتب الحديث .

كان أمير المؤمنين عليه السّلامُ ذا أخلاقٍ متضادّة :

فمنها ما قد[1] ذكره الرضىّ رحمه الله ، وهو موضع التعجّب ؛ لأنّ الغالبَ على أهل الشجاعة والإقدام والمغامرة والجرأة أنْ يكونوا ذَوِى قلوب قاسية ، وفَتْكٍ وتمرُّد وجَبَرِيّة ، والغالب على أهل الزهد ورفضِ الدنيا وهِجرانِ ملاذّها والاشتغالِ بمواعظ الناس وتخويفهم المعادَ وتذكيرهم الموتَ ، أن يكونوا ذوِى رقّة ولين ، وضَعْف قلب ، وخَوَرِ طَبْع ؛ وهاتان حالتان متضادتان ، وقد اجتمعتا له عليه السلام .

ومنها أنّ الغالبَ على ذوى الشجاعة وإراقة الدماء أن يكونوا ذوِى أخلاق سَبُعيّة ، وطِباع حوشيّة ، وغرائز وحشيّة ، وكذلك الغالب على أهل الزهادة وأرباب الوعظ والتذكير ورفض الدنيا أن يكونوا ذَوِى انقباض فى الأخلاق ، وعُبوس فى الوجوه ، ونِفار من الناس

---

(١) كلمة « قد » ساقطة من ب .

واستيحاش ؛ وأمير المؤمنين عليه السلام كان أشجعَ الناس وأعظمَهم إراقة للدم ، وأزهد الناس وأبعدَهم عن ملاذّ الدنيا ، وأكثرَهم وعظاً وتذكيراً بأيام الله ومَثُلاته ، وأشدَّهم اجتهاداً فى العبادة وآداباً لنفسه فى المعاملة . وكان مع ذلك ألطفَ العالم أخلاقاً ، وأسفرَهم وجهاً ، وأكثرَهم بِشْراً ، وأوفاهم هشاشة ، وأبعدَهم عن انقباض موحِش ، أو خُلُق نافر ، أو تجهّم مباعِد ، أو غِلْظة وفظاظة تَنفِر معهما نفس ، أو يتكدّر معهما قلْب . حتى عِيب بالدُّعابة ؛ ولمّا لم يجدوا فيه مغمزا ولا مطعنا تعلّقوا بها ، واعتمدوا فى التنفير عنه عليها .

* وتِلْكَ شَكَاةٌ ظاهِرٌ عنك عارُها[1] *

وهذا من عجائبه وغرائبه اللطيفة .

ومنها أنّ الغالب على شرفاء الناس ومَنْ هو من أهلِ بيت السيادة والرياسة أن يكونَ ذا كِبْرٍ وتيهٍ وتعظّم وتغطرُس ؛ خصوصاً إذا أُضيف إلى شَرَفِه من جهة النسب شرفُه من جهات أخرى ؛ وكان أميرُ المؤمنين عليه السلام فى مُصاصِ الشرف ومعدنه ومعانيه ، لا يشكّ عدوّ ولا صديق أنه أشرفُ خلق الله نسبا بعد ابن عمّه صلوات الله عليه ، وقد حصَل له من الشرف غير شرف النسب جهاتٌ كثيرة متعددة ، قد ذكرنا بعضها ، ومع ذلك فكان أشدَّ الناس تواضعاً لصغير وكبير ، وألينَهم عَرِيكةً ، وأسمحَهم خُلقا ، وأبعدَهم عن الكِبْر ، وأعرفهم بحقّ ، وكانت حاله هذه فى كِلاَ زمانَيْه : زمان خلافته ،

---

(١) « الشكاة : توضع موضع العيب والذم » ؛ وعير رجل عبد الله بن الزبير بأمه ؛ فقال ابن الزبير :

* وَتِلْكَ شَكَاةٌ ظاهِرٌ عَنْكَ عارُها *

أراد أن تعييره إياه بأن أمه كانت ذات النطاقين ليس بعار . ومعنى قوله : « ظاهر عنك عارها » ، أى ناب ، أراد أن هذا ليس عارا يلزق به ؛ وأنه يفتخر بذلك ؛ لأنها إنما سميت ذات النطاقين ، لأنه كان لها نطاقان تحمل فى أحدهما الزاد إلى أبيها وهو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الغار وكانت تنتطق بالنطاق الآخر ، وهى أسماء بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنها » . اللسان : (١٩ : ١٧١) ، وديوان الهذليين (١ : ٢١) ، وهذا عجز بيت لأبى ذؤيب الهذلى ، وصدره :

* وعيّرها الواشون أنى أحبّها *

والزمان الذى قبله ، لم تغيّره الإمرة ، ولا أحالت خُلُقَه الرياسة ، وكيف تحيل الرياسة خُلُقَه وما زال رئيسا ! وكيف تُغَيِّر الإمْرة سَجيّته وما برح أميرا لم يستفِدْ بالخلافة شرفا ، ولا اكتسبَ بها زينة ! بل هو كما قال أبو عبد الله أحمد بن حنبل ؛ ذكر ذلك الشيخ أبو الفرج عبد الرحمن بن علىّ بن الجوزىّ فى تاريخه المعروف " بالمنتظم " : تذاكروا عند أحمد خلافةَ أبى بكر وعلىّ وقالوا فأكثروا ، فرفع رأسه إليهم ، وقال : قد أكثرتم ! إنّ عليّا لم تزِنْه الخلافة ؛ ولكنه زانها . وهذا الكلام دالّ بفحواه ومفهومه على أنّ غيرَه ازدان بالخلافة وتمّمَتْ نقصَه ، وأن عليًّا عليه السلام لم يكن فيه نقص يحتاج إلى أن يتمّ بالخلافة ؛ وكانت الخلافة ذات نقص فى نفسها ، فتمّ نقصها بولايته إياها .

ومنها أنّ الغالب على ذوى الشجاعة وقتل الأنفس وإراقة الدماء أنْ يكونوا قليلى الصّفح ، بعيدى العفو ؛ لأن أكبادَهم واغرة ، وقلوبَهم ملتهبة ، والقوّة الغضبية عندهم شديدة ، وقد علمتَ حال أمير المؤمنين عليه السلام فى كثرة إراقة الدم وما عنده من الحلم والصفح ، ومغالبة هوى النفس ، وقد رأيتَ فعله يوم الجمل ؛ ولقد أحسن مِهْيار فى قوله [1] :

حَتَّى إذا دَارَتْ رَحى بَغْيِهِمُ ... عليهمُ وسبقَ السيفُ العَذَلْ
عاذوا بعفوِ ماجدٍ معوّدٍ ... للعفو حَمّالٍ لهمْ على العِلَلْ
فَنَجَّتِ البُقْيَا عليهم مَنْ نجا ... وأكلَ الحديدُ مِنهم مَنْ أكَلْ
أطَّتْ بهم أرحامُهمْ فلم يُطِعْ ... ثائرةَ الغَيْظِ ولم يشفِ الغُلَلْ

ومنها أنّا ما رأينا شجاعاً جواداً قطّ ؛ كان عبد الله بن الزبير شجاعاً وكان أبخلَ الناس ، وكان الزبير أبوه شجاعاً وكان شحيحاً ؛ قال له عمر : لو وُلّيتَها لظلْتَ تُلاَطِمُ الناس

(١) من قصيدة فى ديوانه ٣ : ١٠٩ — ١١٦ يذكر فيها مناقب الإمام على وما منى به من أعدائه .

فى البطحاء على الصاع والمُدّ . وأراد علىّ عليه السلام أن يحجُر على عبد الله بن جعفر لتبذيره المال ، فاحتال لنفسه ، فشارك الزُّبيرَ فى أمواله وتجاراته ؛ فقال عليه السلام : أمَا إنّه قد لاذ بملاذ ؛ ولم يحجُرْ عليه . وكان طلحة شجاعاً وكان شحيحاً ، أمسك عن الإنفاق حتى خلّف من الأموال مالا يأتى عليه الحصر . وكان عبدُ الملك شجاعاً وكان شحيحاً ، يُضرب به المثل فى الشحّ ، وسمى رَشْح الحجر لبخله . وقد علمت حالَ أمير المؤمنين عليه السلام فى الشّجاعة والسخاء كيف هى ؛ وهذا من أعاجيبه أيضاً عليه السلام .

***

قال الرضىّ رحمه الله :

وربّما جاء[1] فى أثناء هذا الاختيار اللفظُ المردّد ، والمعنى المكرّر ؛ والعُذْر فى ذلك أنّ رواياتِ كلامه تختلفُ اختلافاً شديداً ؛ فربّما اتفق الكلامُ المختارُ فى روايةٍ فنُقِل على وجهه ، ثم وُجِد بعد ذلك فى روايةٍ أخرى موضوعاً غير وضْعِه الأوّل ؛ إمّا بزيادة مختارة ، أو بلفظٍ أحسنَ عبارة ؛ فتقتضى الحالُ أن يُعاد ؛ استظهاراً للاختيار ، وغَيْرةً على عقائل الكلام . وربّما بَعُدَ العهدُ أيضاً بما اختير أوّلا ؛ فأعيد بعضُه سهواً ونسيانا ، لا قصْداً أو اعتماداً . ولا أدّعِى مع ذلك أنى أحيطُ بأقطارِ جميع كلامِه عليه السلام ؛ حتى لا يشِذّ عنّى منه شاذّ ، ولا يندّ نادّ ، بل لا أبعد أن يكون القاصِرُ عنّى فوق الواقع إلىّ ، والحاصلُ فى رِبْقتى دونَ الخارج من يدىّ ؛ وما علىّ إلا بذلُ الجهد ، وبلاغةُ الوسع ، وعلى الله سبحانه نَهْج السبيل ، وإرشاد الدليل .

ورأيتُ من بعدُ تسميةَ هذا الكتاب بـ " نهج البلاغة " ؛ إذ كان يَفتح للناظر فيه أبوابها ، ويقرّب عليه طِلابَها ، وفيه حاجةُ العالِم والمتعلّم ، وبُغية البليغ والزّاهد ، ويمضى فى أثنائه من عجيب الكلام فى التّوحيد والعدل ، وتنزيه الله سبحانه وتعالى عن شَبَه الخلق ، ما هو بلال كلّ غُلّة ، وشِفاء كلّ عِلّة ، وجِلاء كلّ شبهة . ومِنَ الله أستمدّ التوفيق والعِصْمة ، وأتنجّزُ التّسديد والمعونة ، وأستعيذه من خطأ الجَنان قبل خطأ

---

(١) ب : « كان » .

اللسان ، ومِنْ زَلّةِ الكلامِ قبل زلّةِ القَدَمِ ، وهُوَ حَسْبِي وَنِعْمَ الوَكِيلُ .

الشرح :

في أثناء هذا الاختيار : تضاعيفه ، واحدها ثِنْى كَمِذْق وأمذاق . والغَيْرة ، بالفتح والكسر خطأ . وعقائل الكلام : كرائمه ، وعَقِيلة الحيّ : كريمته ، وكذلك عقيلة الذَّوْد . والأقطار : الجوانب ، واحدها قُطْر . والنادّ : المنفرد ؛ ندّ البعير يَنِدّ . الرِّبْقة : عُروة الحبل يجعل فيها رأس البهيمة . وقوله : « وعلى الله نَهج السبيل » ، أى إبانته وإيضاحه، نهجت له نهجاً . وأما اسم الكتاب فـ « نهج البلاغة » ، والنهج هنا ليس بمصدر ، بل هو اسم للطريق الواضح نفسه . والطِّلاب ، بكسر الطاء : الطلب . والبُغية : ما يُبتغى . وبِلال كلّ غُلة ، بكسر الباء : ما يُبَلّ به الصدى ، ومنه قوله : انضحوا الرّحم بِبلالها ، أىّ صلوها بصلتها وندّوها[1] ، قال أوس :

كأنى حَلَوْتُ الشِّعر حين مدحتُهُ صَفَا صَخرةٍ صَمّاء يَبْسٍ بِلالُها[2]

وإنما استعاذ من خطأ الجنان قبل خطأ اللسان ؛ لأنّ خطأ الجنان أعظم وأفحشُ من خطأ اللسان ، ألا ترى أنّ اعتقاد الكُفر بالقلب أعظم عقاباً من أن يكفرُ الإنسان بلسانه وهو غير معتقد للكفر بقلبه ؛ وإنما استعاذ من زَلّة الكَلِم قبل زلّة القدَم ؛ لأنه أراد زلة القدم الحقيقية ؛ ولا ريب أنّ زلّة القدم أهونُ وأسهل ؛ لأن العاثر يستقيل من عثرته ، وذا الزّلّة تجِدُهُ ينهض من صَرْعته ؛ وأما الزّلة باللسان فقد لا تستقال عَثْرتُها ، ولا يَنْهض صريعُها ، وطالما كانت لا شَوَى[3] لها ، قال أبو تمام :

يا زَلّةً ما وُقِيتمْ شرَّ مَصْرَعِها وزَلّة الرأى تُنْسِى زَلّةَ القَدَمِ[4]

---

(١) اللسان - بلل ، وفي الطبعة الأولى « أنضجوا » ، تحريف.

(٢) يهجو الحكم بن مروان بن زنباع ، ديوانه ١٠٠ ، واللسان ١٣ : ٦٧ ، ١٨ : ٢١٠ ، وحلا الرجل الشيء يحلوه ، أعطاه إياه ، أى جعل الشعر حلوانا له مثل العطاء .

(٣) لا شوى لها ، أى لا برء لها ، قال الكميت :

أجيبوا رُقَى الآسى النِّطاسِيّ واحذروا مطفئة الرَّضْفِ الّتى لا شَوَى لهـــا

(٤) ديوانه ٣ : ١٩٤ ، وروايته : « ياعثرة ماوليتم » .

باب
الخطب والأوامر

قال الرضيّ رحمه الله :

باب المختار من خطب أمير المؤمنين صلوات الله عليه وأوامره

ويدخل فى ذلك المختار من كلامه الجارى مجرى الخطب ، فى المقامات المحضورة والمواقف المذكورة ، والخطوب الواردة

الشَّرحُ :

المقامات : جمع مَقامة ، وقد تكون المقامة المجلس والنادى الذى يجتمع إليه الناس ، وقد يكون اسماً للجماعة ، والأول أليق هاهنا بقوله : «المحضورة» ، أى التى قد حضرها الناس.

ومنذ الآن نبتدئ بشرح كلام أمير المؤمنين عليه السلام ، ونجعل ترجمة الفصل الذى نروم شرحه «الأصل» فإذا أنهيناه قلنا : «الشرح» ، فذكرنا ماعندنا فيه ، وبالله التوفيق .

* * *

(١)

الأَصْلُ :

فمن خطبة له عليه السلام يذكر فيها ابتداء خلق السماء والأرض وخلق آدم :

اَلْحَمْدُ لِلهِ اَلَّذِى لَا يَبْلُغُ مِدْحَتَهُ اَلْقَائِلُونَ ، وَلَا يُحْصِي نَعْمَاءَهُ الْعَادُّونَ ، وَلَا يُؤَدِّى حَقَّهُ اَلْمُجْتَهِدُونَ ؛ اَلَّذِى لَا يُدْرِكُهُ بُعْدُ الْهِمَمِ ، وَلَا يَنَالُه غَوْصُ الْفِطَنِ . اَلَّذِى لَيْسَ لِصِفَتِهِ حَدٌّ مَحْدُودٌ ، وَلَا نَعْتٌ مَوْجُودٌ ، وَلَا وَقْتٌ مَعْدُودٌ . وَلَا أَجَلٌ مَمْدُودٌ ؛ فَطَرَ اَلْخَلَائِقَ بِقُدْرَتِهِ ، وَنَشَرَ اَلرِّيَاحَ بِرَحْمَتِهِ ، وَوَتَّدَ بِالصُّخُورِ مَيَدَانَ أَرْضِهِ .

الشرح :

الذى عليه أكثر الأدباء والمتكلّمين أنّ الحمد والمدح أخوان ، لا فرق بينهما ، تقول : حمدتُ زيداً على إنعامه ، ومدحته على إنعامه ، وحمدته على شجاعته ، ومدحته على شجاعته ؛ فهما سواء ، يدخلان فيما كان من فعل الإنسان ، وفيما ليس من فعله ، كما ذكرناه من المثالين . فأمّا الشكر فأخصّ من المدح ، لأنه لا يكون إلّا على النعمة خاصّة ؛ ولا يكون إلا صادراً من مُنعَم عليه ، فلا يجوز عندهم أن يقال : شكر زيد عمراً لنعمة أنعمها عمرو على إنسان غير زيد .

إن قيل : الاستعمال خلاف ذلك ؛ لأنهم يقولون : حضرنا عند فلان فوجدناه يشكر الأمير على معروفه عند زيد ، قيل : ذلك إنما يصحّ إذا كان إنعام الأمير على زيد أوجبَ سرور فلان ، فيكون شكرُ إنعام الأمير على زيد شكراً على السرور الداخل على قلبه بالإنعام على زيد ، وتكون لفظة « زيد » التى استعيرت ظاهراً لاستناد الشكر إلى مسمّاها كناية لا حقيقة ، ويكون ذلك الشكر شكراً باعتبار السّرور المذكور ، ومدحاً باعتبار آخر ، وهو المناداة على ذلك الجميل والثناء الواقع بجنسه .

ثم إنّ هؤلاء المتكلمين الذين حكينا قولهم يزعمون أنّ الحمد والمدح والشكر لا يكون إلا باللسان مع انطواء القلب على الثناء والتعظيم ، فإن استعمل شىء من ذلك فى الأفعال بالجوارح كان مجازاً . وبقىَ البحث عن اشتراطهم مطابقة القلب للسان ؛ فإنّ الاستعمال لا يساعدهم ، لأن أهلَ الاصطلاح يقولون لمن مدح غيره ، أو شكر رياء وسمعة : إنّه قد مدحه وشكره وإن كان منافقاً عندهم . ونظير هذا الموضع الإيمان ، فإنّ أكثر المتكلّمين لا يُطلقونه على مجرد النطق اللسانىّ ، بل يشترطون فيه الاعتقاد القلبىّ ، فأما

أن يقصروا به عليه كما هُوَ مَذْهَبُ الأشعرية[١] والإمامية[٢] ، أو تؤخذمنه أمور أخرى وهى فعل الواجب وتجنّب القبيح كما هو مذهب المعتزلة[٣] ، ولا يخالف جمهورَ المتكلمين فى هذه المسألة إلا الكرّامية[٤] فإنّ المنافق عندهم يسمى مؤمناً ، ونَظروا إلى مجرد الظاهر، فجعلوا النطق اللسانىّ وحده إيماناً .

ولِلمِدْحة : هيئة المدح ، كالرِّكْبة ، هيئة الركوب ، والجِلْسة هيئة الجلوس[٥] ؛ والمعنى مطروق جداً ، ومنه فى الكتاب العزيز كثير ، كقوله تعالى : ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا﴾[٦] وفى الأثر النبوىّ : « لا أحصى ثناءعليك أنت كما أثنيتَ على نفسك » ، وقال الكُتّاب[٧] من ذلك مايطول ذكره ، فمن جيّد ذلك قول بعضهم : الحمدُ لله على نِعَمه التى منها إقدارُنا على الاجتهاد فى حَمْدها ، وإنْ عَجَزْنا عن إحصائها وعدّها. وقالت الخنساء بنت عمرو بن الشّرِيد :

فما بَلَغَتْ كَفُّ امرئٍ متناولٍ ... بها المجدَ إلا والّذى نِلتَ أطولُ[٨]

---

(١) الأشعرية : هم أصحاب أبي الحسن على بن إسماعيل الأشعرى ، المنتسب إلى أبى موسى الأشعرى ، وهى جماعة الصفاتية ، الذين يثبتون لله تعالى الصفات الأزلية ، كالعلم والقدرة والحياة وغيرها . وانظر الكلام عليهم فى الملل والنحل للشهرستانى ١ : ٨٥ ــ ٩٤ .

(٢) الإمامية : هم القائلون بإمامة على رضى الله عنه بعد النبي عليه السلام ، وهم فرق متعددة ذكرهم الشهرستانى فى الملل والنحل ١ : ١٤٤ ــ ١٥٤ .

(٣) المعتزلة ويسمون أصحاب العدل والتوحيد ، انظر أيضا الكلام عليهم ، وتعداد فرقهم فى المصدر السابق ١ : ٤٩ ــ ٧٨ .

(٤) الكرامية : هم أصحاب أبي عبد الله محمد بن كرام ؛ عدهم الشهرستانى من جماعة الصفاتية ؛ لأنهم كانوا ممن يثبتون الصفات ؛ إلا أنهم انتهوا فيها إلى التجسيم والتشبيه ، الملل والنحل ١ : ٩٩ ــ ١٠٤

(٥) أ : « كالركبة والجلسة هيئة الركوب والجلوس »

(٦) سورة إبراهيم ٣٤ ، النحل ١٨

(٧) ب : « فى الكتاب » ؛ وكلمة « فى » مقحمة .

(٨) ديوانها ١٨٤ ؛ والرواية هناك :

فَمَا بَلَغَتْ كَفُّ أمْرِئٍ مُتَنَاوِلٍ ... بِهَا ٱلْمَجْدَ إِلَّا حَيْثُ مَا نِلْتَ أَطْوَلُ
وَمَا بَلَغَ ٱلْمُهْدُونَ فِي ٱلْقَوْلِ مِدْحَةً ... وَلَا صِفَةً إِلَّا ٱلَّذِي فِيكَ أَفْضَلُ

ولا حَبَّر المثنون فى القول مِدْحةً وإن أطنبوا إلا وَمَا فيكَ أفضلُ

***

ومن مستحسَنِ ما وقفتُ عليه من تعظيم البارئ عزّ جلالُه بلفظ[1] « الحمد » قولُ بعض الفضلاء فى خطبة أرجوزة علمية :

الحمدُ لله بِقَدْرِ الله لا قدرِ وُسْع العبدِ ذِى التناهى
والحمدُ لله الذى برهانُه أن ليسَ شأنٌ ليس فيه شأنُه
والحمد لله الذى مَنْ يُنْكِرُهْ فإنما يُنْكِرُ مَنْ يُصَوِّرُهْ

وأما قوله : « الذى لا يدركه » ، فيريد أنّ هِمَم النُّظار وأصحاب الفكر وإن عَلَتْ وبَعُدت فإنّها لا تدرِكه تعالى ، ولا تحيط به . وهذا حقٌ ، لأنّ كلَّ متصوَّر فلا بُدَّ أن يكون محسوساً ، أو متخيَّلا ، أو موجوداً من فطرة النَّفْس ، والاستقراء يَشْهد بذلك . مثال المحسوس السَّواد والحموضة ؛ مثال المتخيَّل إنسان يطير ، أو بحر من دم . مثال الموجود من فطرة النّفس تصوّر الألم واللذة . ولمّا كان البارئ سبحانه خارجاً عن هذا أجمع[2] لم يكن متصوراً .

فأما قوله : « الذى ليس لصفته حد محدود » ، فإنه يعنى بصفته هاهنا كُنْهَه وحقيقته يقول : ليس لكنهه حدّ فيعرف بذلك الحدّ قياساً على الأشياء المحدودة ؛ لأنه ليس بمركّب ، وكلّ محدود مركب .

ثم قال : « ولا نعت موجود » أى ولا يدرك[3] بالرسم ؛ كما تُدْرَكُ الأشياء برسومها ؛ وهو أن تعرف بلازم من لوازمها ، وصفة من صفاتها .

ثم قال : « ولا وقت معدود ، ولا أجل ممدود » ، فيه ، إشارة إلى الردّ على من قال : إنّا

---

(١) ا : « بلفظة » . (٢) ب : « جميعا » .
(٣) ب : « لايدرك » ، من غير واو .

نعلم كنهَ البارئ سبحانه لا فى هذه الدنيا بل فى الآخرة ؛ فإن القائلين برؤيته فى الآخرة يقولون : إنّا نعرف حينئذ كُنْهَهُ ، فهو عليه السلام ردّ قولهم ، وقال : إنه لا وقتَ أبداً على الإطلاق تُعرَف فيه حقيقته وكنهه ، لا الآن ولا بعد الآن ؛ وهو الحق ، لأنا لو رأيناه فى الآخرة وعرفنا كنهَهُ لتشخّص تشخصاً يمنع من حمله على كثيرين ، ولا يُتصوّر أن يتشخّص هذا التشخص إلا ما يُشار إلى جهته ، ولا جهةَ له سبحانه . وقد شرحت هذا الموضع فى كتابى المعروف بـ « زيادات النقْضَيْن[١] » ، وبينت أنّ الرؤية المنزهة عن الكيفية التى يزعمها أصحاب الأشعرى لا بدّ فيها من إثبات الجهة ، وأنها لا تجرى مجرى العلم ؛ لأن العلم لا يُشخِّص المعلوم ، والرؤية تشخّص المرئىّ ، والتشخيص لا يمكن إلا مع كون المتشخّص ذا جهة .

واعلم أن نفىَ الإحاطة مذكور فى الكتاب العزيز فى مواضع ، منها قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً ﴾[٢] ، ومنها قوله : ﴿ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾[٣] ، وقال بعض الصحابة : العجز عن دَرْك الإدراك إدراك ؛ وقد غلا محمد بن هانئ فقال فى ممدوحه المعزّ أبى تميم معد بن المنصور العلوى :

أتْبَعْتُهُ فِكَرِى حتى إذا بلغتْ غاياتِها بين تَصْوِيبٍ وَتَصْعِيدِ[٤]
رَأَيْتُ موضعَ بُرْهَانٍ يلُوحُ وَمَا رأيتُ مَوْضعَ تَكْيِيفٍ وَتَحْدِيدِ[٥]

وهذا مدح يليق بالخالق تعالى ، ولا يليق بالمخلوق .

فأما قوله : « فطر الخلائق ... » إلى آخر الفصل ؛ فهو تقسيم مشتقّ من الكتاب العزيز ، فقوله : « فَطَرَ الخلائق بقدرته » من قوله تعالى : ﴿ قَالَ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ

---

(١) كذا فى ج ، وفى ب : « النقيضين » وفى ا : « زيادات التفسير » ، ولم أعثر له على ذكر له فى كتب التراجم والفهارس .
(٢) سورة طه ١١٠ .
(٣) سورة الملك ٤
(٤) ديوانه ٢١٠ .
(٥) الديوان : « برهان بين » .

وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾[١] ، وقوله : « ونَشَر الرياح برحمته » من قوله : ﴿ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ نُشُراً بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ ﴾[٢] .

وقوله : « ووتّد بالصخور مَيدان أرضه » ، من قوله : ﴿ وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً ﴾[٣] . والمَيَدان : التحرك والتموج .

* * *

فأما القطب الرّاوندىّ رحمه الله فإنه قال إنه عليه السلام أخبَر عن نفسه بأول هذا الفصل أنه يحمَد الله ، وذلك من ظاهر كلامه ، ثم أمرَ غيره من فحوى كلامه أن يحمَد الله ، وأخبرَ عليه السلام أنه ثابت على ذلك مدة حياته ، وأنه يجب على المكلّفين ثبوتُهم عليه ما بَقُوا ؛ ولو قال : « أحمد الله » لم يعلم منه جميع ذلك . ثم قال : والحمدُ أعمّ من الشكر ؛ والله أخصّ من الإله . قال : فأما قوله : « الذى لا يبلغ مدحته القائلون » ؛ فإنه أظهرَ العجز عن القيام بواجب مدائحه ، فكيف بمحامده ! والمعنى أنّ الحمد كل الحمد ثابت للمعبود الذى حقّت العبادةُ له فى الأزَل ، واستحقّها حين خلق الخلق ، وأنعم بأصول النّعم التى يستحق بها العبادة .

ولقائل أن يقول : إنه ليس فى فحوى كلامه أنه أمرَ غيرَه أن يحمد الله ، وليس يُفهم من قول بعض رعيّة الملِك لغيره منهم : العظمة والجلال لهذا الملك أنه قد أمرهم بتعظيمه وإجلاله . ولا أيضاً فى الكلام ما يدلّ على أنه ثابت على ذلك مدة حياته ، وأنه يجب على المكلّفين ثبوتهم عليه ما بقُوا .

ولا أعلم كيف قد وقع ذلك للراوندىّ ! فإنْ زعم أنّ العقل يقتضى ذلك فحق ؛ ولكن

---

(١) سورة الشعراء ٢٤ . (٢) سورة الأعراف ٥٧ ، وهى قراءة أهل الحرمين وأبى عمرو (الجامع لأحكام القرآن ٧ : ٢٢٩). (٣) سورة النبأ ٧

ليس مستفاداً من الـكلام ، وهو أنه (١) قال : إن ذلك موجود فى الـكلام .

فأما قوله : لو كان قال : أحمدُ الله لم يعلم منه جميع ذلك ؛ فإنه لا فرق فى انتفاء دلالة « أحمد الله » على ذلك ودلالة « الحمد لله » ، وهما سواء فى أنّهما لا يدلاّن على شىء من أحوال غير القائل ، فضلاً عن دلالتهما على ثبوت ذلك ودوامه فى حقّ غير القائل .

وأما قوله : الله أخصّ من الإلٰه ، فإن أراد فى أصل اللغة ؛ فلا فرق ، بل الله هو الإلٰه وفُخّم بعد حذف الهمزة ، هذا قول كافة البصريين ، وإن أراد أنّ أهلَ الجاهلية كانوا يُطلِقون على الأصنام لفظة « الآلهة » ، ولا يسمّونها « الله » لحقّ ، وذلك عائد إلى عرفهم واصطلاحهم ، لا إلى أصل (٢) اللغة والاشتقاق ؛ ألا ترى أنّ الدابة فى العرف لا تطلق على النملة ، وإن كانت فى أصل اللغة دابة !

فأما قوله : قد أظهر العجز عن القيام بواجب مدائحه فكيف بمحامده ! فكلام يقتضى أنّ المدح غير الحمد ، ونحن لا نعرف فرقاً بينهما . وأيضاً فإنّ الـكلامَ لا يقتضى العجز عن القيام بالواجب ، لا من المادح ولا من الحامد ؛ ولا فيه تعرّض لذكر الوجوب ، وإنما نَفى أن يبلغ القائلون مدحته ، لم يقل غير ذلك .

وأما قوله : الذى حقت العبادة له فى الأزل واستحقّها حين خلق الخلق ، وأنعم بأصول النعم ؛ فكلام ظاهره متناقض ، لأنه إذا كان إنما استحقّها حين خلق الخلق ، فكيف يقال : إنه استحقّها فى الأزل ! وهل يكون فى الأزل مخلوق ليستحقّ عليه العبادة !

واعلم أنّ المتكلمين لا يُطلقون على البارى سبحانه أنه معبود فى الأزل أو مستحق للعبادة فى الأزل إلا بالقوة لا بالفعل (٣) ، لأنّه ليس فى الأزل مكلّف يعبده تعالى ، ولا أنعم على أحد فى الأزل بنعمة يستحق بها العبادة ، حتى إنهم قالوا فى الأثر الوارد : « ياقديم

(١) ب : « وهو إنما » .
(٢) ساقطة من ب .
(٣) ا : « ولا بالفعل » .

الإحسان » : إن معناه أنّ إحسانه متقادِم العهد،لا أنّه قديم حقيقة ، كما جاء فى الكتاب العزيز : ﴿ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾(١) ، أى الذى قد توالت عليه الأزمنة المتطاولة.

***

ثم (٢) قال الراوندىّ : والحمد والمدح يكونان بالقول وبالفعل ، والألف واللام فى « القائلون » لتعريف الجنس ، كمثلهما فى الحمد . والبلوغ : المشارَفة ، يقال: بلغتُ المكان إذا أشرفتَ عليه ؛ وإذا لم تشرف على حمده تعالى بالقول فكيف توصل إليه بالفعل ! والإله : مصدر بمعنى المألوه .

ولقائل أن يقول:الذى سمعناه أنّ التعظيمَ يكون بالقول والفعل وبترك القول والفعل، قالوا : فمن قال لغيره: ياعالِم فقد عظّمه ومَنْ قام لغيره فقد عظّمه،ومن تركَ مدّ رجله بحضرة غيره فقد عظّمه،ومَنْ كفّ غَرْبَ لسانه عن غيره فقد عظّمه . وكذلك الاستخفاف والإهانة تكون بالقول والفعل وبتركهما حسب ماقدمنا ذكره فى التعظيم .

فأما الحمدُ والمدح فلا وجه لكونهما بالفعل ، وأما قوله : إنّ اللام فى « القائلون » لتعريف الجنس ؛ كما أنها فى الحمد كذلك فعجيب ؛ لأنّها للاستغراق فى « القائلون » لا شبهة فى ذلك كالمؤمنين والمشركين ، ولا يتمّ المعنى إلا به ؛ لأنّه للمبالغة ،بل الحقّ المحض أنه لا يبلغ مدحته كلّ القائلين بأسرهم.وجَعْل اللاّم للجنس ينقص عن هذا المعنى إن أراد بالجنس المعهود ، وإن أرادَ الجنسيَّة العامة، فلا نزاع بيننا وبينه ، إلا أن قوله : « كما أنها فى الحمد كذلك » يمنع من أن يحمل كلامه على المحمل الصحيح ؛ لأنها ليست فى الحمد للاستغراق ، يبيّن ذلك أنها لو كانت للاستغراق لما جاز أنْ يُحَمد رسول الله صلى الله عليه وآله ولا غيره من الناس ، وهذا باطل .

---

(١) سورة يس ٣٩ .
(٢) كلمة « ثم » ساقطة من ا .

وأيضاً فإنها لفظ واحد مفرد معرّف بلام الجنس ، والأصل في مثل ذلك أن يفيد الجنسية المطلقة ، ولا يفيد الاستغراق ، فإن جاء منه شيء للاستغراق ، كقوله : ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾[1] ، وأهلك الناسَ الدِّرهمُ والدينار ، فمجاز ، والحقيقة ما ذكرناه.

فأما قوله : البلوغ المشارفة ؛ يقال : بلغتُ المكان إذا أشرفتَ عليه . فالأجود أن يقول : قالوا : بلغتُ المكان ؛ إذا شارفته ؛ وبين قولنا : « شارفته » ، و « أشرفت عليه » فرق.

وأما قوله : « وإذا لم يشرف على حمده بالقول فكيف يوصل إليه بالفعل ! » ، فكلام مبنيّ على أنّ الحمد قد يكون بالفعل ، وهو خلاف مايقوله أرباب هذه الصناعة .

وقوله : والإله مصدر بمعنى المألوه كلام طريف ؛ أمّا أوّلا ، فإنه ليس بمصدر ؛ بل هو اسم ، كوِجَار الضبع وسِرار الشهر[2] ؛ وهو اسم جنس كالرّجل والفرس ، يقع على كل معبود بحقّ أو باطل ، ثم غلّب على المعبود بالحقّ ، كالنجم اسم لكلّ كوكب ثم غلب على الثريا ، والسَّنَة : اسم لكل عام ثم غلب على عام القَحْط . وأظنه رحمه الله لما رآه « فِعالا » ظن أنه مصدر كالحصاد والجذاذ وغيرهما . وأما ثانياً ؛ فلأنّ المألوه صيغة « مفعول » وليست صيغة مصدر إلا في ألفاظ نادرة ، كقولهم : « ليس له معقول ولا مجلود » ، ولم يسمع « مألوه » في اللغة ، لأنه قد جاء : أَلِهَ الرجل إذا دهِش وتحيّر ؛ وهو فعل لازم لا يبنى منه « مفعول » .

* * *

ثم قال الراونديّ : وفي قول الله تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ ، بلفظ الإفراد ، وقول أمير المؤمنين عليه السلام : « لا يحصي نعماءه العادّون » بلفظ الجمع سرٌّ عجيب ، لأنه تعالى أراد أنّ نعمةً واحدة من نِعَمه لا يمكن العباد عدّ وجوه كونها نعمة ، وأراد أمير المؤمنين عليه السلام أنّ أصول نعمه لا تحصى لكثرتها ، فكيف تعدّ

---

(١) سورة العصر ٦ (٢) السرار : بالفتح والكسر : آخر ليلة من الشهر

وجوه فروع نعمائه ! وكذلك في كون الآية واردة بلفظة « إن » الشرطية ، وكلام أمير المؤمنين عليه السلام على صيغة الخبر ، تحته لطيفة عجيبة ؛ لأنّه سبحانه يريد أنكم إنْ أردتم أن تعدّوا نِعمه لم تقدروا على حصرها ، وعليّ عليه السلام أخبر أنه قد أنعم النظر ، فعلم أن أحداً لا يمكنه حصرُ نِعَمِه تعالى .

ولقائل أن يقول : الصحيح أنّ المفهوم من قوله : ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾ الجنس ؛ كما يقول القائل : أنا لا أجحد إحسانك إليّ ، وامتنانك عليّ ، ولا يقصد بذلك إحساناً واحداً ، بل جنس الإحسان .

وما ذكره من الفرق بين كلام الباريء وكلام أمير المؤمنين عليه السلام غيرُ بيّن ، فإنه لو قال تعالى : وإن تعدوا نعم الله ، وقال عليه السلام : ولا يحصى نعمته العادّون ، لكان كلّ واحد منهما سادّاً مسدّ الآخر .

أما اللطيفة الثانية فغير ظاهرة أيضاً ولا مليحة ؛ لأنه لو انعكس الأمر ؛ فكان القرآن بصيغة الخبر وكلام عليّ عليه السلام بصيغة الشرط ، لكان مناسباً أيضاً ، حسب مناسبته ، والحالُ بعكس ذلك ، اللهم إلا أنّ تكون قرينة السجعة من كلام عليّ عليه السلام تنبو عن لفظة الشرط ، وإلا فمتى حذفتَ القرينة السجعيّةَ عن وهمك لم تجد فرقاً ؛ ونحن نعوذُ بالله من التعسّف والتّعجرُف [1] الداعي إلى ارتكاب هذه الدعاوى المنكرة .

* * *

ثم قال الراوندي : إنه لو قال أمير المؤمنين عليه السلام : « الذي لا يَعُدّ نعمه الحاسبون » لم تحصل المبالغة التي أرادها بعبارته ؛ لأنّ اشتقاق الحساب من الحِسبان ؛ وهو الظن . قال : وأمّا اشتقاق العدد فمن العِدّ ؛ وهو الماء الذي له مادّة ، والإحصاء : الإطاقة ؛ أحصيته ، أي أطقته : فتقدير الكلام : لا يطيق عدّ نعمائه العادّون ؛ ومعنى ذلك

---

(١) التعجرف : ركوب الأمر من غير ترو .

أنّ مدائحه تعالى لا يُشرِف على ذكرها الأنبياء والمرسلون ؛ لأنها أكثرُ من أن تعدّها الملائكةُ المقرّبون ، والكرام الكاتبون .

ولقائل أن يقول : أمّا الحساب فليس مشتقا من الحِسبان بمعنى الظنّ ؛ كما توهّمه ، بل هو أصل برأسه ؛ ألا ترى أنّ أحدَهما حَسِبتُ أحْسَب ، والآخر حَسِبْت أحْسُب وأحسِب بالفتح والضم ؛ وهو من الألفاظ الأربعة التى جاءت شاذة . وأيضاً فإن « حَسِبت » بمعنى ظننت يتعدى إلى مفعولين لايجوز الاقتصارُ على أحدهما ، و « حَسِبت » من العدد يتعدى إلى مفعول واحد . ثم يقال له : وَهَبْ أنْ « الحاسبين » لو قالها مشتقةً من الظنّ لم تحصل المبالغة ، بل المبالغة كادت تكون أكثر ؛ لأن النعم التى لا يحصرها الظانّ بظنونه أكثر من النعم التى لا يعدّها العالم بعلومه .

وأمّا قوله : العدَد مشتق من العِدّ ؛ وهو الماء الذى له مادّةٌ ، فليس كذلك ، بل هما أصلان . وأيضاً لو كان أحدهما مشتقا من الآخر لوجب أنْ يكون العِدّ مشتقا من العدد ؛ لأن المصادر هى الأصول التى يقع الاشتقاق منها ؛ سواء أكان المشتق فعلا أو اسما[1] ، ألا تراهم قالوا فى كتب الاشتقاق : إنّ الضّرْب : الرجل الخفيف ؛ مشتق من الضّرْب ، أى السير[2] فى الأرض للابتغاء ، قال الله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ ﴾[3] ، فجعل الاسم منقولا ومشتقًا من المصدر .

وأمّا الإحصاء فهو الحصر والعَدّ وليس هو الإطاقة كما ذكر ؛ لا يقال : أحصيت الحجر ، أى أطقت حمله .

وأمّا ما قال إنه معنى الكلمة فطريف ؛ لأنّ عليه السلام لم يذكر الأنبياء ولا

---

(١) كذا عطف بأو بعد همزة التسوية ؛ قال ابن هشام : وقد أولع الفقهاء وغيرهم بأن يقولوا : سواء أكان كذا أو كذا ، والصواب العطف بأم . المغنى ١ : ٣٩ .

(٢) كذا فى ج .

(٣) سورة البقرة ٢٧٣ .

الملائكة ، لا مطابقة ولا تضمنًا ولا التزامًا ، وأىّ حاجة إلى هــذا التقدير الطريف الذى لا يشعر الــكلام به ! ومراده عليه السلام ؛ وهو أنّ نعمه جلّتْ لــكثرتها أنْ يُحْصيها عادّ ما ، هو نفىٌ لمطلق العادّين من غير تعرض لعادّ مخصوص .

***

قال الراوندىّ : فأمّا قوله : « لا يدرِكه بُعْد الهمم » ؛ فالإدراك هو الرؤية والنَّيل والإصابة ، ومعنى الــكلام : الحمد لله الذى ليس بجسم ولا عَرَض ؛ إذ لو كان أحدَهما لرآه الراءون إذا أصابوه ؛ وإنما خَصّ « بُعْد الهمم » بإسناد نفى الإدراك « وغوص الفِطَن » بإسناد نفى النَّيل لغرض صحيح ؛ وذلك أن الثَّنَوِيّة[1] يقولون بقــدم النور والظلمة ، ويثبتون النّور جهة العلوّ والظلمة جهة السُّفْل ، ويقولون : إنّ العالم ممتزج منهما ، فردّ عليه السلام عليهم بما معناه : إنّ النور والظلمة جسمان ، والأجسام محدَثة ، والبارئ تعالى قديم .

ولقائل أن يقول : إنه لم يجْرِ للرؤية ذكر فى الــكلام ؛ لأنه عليه السلام لم يقل : الذى لا تدركه العيون ولا الحواسّ ، وإنما قال : « لا يدركه بُعْدُ الهمم » ، وهذا يدلّ على أنه إنما أراد أن العقول لا تحيط بكنهه وحقيقته .

وأيضًا فلو سلمنا أنه إنما نفى الرؤية ، لــكان لمحاجّ أن يحاجّه فيقول له : هبْ أنّ الأمر كما تزعم ، ألــست تريدُ بيانَ الأمر الذى لأجله خصّصَ بُعْد الهمم بنفى الإدراك ، وخَصص غَوْصَ الفِطن بنفى النَّيل ! وقلت : إنما قَسّمَ هذا التقسيم لغرض صحيح ، وما رَأيناك أوضحت هذا الغرض ؛ وإنما حكيت مذهب الثَّنَويّة ، وليس يدلُّ مذهبهم على وجوب تخصيص بُعْد الهمم بنفى الإدراك دون نفى النَّيل ، ولا يوجب تخصيص غَوْص الفطن

---

(١) الثنوية : هم أصحاب الاثنين الأزليين ؛ يزعمون أن النور والظلمة أزليان قديمــان . الشهرستانى ١ : ٢٢٤ .

بنفي التَّخيل دون نفي الإدراك، وأكثر ما في حكاية مذهبهم أنهم يزعمون أن إلهَي العالَمِ: النور والظلمة ، وهما جسمان ؛ وأمير المؤمنين عليه السلام يقول : لو كان صانع العالم جسما لَرُئِيَ ، وحيث لم يُرَ لم يكن جسما ؛ أيّ شيء في هذا مما يدلّ على وجوب ذلك التقسيم والتخصيص الذي زعمتَ أنه إنما خصّصه وقسّمه لغرض صحيح !

* * *

ثم[1] قال الراونديّ : ويجوز أن يقال: البعدُ والغوص مصدران هاهنا بمعنى الفاعل، كقولهم : فلان عَـدْل ، أي عادل ، وقوله تعالى : ﴿ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً ﴾[2] ، أي غائرا ، فيكون المعنى : لا يدركه العالم البعيد الهمم فكيف الجاهل ! ويكون المقصد بذلك الردّ على من قال : إن محمداً صلى الله عليه وآله رأى ربّه ليلة الإسراء؛ وإن يونس عليه السلام رأى ربّه ليلة هبوطه إلى قعر البحر .

ولقائل أن يقول : إن المصدر الذي جاء بمعنى الفاعل ألفاظ معدودة ، لا يجوز القياس عليها ، ولو جاز لما كان المصدر هاهنا بمعنى الفاعل ؛ لأنه مصدر مضاف ، والمصدر المضاف لا يكون بمعنى الفاعل. ولو جاز أن يكون المصدر المضاف بمعنى الفاعل لم يجز أن يُحمَل كلامه عليه السلام على الردّ على من أثبت أن الباريْ سبحانه مرئيّ ؛ لأنه ليس في الكلام نفي الرؤية أصلا، وإنما غرَضُ الكلام نفي معقوليّته سبحانه، وإن الأفكار والأنظار لا تحيطُ بكنهه ، ولا تتعقّل خصوصية ذاته ، جَلّتْ عظمته !

* * *

ثم قال الراونديّ : فأما قوله : « الذي ليس لصفته حدّ محدود ، ولا نعت موجود، ولا وقت معدود، ولا أجل ممدود » ، فالوقت: تحرّك الفلك ودَوَرانه على وجه، والأجل:

---

(١) كلمة « ثم » ساقطة من ا .

(٢) سورة الملك ٣٠ .

مدّة الشيء ؛ ومعنى الكلام أنّ شكرى لله تعالى متجدّد عند تجدّد كلّ ساعة ، ولهذا أبدل هذه الجملة من الجملة التى قبلها وهى الثانية ، كما أبدل الثانية من الأولى .

ولقائل أن يقول : الوقت عند أهل النظر مقدار حركة الفَلَك ، لا نفس حركته ، والأجل ليس مطلق الوقت ، ألا تراهم يقولون: جئتك وقتَ العصر ، ولا يقولون : أجَلَ العصر ! والأجَل عندهم هو الوقت الذى يعلم الله تعالى أن حياة الحيوان تبطُل فيه، مأخوذ من أجَل الدَّيْن ، وهو الوقت الذى يحلّ قضاؤه فيه .

فأما قوله : ومعنى الكلام أنّ شكرى متجدّد لله تعالى فى كلّ وقت ، ففاسد ، ولا ذِكْرَ فى هذه الألفاظ للشكر، ولا أعلم من أين خطر هذا للراوندىّ ! وظنّه أن هذه الجمل من باب البدل غلط ، لأنها صفات ، كلّ واحدة منها صفة بعد أخرى ، كما تقول: مررت بزيد العالم ، الظريف ، الشاعر [1] .

* * *

قال الراوندىّ: فأما قوله: « الذى ليس لصفته حدّ » ، فظاهره إثبات الصفة له سبحانه، وأصحابنا لا يثبتون لله سبحانه صفة ، كما يثبتها الأشعرية ؛ لكنهم يجعلونه على حال ، أو يجعلونه متميزاً بذاته ؛ فأمير المؤمنين عليه السلام بظاهر كلامه — وإن أثبت له صفة — إلا أنّ من له أنسٌ بكلام العرب يعلم أنه ليس بإثبات على الحقيقة. وقد سألنى سائل فقال: هاهنا كلمتان ؛ إحداهما كفر، والأخرى ليست بكفر؛ وهما : لله تعالى شريك غير بصير. ليس شريك الله تعالى بصيراً ، فأيهما كلمة الكفر؟ فقلت له : القضية الثانية؛ وهى « ليس شريك الله تعالى بصيراً » كُفْر؛ لأنها تتضمّن إثباتَ الشريك، وأمّا الكلمة الأخرى ، فيكون معناها لله شريك غير بصير ؟ بهمزة الاستفهام المقدّرة المحذوفة .

---

(١) من نسخة بحاشية ج : « الفاضل » .

ثم أخذ فى كلام طويل يبحث فيه عن الصفة والمعنى ، ويُبطِل مذهب الأشعرية بما يقوله المتكلمون من أصحابنا ، وأخذ فى توحيد الصفة : لِمَ جاء وكيف يدلّ نفى الصفة الواحدة على نفى مطلق الصفات ؟ وانتقل من ذلك إلى الكلام فى الصفة الخامسة التى أثبتها أبو هاشم[1] ؛ ثم خرج إلى مذهب أبى الحسين[2] ، وأطال جدًّا فيما لا حاجة إليه[3] .

ولقائل أن يقول : الأمر أسهلُ مما تظنّ ، فإنا قد بيّنّا أنّ مراده نفى الإحاطة بكنهه ، وأيضاً يمكن أن يجعل الصفة هاهنا قول الواصف ، فيكون المعنى : لا ينتهى الواصف إلى حدّ إلّا وهو قاصر عن النعت ، لجلالته وعظمته ، جلّت قدرته .

فأما القضيّتان اللتان سأله السائل عنهما فالصواب غير ما أجاب به فيهما ، وهو أن القضيّة الأولى كفر ، لأنها صريحة فى إثبات الشريك ، والثانية لا تقتضى ذلك ، لأنه قد ينفى قول الشريك بصيراً على أحد وجهين ؛ إما لأن هناك شريكا لكنّه غير بصير ؛ لأن الشريك غير موجود ، وإذا لم يكن موجودا لم يكن بصيرا ؛ فإذا كان هذا الاعتبار الثانى مرادا لم يكن كفرا ، وصار كالأثر المنقول : « كان مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله لا تؤثر هفواته » ؛ أى لم يكن فيه هفوات فتؤثر وتحكى ، [4] وليس أنه كان [4] المراد فى مجلسه هفوات إلّا أنّها لم تؤثر .

* * *

قال الراوندىّ : فإن قيل : تركيب هذه الجملة يدلّ على أنه تعالى فَطَر الخليقة قبل خَلْق السموات والأرض .

---

(١) هو أبو هاشم عبد السلام بن أبى على الجبائى ؛ وانظر ص ٩ من هذا الجزء
(٢) هو أبو الحسين محمد بن على بن الطيب البصرى ؛ وانظر ص ٩ من هذا الجزء
(٣) ب ، ج : « فيه » (٤ – ٤) ب : « وليس المراد أنه قد كانت » .

قلنا : قد اختُلف في ذلك فقيل : أوّل مايحسن منه تعالى خلقه ذاتا حيّة ، يخلق فيها شهوةً لمدرك تدركه فتلتذّ به ، ولهذا قيل : تقديم خَلْق الجماد على خلق الحيوان عبث وقبيح . وقيل : لا مانع من تقديم خلق الجماد إذا عُلم أنّ علم بعض المكلّفين فيما بعد بخَلْقِه قَبْلَه لطف له .

ولقائل أن يقول : أمّا إلى حيث انتهى به الشرح فليس في الكلام تركيب يدلّ على أنّه تعالى فطر خَلْقه قبل خَلْق السموات والأرض . وإنما قد يُوهم تأمّل كلامه عليه السلام فيما بعد شيئاً من ذلك ، لما قال : « ثم أنشأ سبحانه فَتْق الأجواء » ؛ على أنا إذا تأملنا لم نجد في كلامه عليه السلام مايدلّ على تقديم خَلْق الحيوان ؛ لأنه قبل أنْ يذكر خلق السماء لم يذكر إلا أنه فَطَر الخلائق . وتارة قال : « أنشأ الخلق » ، ودلّ كلامه أيضاً على أنه نشر الرياح ، وأنه خلق الأرض وهي مضطربة فأرساها بالجبال ؛ كلّ هذا يدلّ عليه كلامه ، وهو مقدّم في كلامه على فَتْق الهواء والفضاء وخلق السماء ، فأمّا تقديم خلق الحيوان أو تأخيره فلم يتعرض كلامه عليه السلام له ، فلا معنى لجواب الراونديّ وذِكْره مايذكره المتكلّمون من أنه هل يحسن تقديم خلق الجماد على الحيوان أم لا !

***

الأصلُ :

أوّلُ الدِّينِ مَعْرِفَتُهُ ، وكمالُ مَعْرِفَتِهِ التَّصْدِيقُ بِهِ ، وَكَمَالُ التَّصْدِيقِ بِهِ تَوْحِيدُهُ ، وكمالُ تَوْحِيدِهِ الإخْلَاصُ لَهُ ، وكمالُ الإخْلَاصِ لَهُ نَفْيُ الصِّفَاتِ عَنْهُ ؛ لِشَهَادَةِ كُلِّ صِفَةٍ أنّها غَيْرُ المَوْصُوفِ ، وَشَهَادَةِ كُلِّ مَوْصُوفٍ أنّهُ غَيْرُ الصِّفَةِ . فَمَنْ وَصَفَ اللهَ سُبْحَانَهُ فَقَدْ قَرَنَهُ ، وَمَن قَرَنَهُ فقدْ ثَنّاهُ ، وَمَنْ ثَنّاهُ فقد جزّأهُ ، وَمَنْ جزّأهُ فقدْ جَهِلَه ،

وَمَنْ جَهِلَهُ فَقَدْ أَشَارَ إِلَيْهِ ، وَمَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ فَقَدْ حَدَّهُ ، ومن حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ ، وَمَنْ قَالَ : « فِيمَ » فَقَدْ ضَمَّنَهُ ، وَمَنْ قَالَ : « عَلَامَ » فَقَدْ أَخْلَى مِنْهُ .

* * *

الشَّرْحُ :

إنما قال عليه السلام : « أول الدّين معرفته » ، لأنّ التقليد باطل ، وأوّل الواجبات الدينية المعرفة . ويمكن أن يقول قائل : ألستُم تقولون فى علم الكلام : أول الواجبات النظرُ فى طريق معرفة الله تعالى ؛ وتارة تقولون : القصد إلى النظر ؟ فهل يمكن الجمع بين هذا وبين كلامه عليه السلام ؟ !

وجوابه أن النظَرَ والقصد إلى النظر إنما وجبا بالعرَض لا بالذات ؛ لأنهما وُصْلة إلى المعرفة ، والمعرفة هى المقصود بالوجوب ، وأميرُ المؤمنين عليه السلام أراد : أول واجب مقصود بذاته من الدين معرفةُ البارئ سبحانه ؛ فلا تناقضَ بين كلامه وبين آراء المتكلمين .

وأما قوله : « وكمال معرفته التصديق به » ؛ فلأنّ معرفتَه قد تكون ناقصة ، وقد تكون غير ناقصة ، فالمعرفة الناقصة هى المعرفة بأن للعالَم صانعاً غيرَ العالم ؛ وذلك باعتبار أن الممكنَ لا بدّ له من مؤثر ، فمن علم هذا فقط عَلِمَ الله تعالى ولكنْ علماً ناقصاً ، وأما المعرفة التى ليست ناقصة فأنْ تعلم أن ذلك المؤثر خارج عن سلسلة الممكنات ، والخارجُ عن كلّ الممكنات ليس بممكن ، وما ليس بممكن فهو واجب الوجود ؛ فمن عَلِمَ أنّ للعالم مؤثراً واجبَ الوجود فقد عرفه عرفاناً أكملَ من عرفان أن للعالم مؤثراً فقط ؛ وهذا الأمر الزائد هو المكنىّ عنه بالتصديق به ؛ لأن أخصّ ما يمتاز به البارئ عن مخلوقاته هو وجوب الوجود .

وأما[1] قوله عليه السلام : « وكمال التصديق به توحيده » ، فلأن مَنْ علم أنه تعالى واجبُ الوجود مصدِّق بالبارئ سبحانه ، لكن ذلك التصديق قد يكون ناقصاً ، وقد يكون غير ناقص ؛ فالتصديق الناقص أن يقتصر على أن يعلم أنه واجبُ الوجود فقط ، والتصديق الذى هو أكمل من ذلك وأتمّ هو العلمُ بتوحيده سبحانه ، باعتبار أن وجوب الوجود لا يمكن أن يكون لذاتين ؛ لأن فرض واجبَي الوجود يُفْضِي إلى عموم وجوبِ الوجود لهما وامتياز كلٍّ واحد منهما بأمر غير الوجوب المشترك ؛ وذلك يُفضي إلى تركيبهما وإخراجهما عن كونهما واجبَي الوجود ؛ فمن علم البارئ سبحانه واحداً ، أى لا واجب الوجود إلا هو يكون أكملَ تصديقاً ممن لم يعلم ذلك ؛ وإنما اقتصر على أن صانع العالم واجب الوجود فقط .

وأما قوله : « وكمال توحيده الإخلاصُ له » ؛ فالمراد بالإخلاص له ها هنا هو نَفْيُ الجسمية والعَرَضية ولوازمهما عنه ؛ لأن الجسم مركب ، وكل مركب ممكن ، وواجب الوجود ليس بممكن . وأيضاً فكل عَرَضٍ مفتقِر ، وواجب الوجود غير مفتقر ؛ فواجب الوجود ليس بِعَرَض . وأيضاً فكل جِرْم محدث ، وواجب الوجود ليس بمحدَث ، فواجب[2] الوجود ليس بجرم . وأيضاً فكل حاصل فى الجهة ، إما جِرْم أو عَرَض ، وواجب الوجود ليس بجِرْم ولا عرَض ، فلا يكون حاصلا فى جهة ؛ فمن عرف وحدانية البارئ ولم يعرف هذه الأمور كان توحيده ناقصاً ، ومن عرف هذه الأمور بعد العلم بوحدانيته تعالى فهو المخلص فى عِرْفانه جلّ اسمه ، ومعرفته تكون أتمّ وأكمل .

وأما قوله : « وكمالُ الإخلاص له نَفْيُ الصفات عنه » ، فهو تصريحٌ بالتوحيد الذى تذهب إليه المعتزلة ، وهو نفيُ المعانى القديمة[3] التى تُثْبِتها الأشعرية وغيرهم ، قال عليه السلام :

---

(١) ب : « فأما » . (٢) ب : « وواجب » .
(٣) ا : « التقدمية » .

« لشهادة كلّ صفة أنّها غير الموصوف ، وشهادة كلّ موصوف أنه غير الصفة » ؛ وهذا هو دليل المعتزلة بعينه،قالوا : لو كان عالماً بمعنى قديم؛لـكان ذلك المعنى إمّاهو أو غيره، أو ليس هو ولا غيره . والأوّل باطل ؛ لأنا نعقل ذاته قبل أن نعقِل أو نتصوّر له علما ؛ والمتصوَّر مُغايِر لما ليس بمتصوَّر . والثالث باطل أيضاً ، لأنّ إثبات شيئين : أحدهما ليس هو الآخر ولا غيره ، معلوم فسادُه ببديهة العقل،فتعيّن القسم الثانى وهو مُحال ، أما أوّلا فبإجماع أهلِ الملّة ،وأمّا ثانيا فلما سبق من أنّ وجوب الوجود لا يجوز أنْ يكون لشيئين؛ فإذا عرفتَ هذا فاعرف أنّ الإخلاص له تعالى قد يكون ناقصاوقد لا يكون ، فالإخلاص الناقص هو العلم بوجوب وجوده ، وأنه واحد ليس بجسم ولا عَرَض ، ولا [1] يصحّ عليه ما يصح على الأجسام والأعراض . والإخلاص التامّ هو العلم بأنّه لاتقوم به المعانى القديمة، مضافا إلى تلك العلوم السابقة ؛ وحينئذ تتمّ المعرفة وتـكمل .

ه ثم أكّد أميرُ المؤمنين عليه السلام هذه الإشارات الإلٰهية بقوله : « فمَنْ وَصَفَ الله سبحانه فقد قَرَنه » ، وهذا حقّ ؛ لأنّ الموصوفَ يقارن الصفة ، والصفة تقارنه .

قال : « ومن قرنه فقد ثَنّاه » ، وهـذا حقّ ، لأنه قد أثبت قديمين ، وذلك محض التثنية .

قال : «ومن ثنّاه فقد جزّأه» ؛ وهذا حقّ،لأنه إذا أطلق لفظة الله تعالى على الذات والعلم القديم فقد جعل مسمّى هذا اللفظ وفائدته متجزئة ،كإطلاق لفظ « الأسود » على الذات التى حلّها سواد .

قال : « ومن جزّأه فقد جهله » ؛ وهـذا حقّ ، لأنّ الجهل هو اعتقاد الشىء على خلاف ماهو به .

قال : « ومن أشار إليه فقدحَدّه » ؛ وهذا حقّ ، لأنّ كلّ مشارٍ إليه فهو محدود؛

---

(١) ب : « فلا يصح » .

لأنّ المشار إليه لابدّ أن يكون فى جهة مخصوصة ، وكلّ ماهو فى جهة فله حدّ وحدود ؛ أى أقطار وأطراف .

قال : « ومَنْ حدّه فقد عدّه » ، أى جعله من الأشياء المحدثة ، وهذا حقّ ، لأنّ كلّ محدود معدود فى القوات المحدَثة .

قال : « ومن قال : فِيمَ ؟ فقد ضمّنه » ، وهذا حقّ ، لأن مَنْ تصوّر أنه فى شىء فقد جعله إما جسماً مستَتِراً فى مكان ، أو عرَضاً سارياً فى محلّ ، والمكان متضمّن للتّمكن ، والمحلّ متضمّن للعرَض .

قال : « ومن قال : علامَ ؟ فقد أخْلَى منه » ، وهذا حقّ ، لأن مَنْ تصوّر أنه تعالى على العرش ، أو على الكرسىّ ، فقد أخلى منه غير ذلك الموضع . وأصحاب تلك المقالة يمتنعون من ذلك ؛ ومرادُه عليه السلام إظهار تناقض أقوالهم ؛ وإلّا فلو قالوا[1] : هب أنّا قد أخْلَيْنا منه غير ذلك الموضع ؛ أىّ محذور يلزمنا ؟ فإذا قيل لهم : لو خلا منه موضع دون موضع لكان جسماً ، ولزم حدوثه ، قالوا : لزوم الحدوث والجِسْمية إنّما هو من حصوله فى الجهة لا من خلوّ بعض الجهات عنه ؛ وأنتم إنما احتججتُمْ علينا بمجرّد خلوّ بعض الجهات منه ، فظهر أنّ توجيه الكلام عليهم إنّما هو إلزام لهم ، لا استدلال على فساد قولهم .

***

فأمّا القطب الراوندىّ فإنه قال فى معنى قوله : « نفىُ الصفات عنه » : أى صفات المخلوقين ، قال : لأنه تعالى عالم قادر ، وله بذلك صفات ، فكيف يجوز أن يقال : لاصفة له ! وأيضاً فإنه عليه السلام قد أثبت لله تعالى صفةً أوّلا ، حيث قال : « الذى ليس لصفته حدّ محدود » ، فوجب أنْ يُحمل كلامه على مايتنزّه عن المناقضة .

---

(١) ب : « قال » .

وأيضاً فإنه قد قال فيما بعدُ فى صفة الملائكة : « إنهم لا يَصِفون الله تعالى بصفات المصنوعين » ، فوجب أن يحمل قوله الآن : « وكمالُ توحيده نفى الصفات عنه » على صفات المخلوقين ، حملاً للمطلق على المقيّد .

ولقائل أن يقول : لو أراد نفيَ صفات المخلوقين عنه لم يستدلّ على ذلك بدليل الغيريّة ، وهو قوله : « لشهادة كل صفة أنها غيرُ الموصوف » ، لأن هذا الاستدلال لا ينطبق على دَعْوَى أنه غير موصوف بصفات المخلوقين ، بل كان ينبغى أن يستدلّ بأن صفات المخلوقين من لوازم الجسمية والعَرَضيّة ، والبارئ ليس بجسم ولا عَرَض ، ونحن قد بينا أن مراده عليه السلام إبطال القول بالمعانى القديمة ، وهى المسماة بالصفات فى الاصطلاح القديم[1] ، ولهذا يسمّى أصحاب المعانى بالصفاتية . فأما كونه قادراً وعالما فأصحابها أصحاب الأحوال ، وقد بينا أن مراده عليه السلام بقوله : « ليس لصفته حدّ محدود » ، أى لكنهه وحقيقته ، وأما كون الملائكة لا تصف البارئ بصفات المصنوعين فلا يقتضى أن يُحْمَلَ كل موضوع فيه ذكر الصفات على صفات المصنوعين ، لأجل تقييد ذلك فى ذكر الملائكة ، وأين هذا من باب حمل المطلق على المقيد ! لا سيما وقد ثبت أن التعليل والاستدلال يقضى ألا يكون المراد صفات المخلوقين .

وقد تكلّف الراوندىّ لتطبيق تعليله عليه السلام نَفْىَ الصفات عنه بقوله : « لشهادة كلّ صفة أنها غيرُ الموصوف » ، بكلام عجيب ؛ وأنا أحكى ألفاظه لتعلم ؛ قال : معنى هذا التعليل أنّ الفعل فى الشاهد لا يشابه الفاعل ، والفاعل غيرُ الفعل ؛ لأن ما يوصف به الغير إنما هو الفعل أو معنى الفعل ، كالضّارب والفَهِم ؛ فإن الفهم والضرب كلاهما فعل ، والموصوف بهما فاعل ، والدليل لا يختلف شاهداً وغائباً ؛ فإذا كان تعالى قديماً وهذه الأجسام محدَثة كانت معدومة ثم وجدت ، يدلّ على أنها غيرُ الموصوف بأنه خالقها ومدبّرها .

---

(١) ساقطة من ج .

انقضى كلامه . وحكايته تُغْنِي عن الرّد عليه .

ثم قال : « الأوّل » على وزن «أفعل» يستوى فيه المذكر والمؤنث ، إذا لم يكن فيه الألف واللام ، فإذا كانا فيه قيل للمؤنث « الأُولى » .

وهذا غير صحيح ، لأنه يقال : كلّمت فُضْلاهنّ ، وليس فيه[1] ألف ولام ، وكان ينبغى أن يقول إذا كان منكرا مصحوبا بمن استوى المذكر والمؤنث فى لفظ « أفعل » ، تقول : زيد أفضل من عمرو ، وهند أحسن من دعد .

* * *

الأصلُ :

كائنٌ لا عَنْ حَدَثٍ ، مَوْجُودٌ لا عَنْ عَدَمٍ ، مَعَ كلِّ شىءٍ لا بِمُقَارَنَةٍ ، وَغَيْرُ كلِّ شىءٍ لا بِمُزَايَلَةٍ ، فَاعِلٌ لا بِمَعْنَى الْحَرَكَاتِ وَالْآلَةِ ، بَصِيرٌ ؛ إذْ لا مَنْظُورَ إِلَيْهِ مِنْ خَلْقِهِ ، مُتَوَحِّدٌ ؛ إذْ لا سَكَنَ يَسْتَأْنِسُ بِهِ ، وَلا يَسْتَوْحِشُ لِفَقْدِهِ . أنشَأَ الْخَلْقَ إِنْشَاءً ، وَابْتَدَأَهُ ابْتِدَاءً ، بِلاَ رَوِيَّةٍ أجَالَهَا ، وَلاَ تجْرِبَةٍ اسْتَفَادَهَا ، وَلاَ حَرَكَةٍ أحْدَثَهَا ، ولا هَمَامَةِ نَفْسٍ اضْطرَب فِيها . أحَالَ الْأَشْيَاءَ لِأَوْقَاتِهَا ، ولَاءَمَ بيْنَ مُخْتَلِفَاتِها ، وَغَرَّزَ غَرَائِزَها ، وَألْزَمَها أشْبَاحَها ؛ عَالِماً بِهَا قبلَ ابْتِدَائِهَا ، مُحِيطاً بحُدُودِهَا وَانْتِهَائِهَا ، عَارِفاً بِقَرَائِنِهَا وأحْنَائِهَا .

* * *

الشَّرْحُ :

قوله عليه السلام : « كائن » ، وإن كان فى الاصطلاح العرفىّ مقولا على ما ينزّه البارىُ عنه ؛ فراده[2] به المفهوم اللغوىّ ؛ وهو اسم فاعل من « كان » ، بمعنى وجد ، كأنّه قال : موجود غير محدَث .

(١) ب : « فيهن » .
(٢) ا : « فراد » .

فإن قيل : فقد قال بعده : « موجود لا عن عدَم » فلا يبقى بين الكلمتين فرق .

قيل: بينهما فرق ، ومراده بالموجود لا عن عدم هاهنا وجوب وجوده ونفيُ إمكانه، لأنّ مَنْ أثبت قديمـاً ممكنا ؛ فإنه وإن نفى حدوثَه الزمانيّ لم ينفِ حدوثَه الذاتيّ ، وأمير المؤمنين عليه السلام نفى عن البارئ تعالى فى الكلمة الأولى الحدوثَ الزمانيّ ،ونفى عنه فى الكلمة الثانية الذاتيّ . وقولنا فى الممكن : إنّه موجود من عدم ، صحيح عند التأمّل ، لا بمعنى أنّ عدمه سابق له زمانا ، بل سابق لوجوده ذاتا ، لأن الممكن يستحقّ من ذاته أنّه لا يستحق الوجود من ذاته .

وأما قوله : «مع كلّ شىء لا بمقارنة » ، فمراده بذلك أنّه يعلم الجزئيات والكلّيات، كما قال سبحانه : ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾[1] .

وأما[2] قوله : «وغيرُ كلّ شىء لا بمزايلة» فحقّ ، لأنّ الغيرين فى الشاهد هما ما زايلَ أحدُهما الآخر وباينه بمكان أو زمان ، والبارئ سبحانه يباين الموجودات مباينة منزّهة عن المكان والزمان ، فصدَق عليه أنّه غير كلّ شىء لا بمزايلة .

وأمّا قوله : «فاعلٌ لا بمعنى الحركات والآلة» ، فحقّ ؛ لأن فعله اختراع ،والحكماء يقولون : إبداع ، ومعنى الكلمتين واحد ؛ وهو أنه يفعل لا بالحركة والآلة كما يفعل الواحد منّا ، ولا يوجِد شيئاً من شىء .

وأما قوله : «بصير ؛ إذ لا منظورَ إليه من خَلْقه » ، فهو حقيقةُ مذهب أبى هاشم رحمه الله وأصحابه ، لأنهم يُطلقون عليه فى الأزل أنّه سميع بصير ، وليس هناك مسموع ولا مُبصَر ، ومعنى ذلك كونه بحالٍ يصحّ منه إدراك المسموعات والمبصَرات إذا وجدت؛

---

(١) سورة المجادلة ٧

(٢) ا : « فأما » .

وذلك يرجع إلى كونه حيًّا لا آفة به ، ولا يُطلقون عليه أنه سامع مبصر فى الأزل ، لأنّ السامع المبصر هو المدرك بالفعل لا بالقوّة .

وأما قوله : « متوحّد ، إذْ لا سَكَنَ يستأنس به ، ويستوحش لفقده » ، فـ « إذ » هاهنا ظرف ، ومعنى الكلام أنّ العادة والعرف إطلاق « متوحّد » على من قد كان له من يستأنس بقربه ويستوحش ببعده فانفرد عنه ، والبارئُ سبحانه يطلَق عليه أنّه متوحِّد فى الأزل ولا موجود سواه ؛ وإذا صَدَق سَلْب الموجودات كلّها فى الأزَل صدق سلبُ ما يؤنس أو يوحِش ؛ فتوحّده سبحانه بخلاف توحّد غيره .

وأما قوله عليه السلام : « أنشأ الخلق إنشاء ، وابتدأه ابتداء » ، فكلمتان مترادفتان على طريقة الفصحاء والبلغاء ؛ كقوله سبحانه : ﴿ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾(١) . وقوله : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ﴾(٢) .

وقوله : « بلا رَوِيَّةٍ أجالها » ، فالروية الفِكْرة ، وأجالها : ردّدها ؛ ومن رواه : « أحالها » بالحاء ، أراد صرفها . وقوله : « ولا تجربةٍ استفادها » ، أى لم يكن قد خلق من قبلُ أجساماً فحصلت له التجربة التى أعانته على خَلْق هذه الأجسام .

وقوله : « ولا حركة أحدثها » ، فيه ردّ على الكرّاميّة الذين يقولون : إنّه إذا أراد أنْ يخلُق شيئاً مبايناً عنه أحدث فى ذاته حادثا ، يسمّى الإحداث ، فوقع ذلك الشىء المباين عن ذلك المعنى المتجدّد المسمّى إحداثاً .

وقوله : « ولا همامة نفس اضطرب فيها » ، فيه ردٌّ على المجوس والثَّنَوِيّة القائلين بالهمامة ، ولهم فيها خَبط طويل يذكره أصحاب المقالات ، وهذا يدل على صحة مايقال : إنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان يعرف آراء المتقدّمين والمتأخرين ، ويعلم العلوم كلّها ، وليس ذلك ببعيد من فضائله ومناقبه عليه السلام .

---

(١) سورة فاطر ٣٥ (٢) سورة المائدة ٤٨

وأما قوله : « أحال الأشياء لأوقاتها » ، فمن روَاها : « أحَلَّ الأشياء لأوقاتها » ، فمعناه جعل محلَّ كلِّ شيء ووقْته كمحلِّ الديْن. ومن رواها : « أحال » فهو من قولك: حال في مَتْن فرسه ، أي وثب ، وأحاله غيرُه ، أي أوْثبَه على متن الفرس ؛ عدّاه بالهمزة ، وكأنّه لما أقرّ الأشياء في أحيانها وأوقاتها صار كمن أحال غيرَه على فرسه .

وقوله . « ولاءم بين مختلفاتها » ، أي جعل المختلفات ملتئمات[1] ، كما قرَن النفس الروحانيةَ بالجسد الترابيّ ، جلّت عظمتُه !

وقوله : « وغرّز غرائزها » ، المرويّ بالتشديد ، والغريزة: الطبيعة ، وجمعها غرائز ، وقوله : « غرّزها » ، أي جعلها غرائز ، كما قيل : سبحان من ضوّأ الأضواء ! ويجوز أنْ يكونَ من غرزتُ الإبرة بمعنى غرست . وقد رأيناه في بعض النسخ بالتخفيف .

وقوله : « وألزمها أشباحها » ، الضمير المنصوب في « ألزمها » عائد إلى الغرائز ، أي ألزم الغرائز أشباحَها ، أي أشخاصها ، جمع شَبَح ، وهذا حقّ ؛ لأن كلاً مطبوع على غريزة لازمة ، فالشّجاع لا يكون جبانا ، والبخيل لا يكون جوادا ؛ وكذلك كلّ الغرائز لازمة لا تنتقل .

وقوله : « عالماً بها قبل ابتدائها » ، إشارة إلى أنّه عالم بالأشياء فيما لم يزَل .

وقوله : « محيطا بحدودها وانتهائها » أي بأطرافها ونهاياتها .

وقوله : « عارفاً بقرائنها وأحنائها » ، القرائن: جمع قرُونة[2] ، وهي النفس . والأحناء: الجوانب ، جمع حِنْو ، يقول: إنه سبحانه عارف بنفوس هذه الغرائز التي ألزمها أشباحَها ، عارف بجهاتها وسائر أحوالها المتعلّقة بها والصادرة عنها .

* * *

(١) ب : « ملتئمة » ، وما أثبته عن ا .

(٢) ومنه قول أوس بن حجر :

فَلاَقَى امرأً من مَيْدعانَ وأَسْمَحَتْ   قَرُونَتُهُ باليأسِ مِنْها فَعَجَّلَا

أي طابت نفسه بتركها .

فأمّا القطب الراونديّ فإنه قال : معنى قوله عليه السلام : « كائن لا عن حَدث ، موجود لا عن عَدَم » ، أنه لم يزل موجوداً ، ولا يزال موجوداً ، فهو باقٍ أبداً كما كان موجوداً أوّلا ؛ وهـذا ليس بجيّد ، لأنّ اللفظ لا يدلّ على ذلك ولا فيه تعرّض بالبقاء فيما لا يزال .

وقال أيضاً : قوله عليه السلام : « لا يستوحش » ، كلام مستأنف . ولقائل أن يقول: كيف يكون كلاماً مستأنفاً ، والهاء « في فقده » ترجع إلى « السكن » المذكور أوّلا !

وقال أيضاً : يُقال : ماله في الأمر هِمّة ولا هَمامة ؛ أي لا يهمّ به ، والهمامة : التردّد، كالعزم . ولقائل أن يقول : العزم هو إرادة جازمة حصَلت بعد التردّد ، فبطل قوله : إنّ الهمامة هي نفس التردد كالعزم . وأيضاً فقد بيّناص اده عليه السلام بالهمامة ؛ حكى زُرْقان[1] في كتاب " المقالات " ، وأبو عيسى الوراق[2] ، والحسن بن موسى[3] ، وذكره شيخنا أبو القاسم البلْخي[4] في كتابه في " المقالات " أيضاً عن الثنوية: أنّ النور الأعظم اضطربت عزائمه وإرادته في غزو الظُّلمة والإغارة عليها ، فخرجت من ذاته قطعة ــ وهي الهمامة المضطربة في نفسه ــ فخالطت الظلمةَ غازية لها ، فاقتطعتها الظلمة عن النور الأعظم ، وحالت بينها وبينه، وخرجت همامة الظلمة غازية للنور الأعظم ، فاقتطعها النور الأعظم عن الظلمة ، ومزجها بأجزائه ، وامتزجت همـامة النور بأجزاء الظلمة أيضاً ، ثم ما زالت الهمامتان تتقاربان

---

(١) هو زرقان المتكلم ؛ تلميذ إبراهيم بن سيار النظام ؛ وقد حكى زرقان عن النظام أقوالا في الفرق بين الفرق ٥٠ ــ ٥١ ، وذكره المسعودي في التنبيه والإشراف ٣٤٢ .

(٢) هو أبو عيسى محمد بن هارون الوراق ؛ كان من نظاري المعتزلة ؛ وله تصانيف على مذهبهم . توفي سنة ٢٤٧ . لسان الميزان ٥ : ٤١٢ .

(٣) هو أبو محمد الحسن بن موسى النوبختي ؛ من متكلمي الإمامية ؛ وذكره الطوسي في طبقاتهم ؛ عاش في القرن الثالث . لسان الميزان ٢ : ٢٥٨ ، روضات الجنات ٣١ ، تنقيح المقال ١ : ٣١٢ .

(٤) هو أبو القاسم عبد الله بن أحمد بن محمود البلخي الكعبي ؛ شيخ المعتزلة ، وكان على رأس طائفة منهم يقال لهم الكعبية ؛ توفي سنة ٣١٩ . ابن خلكان ١ : ٢٥٢ .

وتتدانيان وهما ممتزجتان ، بأجزاء هذا وهذا ؛ حتى انبنى منهماهذا العالَم المحسوس .ولهم فى الهمامة كلام مشهور ؛ وهى لفظة اصطلحوا عليها ، واللغة العربية ماعرفنا فيها استعمال الهمامة بمعنى الهِمّة ، والذى عرفناه الهِمّة والهَمّة ـ بالكسر والفتح ـ والمَهَمّة ، وتقول : لا همامِ لى بهذا الأمر ، مبنىّ على الكسر كقَطامِ ، ولكنّها لفظة اصطلاحية مشهورة عند أهلها .

***

الأصْلُ :

ثُمَّ أَنْشَأَ سُبْحَانَهُ فَتْقَ الْأَجْوَاءِ ، وَشَقَّ الْأَرْجَاءِ ؛ وَسَكَائِكَ الْهَوَاءِ ، فَأَجْرَى[(١)] فِيهَا مَاءً مُتَلَاطِماً تَيَّارُهُ ، مُتَرَاكِماً زَخَّارُهُ ، حَمَلَهُ عَلَى مَتْنِ الرِّيحِ الْعَاصِفَةِ ، وَالزَّعْزَعِ الْقَاصِفَةِ ، فَأَمَرَهَا بِرَدِّهِ ، وَسَلَّطَهَا عَلَى شَدِّهِ ، وَقَرَنَهَا إِلَى حَدِّهِ ؛ الْهَوَاءُ مِنْ تَحْتِهَا فَتِيقٌ ، وَالْمَاءُ مِنْ فَوْقِهَا دَفِيقٌ . ثُمَّ أَنْشَأَ سُبْحَانَهُ رِيحاً اعْتَقَمَ مَهَبَّهَا ، وَأَدَامَ مُرَبَّهَا ، وَأَعْصَفَ مَجْرَاهَا ، وَأَبْعَدَ مَنْشَاهَا ؛ فَأَمَرَهَا بِتَصْفِيقِ الْمَاءِ الزَّخَّارِ ، وَإِثَارَةِ مَوْجِ الْبِحَارِ ، فَمَخَضَتْهُ مَخْضَ السِّقَاءِ ، وَعَصَفَتْ بِهِ عَصْفَهَا بِالْفَضَاءِ ؛ تَرُدُّ أَوَّلَهُ عَلَى آخِرِهِ ، وَسَاجِيَهُ عَلَى[(٢)] مَائِرِهِ ، حَتَّى عَبَّ عُبَابُهُ ، وَرَمَى بِالزَّبَدِ رُكَامُهُ ، فَرَفَعَهُ فِي هَوَاءٍ مُنْفَتِقٍ ، وَجَوٍّ مُنْفَهِقٍ ، فَسَوَّى مِنْهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ جَعَلَ سُفْلَاهُنَّ مَوْجاً مَكْفُوفاً ؛ وَعُلْيَاهُنَّ سَقْفاً مَحْفُوظاً ، وَسَمْكاً مَرْفُوعاً ؛ بِغَيْرِ عَمَدٍ يَدْعَمُهَا ، وَلَا دِسَارٍ يَنْتَظِمُهَا[(٣)] . ثُمَّ زَيَّنَهَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ ، وَضِيَاءِ الثَّوَاقِبِ ، وَأَجْرَى فِيهَا سِرَاجاً مُسْتَطِيراً ، وَقَمَراً مُنِيراً ، فِي فَلَكٍ دَائِرٍ ، وَسَقْفٍ سَائِرٍ ، وَرَقِيمٍ مَائِرٍ .

---

(١) ا : « فأجاز » ، وكذلك فى مخطوطة النهج .

(٢) ا ، ج : « إلى » ، وكذلك فى مخطوطة النهج .

(٣) ج : « ينظمها » .

الشرح :

لسائل أن يسأل فيقول : ظاهرُ هذا الكلام أنّه سبحانه خلق الفضاء والسموات بعد خَلْق كلّ شيء ؛ لأنه قد قال قبل : «فَطَرَ الخلائق ، ونشر الرياح ، ووتّد الأرض بالجبال» ، ثم عاد فقال : أنشأ الخلق إنشاء ، وابتدأه ابتداء» ، وهو الآن يقول : « ثم أنشأ سبحانه فَتْقَ الأجواء » ، ولفظة « ثمّ » للتراخي !

فالجواب أن قوله[1] : « ثم » هو تعقيب وتراخ ، لا فى مخلوقات البارئ سبحانه ؛ بل فى كلامه عليه السلام ؛ كأنه يقول : ثم أقول الآن بعد قولى المتقدم : إنه تعالى أنشأ فتق الأجواء . ويمكن أن يقال : إن لفظة « ثم » هاهنا تُعْطِي معنى الجمع المطلق كالواو ، ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى ﴾[2] .

***

واعلم أنّ كلام أمير المؤمنين عليه السلام فى هذا الفصل يشتمل على مباحث :

منها : أنّ ظاهرَ لفظه أنّ الفضاء الّذى هو الفراغ الذى يحصل فيه الأجسام خلقَه الله تعالى ولم يكن من قبل ؛ وهذا يقتضى كونَ الفضاء شيئاً ؛ لأن المخلوق لا يكون عَدَماً محضاً . وليس ذلك ببعيد ، فقد ذهب إليه قوم من أهل النظر ، وجعلوه جسماً لطيفاً خارجاً عن مشابهة هذه الأجسام . ومنهم من جعله مجرّداً .

فإن قيل : هذا الكلام يُشعِر بأن خلق الأجسام فى العدم المحض قبل خلق الفضاء ليس بممكن ، وهذا ينافى العقل !

قيل : بل هذا هو محض مذهب الحكماء ، فإنهم يقولون : إنه لا يمكن وجودُ جسم

---

(١) كذا فى ا ، ج ، وفى ب : « فالجواب قوله » .
(٢) سورة طه ٨٢ .

ولا حركةُ جسم خارجَ الفلك الأقصى؛ وليس ذلك إلّا لاستحالة وجود الأجسام وحركتها، إلّا فى الفضاء .

ومنها : أن البارئ - سبحانه - خلق فى الفضاء الذى أوجده ماء جعله على متن الريح، فاستقلّ عليها، وثبت وصارت مكاناً له ، ثم خلق فوق ذلك الماء ريحاً أخرى سلّطها عليه ، فموّجته تمويجاً شديداً حتى ارتفع ، فخلق منه السموات . وهذا أيضاً قد قاله قوم من الحكماء ؛ ومن جملتهم تاليس الإسكندرانىّ ؛ وزعم أنّ الماء أصل كلّ[1] العناصر ؛ لأنه إذا انجمد صار أرضاً ، وإذا لَطُف صار هواء ، والهواء يستحيل ناراً ؛ لأنّ النار صفوة الهواء .

ويقال : إن فى التوراة فى أول السِّفر الأول كلاماً يناسب هذا ؛ وهو أنّ الله تعالى خلق جوهراً ، فنظر إليه نظر الهيبة، فذابت أجزاؤه فصارت ماء ، ثم ارتفع من ذلك الماء بخارٌ كالدخان،[2] فخلق منه السموات؛ وظهر على وجه ذلك الماء زَبَد[2]، فخلق منه الأرض، ثم أرساها بالجبال .

ومنها : أنّ السماء الدّنيا موْج مكفوف، بخلاف السموات الفوْقانية. وهذا أيضا قول قد ذهب إليه قوم، واستدلّوا عليه بما نُشاهده[3] من حركة الكواكب المتحيّرة وارتعادها فى مرأى[4] العين واضطرابها؛ قالوا : لأن المتحيّرة متحركة فى أفلاكها ؛ ونحن نشاهدها بالحسّ البَصرىّ ، وبيننا وبينها أجرام الأفلاك الشفّافة ، ونشاهدها مرتعدة حسب ارتعاد الجسم السائر فى الماء ؛ وما ذاك إلا لأنّ السماء الدنيا ماء متموّج ، فارتعاد الكواكب

---

(١) كلمة « كل » ساقطة من ا .

(٢ - ٢) ساقط من ا .

(٣) ب : « شاهده » .

(٤) ا : « مرائى » .

المشاهدة حسًّا إنّما هو بحسب ارتعاد أجزاء الفلك الأدنى. قالوا : فأمّا الكواكب الثابتة فإنّا[١] لم نشاهدها كذلك ؛ لأنّها ليست بمتحرّكة ، وأمّا القمر وإن كان فى السماء الدنيا؛ إلا أنّ فلك تدويره من جنس الأجرام الفوقانية؛ وليس بما متموّج كالفلك الممثل التحتانىّ. وكذلك القولُ فى الشمس .

ومنها: أنّ الكواكب فى قوله : « ثم زيّنها بزينة الكواكب » أين هى؟ فإن اللفظ محتمِل ، وينبغى أن يتقدّم على ذلك بحثٌ فى أصل قوله تعالى : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ﴾ [٢] !

فنقول : إنّ ظاهرَ هذا اللفظ أنّ الكواكبَ فى السماء الدنيا ، وأنها جعلت فيها حراسة للشياطين من استراق السمع ؛ فمن دنا منهم لذلك رُجِم بشهاب ؛ وهذا هو الذى يقتضيه ظاهر اللفظ. ومذهب الحكماء أنّ السماء الدنيا ليس فيها إلا القمر وحدَه؛ وعندهم أن الشهبَ المنقضّة هى آثار تظهر فى الفَلَك الأثيرىّ النارىّ الذى تحت فلك القمر ، والكواكبُ لا ينقضّ منها شىء ، والواجبُ التصديق بما فى ظاهر لفظ الكتاب العزيز، وأنْ يُحمل كلامُ أميرِ المؤمنين عليه السلام على مطابقته، فيكونَ الضميرُ فى قوله: «زينها» راجعاً إلى « سفلاهنّ » ؛ التى قال : « إنها موْج مكفوف »، ويكون[٣] الضمير فى قوله: « وأجْرَى فيهــا » راجعاً إلى جملة السمٰوات ؛ إذا وافقنا الحكماء فى أنّ الشمس فى السماء الرابعة .

ومنها : أنّ ظاهرَ الكلام يقتضى أنّ خلْق السموات بعد خلق الأرض؛ ألا تراه كيف لم يتعرّضْ فيه لكيفية خلق الأرض أصلا . وهذا قولٌ قد ذهب إليه جماعة من أهل المِلّة،

---

(١) ب ا : « فإنما » .
(٢) سورة الصافات ٦ ، ٧ .
(٣) ا : « فيكون » .

واستدلوا[1] عليه بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[2]، ثم قال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾[3].

ومنها: أن الهاء في قوله: «فرفعه في هواء منفتق» والهاء في قوله: «فسوّى منه سبع سموات» إلى ماذا ترجع؟ فإنّ آخر المذكورات قبلها «الزّبد». وهل يجوز أن تكون السموات مخلوقة من زَبَد الماء؟ الحقّ أنّ الضمائرَ ترجع إلى الماء الذي عبّ عبابُه؛ لا إلى الزّبد؛ فإنّ أحداً لم يذهب إلى أنّ السماء مخلوقة من زَبَد الماء؛ وإنما قالوا: إنّها مخلوقة من بُخاره.

ومنها: أنْ يقال إن البارئ سبحانه قادر على خلْق الأشياء إبداعاً واختراعاً؛ فما الذي اقتضى أنه خلق المخلوقات على هذا الترتيب؟ وهلاّ أوجدها إيجاد الماء الذي ابتدعه أوّلا من غير شيء!

فيقال في جواب ذلك على طريق أصحابنا: لعلّ إخبارَه للمكلّفين بذلك على هذا الترتيب يكون لطفاً بهم[4]، ولا يجوز الإخبار منه تعالى إلّا والمخبَر عنه مطابق للإخبار.

فهذا حظّ المباحث المعنوية من هذا الفصل.

* * *

ثم نشرع في تفسير ألفاظه:

أمّا الأجواء فجمع جَوّ، والجوّ هنا الفضاء العالي بين السماء والأرض. والأرجاء:

---

(١) ا: «استدلوا».
(٢) سورة فصلت ٩.
(٣) سورة فصلت ١٠.
(٤) كذا في ج، وفي ا، ب: «لهم».

الجوانب ، واحدها رَجا مثل عصا . والسكائك : جمع سُكاكة ؛ وهى أعلى الفضاء ، كما قالوا : ذُؤابة وذوائب . والتيّار : الموج . والمتراكم : الذى بعضُه فوق بعض . والزّخّار : الذى يزْخَر ، أى يمتدّ ويرتفع . والريح الزعْزع : الشديدة الهبوب ، وكذلك القاصفة ؛ كأنها تُهلِك الناس بشدّة هبوبها . ومعنى قوله : « فأمرها بردّه » ، أى بمنعه عن الهبوط ؛ لأنّ الماء ثقيل ، ومن شأن الثقيل الهُوِىّ . ومعنى قوله : « وسلّطها على شدّه » أى على وثاقه ؛ كأنه سبحانه لما سلّط الريح على منعه من الهبوط ؛ فكأنه قد شدّه بها وأوثقه ومنعه من الحركة . ومعنى قوله : « وقرنها إلى حدّه » ، أى جعلها مكاناً له ؛ أى جعل حدّ الماء المذكور — وهو سطحه الأسفل — مماسّاً سطح الريح التى تحمله وتُقِلّه . والفتيق : المفتوق المنبسط. والدفيق : المدفوق . واعتقم مَهَبّها ، أى جعل هُبوبَها عقيماً ، والريح العقيم : التى لا تُلْقِحُ سحاباً ولا شجراً ؛ وكذلك كانت تلك الريح المشار إليها ؛ لأنه سبحانه إنما خلقها لتمويج الماء فقط . وأدام مُرَبّها ، أى ملازمتها ، أربّ بالمكان مثل ألبّ به ، أى لازمه .

ومعنى قوله : « وعصفت به عَصْفَها بالفضاء » ، فيه [1] معنى لطيف ؛ يقول : إنّ الريح إذا عصفت بالفضاء الذى لا أجسام فيه كان عصفُها شديداً لعدم المانع ؛ وهذه الريح عصفت بذلك الماء العظيم عصفاً شديداً ؛ كأنها تعصِفُ فى فضاء لا ممانع لها فيه من الأجسام.

والساجى : الساكن . والمائر : الذى يذهب ويجىء . وعبّ عُبابُه : أى ارتفع أعلاه. ورُكامه : ثَبجه وهِضَبُه [2] . والجوّ المنفهق : المفتوح الواسع . والموج المكفوف : الممنوع من السّيلان . وعَمَدٍ يدْعَمُها : يكون لها دِعامة . والدِّسار : واحد الدُّسُر وهى المسامير. والثواقب النيّرة : المشرقة . وسراجاً مستطيراً ، أى منتشر الضوء ؛ يقال : قد استطار

---

(١) كلمة « فيه » ساقطة من ب . (٢) ب : « هضبته » .

الفجر ، أى انتشر ضوءه. ورقيم مائر ، أى لوح متحرّك ؛ سُمّى الفلك رقيما تشبيهاً باللوح، لأنه مسطّح .

***

فأمّا القطبُ الراونديّ فقال : إنّه عليه السلام ذكر قبل هذه الكلمات أنه أنشأ حيواناً له أعضاء وأحناء ، ثم ذكر هاهنا أنّه فتق السماء ، وميّز بعضها عن بعض ، ثم ذكر أنّ بين كلّ سماء وسماء مسيرة خمسمائة عام ، وهى سبع سموات ، وكذلك بين كلّ أرض وأرض ، وهى سبع أيضاً. وروى حديث البقرة التى تحمل المَلَك الحامل للعرش، والصخرة التى تحمل البقرة ، والحوت الذى يحمل الصخرة .

ولقائل أن يقول : إنّه عليه السلام لم يذكر فيما تقدم أنّ الله تعالى خلق حيوانا ذا أعضاء ، ولا قوله الآن : « ثم أنشأ سبحانه فتق الأجواء » ، هو معنى قوله تعالى : ﴿ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ﴾[1]، ألا تراه كيف صرّح عليه السلام بأن البارئ سبحانه خلق الهواء الذى هو الفضاء ، وعبّر عن ذلك بقوله : « ثم أنشأ سبحانه فتق الأجواء » ، وليس فتقُ الأجواء هو فتق السماء !

فإن قلتَ : فكيف يمكن التطبيقُ بين كلامه عليه السلام وبين الآية ؟

قلتُ : إنه تعالى لما سلّط الريح على الماء فعصفتْ به، حتى جعلته بخاراً وزَبَداً ، وخلق من أحدهما السماء ومن الآخر الأرض ؛ كان فاتقا لهما من شىء واحد ، وهو الماء .

فأمّا حديثُ البعد بين السموات وكونه مسيرةَ خمسمائة عام بين كلّ سماء وسماء ، فقد ورد وروداً لم يُوثَق به ؛ وأكثر[2] الناس على خلاف ذلك . وكونُ الأرض سبعا أيضاً

(١) سورة الأنبياء ٣٠

(٢) ا : « فأكثر » ، وما أثبته عن ا ، ب

خلافُ مايقوله جمهور العقلاء ، وليس فى القرآن العزيز مايدلّ على تعدد الأرض إلاقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ [١] ، وقد أوّلوه على الأقاليم السبعة . وحديثُ الصخرة والحوت والبقرة من الخرافات فى غالب الظنّ ، والصحيح أنّ الله تعالى يُمْسِكُ الكلّ بغير واسطة جسم آخر .

***

ثم قال الراوندىّ : السَّكائك : جمعُ سُكَّاك ، وهذا [٢] غير جائز ، لأن « فُعالا » لا يجمع على « فعائل » ؛ وإنما هو جمع سُكَّاكة ، ذكر ذلك الجوهرىّ [٣] .

ثم قال : « وسلّطها على شَدّه » ، الشدّ : العدْو . ولا يجوز حمل الشدّ هاهنا على العَدْو ؛ لأنه لامعنى له ، والصحيح ماذكرناه .

وقال فى تفسير قوله عليه السلام : « جعل سُفْلاهنّ موجاً مكفوفا » ، أراد تشبيهَها بالموج لصفائها واعتلائها . فيقال له : إنّ الموجَ ليس بعالٍ ليشبَّه به الجسم العالى ، وأما صفاؤه فإن كلّ السموات صافية ، فلماذا خَصّ سُفْلاهنّ بذلك !

ثم قال : ويمكن أن تكون السماء السُّفْلى قد كانت أوّل ماوجدت موجا ثم عَقَدها . يقال له : والسموات الأُخَر كذلك كانت ، فلماذا خصّ السُّفْلى بذلك !

ثم قال : الريح الأولى غير الريح الثانية ، لأنّ إحداهما معرفة والأخرى نكرة ؛ وهذا مثل قوله : صم اليوم ، صم يوما ، فإنه يقتضى يومين .

يقال له : ليست المغايرة بينهما مستفادة من مجرّد التعريف والتنكير ، لأنه لو كان قال

---

(١) سورة الطلاق ١٢

(٢) ب : « وهو » وما أثبته عن ا

(٣) الصحاح ص ١٥٩١ ، والذى فيه : « والسكاك والسكاكة : الهواء الذى يلاق أعنان السماء » .

عليه السلام : « وحمله على متن ريح عاصفة وزعزع قاصفة » لكانت الريحان : الأولى والثانية منكّرتين معاً ، وهما متغايرتان ، وإنما علمنا تغايرهما ، لأنّ إحداهما تحت الماء والأخرى فوقه ، والجسم الواحد لا يكون فى جهتين .

***

الأصْلُ :

ثُمَّ فَتَقَ مَا بَيْنَ ٱلسَّمٰوَاتِ ٱلْعُلَا ، فَمَلَأَهُنَّ أَطْوَاراً مِنْ مَلَائِكَتِهِ ؛ مِنْهُمْ سُجُودٌ لَا يَرْكَعُونَ ، وَرُكُوعٌ لَا يَنْتَصِبُونَ ، وَصَافُّونَ لَا يَتَزَايَلُونَ ، وَمُسَبِّحُونَ لَا يَسْأَمُونَ ، لَا يَغْشَاهُمْ نَوْمُ ٱلْعُيُونِ ، وَلَا سَهْوُ ٱلْعُقُولِ ، وَلَا فَتْرَةُ ٱلْأَبْدَانِ ، وَلَا غَفْلَةُ ٱلنِّسْيَانِ .

وَمِنْهُمْ أُمَنَاءُ عَلَى وَحْيِهِ ، وَأَلْسِنَةٌ إِلَىٰ رُسُلِهِ ، وَمُخْتَلِفُونَ بِقَضَائِهِ[1] وَأَمْرِهِ . وَمِنْهُمُ ٱلْحَفَظَةُ لِعِبَادِهِ ، وَٱلسَّدَنَةُ لِأَبْوَابِ جِنَانِهِ . وَمِنْهُمُ ٱلثَّابِتَةُ فِى ٱلْأَرَضِينَ ٱلسُّفْلَىٰ أَقْدَامُهُمْ ، وَٱلْمَارِقَةُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ ٱلْعُلْيَا أَعْنَاقُهُمْ ، وَٱلْخَارِجَةُ مِنَ ٱلْأَقْطَارِ أَرْكَانُهُمْ ، وَٱلْمُنَاسِبَةُ لِقَوَائِمِ ٱلْعَرْشِ أَكْتَافُهُمْ ، نَاكِسَةٌ دُونَهُ أَبْصَارُهُمْ ، مُتَلَفِّعُونَ تَحْتَهُ بِأَجْنِحَتِهِمْ ، مَضْرُوبَةٌ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَنْ دُونَهُمْ حُجُبُ ٱلْعِزَّةِ وَأَسْتَارُ ٱلْقُدْرَةِ ؛ لَا يَتَوَهَّمُونَ رَبَّهُمْ بِالتَّصْوِيرِ ، وَلَا يُجْرُونَ عَلَيْهِ صِفَاتِ ٱلْمَصْنُوعِينَ ، وَلَا يَحُدُّونَهُ بِالْأَمَاكِنِ ، وَلَا يُشِيرُونَ إِلَيْهِ بِالنَّظَائِرِ .

[القول فى الملائكة وأقسامهم]

الشَّرْحُ :

الملَك عند المعتزلة حيوان نورىّ ؛ فمنه شفّاف عادم اللون كالهواء ، ومنه ملوّن بلون الشمس . والملائكة عندهم قادرون عالمون أحياء بعلوم وقُدَر وحياة ؛ كالواحد منّا ، ومكلّفون كالواحد منا ، إلا أنهم معصومون . ولهم فى كيفية تكليفهم كلام ؛ لأنّ التكليف

(١) مخطوطة النهج : « لقضائه » .

مبنىّ على الشهوة .

وفى كيفية خَلْق الشهوة فيهم نظر ، وليس هذا الكتاب موضوعاللبحث فى ذلك .

وقد جعلهم عليه السلام فى هذا الفصل أربعة أقسام :

القسم الأول : أرباب العبادة ؛ فمنهم مَنْ هو ساجد أبدا لم يقم من سجوده ليركع ، ومنهم من هو راكع أبدا لم ينتصِب قطّ ، ومنهم الصافّون فى الصلاة بين يدىْ خالقهم لا يتزايلون ، ومنهم المسبّحون الذين لا يملّون التسبيح والتحميد له سبحانه .

والقسم الثانى : السُّفراء بينه تعالى وبين المكلّفين من البشر بتحمّل الوحى الإلهىّ إلى الرسل ، والمختلفون بقضائه وأمره إلى أهل الأرض .

والقسم الثالث ضربان : أحدهما حَفَظة العباد كالكرام الكاتبين ، وكالملائكة الذين يحفظون البشر من المهالك والورطات ؛ ولولا ذلك لكان العَطَب أكثرَ من السلامة .وثانيهما سَدَنة الجِنان .

القسم الرابع : حَمَلة العرش .

ويجب أن يكون الضمير فى « دونه » ـ وهو الهاء ـ راجعاً إلى العرش لا إلى البارئ سبحانه . وكذلك الهاء فى قوله : « تحته » . ويجب أن تكون الإشارة بقوله : « وبين مَنْ دونهم » إلى الملائكة الذين دون هؤلاء فى الرتبة .

فأما ألفاظ الفصل فكلها غنيّة عن التفسير إلا يسيراً ، كالسَّدنة جمع سادِن وهو الخادم ، والمارق : الخارج . وتلفّعت بالثوب ، أى التحفت به .

* * *

وأما[1] القطب الراوندىّ فجعل الأمناء على الوحى وحفَظة العباد وسدَنة الجنان

---

(١) ا : « فأما »

قسما واحدا ، فأعاد الأقسام الأربعة إلى ثلاثة . وليس بجيّد ، لأنه قال : « ومنهم الخفقة » ، فلفظة « ومنهم » تقتضى كونَ الأقسام أربعة ؛ لأنه بها فصّل بين الأقسام .

وقال أيضاً : معنى قوله عليه السلام : « لا يغشاهم نوم العيون » يقتضى أنّ لهم نوما قليلا لا يُغفلهم عن ذكر الله سبحانه ، فأما البارئ سبحانه فإنه لا تأخذه سِنَة ولا نوم أصلا ، مع أنه حيّ ، وهذه هى المدحة العظمى .

ولقائل أن يقول : لو ناموا قليلا لكانوا زمانَ ذلك النوم ـ وإن قلّ ـ غافلين عن ذكر الله سبحانه ؛ لأنّ الجمع بين النوم وبين الذكر مستحيل .

والصحيح أنّ المَلَك لا يجوز عليه النوم ، كما لا يجوز عليه الأكل والشرب ؛ لأنّ النوم من توابع المِزاج ، والمَلَك لا مِزاج له . وأما مدحُ البارئ بأنه لا تأخذه سنة ولا نوم فخارج عن هذا الباب ، لأنه تعالى يستحيل عليه النوم استحالة ذاتية ، لا يجوز تبدّلها ، والملك يجوز أن يخرج عن كونه مَلَكا ، بأنْ يُخلق فى أجزاء جسمه رُطوبةٌ ويبوسة ، وحرارة وبرودة ، يحصل من اجتماعها مِزاج ، ويتبع ذلك المِزاج النوم . فاستحالة النوم عليه إنما هى ما دام مَلَكا ، فهو كقولك : الماء بارد ، أى ما دام ماء ؛ لأنه يمكن أن يستحيل هواء ثم نارا ، فلا يكون باردا ، لأنه ليس حينئذ ماء . والبارئ جلّت عظمته يستحيل على ذاته أن يتغيّر ، فاستحال عليه النوم استحالةً مطلقة ، مع أنه حىّ ، ومن هذا إنشاء التمدّح . وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله : « إنّ الله خلق الخلق أربعة أصناف : الملائكة ، والشياطين ، والجنّ ، والإنس . ثم جعل الأصناف الأربعة عشرة أجزاء ، فتسعة منها الملائكة وجزء واحد الشياطين والجنّ والإنس ، ثم جعل هؤلاء الثلاثةَ عشرةَ أجزاء ، فتسعة منها الشياطين وجزء واحد الجنّ والإنس ، ثم جعل الجنّ والإنس عشرة أجزاء ، فتسعة منها الجنّ وجزء واحد الإنس » .

وفى الحديث الصحيح : إن الملائكة كانت تصافح عمران بن الحصين وتزوره ، ثم افتقدها ، فقال : يارسول الله ، إن رجالا كانوا يأتوننى لم أر أحسنَ وجوهاً ، ولا أطيب أرواحاً منهم ، ثم انقطعوا . فقال عليه السلام : « أصابك جُرح فكنت تكتمه » ؟ فقال : أجل ، قال : «ثم أظهرتَه» ؟ قال : أجل ، قال : « أمَا لو أقمت على كِتْمانه لزارتك الملائكة إلى أن تموت » ؛ وكان هذا الجرح أصابه فى سبيل الله .

وقال سعيد بن المسيّب وغيره : الملائكة ليسوا بذكور ولا إناث ، ولا يتوالدون ولا يأكلون ولا يشربون ، والجنّ يتوالدون وفيهم ذكور وإناث ويموتون ، والشياطين ذكور وإناث ويتوالدون ، ولا يموتون حتى يموت إبليس .

وقال النبيّ صلى الله عليه وآله فى رواية أبى ذرّ : « إنّى أرى مالا ترون ، وأسمع مالا تسمعون ، أطّت السماء وحُقّ لها أن تئطّ [1] فما فيها موضع شبر إلا وفيه مَلَك قائم أو راكع أو ساجد واضع جبهتَه لله . والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ، ولبكيتم كثيرا ، وماتلذذتم بالنساء على الفُرُش، ولخرجتم إلى الفلوات تجأرون إلى الله . والله لوددت أنى كنت شجرة تُعْضَد » [2] .

قلت : ويُوشك هذه الكلمة الأخيرة أن تكون قول أبى ذرّ .

واتفق أهلُ الكتب على أنّ رؤساء الملائكة وأعيانَهم أربعة : جبرائيل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، وعزرائيل ؛ وهو مَلَك الموت . وقالوا : إن إسرافيلَ صاحب الصُّور وإليه النفخة ، وإن ميكائيل صاحب النبات والمطر ، وإن عزرائيل على أرواح الحيوانات ، وإن جبرائيل على جنود السموات والأرض كلّها ، وإليه تدبير الرياح ، وهو ينزل إليهم كلهم بما يؤمرون به .

(١) ذكره ابن الأثير فى النهاية ١ : ٣٥ ، وقال : « الأطيط : صوت الأقتاب ، وأطيط الإبل : أصواتها وحنينها ؛ أى أن كثرة مافيها من الملائكة قد أثقلها حتى أطّت ؛ وهذا مثل وإيذان بكثرة الملائكة ؛ وإن لم يكن ثم أطيط ؛ وإنما هو كلام تقريب ، أريد به تقرير عظمة الله تعالى » .

(٢) تعضد : تقطع ؛ وانظر النهاية لابن الأثير ٣ : ١٠٤

وروى أنسُ بن مالك أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وآله : ماهؤلاء الذين استثنى بهم فى قوله تعالى : ﴿ فَصَعِقَ مَنْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَنْ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ ٱللَّهُ ﴾؟(١) فقال : « جبرائيل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، وعزرائيل ؛ فيقول الله عز وجل لعزرائيل : ياملَكَ الموت ، مَن بقى ؟ وهو سبحانه أعلم ـ فيقول : سبحانك ربى ذا الجلال والإكرام! بقىَ جبرائيل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، وملَكَ الموت ؛ فيقول : ياملك الموت ، خذ نفس إسرافيل ، فيقعُ فى صورته التى خُلق عليها كأعظم ما يكون من الأطواد ، ثم يقول : ـ وهو أعلم ـ مَنْ بقىَ ياملَكَ الموت ؟ فيقول : سبحانك ربى ياذا الجلال والإكرام ! جبرائيل وميكائيل ومَلَكَ الموت ، فيقول : خذ نفس ميكائيل ، فيقع فى صورته التى خُلِق عليها ، وهى أعظم مايكون من خَلْق إسرافيل بأضعافٍ مضاعفة . ثم يقول سبحانه : ياملَكَ الموت ، مَنْ بقىَ ؟ فيقول : سبحانك ربى ذا الجلال والإكرام : جبرائيل، ومَلَكَ الموت ، فيقول تعالى : ياملَكَ الموت ، مت فيموت ، ويبقى جبرائيل — وهو من الله تعالى بالمكان الذى ذكر لكم ـ فيقول الله : ياجبرائيل ، إنه لا بدّ من أن يموت أحدنا ، فيقع جبرائيل ساجدا يخفق بجناحيه ، يقول : سبحانك ربى وبحمدك ! أنت الدائم القائم الذى لا يموت ؛ وجبرائيل الهالك الميت الفانى ، فيقبض الله روحَه ، فيقع على ميكائيل وإسرافيل ، وإنّ فَضْل خلقِه على خلقهما كفضل الطَّوْد العظيم على الظَّرِب(٢) من الظِّراب .

وفى الأحاديث الصحيحة أنّ جبرائيل كان يأتى رسول الله صلى الله عليه وآله على صورة دِحْية الكَلْبِىّ ، وأنّه كان يوم بدر على فرس اسمه حيزوم ، وإنه سُمِع ذلك اليوم صوته : أقْدِمْ حَيْزوم(٣) .

---

(١) سوره الزمر ٦٨

(٢) الظرب ككتف : الجبل الصغير .

(٣) الخبر فى اللسان (حزم) ؛ وفيه : « أراد أقدم ياحيزوم ؛ فحذف حرف النداء ، والياء فيه « زائدة » .

والكَرُوبِيّون[1] عند أهلِ الملّة سادة الملائكة ، كجبرائيل وميكائيل . وعند الفلاسفة أنّ سادة الملائكة هم الروحانيّون — يعنون العقول الفعالة وهى المفارقة للعالم الجسمانىّ المسلوبة التعلُّق به ، لا بالحلول ولا بالتدْبير . وأما الكَرُوبيُّون فدون الروحانيين فى المرتبة وهى أنفس الأفلاك المدبّرة لها ، الجارية منها مجرى نفوسنا مع أجسامنا .

ثم هى على قسمين : قسم أشرف وأعلى من القسم الآخر ، فالقسم الأشرف ما كان نَفْسًا ناطقة غير حالّة فى جِرْم الفلك ، كأنفسنا بالنسبة إلى أبداننا . والقسم الثانى ما كان حالًّا فى جِرْم الفَلَك ، ويجرى ذلك مجرى القُوَى التى فى أبداننا ، كالحسّ المشترك والقوة الباصرة .

***

الأصلُ :

منها فى صفة خلق آدم عليه السلام :

ثُمَّ جَمَعَ سُبْحَانَهُ مِنْ حَزْنِ الْأَرْضِ وَسَهْلِهَا ، وَعَذْبِهَا وَسَبَخِهَا ، تُرْبَةً سَنَّهَا بِالْمَاءِ حَتَّى خَلَصَتْ ، وَلَاطَهَا بِالْبَلَّةِ حَتَّى لَزَبَتْ ، فَجَبَلَ مِنْهَا صُورَةً ذَاتَ أَحْنَاءٍ ، وَوُصُولٍ وَأَعْضَاءٍ ، وَفُصُولٍ أَجْمَدَهَا حَتَّى اسْتَمْسَكَتْ ، وَأَصْلَدَهَا حَتَّى صَلْصَلَتْ ، لِوَقْتٍ مَعْدُودٍ ، وَأَجَلٍ مَعْلُومٍ .

ثُمَّ نَفَخَ فِيهَا مِنْ رُوحِهِ فتمثلت[2] إِنْسَاناً ذَا أَذْهَانٍ يُجِيلُهَا ، وَفِكَرٍ يَتَصَرَّفُ بِهَا ، وَجَوَارِحَ يَخْتَدِمُهَا ، وَأَدَوَاتٍ يُقَلِّبُهَا ، وَمَعْرِفَةٍ يَفْرُقُ بِهَا بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ، وَالْأَذْوَاقِ وَالْمَشَامِّ ، وَالْأَلْوَانِ وَالْأَجْنَاسِ ، مَعْجُوناً بِطِينَةِ الْأَلْوَانِ الْمُخْتَلِفَةِ ،

---

(١) الكروبيون ، مخففة الراء — على ماقاله صاحب القاموس — : هم أقرب الملائكة إلى حملة العرش ؛ وأصله من الكرب وهو القرب ؛ قال أمية :

ملائكة لايفترون عبادةً   كَرُوبيّةٌ مِنهمْ ركوعٌ وسُجَّدُ

(٢) مخطوطة النهج : « فمثلت » .

(١ وَالأَشْبَاهِ الْمُؤْتَلِفَةِ (١)، وَالأَضْدَادِ الْمُتَعَادِيَةِ، وَالأَخْلاطِ الْمُتَبَايِنَةِ، مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ، وَالْبِلَّةِ وَالْجُمُودِ، وَالْمَسَاءَةِ وَالسُّرُورِ.

وَاسْتَأْدَى اللهُ سُبْحَانَهُ الْمَلائِكَةَ وَدِيعَتَهُ لَدَيْهِمْ، وَعَهْدَ وَصِيَّتِهِ إِلَيْهِمْ، فِي الإِذْعَانِ بِالسُّجُودِ لَهُ، وَالْخُنُوعِ لِتَكْرِمَتِهِ، فَقَالَ لَهُمْ: ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾[2] وَقَبِيلَهُ؛ اعْتَرَتْهُمُ الْحَمِيَّةُ، وَغَلَبَتْ عَلَيْهِمُ الشِّقْوَةُ، وَتَعَزَّزُوا بِخِلْقَةِ النَّارِ، وَاسْتَوْهَنُوا خَلْقَ الصَّلْصَالِ، فَأَعْطَاهُ اللهُ النَّظِرَةَ اسْتِحْقَاقًا لِلسُّخْطَةِ، وَاسْتِتْمَامًا لِلْبَلِيَّةِ، وَإِنْجَازًا لِلْعِدَةِ، فَقَالَ: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾[3].

* * *

الشَّرْحُ :

الحزْن : ماغلُظ من الأرض. وسَبَخُها : ماملُح منها . وسَنَّها بالماء ، أى مَلسها، قال:

ثم خاصَرتُهـا إلى القُبَّةِ الخَضْـ ... ـراء تَمْشِى فى مَرْمَرٍ مَسْنُونِ[4]

أى مملّس . ولاطها ، من قولهم : لُطتُ الحوضَ بالطين ، أى ملطته وطيَّنته به. والبَلّة بفتح الباء ، من البَلل . ولزَبت ، بفتح الزاى ، أى التصقت وثبتت . فجَبَل منها ، أى خلق . والأحناء : الجوانب ، جمع حِنْو . وأصلدَها : جعلها صَلدا ، أى صُلْبا متينا . وصلصلت : يبست ، وهو الصلصال . ويختدمها : يجعلها فى مآربه وأوطاره كالخدَم الذين تستعملهم وتستخدمهم . واستأدَى الملائكة وديعته : طلب منهم أداءها . والخنوع : الخضوع . والشِّقوة ، بكسر الشين ، وفى الكتاب العزيز : ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا

(١ ـ ١) تكملة من مخطوطة النهج .

(٢) سورة البقرة ٣٤ .

(٣) سورة ص ٨٠ ، ٨١ .

(٤) لعبد الرحمن بن حسان بن ثابت ، من أبيات يشبب فيها برملة بنت معاوية ؛ كذا نسبه صاحب اللسان ١٧ : ٨٨ ؛ ونقل عن ابن برى أنها تروى لأبى دهبل.

شِقْوَتُنَا ﴾ (١) . واستوهَنوا : عدّوه واهنا ضعيفا . والنَّظِرة ، بفتح النون وكسر الظاء : الإمهال والتأخير .

فأما معانى الفصل فظاهرة ، وفيه مع ذلك مباحث :

منها أن يقال : اللام فى قوله : « لوقت معدود » بماذا تتعلق ؟

والجواب،أنّها تتعلق بمحذوف تقديره: « حتى صلصلت كائنة لوقت»،فيكون الجار والمجرور فى موضع الحال ، ويكون معنى الكلام أنّه أصلَدها حتى يبست وجفّت معدّة لوقت معلوم ، فنفخ حينئذ روحَه فيها . ويمكن أن تكون اللام متعلقة بقوله : « فجَبَل » أى جَبَل وخَلَق من الأرض هذه الجثّة لوقت،أى لأجل وقت معلوم ، وهو يوم القيامة.

* * *

ومنها أن يقال : لماذا قال : « مِنْ حَزْنِ الأرض وسَهْلها ، وعَذْبِها وسَبَخها »؟

والجواب ، أن المراد من ذلك أن يكون الإنسانُ مركّبا من طباع مختلفة،وفيه استعداد للخير والشرّ ، والحسَن والقبيح .

* * *

ومنها أن يقال : لماذا أخّر نفخَ الروح فى جثة آدَم مدة طويلة ، فقد قيل : إنه بقىَ طينا تشاهده الملائكة أربعين سنة ، ولا يعلمون ما المراد به ؟

والجواب ، يجوز أن يكون فى ذلك (٢ لطف للملائكة ، لأنهم تذهب ظنونهم فى ذلك ٢) كلّ مذهب ، فصار كإنزال المتشابهات الذى تحصل به رياضة الأذهان وتخريجها ، وفى ضمن ذلك يكون اللطف . ويجوز أن يكون فى إخبار ذرّيّة آدم بذلك فيما بعد لطف بهم (٣) ، ولا يجوز إخبارهم بذلك إلا إذا كان المخبَر عنه حقًّا .

---

(١) سورة « المؤمنون » ١٠٦ .

(٢ ــ ٢) ساقط من ا .

(٣) ب : « لهم » .

ومنها أن يقال : ما المعنى بقوله : « ثُمَّ نَفَخَ فِيهاَ مِنْ رُوحِهِ » ؟

الجواب ، أنَّ النفس لما كانت جوهراً مجرَّداً ، لا متحيزة ولا حالّة في المتحيز حَسُن لذلك نسبتها إلى البارئ ، لأنها أقرب إلى الانتساب إليه من الجثمانيات [١]. ويمكن أيضاً أن تكونَ لشرفها مضافة إليه ، كما يقال : بيت الله ، للكعبة. وأما النفخ فعبارة عن إفاضة النفس على الجسد ، ولما كان نفخ الريح فى الوعاء عبارة عن إدخال الريح إلى جوفه، وكان الإحياء عبارةً عن إفاضة النفس على الجسد، ويستلزم ذلك حلولَ القُوَى والأرواح فى الجثة باطنا وظاهراً ، سُمّى ذلك نفخا مجازا .

***

ومنها أن يقال : ما معنى قوله : « معجونا بطينةِ الألوان المختلفة » ؟

الجواب ، أنه عليه السلام قد فَسّر ذلك بقوله : «من الحرّ والبرد ، والبلّة والجمود»، يعنى الرطوبة واليبوسة ؛ ومراده بذلك المزاج الذى هو كيفية واحدة حاصلة من كيفيات مختلفة،قد انكسر بعضها ببعض. وقوله : «معجونا» صفة « إنسانا » . والألوان المختلفة، يعنى الضروبَ والفنون ، كما تقول [٢] : فى الدار ألوان من الفاكهة .

***

ومنها أن يقال : ما المعنى بقوله : « واستأدى الملائكة وديعته لديهم »؟وكيف كان هذا العهدُ والوصية بينه وبينهم ؟

الجواب ، أن العهد والوصيةَ هو قوله تعالى لهم : ﴿ إِنِّى خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [٣] .

***

(١) يقال : جثمان الرجل وجسمانه ، أى جسده .
(٢) ا : « كما يقال » .
(٣) سورة ص ٧١ ، ٧٢ .

ومنها أن يقال : كيف كانت شُبهة إبليس وأصحابه فى التعزُّز بخلقة النار ؟

الجواب ، لما كانت النار مشرِقة بالذات والأرض مظلمة ، وكانت النار أشبهَ بالنور ، والنور أشبه بالمجردات ، جعل إبليسُ ذلك حجة احتجّ بها فى شَرَف عنصرِه على عُنصر آدم عليه السلام ، ولأنّ النار أقربُ إلى الفَلَك من الأرض ، وكلّ شىء كان أقربَ إلى الفلك من غيره كان أشرفَ ، والبارئُ تعالى لم يعتبر ذلك ، وفَعَل سبحانه ما يعلم أنه المصلحة والصواب .

***

ومنها أن يقال : كيف يجوز السجود لغير الله تعالى ؟

والجواب ، أنه قيل : إنّ السجود لم يكن إلا لله تعالى ، وإنما كان آدم عليه السلام قِبلة. ويمكن أن يقالَ : إن السجود لله على وجه العبادة، ولغيره على وجه التَّكرمة ؛ كما سجد أبو يوسف وإخوته له . ويجوز أن تختلف الأحوال والأوقات فى حسن ذلك وقبحه .

***

ومنها أن يقال : كيف جاز على ما تعتقدونه من حِكمة البارئ أن يسلّط إبليس على المكلَّفين ؛ أليس هذا هو الاستفساد الذى تأبَوْنه وتمنعونه !

والجواب ، أما الشيخ أبو علىّ رحمه الله فيقول : حدُّ المفسدة ما وقع عند الفساد ، ولولاه لم يقع مع تمكّن المكلّف من الفعل فى الحالين، ومَنْ فسد بدعاء إبليس لم يتحقق فيه هذا الحدّ ، لأن الله تعالى علم أن كلّ من فسد عند دعائه ، فإنه يفسد ، ولو لم يَدْعُه .

وأما أبو هاشم رحمه الله ، فيحدّ المفسدة[1] بهذا الحدّ أيضا ، ويقول : إن فى الإتيان بالطاعة مع دعاء إبليس إلى القبيح مشقّةً زائدة على مشقة الإتيان بها لو لم يدع إبليس إلى

---

(١) ج : « الفساد » .

القبيح ، فصار الإتيان بها مع اعتبار دعاء إبليس إلى خلافها خارجاً عن الحدّ المذكور ، وداخلا فى حَيِّز التمكُّن الذى لو فرضنا ارتفاعَه لما صحّ من المكلّف الإتيان بالفعل ، ونحن قلنا فى الحدّ مع تمكّن المكلّف من الإتيان بالفعل فى الحالين .

* * *

ومنها أن يقال : كيف جازَ للحكيم سبحانه أن يقول لإبليس : ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ إلى يوم القيامة ! وهذا إغراء بالقبيح ، وأنتم تمنعون أن يقول الحكيم لزيد : أنت لا تموت إلى سنة ، بل إلى شهر أو يوم واحد ، لما فيه من الإغراء بالقبيح ، والعزم على التوبة قبل انقضاء الأمد .

والجواب ، أنّ أصحابنا قالوا : إنّ البارئ تعالى لم يقل لإبليس : إنى مُنظِرُك إلى يوم القيامة ؛ وإنما قال : ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ ، وهو عبارة عن وقت موته واخترامه ، وكل مكلّف من الإنس والجنّ مُنظَر إلى يوم الوقت المعلوم على هذا التفسير ، وإذا[1] كان كذلك لم يكن إبليس عالما أنه يبقى لا محالة ، فلم يكن فى ذلك إغراء له[2] بالقبيح .

فإن قلت : فما معنى قوله عليه السلام : « وإنجازاً لِلعِدَة » ؟ أليس معنى ذلك أنّه قد كان وَعَده أن يُبقِيَه إلى يوم القيامة !

قلت : إنما وعده الإنظار ، ويمكن أن يكون إلى يوم القيامة وإلى غيره من الأوقات ، ولم يبيّن له ، فهو تعالى أنجز له وعده فى الإنظار المطلق ، وما من وقت إلا ويجوز فيه أن يُخترم إبليس[3] فلا يحصل الإغراء بالقبيح . وهذا الكلام عندنا ضعيف ، ولنا فيه نظر مذكور فى كتبنا الكلاميّة .

* * *

(١) ا : « فإذا » .

(٢) كلمة « له » ساقطة من ا .

(٣) كلمة « إبليس » ساقطة من ب .

الأصل :

ثُمَّ أَسْكَنَ آدَمَ دَاراً أَرْغَدَ فِيهَا عِيشَتَهُ ، وَآمَنَ فِيهَا مَحَلَّتَهُ ، وَحَذَّرَهُ إِبْلِيسَ وَعَدَاوَتَهُ ، فَاغْتَرَّهُ عَدُوُّهُ نَفَاسَةً عَلَيْهِ بِدَارِ الْمُقَامِ ، وَمُرَافَقَةِ الْأَبْرَارِ، فَبَاعَ الْيَقِينَ بِشَكِّهِ ، وَالْعَزِيمَةَ بِوَهْنِهِ ، وَاسْتَبْدَلَ بِالْجَذَلِ وَجَلاً ، وَبِالاعْتِزَازِ نَدَماً .

ثُمَّ بَسَطَ اللهُ سُبْحَانَهُ لَهُ فِي تَوْبَتِهِ ، وَلَقَّاهُ كَلِمَةَ رَحْمَتِهِ ، وَوَعَدَهُ الْمَرَدَّ إِلَى جَنَّتِهِ ؛ فَأَهْبَطَهُ إِلَى دَارِ الْبَلِيَّةِ ، وَتَنَاسُلِ الذُّرِّيَّةِ .

* * *

الشرح :

أما الألفاظ فظاهرة ، والمعانى أظهر ، وفيها ما يُسأل عنه .

فنها أن يقال : الفاء فى قوله عليه السلام : « فأهبطه » ، تقتضى أن تكون التوبة على آدم قبل هبوطه من الجنة .

والجواب ، أن ذلك أحد قولَىِ المفسرين ، ويعضده قوله تعالى: ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ * قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا ﴾[1] ، فجعل الهبوط بعد قبول التوبة .

ومنها أن يقال : إذا كان تعالى قد طَرَدَ إبليس من[2] الجنة لما أبى السجود ، فكيف توصّل إلى آدم وهو فى الجنة حتى استنزله عنها بتحسين أكل الشجرة له !

الجواب ، أنه يجوز أن يكون إنما مُنِع من دخول الجنة على وجه التقريب والإكرام ،

(١) سورة طه ١٢١ ـ ١٢٣

(٢) كذا فى ج ، وفى ا ، ب : « عن الجنة » .

كدخول الملائكة ، ولم يمنع من دخولها على غير ذلك الوجه . وقيل : إنه دخل في جوف الحية ، كما ورد في التفسير .

ومنها أن يقال : كيف اشتبه على آدم الحال في الشجرة المنهيّ عنها فخالف النهى ؟

الجواب ، أنه قيل له : لا تقربا هذه الشجرة ؛ وأريد بذلك نوع الشجرة ، فحمل آدم النهيَ على الشخص ، وأكل من شجرة أخرى من نوعها .

ومنها أنْ يقال : هذا الكلام من أمير المؤمنين عليه السلام تصريح بوقوع المعصية من آدم عليه السلام ؛ وهو قوله : « فباع اليقين بشكّه ، والعزيمة بوهنه » ، فما قولكم في ذلك ؟

الجواب ، أمّا أصحابنا فإنهم لا يمتنعون من إطلاق العصيان عليه ، ويقولون : إنها كانت صغيرة ، وعندهم أنّ الصغائر جائزة على الأنبياء عليهم السلام . وأما الإماميّة فيقولون: إنّ النهيَ كان نهيَ تنزيه لا نهى تحريم ، لأنهم لا يجيزون على الأنبياء الغلط والخطأ ، لا كبيرا ولا صغيرا ، وظواهرُ هذه الألفاظ تشهد بخلاف قولهم .

***

[اختلاف الأقوال في ابتداء خلق البشر]

واعلم أنّ الناس اختلفوا في ابتداء خلق البشر كيف كان ، فذهب أهلُ الملل من المسلمين واليهود والنصارى إلى أنّ مبدأ البشر هو آدم ، الأبُ الأوّل عليه السلام . وأكثر ما في القرآن العزيز من قصّة آدم مطابق لما في التوراة .

وذهب طوائف من الناس إلى غير ذلك :

أما الفلاسفة ، فإنهمْ زعموا أنه لا أوّل لنوع البشر ولا لغيرهم من الأنواع .

وأمّا الهند ، فمنْ كان منهم على رأى الفلاسفة فقوله ما ذكرناه . ومَنْ لم يكن منهم

على رأى الفلاسفة ويقول بحدوث الأجسام لا يُثبت آدم ، ويقول : إنّ الله تعالى خلَق الأفلاك وخلَق فيها طباعا محرِّكة لها بذاتها ، فلما تحرّكت – وحشوها أجسام لاستحالة الخلاء – كانت تلك الأجسام على طبيعة واحدة ، فاختلفت طبائعها بالحركة الفلكية ، فكان القريب من الفَلك المتحرِّك أسخنَ وألطف ، والبعيدُ أبرد وأكثف . ثم اختلطت العناصِر ، وتكوّنت منها المركّبات ، ومنها تكوّن نوع البشر كما يتكوّن الدود فى الفاكهة واللحم ، والبقّ فى البطائح والمواضع العفنة ، ثم تكوّن بعضُ البشر من بعض بالتوالد ، وصار ذلك قانونا مستمرًّا ، ونُسِىَ التخليق الأول الذى كان بالتولّد[1] . ومن الممكن أن يكون بعضُ البشر فى بعض الأراضى القاصية مخلوقا بالتولُّد[1] ، وإنما انقطع التولّد ، لأنّ الطبيعةَ إذا وجدت للتكوّن طريقا استغنت به عن طريق ثان .

وأما المجوس فلا يعرفون آدم ، ولا نوحا ، ولا ساما ، ولا حاما ، ولا يافث . وأوّلُ متكوّن عندهم من البشر البشرىّ[2] المسمى « كَيُومَرْث » ، ولقبه « كوشاه » ، أى ملك الجبل ، لأن « كو » هو الجبل بالفَهلويّة ، وكان هذا البشر فى الجبال . ومنهم من يسميه « كلشاه » أى ملك الطين ، و « كل » اسم الطّين ؛ لأنه لم يكن حينئذ بشر ليملكهم .

وقيل: تفسير « كيومرث »: حىّ ناطق ميت . قالوا : وكان قد رزق من الحسن ما لا يقع عليه بصر حيوان إلا وبهت وأُغمِىَ عليه ، ويزعمون أنّ مبدأ تكوّنه وحدوثه أنّ يزدان – وهو الصانع الأوّل عندهم – أفكر[3] فى أمر أهرِمن ، – وهو الشيطان عندهم – فكرةً أوجبت أنْ عرق جبينه ، فمسح العرق ورمى به ، فصار منه كيومَرث . ولهم خَبْط طَويل فى كيفية تكوّن « أهرِمن » من فكرة « يزدان » أو من إعجابه بنفسه ، أو من توحّشه ، وبينهم خلاف فى قِدَم « أهرمن » ، وحدوثه لا يليق شرحه بهذا الموضع[4] .

(١) كذا فى ج . وفى باقى الأصول : « التوالد » .

(٢) ب : « البشر » .

(٣) أفكر وفكر بالتشديد ، بمعنى .

(٤) انظر الشاهنامة ١٤ .

ثم اختلفوا فى مدة بقاء كيومرث فى الوجود ، فقال الأكثرون : ثلاثون سنة . وقال الأقلون : أربعون سنة . وقال قوم منهم : إن كيومرث مكث فى الجنة التى فى السماء ثلاثة آلاف سنة ، وهى : ألف الحَمَل ، وألف الثور ، وألف الجوزاء . ثم أُهبط إلى الأرض فكان بها آمنا مطمئنا ثلاثة آلاف سنة أخرى ، وهى : ألف السرطان ، وألف الأسد ، وألف السنبلة .

ثم مكث بعد ذلك ثلاثين أو أربعين سنة فى حَرْب وخصام بينه وبين أهرمن حتى هلك[١] .

واختلفوا فى كيفيّة هلاكه ، مع اتفاقهم على أنه هلك قتلا ، فالأكثرون قالوا : إنه قتل ابنا لأهرمن يُسَمَّى خزورّة ، فاستغاث أهرمن منه إلى يزدان ، فلم يجد بدّا من أن يقاصّه به حفظا للعهود التى بينه وبين أهرمن ، فقتله بابن أهرمن . وقال قوم : بل قتله أهرمن فى صراع كان بينهما ، قهره فيه أهرمن ، وعلاه وأكله[١] .

وذكروا فى كيفية ذلك الصراع أن كيومرث كان هو القاهر لأهرمن فى بادئ الحال ، وأنه ركبه وجعل يطوف به فى العالم إلى أن سأله أهرمن : أىّ الأشياء أخوف له وأهولها عنده ؟ فقال له : باب جهنم ، فلما بلغ به أهرمن إليها جمح به حتى سقط من فوقه ، ولم يستمسك ، فعلاه وسأله عن أىّ الجهات يبتدئ به فى الأكل ، فقال : من جهة الرِّجْل لأكون ناظراً إلى حُسْن العالم مدة ما ، فابتدأ أهرمن فأكله من عند رأسه ، فبلغ إلى موضع الخصى وأوعية المنىّ من الصلب ، فقطر من كيومرث قطرتا نُطْفة على الأرض ، فنبت منهما رِيباستان[٢] فى جبل بإصْطَخر يعرف بجبل دام داذ ؛ ثم ظهرت على تينك الرِّيباستين الأعضاء البشرية فى أول الشهر التاسع ، وتمت فى آخره ، فتصوّر منهما بَشَران : ذكر وأنثى ، وهما « ميشى » ، « وميشانه » ، وهما بمنزلة آدم وحوّاء عند المِلّيين . ويقال لهما أيضاً : « ملهى » و « ملهيانه » ، ويسمّيهما مجوس خوارزم : « مرد » و « مردانه » ،

(١) انظر الشاهنامة ١٤ .

(٢) الريباس ، بالكسر : نبت له عساليج غضة خضراء ، عراض الورق ، طعمها حامض مع قبض ، ينبت فى الجبال ذات الثلوج والبلاد الباردة من غير زرع . المعتمد ١٢٣

وزعموا أنهما مكثا خمسين سنة مستغنيين عن الطعام والشراب ، متنعمين غير متأذيين بشيء إلى أن ظهر لهما أهرمن فى صورة شيخ كبير ، فحملهما على التناول من فواكه الأشجار وأكل منها ، وهما يبصرانه شيخا ، فعاد شابا ، فأكلا منها حينئذ ، فوقعا فى البلايا والشرور ، وظهر فيهما الحرص حتى تزاوجا ، وولد لهما ولد فأكلاه حرصاً ، ثم ألقى الله تعالى فى قلوبهما رأفةً ، فولد لهما بعد ذلك ستةُ أبطن ؛ كل بطن ذكرٌ وأنثى ، وأسماؤهم فى كتاب أبستا — وهو الكتاب الذى جاء به زرادشت — معروفة ، ثم كان فى البطن السابع « سيامك » و « فرواك » ، فتزاوجا ، فولد لهما الملك المشهور الذى لم يعرف قبله ملك وهو « أوشهنج » ، وهو الذى خلف جده كيومرث ، وعقد له التاج ، وجلس على السرير ، وبنى مدينتىْ بابل والسوس .

فهذا ما يذكره المجوس فى مبدأ الخلق .

* * *

[تصويب الزنادقة إبليس لامتناعه عن السجود لآدم]

وكان فى المسلمين — ممن يرمى بالزندقة — مَنْ يذهب إلى تصويب إبليس فى الامتناع من السجود ، ويفضّله على آدم ، وهو بشار بن برد المرعّث [1] ، ومن الشعر المنسوب إليه :

النّارُ مُشْرِقةٌ والأرْضُ مظلِمَةٌ　　　والنّارُ معبودةٌ مذ كانتِ النّارُ [2]

(١) فى اللسان : « سمى بذلك لرعاث كانت له فى صغره فى أذنه » . والرعاث جمع رعثة ، وهى ما علق فى الأذن من قرط ونحوه . وروى صاحب الأغانى : وإنما سمى المرعث بقوله :

قُــلْتُ رِيمٌ مُرَعَّثٌ　　　سـاحِرُ الطّرفِ والنَّظَرْ
لَسْـتَ واللهِ نَائِـلِى　　　قُــلْتُ أوْ يَغْلِبُ القَــدَرْ
أنْتَ إنْ رُمْتَ وَصْلَنَـا　　　فانجُ ، هَلْ تُدْرِكُ القَمَرْ !

(٢) الأغانى ٣ :

وكان أبو الفتوح أحمد بن محمد الغزّالى الواعظ[١]، أخو أبى حامد محمد بن محمد بن محمد الغزّالى الفقيه الشافعىّ ، قاصًا لطيفا وواعظا مفوّها ، وهو من خُراسان من مدينة طُوس ، وقدم إلى بغداد ، ووعظ بها ، وسلك فى وعظه مسلكا منكراً ، لأنه كان يتعصب لإبليس ، ويقول : إنه سيّد الموحدين ، وقال يوما على المنبر : من لم يتعلّم التوحيد من إبليس فهو زنديق ، أُمِر أن يسجد لغير سيّده فأبى :

وَلَسْتُ بضارع إلا إليكُمْ ... وأما غيرُكم حاشا وَكلاّ

وقال مرة أخرى : لما قال له موسى : « أرنى » فقال : « لن[٢] » قال : هــذا شغلك[٣] ، تصطفى آدم ثم تسوّد وجهه ، وتخرجه من الجنة ، وتدعونى إلى الطّور ، ثم تُشمت بى الأعداء ! هذا عملك بالأحباب[٤] ، فكيف تصنع بالأعداء[٥] !

وقال مرّة أخرى وقد ذكر إبليس على المِنْبر : لم يدر ذلك المسكينُ أنّ أظافير القضاء إذا حكّت أدْمَتْ ، وأنّ قِسِيّ القدَر إذا رَمَتْ أصمت . ثم قال : لسان حال آدم ينشد فى قصته وقصة إبليس :

وَكُنتُ وليلَى فى صُعُودٍ من الهَوَى ... فَلَمّا تَوَافَيْنَا ثَبَتُّ وَزَلّتِ

وقال مرّة أخرى : التقى موسى وإبليس عند عَقَبة الطور ، فقال موسى : يا إبليس ، لِمَ لم تسجد لآدمَ ؟ فقال : كلاّ ، ما كنت لأسجدَ لبشر ، كيف أوحّده ثم ألتفتُ إلى غيره ! ولكنك أنت يا موسى سألتَ رؤيتَهَ ثم نظرت إلى الجبل ، فأنا أصدق منك فى التوحيد .

---

(١) ذكره ابن الجوزى فى الجزء التاسع من المنتظم ص ٢٦٠ ؛ ضمن وفيات سنة ٥٢٠ ، وقال عنه : « الغالب على كلامه التخليط ورواية الأحاديث الموضوعة والحكايات الفارغة والمعانى الفاسدة ؛ وقد علق عنه كثير من ذلك » . وذكره أيضاً ابن حجر فى لسان الميزان ١ : ٢٩٣ .

(٢) يشير إلى قوله تعالى فى قصة موسى من سورة الأعراف ١٤٣ : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي . . . ﴾ .

(٣) المنتظم : « شأنك » . (٤) المنتظم : « الأخيار » .

(٥) المنتظم ٩ : ٢٦١ .

وكان هـذا النَّمَط فى كلامه ينفُق على أهل بغداد ، وصار له بينهم صيت مشهور واسم كبير . وحكى عنه أبو الفرج بن الجوزىّ فى " التاريخ " أنه قال على المنبر : معاشرَ الناس ، إنى كنتُ دائما أدعوكم إلى الله ، وأنا اليوم أحذّركم منه ، والله ماشُدّت الزنانير إلا فى حبّه ، ولا أُدّيت الجِزْية إلا فى عشقه .

وقال أيضا : إن رجلا يهوديا أدخل عليه ليُسْلم على يده ، فقال له : لا تُسْلم ، فقال له الناس : كيف تمنعه من الإسلام ! فقال : احملوه إلى أبى حامد — يعنى أخاه — ليعلمه « لا » [1] : لا المنافقين . ثم قال : ويحكم أتظنون أن قوله : « لا إله إلا الله » منشورُ ولايته ! ذا منشور عزله [2] . وهذا نوع تعرفه الصوفية بالغلوّ والشَّطْح .

ويروى عن أبى يزيد البِسْطامىّ [3] منه كثير .

ومما يتعلّق بما نحن فيه ما رووه عنه من قوله :

فمَنْ آدمُ فى البَيْنِ ... ومَنْ إبليسُ لولا كا !
فتنتَ الكلَّ والكلُّ ... مع الفِتْنةِ يهوا كا

ويقال : أوّل مَنْ قاس إبليس ، فأخطأ فى القياس وهلك بخطئه . ويقال : إنّ أولَ حميّة وعصبية ظهرت عصبيةُ إبليس وحميته .

* * *

[اختلاف الأقوال فى خلق الجنة والنار]

فإن قيل : فما قول شيوخكم فى الجنّة والنار ؟ فإنّ المشهور عنهم أنهما لم يُخلقا وسيخلقان

---

(١) فى المنتظم : « يعنى : لا إله إلا الله » .

(٢) عبارة المنتظم : « أفتنوا عزله ! » . قال ابن الجوزى بعد أن أورد هذه الحكايات : « لقد أدهشنى نفاق هـذا الهذيان فى بغداد وهى دار العلم ، ولقد حضر مجلسه يوسف الهمذانى ، فقال : مدد كلام هذا شيطانى لاربانى ، ذهب دينه والدنيا لاتبق له » .

(٣) هو أبو يزيد طيفور بن عيسى ؛ توفى سنة ٢٦١ . طبقات الصوفية للسلمى ٦٧ .

عند قيام الأجسام ، وقد دلّ القرآن العزيز ، ونطق كلام أمير المؤمنين عليه السلام فى هذا الفصل بأنّ آدم كان فى الجنة وأخرج منها .

قيل : قد اختلف شيوخُنا رحمهم الله فى هذه المسألة ، فن ذهب منهم إلى أنهما غير مخلوقتين الآن يقول : قد ثبتَ بدليل السمع أن سائر الأجسام تُعدَم ولا يبقى فى الوجود إلا ذات الله تعالى ، بدليل قوله : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ ﴾ (٢) ، فلما كان « أوّلا » بمعنى أنه لا جسم فى الوجود معه فى الأزل وجب أن يكون « آخرا » ، بمعنى أنه لا يبقى فى الوجود جسم من الأجسام معه فيما لا يزال ، وبآيات كثيرة أخرى . وإذا كان لابدّ من عدم سائر الأجسام لم يكنْ فى خَلق الجنة والنار قبل أوقات الجزاء فائدة ؛ لأنه لابدّ أن يُفنيهما مع الأجسام التى تَفنى يوم القيامة ، فلا يبقى مع خلقهما من قبل معنى . ويحملون الآيات التى دلّت على كون آدم عليه السلام كان فى الجنة وأخرج منها ، على بستان من بساتين الدنيا . قالوا : والهبوط لا يدلّ على كونهما فى السماء لجواز أنْ يكون فى الأرض ؛ إلا أنهما فى موضع مرتفع عن سائر الأرض .

وأما غير هؤلاء من شيوخنا فقالوا : إنهما مخلوقتان الآن ، واعترفوا بأنّ آدم كان فى جنة الجزاء والثواب ، وقالوا : لا يبعد أن يكون فى إخبار المكلّفين بوجود الجنة والنار لطف لهم فى التكليف ، وإنما يحسن الإخبار بذلك إذا كان صدقا ، وإنما يكون صدقا إذا كان خَبَره على ما هو عليه .

***

[القول فى آدم والملائكة أيهما أفضل]

فإن قيل : فما الذى يقوله شيوخكم فى آدم والملائكة : أيّهما أفضل ؟

قيل : لا خلافَ بين شيوخنا رحمهم الله أنّ الملائكةَ أفضلُ من آدم ومن جميع الأنبياء

(١) سورة القصص ٨٨ .

(٢) سورة الحديد ٣ .

عليهم السلام ، ولو لم يدلّ على ذلك إلا قوله تعالى فى هذه القصة : ﴿ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾[1] ، لكفى .

وقد احتجّ أصحابنا أيضا بقوله تعالى : ﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾[2] ، وهذا كما تقول : لا يستنكف الوزير أنْ يعظّمنى ويرفع من منزلتى ولا الملك أيضاً . فإن هذا يقتضى كونَ الملك أرفع منزلة من الوزير . وكذلك قوله : ﴿ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ ، يقتضى كونهم أرفع منزلة من عيسى .

ومما احتجُّوا به قولُهُمْ : إنه تعالى لما ذكر جبريل ومحمداً عليهما السلام فى معرض المدح ، مدح جبريل عليه السلام بأعظم مما مدح به محمداً عليه السلام ، فقال : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ * وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ * وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ * وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾[3] . فالمدح الأول لجبريل والثانى لمحمد عليهما السلام ، ولا يخفى تفاوتُ ما بين المدحين .

فإن قيل : فهل كان إبليسُ من الملائكة أم من نوع آخر ؟ قيل : قد اختُلف فى ذلك فمن قال : إنه من الملائكة احتجّ بالاستثناء فى قوله : ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ ﴾[4] ، وقال : إنّ الاستثناء من غير الجنس خلاف الأصل . ومن قال : إنه لم يكنْ منهم احتجّ بقوله تعالى : ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾[5] .

وأجاب الأولون عن هذا فقالوا : إنّ الملائكة يُطلق عليهم لفظ الجنّ لاجتنانهم واستتارهم عن الأعين . وقالوا : قد ورد ذلك فى القرآن أيضاً فى قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ

---

(١) سورة الأعراف ٢٠ .
(٢) سورة النساء ١٧٢ .
(٣) سورة التكوير ١٩ ـ ٢٤ .
(٤) سورة الحجر ٢٩ ، ٣٠ .
(٥) سورة الكهف ٥٠

وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ﴾ (١) ، والجنة هاهنا الملائكة ، لأنهم قالوا : إن الملائكة بناتُ الله ، بدليل قوله : ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا ﴾ (٢) ، وكتبُ التفسير تشتمل من هذا على مالا نرى الإطالة بذكره .

***

فأما القطب الراوندي فقال في هذين الفصلين في تفسير ألفاظهما اللغوية : العذْبُ من الأرض ما يُنبِت ، والسَّبَخ : مالا ينبت ؛ وهذا غير صحيح ، لأن السَّبَخ يُنْبِت النخل ، فيلزم أن يكون عَذْبًا على تفسيره !

وقال : فجَبَل منها صورة ، أي خلق خَلْقا عظيما . ولفظة « جَبَل » في اللغة تدلّ على « خلَق » سواء كان المخلوقُ عظيما أو غير عظيم .

وقال : الوصول : جمع وُصْل ، وهو العضو ، وكلّ شيء اتصل بشيء فما بينهما وُصلة . والفصول : جمع فَصل وهو الشيء المنفصل ، وما عرفنا في كتب اللغة أنّ الوُصل هو العضو ، ولا قيل هذا .

وقوله بعد ذلك : وكلّ شيء اتصل بشيء فما بينهما وصلة لا معنى لذكره بعد ذلك التفسير . والصحيح أنّ مراده عليه السلام أظهرُ من أن يتكلّف له هذا التكلّف ، ومراده عليه السلام أنّ تلك الصورة ذاتُ أعضاء متصلة كعظم الساق أو عظم الساعد ، وذاتُ أعضاء منفصلة في الحقيقة ، وإن كانت متصلة بروابط خارجة عن ذواتها كاتصال الساعد بالمِرْفق واتصال الساق بالفَخذ .

ثم قال : يقال : استخدمته لنفسي ولغيري ، واختدمتهُ لنفسي خاصّة ، وهذا مما لم أعرفه ، ولعله نقله من كتاب .

---

(١) سورة الصافات ١٥٨ . (٢) سورة الإسراء ٤٠ .

ثم قال : والإذعان : الانقياد ، والخنوع : الخضوع ؛ وإنما كرّر الخنوع بعد الإذعان لأن الأول يُفيد أنهم أمِروا بالخضوع له في السجود ، والثانى يفيد ثباتَهم على الخضوع لتكرمته أبدا .

ولقائل أن يقول : إنّه لم يكرر لفظة « الخنوع » ، وإنما ذكَر أولا الإذعان ، وهو الانقياد والطاعة ، ومعناه أنهم سجدوا ، ثم ذكر الخنوع الذى معناه الخضوع ، وهو يعطى معنى غيرَ المعنى الأول ،(١) لأنه ليس كلُّ ساجدٍ خاضعا بقلبه ، فقد يكون ساجدا بظاهره دون باطنه . وقول الراوندىّ : أفاد بالثانى ثباتَهم على الخضوع له لتكرمته أبدا تفسير لا يدلّ عليه اللفظ ، ولا معنى الكلام .

ثم قال : قبيلُ إبليس نسلُه ، قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ ﴾(٢) ، وكل جيل من الإنس والجنّ قبيل . والصحيح أنّ قبيلَه نوعه ، كما أن البشر قبيل كل بشرىّ ، سواء كانوا من ولده أو لم يكونوا . وقد قيل أيضاً : كلّ جماعة قبيل وإن اختلفوا ، نحو أن يكون بعضهم رُوماً وبعضهم زَنجاً ، وبعضهم عرَبا ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ ﴾ لا يدلّ على أنهم نسلُه .

وقوله بعد : « وكلُّ جيل من الإنس والجن قَبيل » ينقضُ دعواه أن قبيلَه لا يكون إلا نسله .

ثم تكلّم فى المعانى فقال : إن القياس الذى قاسه إبليس كان باطلا ، لأنه ادّعى أن النارَ أشرفُ من الأرض ، والأمر بالعكس ؛ لأنّ كلّ مايدخل إلى النار ينقص ، وكلّ مايدخل التراب يزيد . وهذا عجيب ! فإنّا نرى الحيوانات الميتة إذا دُفنت فى الأرض تنقص أجسامها ، وكذلك الأشجار المدفونة فى الأرض ؛ على أنّ التحقيق أنّ المحترق بالنار والبالى بالتراب لم تعدم أجزاؤه ولا بعضُها ، وإنّما استحالت إلى صور أخرى .

---

(١) ا : « فإنه » . (٢) سورة الأعراف ٢٧ .

ثم قال : ولما علمنا أنّ تقديم المفضول على الفاضل قبيح ، علمنا أن آدم كان أفضل من الملائكة فى ذلك الوقت وفيما بعده .

ولقائل أن يقول : أليس قد سَجَد يعقوب ليوسفَ عليه السلام ! أفيدلّ ذلك على أنّ يوسف أفضلُ من يعقوب ! ولا يقال : إن قوله تعالى : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً ﴾ [١] ؛ لا يدلّ على سجود الوالدين ؛ فلعلّ الضميرَ يرجع إلى الإخوة خاصة ، لأنّا نقول : هذا الاحتمال مدفوع بقوله : ﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ [٢] ، وهو كناية عن الوالدين .

وأيضاً قد بيّنّا أنّ السجود إنما كان لله سبحانه ، وأنّ آدم كان قِبلة ، والقِبلة لا تكون أفضلَ من الساجد إليها ، ألا ترى أن الكعبة ليست أفضلَ من النبيّ عليه السلام !

* * *

الأصلُ :

وَاصْطَفَى سُبْحَانَهُ مِنْ وَلَدِهِ أَنْبِيَاءَ أَخَذَ عَلَى الْوَحْيِ مِيثَاقَهُمْ ، وَعَلَى تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ أَمَانَتَهُمْ ، لَمَّا بَدَّلَ أَكْثَرُ خَلْقِهِ عَهْدَ اللهِ إِلَيْهِمْ ، فَجَهِلُوا حَقَّهُ ، وَاتَّخَذُوا الْأَنْدَادَ مَعَهُ ، وَاجْتَالَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ عَنْ مَعْرِفَتِهِ ، وَاقْتَطَعَتْهُمْ عَنْ عِبَادَتِهِ ، فَبَعَثَ فِيهِمْ [٣] رُسُلَهُ ، وَوَاتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِيَاءَهُ ، لِيَسْتَأْدُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ ، وَيُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيَّ نِعْمَتِهِ ، وَيَحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بِالتَّبْلِيغِ ، وَيُثِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ الْعُقُولِ ، وَيُرُوهُمْ آيَاتِ الْمَقْدِرَةِ ؛ مِنْ سَقْفٍ فَوْقَهُمْ مَرْفُوعٍ ، وَمِهَادٍ تَحْتَهُمْ مَوْضُوعٍ ، وَمَعَايِشَ تُحْيِيهِمْ ، وَآجَالٍ تُفْنِيهِمْ ، وَأَوْصَابٍ تُهْرِمُهُمْ ، وَأَحْدَاثٍ تَتَتَابَعُ عَلَيْهِمْ .

وَلَمْ يُخْلِ اللهُ سُبْحَانَهُ خَلْقَهُ مِنْ نَبِيٍّ مُرْسَلٍ ، أَوْ كِتَابٍ مُنْزَلٍ ، أَوْ حُجَّةٍ لَازِمَةٍ ،

---

(١) سورة يوسف ١٠٠ .
(٢) سورة يوسف ٤ .
(٣) مخطوطة النهج : « إليهم » .

أَوْ مَحَجَّةٍ قَائِمَةٍ ؛ رُسُلٌ لَا تُقَصِّرُ بِهِمْ قِلَّةُ عَدَدِهِمْ ، وَلَا كَثْرَةُ الْمُكَذِّبِينَ لَهُمْ ، مِنْ سَابِقٍ سُمِّيَ لَهُ مَنْ بَعْدَهُ ، أَوْ غَابِرٍ عَرَّفَهُ مَنْ قَبْلَهُ .

***

الشرح :

اجتالتهم الشياطين : أدارتهم ؛ تقول : اجتال فلان فلانا ، واجتاله عن كذا وعلى كذا ، أى أداره عليه ، كأنه يصرّفه تارة هكذا وتارة هكذا ، يُحسّن له فعله ، ويُغريه به .

وقال الراوندى : اجتالتهم : عدلت بهم ؛ وليس بشيء .

وقوله عليه السلام : « واتَر إليهم أنبياءه » ، أى بعثهم وبين كل نبيّين فترة ، وهذا مما تغلط فيه العامة فتظنّه كما ظنّ الراوندى أنّ المرادَ به المرادفة والمتابعة . والأوصاب : الأمراض . والغابر : الباقى .

***

ويُسأل فى هذا الفصل عن أشياء :

منها ، عن قوله عليه السلام : « أخَذَ على الوَحْى ميثاقهم » .

والجواب ، أنّ المراد أخذ على أداء الوحى ميثاقهم ، وذلك أنّ كلّ رسول أرسل فمأخوذ عليه أداء الرسالة ، كقوله تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ (١) .

ومنها أن يقال : مامعنى قوله عليه السلام : « ليستأدُوهم ميثاقَ فِطْرَته » ؟ هل هذا

---

(١) سورة المائدة ٦٧ .

إشارة إلى مايقوله أهل الحديث فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ، وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ (١) ؟

والجواب ، أنه لا حاجة فى تفسير هذه اللفظة إلى تصحيح ذلك الخبر ، ومرادُه عليه السلام بهذا اللفظ أنّه لمّا كانت المعرفة به تعالى وأدلة التوحيد والعدل مركوزةً فى العقول ، أرسلَ سبحانه الأنبياء أو بعضهم ، ليؤكدوا (٢) ذلك المركوزَ فى العقول. وهذه هى الفطرةُ المشارُ إليها بقوله عليه السلام : « كلُّ مولود يُولَد على الفطرة » .

ومنها أن يقال: إلى ماذا يشير بقوله : «أو حُجّة لازمة» ؟ هل هو إشارة إلى مايقوله الإمامية ، من أنه لا بُدّ فى كلِّ زمان من وجود إمام معصوم ؟

الجواب ، أنّهم يفسرون هذه اللفظة بذلك. ويمكن أن يكونَ المرادبها حُجّة العقل.

وأما القطب الراوندىّ، فقال فى قوله عليه السلام: «واصطفى سبحانه من وَلَده أنبياء»: الولَد يقال على الواحد والجمع، لأنه مصدر فى الأصل ، وليس بصحيح ، لأنّ الماضىَ «فعَل» بالفتح ، والمفتوح لا يأتى مصدرُه بالفتح ، ولكنّ « فَعَلاً » مصدر « فَعِل » بالكسر ، كقولك : وَلِهتُ عليه وَلَهاً ، ووَحِمَت المرأةُ وَحَماً .

ثم قال : إن الله تعالى بعث يونس قبل نوح ، وهذا خلاف إجماع المفسرين وأصحاب السِّيَر .

ثم قال : وكلٌّ واحد من الرسل والأئمة كان يقوم بالأمر ، ولا يردعُه عن ذلك قلة عدد أوليائه ، ولا كثرةُ عدد أعدائه ؛ فيقال له: هذا خلاف قولك فى الأئمة المعصومين، فإنّك تجيز عليهم التقيّة وتركَ القيام بالأمر إذا كثُرت أعداؤهم .

وقال فى تفسير قوله عليه السلام : « مِنْ سابق سُمِّى له مَنْ بعده ، أو غابرٍ عرّفه

---

(١) سورة الأعراف ١٧٢ .

(٢) ا : « ليؤكد ذلك المركوز » .

مَنْ قبله » : كان من ألطاف الأنبياء المتقدمين وأوصيائهم ، أن يعرفوا الأنبياء المتأخرين وأوصياءهم ، فعرّفهم الله تعالى ذلك ، وكان من اللطف بالمتأخرين وأوصيائهم أن يعرفوا أحوالَ المتقدمين من الأنبياء والأوصياء ، فعرّفهم الله تعالى ذلك أيضاً ، فتمّ اللطف لجميعهم.

ولقائل أن يقول: لو كان عليه السلام قال : «أو غابر عرّف من قبله» لكان هذا التفسير مطابقا ، ولكنه عليه السلام لم يقل ذلك ، وإنما قال : « عرّفه مَنْ قبله » وليس هذا التفسير مطابقا لقوله : « عرّفه ». والصحيح أنّ المراد به: من نبيّ سابق عرّف مَنْ يأتي بعده من الأنبياء، أي عرّفه الله تعالى ذلك، أو نبيّ غابرٍ نصّ عليهْ مَنْ قبله ، وبشّر به كبشارة الأنبياء بمحمد عليه السلام .

* * *

الأصْلُ :

عَلَىٰ ذَٰلِكَ نَسَلَتِ ٱلْقُرُونُ ، وَمَضَتِ ٱلدُّهُورُ ، وَسَلَفَتِ ٱلْآبَاءُ ، وَخَلَفَتِ ٱلْأَبْنَاءُ ؛ إِلَىٰ أَنْ بَعَثَ ٱللهُ سُبْحَانَهُ مُحَمَّداً صَلَّىٰ ٱللهُ عَلَيْهِ لِإِنْجَازِ عِدَتِهِ ، وَإِتْمَامِ (١) نُبُوَّتِهِ ، مَأْخُوذاً عَلَى ٱلنَّبِيِّينَ مِيثَاقُهُ ، مَشْهُورَةً سِمَاتُهُ ، كَرِيماً مِيلَادُهُ ؛ وَأَهْلُ ٱلْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ مِلَلٌ مُتَفَرِّقَةٌ ، وَأَهْوَاءٌ مُنْتَشِرَةٌ ، وَطَرَائِقُ مُتَشَتِّتَةٌ ، بَيْنَ مُشَبِّهٍ لِلَّهِ بِخَلْقِهِ ، أَوْ مُلْحِدٍ فِي ٱسْمِهِ ، أَوْ مُشِيرٍ إِلَىٰ غَيْرِهِ ؛ فَهَدَاهُمْ بِهِ مِنَ ٱلضَّلَالَةِ ، وَأَنْقَذَهُمْ بِمَكَانِهِ مِنَ ٱلْجَهَالَةِ .

ثُمَّ ٱخْتَارَ سُبْحَانَهُ لِمُحَمَّدٍ صَلَّىٰ ٱللهُ عَلَيْهِ لِقَاءَهُ ، وَرَضِيَ لَهُ مَا عِنْدَهُ ، وَأَكْرَمَهُ (٢) عَنْ دَارِ ٱلدُّنْيَا ، وَرَغِبَ بِهِ عَنْ مَقَامِ ٱلْبَلْوَىٰ ؛ فَقَبَضَهُ إِلَيْهِ كَرِيماً ، وَخَلَّفَ فِيكُمْ مَا خَلَّفَتِ ٱلْأَنْبِيَاءُ فِي أُمَمِهَا ـ إِذْ لَمْ يَتْرُكُوهُمْ هَمَلاً بِغَيْرِ طَرِيقٍ وَاضِحٍ ،

---

(١) مخطوطة النهج : « وتمام » . (٢) مخطوطة النهج : « فأكرمه » .

ولا علَمٍ قائمٍ ـ كتابَ ربِّكُمْ ، مُبيِّناً[1] حلالَهُ وحرامَهُ ، وفرائضَهُ وفضائلَهُ ، وناسخَهُ ومنسوخَهُ ، ورُخَصَهُ وعزائمَهُ ، وخاصَّهُ وعامَّهُ ، وعِبَرَهُ وأمثالَهُ ، ومُرْسَلَهُ ومحْدُودَهُ ، ومُحْكَمَهُ ومُتَشابِهَهُ ؛ مُفَسِّراً جُمَلَهُ ، ومُبيِّناً غوامِضَهُ ؛ بَيْنَ مأخوذٍ ميثاقُ عِلْمِهِ ، ومُوَسَّعٍ على العبادِ في جَهْلِهِ ، وبَيْنَ مُثْبَتٍ في الكتابِ فَرْضُهُ ، ومعلومٍ في السُّنَّةِ نَسْخُهُ ، وواجبٍ في السُّنَّةِ أخْذُهُ ، ومُرَخَّصٍ في الكتابِ تَرْكُهُ ، وبَيْنَ واجبٍ لِوَقْتِهِ ، وزائلٍ في مُسْتَقْبَلِهِ . ومُبايَنٌ بَيْنَ محارِمِهِ ، مِنْ كَبيرٍ أوْعَدَ عَلَيْهِ نِيرانَهُ ، أوْ صَغيرٍ أرْصَدَ لَهُ غُفْرانَهُ . وبَيْنَ مَقْبُولٍ في أدْناهُ ، ومُوَسَّعٍ في أقْصاهُ .

***

الشرح :

قوله عليه السلام : « نَسَلَت القرون » ، ولدت . والهاء فى قوله : « لإنجاز عِدَته » راجعة إلى البارئ سبحانه . والهاء فى قوله : « وإتمام نبوّته » ، راجعة إلى محمد صلى الله عليه وآله . وقوله : « مأخوذ على النبيين ميثاقه » ، قيل : لم يكن نبىّ قطُّ إلا وبُشِّر بمبعث محمد صلى الله عليه وآله ، وأخِذ عليه تعظيمه ؛ وإن كان بعدُ لم يوجد .

فأما قوله : « وأهل الأرض يومئذ مِلَلٌ متفرّقة » ، فإن العلماء يذكرون أنّ النبىّ صلى الله عليه وآله بُعث والناس أصناف شتى فى أديانهم : يهود ، ونصارى ، ومجوس ، وصابئون ، وعَبَدة أصنام ، وفلاسفة ، وزنادقة .

***

[القول فى أديان العرب فى الجاهلية]

فأما الأمة التى بُعِثَ محمد صلى الله عليه وآله فيها فهم العرب ؛ وكانوا أصنافاً شتى ،

(١) ب : « فيكم » .

فنهم معطِّلة ، ومنهم غيرُ معطِّلة .

فأما المعطِّلة مِنهم ، فبعضُهم أنـكر الخالق والبعث والإعادة ، وقالوا ما قال القرآن العزيز عنهم : ﴿ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾(١) ، فجعلوا الجامعَ لهم الطَّبْع ، والمهلِكَ لهم الدهر . وبعضهم اعترف بالخالق سبحانه وأنـكر البعثَ ، وهم الذين أخبر سبحانه عنهم بقوله : ﴿ قَالَ مَنْ يُحْيِي ٱلْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾(٢) . ومنهم مَنْ أقرّ بالخالق ونوعٍ من الإعادة ، وأنـكروا الرّسلَ وعبدوا الأصنام ، وزعموا أنها شفعاء عند الله في الآخرة ، وحجّوا لها ، ونحروا لها الهدْيَ ، وقرّبوا لها القُرْبان ، وحلّلُوا وحرّموا ، وهم جمهور العرب ، وهم الذين قال الله تعالى عنهم : ﴿ وَقَالُوا مَالِهَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ ﴾(٣) .

فمن نطق شعره بإنـكار البعث بعضُهم يرثي قتلى بدر(٤) :

فَمَاذَا بِالْقَلِيبِ قَلِيبِ بَدْرٍ ... مِنَ ٱلْفِتْيَانِ وَٱلْقَوْمِ ٱلْكِرَامِ !(٥)
وَمَاذَا بِالْقَلِيبِ قَلِيبِ بَدْرٍ ... مِنَ ٱلشِّيزَى تُكَلَّلُ بِالسَّنَامِ(٦)
أَيُخْبِرُنَا ٱبْنُ كَبْشَةَ أَنْ سَنَحْيَا ... وَكَيْفَ حَيَاةُ أَصْدَاءٍ وَهَامِ !
إِذَا مَا ٱلرَّأْسُ زَالَ بِمَنْكِبَيْهِ ... فَقَدْ شَبِعَ ٱلْأَنِيسُ مِنَ ٱلطَّعَامِ
أَيَقْتُلُنِي إِذَا مَا كُنْتُ حَيًّا ... وَيُحْيِينِي إِذَا رَمَّتْ عِظَامِي !

---

(١) سورة الجاثية ٢٤ . (٢) سورة يس ٧٨ . (٣) سورة الفرقان ٧

(٤) سيرة ابن هشام ٢ : ٤٠٠ مع اختلاف في الرواية وترتيب الأبيات وعددها ، ونسبها إلى شداد ابن الأسود .

(٥) ابن هشام :

* مِنَ ٱلْقَيْنَاتِ وَٱلشَّرْبِ ٱلْكِرَامِ *

والقليب : البئر .

(٦) البيت في اللسان ٧ : ٢٣٠ ، ورواه : « يزين بالسنام » ، وقال في شرحه : الشيزى : شجر يتخذ منه الجفان ؛ وأراد بالجفان أربابها الذين كانوا يطعمون فيها ، وقتلوا ببدر وألقوا في القليب ، فهو يرثيهم ، وسمى الجفان شيزى باسم أصلها » .

وكان من العرب مَن يعتقد التناسخ وتنقُّل الأرواح فى الأجساد ، ومن هؤلاء أربابُ الهامة ، التى قال عليه السلام عنهم : « لا عَدْوَى ولا هامة ولا صَفَر » [١] . وقال ذو الأصبع :

يا عَمْرُو إلّا تَدَعْ شَتْمِي ومَنْقَصَتِي　　أَضْرِبْكَ حَيْثُ تَقُولُ الهامَةُ أسْقُونِي [٢]

وقالوا : إنّ ليلى الأخيليّة لما سلّمت على قبر تَوْبة بن الحُمَيِّر خرج إليها هامة من القبر صائحة ، أفزعت ناقتها ، فوقصت [٣] بها فماتت ، وكان ذلك تصديق قوله :

وَلَوْ أنَّ لَيْلَى الأَخْيَلِيَّةَ سَلَّمَتْ　　عَلَيَّ ودُونِي جَنْدَلٌ وَصَفائِحُ [٤]

لَسَلَّمْتُ تَسْلِيمَ البَشاشَةِ أَوْ زَقَا　　إليها صَدًى مِنْ جانِبِ القبرِ صائِحُ

وكان تَوْبةُ وليلى فى أيام بنى أميّة .

وكانوا فى عبادة الأصنام مختلفين ، فمنهم مَنْ يجعلها مشاركة للبارئ تعالى ، ويُطلِق عليها لفظة الشّريك ، ومن ذلك قولهم فى التلبية : لبَّيْك اللهمّ لبَّيْك ، لا شريك لك، إلّا شريكا هو لك ، تملكه وما مَلَكَ . ومنهم من لا يطلق عليها لفظ الشريك ، ويجعلها وسائل وذرائع إلى الخالق سبحانه ، وهم الذين قالوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ [٥] .

وكان فى العرب مشبّهة ومجسّمة ، منهم أميّة بن أبى الصّلت ، وهو القائل :

مِنْ فَوْقِ عَرْشٍ جالِسٍ قَدْ حَطَّ رِجْـ　　ـلَيْهِ إلى كُرْسِيِّـــــه المنصوبِ

وكان جمهورهم عَبَدةَ الأصنام ، فكانَ وَدّ لِكَلْبٍ بدُومة الجندل ، وسُواع لِهُذَيْل ،

(١) كانت العرب تزعم أن فى البطن حية يقال لها الصفر ، تصيب الإنسان إذا جاع وتؤذيه . نهاية ابن الأثير ٢ : ٢٢٦ .

(٢) من قصيدة مفضلية ، المفضليات ١٦٣ .

(٣) وقصت بها ، أى سقطت عنها فماتت .

(٤) ديوان الحماسة لأبى تمام ــ بشرح التبريزى ٣ : ٢٦٧ . والصفائح : الحجارة العراض تكون على القبور .

(٥) سورة الزمر ٣ .

ونَسْر لِحِمْيَر ، ويَغُوث لهمْدان ، واللّات لثَقِيف بالطائف ، والعُزّى لـكِنانة وقُريش وبعض بنى سُلَيْم ، ومناة لغَسّان والأوْس والخزرج ، وكان هُبَل لقريش خاصّة على ظهر الـكعبة ، وأساف[1] ونائلة على الصَّفا والمرْوة. وكان فى العرب مَنْ يميل إلى اليهودية، منهم جماعة من التبابعة وملوك اليمن ، ومنهم نصارى كبنى تَغْلِب والعِباديّين رهط عَدِىّ بن زيد ، ونصارى نجْران ، ومنهم مَنْ كان يميل إلى الصابئة ويقول بالنجوم والأنواء .

فأمّا الذين ليسوا بمعطّـلة من العرب فالقليـل منهم ، وهم المتألّهون أصحـابُ الورَع[2] والتحرّج عن القبائح ، كعبدِ الله وعبد المطلب وابنه أبى طالب ، وزيد بن عمرو ابن نُفَيْل ، وقُسّ بن ساعدة الإيادىّ ، وعامر بن الظَّرِب العَدْوانىّ ، وجماعة غير هؤلاء.

وغرضنا من هذا الفَصْل بيان قوله عليه السلام: «بينَ مشبّه لله بخلقه أو مُلْحِدٍ فى اسمه» إلى غير ذلك ، وقد ظهر بما شرحناه .

* * *

ثم ذكر عليه السلام أن محمداً صلى الله عليه وآله خَلّف فى الأمة بعده كتاب الله تعالى طريقاً واضحاً ، وعَلَماً قائماً ، والعلم المنار يُهتدى به .

ثم قسّم مابيّنه عليـه السلام فى الـكتاب أقساما :

فمنها حلاله وحرامه ؛ فالحلالُ كالنِّـكاح ، والحرام كالزنا .

ومنها فضائله وفرائضه ، فالفضائل النوافل ، أى هى فضلة غير واجبة كركعتى الصبح وغيرها ، والفرائض كفريضة الصبح .

وقال الرّاوندىّ : الفضائل هاهنا : جمع فضيلة ، وهى الدرجة الرفيعة ؛ وليس بصحيح ، ألا تراه كيف جعل الفرائض فى مقابلتها وقسيما لها ، فدلّ ذلك على أنه أراد النوافل!

---

(١) أساف وإساف ، كسحاب وكتاب .

(٢) ا : « التورع » .

ومنها ناسخه ومنسوخه ، فالناسخ كقوله : ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ ﴾[١] ، والمنسوخ كقوله : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾[٢] .

ومنها رُخَصه وعزائمه ، فالرخص كقوله تعالى : ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ ﴾[٣] والعزائم كقوله : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾[٤] .

ومنها خاصّه وعامه ، فالخاص كقوله تعالى : ﴿ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ ﴾[٥] ، والعام كالألفاظ الدالة على الأحكام العامة لسائر المكلفين كقوله : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾[٦] . ويمكن أن يراد بالخاص العمومات التي يُراد بها الخصوص كقوله : ﴿ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾[٧] ، وبالعام ما ليس مخصوصا ، بل هو على عمومه كقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[٨] .

ومنها عِبَرُهُ وأمثالُهُ ، فالعبر كقصة أصحاب الفيل ، وكالآيات التي تتضمن النكال والعذاب النازل بأمم الأنبياء من قبل ، والأمثال كقوله : ﴿ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً ﴾[٩] .

ومنها مرسله ومحدوده ، وهو عبارة عن المطلق والمقيَّد ، وسمَّى المقيد محدوداً وهي لفظة فصيحة جدًّا ، كقوله : ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾[١٠] ، وقال في موضع آخر : ﴿ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ﴾[١١] .

ومنها محكمه ومتشابهه ، فمحكمه كقوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾[١٢] ، والمتشابه كقوله : ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾[١٣] .

ثم قسم عليه السلام الكتاب قسمة ثانية ، فقال : إنّ منه ما لا يسع أحداً جهله

---

(١) سورة التوبة ٥
(٢) سورة البقرة ٢٥٦ .
(٣) سورة المائدة ٣ .
(٤) سورة محمد ١٩ .
(٥) سورة الأحزاب ٥٠
(٦) سورة البقرة ١١٠
(٧) سورة النمل ٢٣
(٨) سورة البقرة ٢٨٢
(٩) سورة البقرة ١٧
(١٠) سورة المجادلة ٣
(١١) سورة النساء ٩٢
(١٢) سورة الإخلاص ١
(١٣) سورة القيامة ٢٣

ومنه ما يسع الناس جهله ؛ مثال الأول قوله : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾(١) ، ومثال الثانى : ﴿ كهيعص ﴾ ﴿ حم عسق ﴾ .

ثم قال : ومنه ما حكمه مذكور فى الكتاب منسوخ بالسُّنة ، وما حكمه مذكور فى السّنّة منسوخ بالكتاب ؛ مثال الأول قوله تعالى : ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ ﴾(٢) ؛ نسخ بما سنّه عليه السلام من رجْم الزانى المحصَن . ومثال الثانى صوم يوم عاشوراء، كان واجبا بالسّنّة ثم نسخه صوم شهر رمضان الواجب بنصّ الكتاب .

ثم قال : « وبين واجب بوقته ، وزائل فى مستقبله » ، يريد الواجبات الموقّتة كصلاة الجمعة ، فإنها تجب فى وقت مخصوص ، ويسقط وجوبها فى مستقبل ذلك الوقت .

ثم قال عليه السلام : « ومباين بين محارمه » ، الواجب أن يكون « ومباينٌ » بالرّفع لا بالجرّ ، فإنه ليس معطوفا على ما قبله ؛ ألا ترى أنّ جميع ما قبله يستدعى الشىء وضدَّه ، أو الشىء ونقيضه ؛ وقوله : « ومباين بين محارمه » لا نقيض ولا ضدّ له ، لأنه ليس القرآن العزيز على قسمين : أحدهما مباين بين محارمه والآخر غير مباين ، فإنّ ذلك لا يجوز، فوجب رفع « مباين » ، وأن يكون خبر مبتدأ محذوف . ثم فسّر ما معنى المباينة بين محارمه ، فقال : إنّ محارمَه تنقسم إلى كبيرة وصغيرة ، فالكبيرة أوعد سبحانه عليها بالعقاب ، والصغيرة مغفورة ؛ وهذا نصّ مذهب المعتزلة فى الوعيد .

ثم عدل عليه السلام عن تقسيم المحارم المتباينة ، ورجع إلى تقسيم الكتاب فقال : « وبين مقبول فى أدناه ، وموسّع فى أقصاه » ، كقوله : ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾(٣) فإنّ القليل من القرآن مقبول ، والكثير منه موسّع مرخّص فى تركه .

***

(١) سورة البقرة ٢٥٥
(٢) سورة النساء ١٥
(٣) سورة المزمل ٢٠

الأصلُ :

وَفَرَضَ عَلَيْكُمْ حَجَّ بَيْتِهِ ٱلْحَرَامِ ، ٱلَّذِى جَعَلَهُ قِبْلَةً لِلْأَنَامِ ، يَرِدُونَهُ وُرُودَ ٱلْأَنْعَامِ، وَيَوْلَهُونَ إِلَيْهِ وَلَهَ ٱلْحَمَامِ . وَجَعَلَهُ سُبْحَانَهُ عَلَامَةً لِتَوَاضُعِهِمْ لِعَظَمَتِهِ ، وَإِذْعَانِهِمْ لِعِزَّتِهِ . وَٱخْتَارَ مِنْ خَلْقِهِ سُمَّاعاً أَجَابُوا إِلَيْهِ دَعْوَتَهُ ، وَصَدَّقُوا كَلِمَتَهُ ، وَوَقَفُوا مَوَاقِفَ أَنْبِيَائِهِ ، وَتَشَبَّهُوا بِمَلَائِكَتِهِ ٱلْمُطِيفِينَ بِعَرْشِهِ ، يُحْرِزُونَ ٱلْأَرْبَاحَ فِي مَتْجَرِ عِبَادَتِهِ ، وَيَتَبَادَرُونَ عِنْدَهُ مَوْعِدَ مَغْفِرَتِهِ . جَعَلَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِلْإِسْلَامِ عَلَمًا ، وَلِلْعَائِذِينَ حَرَماً ، وفَرَضَ حَقَّهُ ، وَأَوْجَبَ حَجَّهُ[1] ، وَكَتَبَ عَلَيْكُمْ وِفَادَتَهُ ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَالَمِينَ ﴾[2] .

* * *

الشرح :

الوَلَه : شدة الوَجْد ؛ حتى يكاد العقل يذهب ، ولَهَ الرجل يَوْلَهُ ولَهاً . ومن روى : « يألهون إليه وُلوه الحمام » فسّره بشيء آخر ، وهو : يعكُفون عليه عُكوف الحمام . وأصل « أَلَه » عبَد ، ومنه الإله، أي المعبود . ولما كان العكوف على الشيء كالعبادة له بملازمته والانقطاع إليه قيل : أَلَه فلان إلى كذا ، أي عكَف عليه كأنه يعبده . ولا يجوز أن يقال : « يألهون إليه » في هذا الموضع بمعنى « يَوْلَهون » ، وأنّ أصل الهمزة الواو كما فسره الراوندي ؛ لأن « فعولا » لا يجوز أن يكون مصدرا من فَعِلت بالكسر ، ولو كان « يألهون » هو « يَوْلَهون » ، كان أصله « أَلِه » بالكسر ، فلم يجز أن يقول : « ولوه الحمام » ، وأما على ما فسّرناه نحن فلا يمتنع أن يكونَ الولوه مصدراً ، لأن « أَلَه » مفتوح ، فصار كقولك : دخل دخولا . وباقي الفصل غنيّ عن التفسير .

---

(١) مخطوطة النهج : « فرض حجه ، وأوجب حقه » .

(٢) سورة آل عمران ٩٧ .

[فصل فى فضل البيت والكعبة]

جاء فى الخبر الصحيح أنّ فى السماء بيتاً يطوف به الملائكة طواف البشر بهذا البيت اسمه الضُّراح ، وأنّ هذ البيت تحته على خط مستقيم ، وأنّه المراد بقوله تعالى : ﴿ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴾[١] ، أقسم سبحانه به لشرفه ومنزلته عنده ، وفى الحديث : إنّ آدم لمـا قضى مناسكه ، وطاف بالبيت لقيتْه الملائكة ، فقالت : يا آدم ؛ لقد حججنا هـذا البيت قبلَك بألفىْ عام .

قال مجاهـد : إنّ الحاجّ إذا قدموا مكّة استقبلتْهم الملائكة ، فسلّموا على ركبان الإبل ، وصافحوا ركبان الحمير ، واعتنقوا المشاة اعتناقاً .

من سنة السلف أن يستقبلوا الحاجّ ، ويقبّلوا بين أعينهم ويسألوهم الدعاء لهم ، ويبادروا ذلك قبل أن يتدنّسوا بالذنوب والآثام .

وفى الحديث : « إن الله تعالى قد وَعَد هذا البيت أن يحجّه فى كلّ سنة ستمائة ألف ، فإن[٢] نقصوا أتمّهم الله بالملائكة ، وإنّ الكعبة تحشر كالعروس المزفوفة ، وكلّ مَنْ حجّها متعلّق بأستارها يسعوْن حولها ، حتى تدخل الجنة فيدخلون معها » .

وفى الحديث : « إنّ من الذنوب ذنوباً لا يكفّرها إلا الوقوفُ بعرفة » . وفيه : « أعظم الناس ذنبا مَنْ وقف بعرَفة فظنّ أنّ الله لا يغفر له » .

عمر بن ذرّ الهمدانىّ : لما قضَى مناسكه أسند ظهره إلى الكعبة وقال مودّعا للبيت : مازلنا نحلّ إليك عُرْوة ، ونشدّ إليك أخرى ، ونصعد لك أكمة ، ونهبط أخرى ، وتخفضنا أرض ، وترفعنا أخرى ، حتى أتيناك . فليت شعرى بم يكون مُنصرَفُنا ؟ أبذنب مغفور ، فأعظِمْ بها من نعمة ! أم بعملٍ مردودٍ فأعظم بها من مصيبة ! فيا مَنْ له خرجنا ، وإليه

(١) سورة الطور ٤ (٢) أ : « وإن »

قصدنا ، وبحرَمِه أنخنا ، ارحم . يامعطيَ الوفد بِفنائك ، فقد أتيناك بها معرّاة جُلودها ، ذابلةً أسنمتها ، نَقِبَةً(١) أخفافها . وإنّ أعظم الرزية أن نرجع وقد اكتنفتنا الخيبة . اللهمّ وإن للزّائرين حقًّا فاجعل حقّنا عليك غفرانَ ذنوبنا ، فإنك جواد كريم ، ماجدٌ لاينقصك نائل ، ولا يبخّلك سائل .

ابن جريج : ماظننت أنّ الله ينفع أحداً بشعر عمر بن أبي ربيعة ، حتى كنتُ باليمن ، فسمعتُ مُنشداً يُنشد قوله :

بِاللهِ قُولَا لَهُ فِي غَيْرِ مَعْتَبَةٍ ... مَاذَا أَرَدْتَ بِطُولِ الْمُكْثِ فِي الْيَمَنِ ! (٢)

إنْ كنتَ حاولتَ دنيا أو ظَفِرْتَ بِهَا (٣) ... فما أَخَذْتَ بِتَرْكِ الحجِّ مِنْ ثَمَنِ !

فحرّكني ذلك على ترك اليمن ، والخروج إلى مكّة ، فخرجت فحججْت .

سمع أبو حازم امرأة حاجّة ترفث (٤) في كلامها ، فقال : ياأمة الله ، ألست حاجّة ! ألا تتقين الله ! فسفرَت عن وجه صَبيحٍ ، ثم قالت له : أنا من اللواتي قال فيهنّ العرجيّ (٥) :

أماطَتْ كِسَاءَ الْخَزِّ عَنْ حُرِّ وجهِهَا ... وأدْنَتْ على الخدّينِ بُرْداً مهلهلا

مِنَ اللاءِ لم يَحْجُجْنَ يَبْغِينَ حِسْبَةً ... وَلَكِنْ لِيقتُلْنَ البريءَ المُغَفَّلَا

فقال أبو حازم : فأنا أسأل الله ألاّ يعذّب هذا الوجه بالنار ، فبلغ ذلك سعيد بن المسيّب ، فقال : رحم الله أبا حازم ! لو كان من عُبّاد (٦) العراق ، لقال لها : اعزُبي ياعدوّة الله ! ولكنه ظَرْفُ نُسّاك الحجاز (٧) .

---

(١) نقبة ، من نقب البعير ، إذا رقت أخفافه .

(٢) ديوانه ٢٨٤ ، والمعتبة : العتاب . (٣) الديوان : « أو نعمت بها » .

(٤) الرفث : الفحش في القول . (٥) في جميع الأصول عمر بن أبي ربيعة ، والصواب أنهما للعرجي ؛ وهما من قصيدة في ديوانه ٧١ – ٧٥ ، مطلعها :

رَأَتْنِي خَضِيبَ الرَّأْسِ شَمَّرْتُ مِئْزَرِي ... وَقَدْ عَهِدَتْنِي أَسْوَدَ الرَّأْسِ مُسْبِلاَ

ونسبهما إليه أبو الفرج في الأغاني ١ : ٤٠٤ (طبعة دار الكتب) .

(٦) الأغاني : « من بعض بغضاء » . (٧) الأغاني : « ولكنه ظرف عباد أهل الحجاز » .

[فصل فى الكلام على السجع]

واعلم أنّ قوماً من أرباب علم البيان عابوا السَّجْع ، وأدخلوا خطبَ أمير المؤمنين عليه السلام فى جملة ما عابوه ؛ لأنّه يقصِد فيها السجع، وقالوا : إنّ الخطبَ الخاليةَ من السَّجْع والقرائن والفواصل ، هى خطبُ العرب ، وهى المستحسَنة الخالية من التكلّف، كخطبة النبىّ صلى الله عليه وآله فى حِجّة [1] الوداع ، وهى :

الحمد لله ، نحمَده ونستعينه ، ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا . مَنْ يهدِ الله فلا مضلّ له ومَنْ يُضْلِل الله فلا هادىَ له ، وأشهد أن لا إله إلّا الله وحدَه لا شريك له ، وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله .

أوصيكم عبادَ الله بتقوى الله ؛ وأحثّكم على العمل بطاعته ، وأستفتح الله بالذى هو خير . أما بعدُ ، أيّها الناس ، اسمعوا منّى أبيّن لكم ، فإنّى لا أدرى ، لعلّى لا ألقاكم بعد عامى هذا ، فى موقفى هذا .

أيها الناس ؛ إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقَوْا ربكم ، كحرْمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا . ألا أهلْ بلّغت ؟ اللهم اشهد .

مَنْ كانتْ عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها . وإنّ ربا الجاهلية موضوع [3] ، وأوّل رِبًا أبدأ به ربا العباس بن عبد المطلب ، وإن دماء الجاهلية موضوعة ، وأولُ دم أبدأ به دم آدم [4] بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، وإن مآثرَ الجاهلية موضوعة غير

---

(١) اللسان : « والحجة : المرة الواحدة ؛ وهو من الشواذ ؛ لأن القياس بالفتح » .

(٢) الخطبة فى سيرة ابن هشام ٢ : ٣٥٠ ، والبيان والتبيين ٢ : ٣١ ، والطبرى ٣ : ١٦٨ ، وإعجاز القرآن للباقلانى ١٩٨ ، والعقد ٤ : ٥٧ ، وابن الأثير ٢ : ٢٠٥ .

(٣) يقال : وضعت الدين والجزية عنه ونحوهما ، إذا أسقطته .

(٤) كذا فى ب ، وهو يوافق ماذكره السهيلى ، قال : اسمه آدم ، وكان مسترضعا فى هذيل ، وقيل : اسمه تمام ؛ وكان سببه قتله حرب كانت بين قبائل هذيل ، تقاذفوا فيها بالحجارة ، فأصاب الطفل حجر وهو يحبو بين البيوت . وفى ا « عامر » ، وهو يوافق مافى البيان والتبيين والعقد ؛ وفى الطبرى والباقلانى : « دم ابن ربيعة بن الحارث » .

السِّدانةِ والسِّقاية[1] . والعَمْد[2] قَوَدٌ ، وشِبْهُ العَمْد ما قُتِل بالعصا والحجَر ، فيه مائة بعير ، فمن ازداد فهو من الجاهلية .

أيها النّاس ، إنّ الشيطان قد يئس أن يُعْبَد بأرضكم هذه ، ولكنّه قد رضِيَ أن يُطاع فيما سوى ذلك فيما تحقرون من أعمالكم .

أيها الناس ، إنما النَّسِيء[3] زيادة في الكفر ، يُضَلُّ به الذين كفروا ، يحِلّونه عاماً ، ويحرّمونه عاماً ، وإنّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموٰاتِ وَالأرض ، وإن عِدّة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموٰات والأرض ، منها أربعةٌ حُرُم ، ثلاثة متواليات وواحد فَرْد : ذو القعدة وذو الحجّة ومحرّم ورجب ، الذي بين جُمادى وشعبان ، ألا هلْ بلّغت !

أيها الناس ، إن لنسائكم عليكم حقًّا ، ولكم عليهنّ حقًّا ، فعليهنّ ألّا يوطِئن فُرُشَكم غيركم ، ولا يُدْخِلْن بيوتَكم أحداً تكرهونه إلا بإذنكم ، ولا يأتِين بفاحشة ؛ فإن فَعَلْنَ فقد أذِن[4] لكم أن تهجروهنّ في المضاجع وتضربوهنّ ، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم كسوتهنّ ورزقهنّ بالمعروف ، فإنما النّساء عندكم عَوانٍ[5] لا يملكن لأنفسهنّ شيئا ، أخذتموهنّ بأمانة الله ، واستحللتم فروجهنّ بكلمة الله ، فاتقوا الله في النساء واستوصُوا بهنّ خيرا .

---

(١) السدانة : خدمة الكعبة ، بفتح السين وكسرها . والسقاية : ما كانت قريش تسقيه الحجاج من الزبيب المنبوذ في الماء .

(٢) القود : القصاص ، أي من قتل متعمدا يقتل .

(٣) النسيء : تأخير حرمة شهر إلى آخر ؛ وذلك أن العرب في الجاهلية كانوا إذا جاء شهر حرام وهم محاربون أحلوه وحرموا مكانه شهرا آخر ، فيحلون المحرم ويحرمون صفرا ، فإن احتاجوا أحلوه وحرموا ربيعا الأول ، وهكذا حتى استدار التحريم على شهور السنة كلها ، وكانوا يعتبرون في التحريم مجرد العدد لاخصوصية الأشهر المعلومة ؛ وأول من أحدث ذلك جنادة بن عوف الكناني . وانظر تفسير الألوسي ٣ : ٣٠٥ .

(٤) أذن ، بالفتح : أباح .

(٥) عوان : أسيرات .

أيها النّاس ، إنما المؤمنون إخوة ، ولا يحلّ لامرئ مالُ أخيه إلا عن طيب نفس . ألا هل بلغت اللهم اشهد !

ألا لاترْجعوا بعدى كفّاراً يضربُ بعضكم رقاب بعض ، فإنّى قد تركتُ فيكم ما إن أخذتم به لم تَضلّوا : كتاب الله ربكم . ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد .

أيها الناس ، إنّ ربّكم واحد ، وإن أباكم واحد ؛ كلّكم لآدم وآدم من تراب ؛ إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم ، وليس لعربىّ على عجمىّ فضل إلا بالتقوى ، ألا فليبلّغ الشاهدُ الغائب .

أيها الناس،إن الله قسّم لكلّ وارث نصيبَه من الميراث ، ولا تجوز وصية فى أكثرَ من الثلث، والولدُ للفراش وللعاهر الحجَر . من ادّعى إلى غير أبيه، أو تولّى غيرَ مواليه فهو ملعون ، لا يقبل الله منه صَرْفا ولا عدلا (١) . والسلام عليكم ورحمة الله عليكم .

* * *

واعلم أنّ السجعَ لو كان عيبا لكان كلام الله سبحانه معيبا لأنه مسجوع ، كلّه ذو فواصلَ وقرائن؛ ويكفى هذا القدر وحده مبطلا لمذهبِ هؤلاء . فأما خطبة رسول الله صلى الله عليه وآله هذه فإنها وإن لم تكن ذاتَ سجع ؛ فإنّ أكثر خطبه مسجوع ، كقوله: إنّ مع العزّ ذُلاً ، وإنّ مع الحياة موتا، وإنّ مع الدنيا آخرة ، وإنّ لكل شىء حسابا، ولكلّ حسنة ثوابا ، ولكل سيئة عقابا ، وإنّ على كل شىء رقيبا ، وأنه لابدّ لك من قرين يُدفن معك هو حىّ وأنت ميت ؛ فإنْ كان كريما أكرمك ، وإن كان لئيما أسلمك ، ثم لايحشر إلا معك ،ولا تبعث إلا معه ، ولا تُسأل إلا عنه،فلا تجعلْه إلا صالحا فإنه إن صَلَح أنست به ، وإن فسد لم تستوحش إلا منه ، وهو عملك .

فأكثر هذا الكلام مسجوع كما تراه ، وكذلك خطبه الطّوال كلها . وأما كلامه

(١) أى لايقبل منهم شىء ، وأصل العدل أن يقتل الرجل الرجل ، والصرف : أن ينصرف عن الدم إلى أخذ الدية .

القصير ، فإنّه غير مسجوع، لأنه لا يحتمل السجع، وكذلك القصير من كلام أمير المؤمنين عليه السلام .

فأما قولهم : إنّ السجع يدلّ على التكلّف ، فإنّ المذموم هو التكلّف الذى تظهر سماجته وثقله للسامعين ؛ فأمّا التكلّف المستحسن ، فأىّ عيبٍ فيه ! ألا ترى أنّ الشعرَ نفسَه لابدّ فيه من تكلُّف إقامة الوزن ؛ وليس لطاعن أن يطعَن فيه بذلك !

واحتجّ عائبو السجع بقوله عليه السلام لبعضهم منكِراً عليه: «أسَجْعاً كسجع الكهان!»، ولولا أنّ السجعَ منكَرٌ لما أنكر عليه السلام سجعَ الكُهّان وأمثاله. فيقال لهم: إنما أنكر عليه السلام السجع الذى يسجع الكُهّان أمثاله، لا السجعَ على الإطلاق ، وصورة الواقعة أنه عليه السلام أمر فى الجنين بغُرّة[1] ، فقال قائل : أأدِى مَنْ لا شَرِب ولا أكل ، ولا نطق ولا استهلّ؛ ومثل هذا يُطَلّ[2] ! فأنكر عليه السلام ذلك ، لأنّ الكهان كانوا يحكون فى الجاهلية بألفاظ مسجوعة كقولهم: حبة بُرّ ، فى إحليل مُهْر . وقولهم: عبدالمسيح، على جمل مُشِيح[3]، لرؤيا الموبذان، وارتجاس الإيوان؛ ونحو ذلك من كلامهم. وكان عليه السلام قد أبطل الكهانة والتنجيمَ والسحر ، ونَهَى عنها ، فلما سمع كلام ذلك القائل أعاد الإنكار؛ ومراده به تأكيدُ تحريم العمل على أقوال الكهنة. ولو كان عليه السلام قد أنكر السجعَ لما قاله ، وقد بيّنا أنّ كثيراً من كلامه مسجوع ، وذكرنا خطبته .

ومن كلامه عليه السلام المسجوع خبرُ ابن مسعود رحمه الله تعالى، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : «استحيوا من الله حقّ الحياء» ، فقلنا: إنّا لنستحيي يارسول الله من الله تعالى ، فقال : «ليس ذلك ما أمرتُكم به ، وإنما الاستحياء من الله أن تحفظ الرأس

(١) الغرة : مابلغ ثمنه نصف عشر الدية من العبيد والإماء . انظر النهاية لابن الأثير (٣ : ١٥٥) .
(٢) الطل : هدر الدم .
(٣) جمل مشيح : جاد مسرع .

وما وعَى ، والبطن وما حَوَى ، وتذكر الموت والبِلى ، ومن أراد الآخرة ترَك زينة الحياة الدنيا .

ومن ذلك كلامه المشهور لما قدم المدينة عليه السلام أولَ قدومه إليها : « أيُّها الناس، أفشوا السلام ، وأطعِموا الطعام ، وصِلُوا الأرحام ، وصلّوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام » .

وعَوّذَ الحسنَ عليهما السلام ، فقال: «أعيذك من الهامّة،والسامّة ، وكلّ عين لامّة»؛ وإنما أراد « ملمّة » ، فقال : « لامّة » لأجل السجع .

وكذلك قوله :«ارجعن مأزورات،غيرَ مأجورات » ؛وإنما هو«موزورات»،بالواو.

— ٢ —

ومن خطبة له عليه السلام بعد انصرافه من صفين :

صِفّين : اسم الأرض التى كانت فيها الحروب ، والنون فيها أصليّة ، ذكَرَ ذلك صاحب " الصّحاح "(١)؛ فوزنُها على هذا « فِعّيل » كفسّيق ، وخمّير ، وصِرّيع ، وظِلّيم ، وضلّيل .

فإن قيل : فاشتقاقه مما ذا يكون ؟

قيل : لو كان اسما لحيوان لأمكن أن يكونَ من صَفَنَ الفرسُ — إذا قام على ثلاث وأقام الرابعة على طرف الحافر — يَصْفِن بالكسر ، صُفونا . أو من صَفَن القوم ، إذا صفّوا أقدامهم لا يخرج بعضها من بعض(٢) .

فإن قيل : أيمكنُ أن يُشتقَ من ذلك وهو اسم أرض ؟

قيل : يمكن على تعسّف ، وهو أن تكونَ تلك الأرض لمّا كانت مما تَصفِن فيها الخيل ، أو تصطفّ فيها الأقدام ؛ سميت صِفِّين .

فإن قيل : أيمكن أن تكون النونُ زائدةً مع الياء ، كما هما فى « غِسْلين » و « عِفْرِين » ؟

قيل : لو جاء فى الأصل « صِفّ » ، بكسر الصاد لأمكن أن تُتَوهَّم الزيادة ، كالزيادة

---

(١) الصحاح ، ٢١٥ ؛ أى أنه ذكرها فى مادة «صفن» .

(٢) ا : « عن بعض » .

فى غِسل ، وهو ما يُغتَسل به ، نحو الخِطْمىّ وغيره ، فقيل : غِسْلين ، لما يسيل من صديد أهل النار ودمائهم ، وكالزيادة فى عِفر وهو الخبيث الداهى[١] ، فقيل : عِفرِين ، لمأسدة بعينها . وقيل : عفريت للداهية ، هكذا ذكروه .

ولقائل أن يقول لهم : أليس قد قالوا للأسد : عَفَرْنَى ، بفتح العين ، وأصله العِفْر ، بالكسر ، فقد بان أنهم لم يراعُوا فى اشتقاقهم وتصريف كلامهم الحركةَ المخصوصة ، وإنّما يراعون الحرف ، ولا كلَّ الحروف ، بل الأصلىّ منها ؛ فغير ممتنع على هذا عندنا أن تكون الياء والنون زائدتين فى « صِفّين » .

وصفّين : اسم غير منصرف للتأنيث والتعريف ، قال[٢] :

إنّى أدِينُ بمـا دَانَ الوصىُّ بِهِ ... يوم الخُرَيْبة مِنْ قَتْل المُحِلّينا[٣]

وبالذى دَان يومَ النَّهْرِ دِنْتُ بِهِ ... وشَارَكَتْ كَفّهُ كَفّى بِصِفّينَا

تلكَ الدِّماء معاً يا ربُّ فى عُنُقِى ... ثم اسقِنِى مِثلَها آمِـــينَ آمِينَا

* * *

الأصْـلُ :

أَحْمَدُهُ اسْتِتْمَاماً لِنِعْمَتِهِ ، وَاسْتِسْلَاماً لِعِزَّتِهِ ، وَاسْتِعْصَاماً مِنْ مَعْصِيَتِهِ . وَأَسْتَعِينُهُ فَاقَةً إِلَى كِفَايَتِهِ ؛ إِنَّهُ لَا يَضِلُّ مَنْ هَدَاهُ ، وَلَا يَئِلُ مَنْ عَادَاهُ ، وَلَا يَفْتَقِرُ مَنْ كَفَاهُ ؛ فَإِنَّهُ أَرْجَحُ مَا وُزِنَ ، وَأَفْضَلُ ما خُزِنَ . وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ «وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ» ، شَهَادَةً مُمْتَحَناً إِخْلَاصُهَا ، مُعْتَقَداً مُصَاصُهَا ، نَتَمَسَّكُ بِهَا أَبَداً

---

(١) يقال : رجل داه وداهية ؛ بمعنى .

(٢) هو السيد الحميرى ؛ والأبيات بنسبتها إليه فى الكامل ٧ : ١٧٧ — بشرح المرصفى .

(٣) الخريبة : موضع بالبصرة ؛ كانت عنده وقعة الجمل ؛ ذكره ياقوت ؛ واستشهد بالبيت ، وفى الأصول : « الحربية » ، بالحاء ؛ تصحيف . وفى الكامل : « يوم النخيلة » .

(٤ — ٤) ، ساقط من ا ، ومخطوطة النهج .

ما أبقَانا ، وَنَدَّخِرُهَا لِأَهاوِيلِ ما يَلقَانا ؛ فَإِنَّها عَزِيمَةُ الْإِيمَانِ ، وَفَاتِحَةُ الْإِحْسَانِ ، وَمَرْضَاةُ الرَّحْمَنِ ، وَمَدْحَرَةُ الشَّيْطَانِ .

***

الشرح :

وأل ، أى نجا ، يئِل . والمُصاص : خالص الشيء . والفاقة : الحاجة والفقر . الأهاويل : جمع أهوال ، والأهوال : جمع هَوْل ، فهو جمع الجمع ، كما قالوا : أنعام وأناعيم . وقيل : أهاويل أصله تهاويل ، وهى ما يهولك من شيء ، أى يروعك ، وإن جاز هذا فهو بعيد ، لأن التاء قلّ أن تبدلَ همزة . والعزيمة : النية المقطوع عليها ، ومدحرة الشيطان ، أى تدحَره ، أى تبعده وتطارده .

وقوله عليه السلام : « استيماماً » ، و« استسلاماً » ، و « استمصاصاً » ؛ من لطيف الكناية وبديعها ، فسبحان مَن خصّه بالفضائل التى لا تنتهى ألسنةُ الفصحاء إلى وصفها ، وجعله إمام كلّ ذى علم ، وقدوةَ كلّ صاحب خِصّيصة !

وقوله : « فإنه أرجح » ، الهاء عائدة إلى ما دلّ عليه قوله : « أحمده » ، يعنى الحمد ، والفعل يدلّ على المصدر ، وترجع الضمائر إليه كقوله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ شَرٌّ ﴾(١) وهو ضمير البخل الذى دلّ عليه قوله : ﴿ يَبْخَلُونَ(١) ﴾ .

***

[باب لزوم ما لا يلزم وإيراد أمثلة منه]

وقوله عليه السلام : « وُزِن وخُزِن » ، بلزوم الزاى ، من الباب المسمّى لزوم ما لا يلزم ، وهو أحد أنواع البديع ، وذلك أن تكون الحروف التى قبل الفاصلة حرفا واحدا ؛ هذا

---

(١) سورة آل عمران ١٨٠ ، والآية بتمامها ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ ﴾ .

فى المنثور ، وأما فى المنظوم فأن تتساوى الحروف التى قبل الروىّ مع كونها ليست بواجبة التساوى ، مثال ذلك قول بعض شعراء الحماسة[١] :

بَيْضاء باكَرَها النَّعِيمُ فَصَاغَهَا ... بِلَبَاقَةٍ فَأَدَقَّهـــا وأَجَلَّهَا[٢]

حَجَبَتْ تَحِيَّتَها فقلتُ لصاحبي ... ما كانَ أكثرَهــا لنَا وأقَلَّهَا

وإذا وَجَدْتُ لها وَسَاوِسَ سَلْوَةٍ ... شَفَعَ الضَّمِيرُ إلى الفؤادِ فَسَلَّهَا[٣]

ألا تراه كيف قد لَزِم اللام الأولى من اللامين اللَّذَيْن صارا حرفا مشدّدا ! فالثانى منهما هو الروىّ ، واللام الأول الذى قبله التزام مالا يلزم ؛ فلو قال فى القصيدة : وصلها ، وقبلها ، وفعلها ، لجاز .

واحترزنا نحن بقولنا : « مع كونها ليست بواجبة التساوى » عن قول الراجز ، وهو من شعر الحماسة أيضاً :

وَفَيْشَةٍ لَيْسَتْ كهذى الفَيْشِ ... قَدْ مُلِئَتْ مِنْ نَزَقٍ وَطَيْشِ[٤]

إذا بَدَتْ قلتَ أَمـــيرُ الجَيْشِ ... مَنْ ذاقَها يعرف طَعْمَ العَيْشِ

فإنّ لزوم الياء قبل حرف الروىّ ليس من هذا الباب ، لأنه لزوم واجب ، ألا ترى أنه لو قال فى هذا الرجز : البطْش والقرْش والعرْش لم يجز ، لأن الرِّدف[٥] لا يجوز أن يكون حرفا خارجا عن حروف العلة . وقد جاء من اللزوم فى الكتاب العزيز مواضع

---

(١) من أبيات أربعة ؛ أولها :

إنّ الَّتِي زَعَمَتْ فُؤادَكَ مَلَّهَا ... خُلِقَتْ هَوَاكَ كَمَا خُلِقْتَ هَوًى لَهَا

وهى فى الحماسة ــ بشرح المرزوقى ١٢٣٥ ، وأمالى القالى (١ : ١٥٦) من غير نسبة ، ونقل التبريزى عن أبى رياش أنها لعروة بن أذينة .

(٢) أدقها وأجلها ، أى أتى بها دقيقة العين والأنف والثغر والخصر ، جليلة الساق والفخذ والصدر .

(٣) الحماسة : * شَفَعَ الضَّمِيرُ لَهَا إِلَىَّ فَسَلَّهَا *

(٤) ديوان الحماسة ــ بشرح التبريزى ٤ : ٣٤٠ .

(٥) الردف عند العروضيين ، هو حرف لين أو مد قبل الروى يتصلان به .

ليست بكثيرة ، فمنها قوله سبحانه : ﴿ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا * قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾(١) ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ * قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ﴾(٢) ، وقوله : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾(٣) ، وقوله : ﴿ وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ﴾(٤) ، وقوله : ﴿ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ * أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴾(٥) ؛ وقوله : ﴿ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ ﴾(٦) ، وقوله : ﴿ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾(٧) ، والظاهر أن ذلك غير مقصود قصدُه .

ومما ورد منه في كلام العرب أنّ لَقيط بن زُرارة تزوّج ابنة قيس بن خالد الشيبانيّ فأحبّته ، فلما قُتِل عنها تزوّجت غيره ، فكانت تذكر لقيطا ، فسألها عن حُبِّها له ، فقالت : أذكره وقد خرج تارة في يوم دَجْن ، وقد تطيّب وشرب الخمر ، وطرد بقراً ، فصرع بعضها ، ثم جاءني وبه نَضحُ دمٍ وعبير ، فضمني ضمّة ، وشمني شمة ، فليتني كنت مِتُّ ثَمّة .

وقد صنع أبو العلاء المعرى كتابا في اللزوم من نظمه ، فأتى فيه بالجيد والرديء ، وأكثره متكلف ، ومن جيده قوله :

لا تطلُبَنّ بآلةٍ لك حالةً ... قلمُ البليغِ بغيرِ حظٍّ مِغزَلُ(٨)
سَكَنَ السِّماكانِ السماءَ كلاهما ... هذا له رمحٌ وهــذا أعزلُ

* * *

الأصلُ :

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، أَرْسَلَهُ بِالدِّينِ الْمَشْهُورِ ، وَالْعَلَمِ الْمَأْثُورِ ،

---

(١) سورة مريم ٤٤ ، ٤٥
(٢) سورة ق ٢٧ ، ٢٨
(٣) سورة العلق ١ ، ٢
(٤) سورة الطور ١ ، ٢
(٥) سورة الطور ٢٩ ، ٣٠
(٦) سورة الواقعة ٢٨ ، ٢٩
(٧) سورة الأنفال ٣٩ ، ٤٠
(٨) لم يرد البيتان في نسخ اللزوميات ، ونسبهما إليه ابن خلكان (١ : ٣٣) ، وابن الوردي ، وصاحب مرآة الجنان ، وابن كثير (حوادث ٤٤٩) ، وشذرات الذهب ٣ : ٢٨١ ، وتقديم أبي بكر لابن حجة ٤٣٥ ، وفي ابن خلكان : « لك رتبة » .

وَالْكِتَابِ الْمَسْطُورِ ، وَالنُّورِ السَّاطِعِ ، وَالضِّيَاءِ اللَّامِعِ ، وَالْأَمْرِ الصَّادِعِ ؛ إِزَاحَةً لِلشُّبُهَاتِ ، وَاحْتِجَاجاً بِالْبَيِّنَاتِ ، وَتَحْذِيراً بِالْآيَاتِ ، وَتَخْوِيفاً بِالْمَثُلَاتِ ، وَالنَّاسُ فِي فِتَنٍ انْجَذَمَ فِيهَا حَبْلُ الدِّينِ ، وَتَزَعْزَعَتْ سَوَارِي الْيَقِينِ ، وَاخْتَلَفَ النَّجْرُ ، وَتَشَتَّتَ الْأَمْرُ ، وضَاقَ الْمَخْرَجُ ، وعَمِيَ الْمَصْدَرُ ؛ فَالْهُدَى خَامِلٌ ، والْعَمَى شَامِلٌ . عُصِيَ الرَّحْمَنُ ، ونُصِرَ الشَّيْطَانُ ، وخُذِلَ الْإِيمَانُ ، فَانْهَارَتْ دَعَائِمُهُ ، وتَنَكَّرَتْ مَعَالِمُهُ ، ودَرَسَتْ سُبُلُهُ ، وعَفَتْ شُرُكُهُ . أَطَاعُوا الشَّيْطَانَ فَسَلَكُوا مَسَالِكَهُ ، وَوَرَدُوا مَنَاهِلَهُ ؛ بِهِمْ سَارَتْ أَعْلَامُهُ ، وقَامَ لِوَاؤُهُ . فِي فِتَنٍ دَاسَتْهُمْ بِأَخْفَافِهَا ، وَوَطِئَتْهُمْ بِأَظْلَافِهَا ، وقَامَتْ عَلَى سَنَابِكِهَا ، فَهُمْ فِيهَا تَائِهُونَ حَائِرُونَ ، جَاهِلُونَ مَفْتُونُونَ ، فِي خَيْرِ دَارٍ وشَرِّ جِيرَانٍ ؛ نَوْمُهُمْ سُهُودٌ ، وَكُحْلُهُمْ دُمُوعٌ ؛ بِأَرْضٍ عَالِمُهَا مُلْجَمٌ ، وجَاهِلُهَا مُكْرَمٌ .

* * *

الشَّرْحُ :

قوله عليه السلام : « والعلَمِ المأثور » ، يجوز أن يكون عَنَى به القرآن ؛ لأن المأثور المحكيّ ، والعلَم ما يُهتدَى به ، والمتكلّمون يسمون المعجزات أعلاماً . ويجوز أن يريدَ به أحدَ معجزاته غير القرآن ؛ فإنها كثيرة ومأثورة ، ويؤكد هذا قوله بعد : « والكتاب المسطور » ، فدلّ على تغايُرهما ، ومن يذهب إلى الأول يقول : المراد بهما واحد ، والثانية توكيدُ الأولى على قاعدة الخطابة والكتابة .

والصادع : الظاهر الجليّ ، قال تعالى : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾(١) ، أى أظهره ولا تُخفه .

والمَثُلات ؛ بفتح الميم وضم الثاء : العقوبات ، جمع مَثُلَة ؛ قال تعالى : ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ ﴾(٢) .

وانجذم : انقطع . والسَّوارى : جمع سارية ، وهي الدِّعامةُ يدعم بها السقف . والنَّجْر :

(١) سورة الحجر ٩٤ (٢) سورة الرعد ٦

الأصل ، ومثله التّجار . وانهارَت: تساقطت . والشُّرُك : الطرائق، جمع شِراك. والأخفاف للإبل ، والأظلاف للبقر والمِعز .

وقال الراونديّ في تفسير قوله : « خير دار ، وشرّ جيران » : خير دار : الكوفة. وقيل : الشام ؛ لأنها الأرض المقدسة ، وأهلها شرّ جيران ، يعني أصحابَ معاوية . وعلى التفسير الأول يعني أصحابه عليه السلام .

قال : وقوله: « نومهم سهود » ، يعني أصحابَ معاوية لا ينامون طول الليل ، بل يرتّبون أمرَه . وإن كان وصفا لأصحابه عليه السلام بالكوفة ـ وهو الأقرب ـ فالمعنى أنهم خائفون يسهرون ويبكون لقلة موافقتهم إياه ؛ وهذا شكاية منه عليه السلام لهم .

وكحلهم دموع ، أي نفاقا ، فإنه إذا تمّ نفاقُ المرء مَلَك عينيه .

ولقائل أن يقول : لم يجر فيما تقدم ذكر أصحابه عليه السلام ولا أصحاب معاوية ، والكلام كلّه في وصف أهل الجاهلية قبل مبعث محمد صلى الله عليه وآله. ثم لا يخفى ما في هذا التفسير من الركاكة والفجاجة، وهو أن يريد بقوله : « نومهم سهود » ، أنهم طوال الليل يرتّبون أمر معاوية ، لا ينامون ، وأن يريد بذلك أنّ أصحابه يبكون من خوف معاوية وعساكره ، أو أنّهم يبكون نفاقا ؛ والأمر أقرب من أن يُتَمحّل له مثل هذا .

ونحن نقول : إنه عليه السلام لم يخرج من صفة أهل الجاهلية ، وقوله : « في خير دار » يعني مكة، و « شرّ جيران » ، يعني قريشا، وهذا لفظ النبي صلى الله عليه وآله حين حَكَى بالمدينة حالةً كانت في مبدأ البعثة ، فقال : « كنت في خير دار » و « شرّ جيران » . ثم حكى عليه السلام ما جرى له مع عُقْبة بن أبي مُعَيط ، والحديث مشهور .

وقوله : « نومهم سهود ، وكحلهم دموع » مثل أن يقول : جودهم بخل ، وأمنهم خوف ، أي لو استماحهم محمد عليه السلام النومَ لجادوا عليه بالسهود عوضا عنه ، ولو استجداهم الكُحْل لكان كحلهم الذي يصلونه به الدموع .

ثم قال : « بأرض عالمها مُلجَم » ، أى من عرف صدق محمد صلى الله عليه وآله وآمن به في تقيّة وخوف. « وجاهلها مكرَم »، أى مَنْ جحد نبوّته وكذّبه في عز ومنعة. وهذا ظاهر.

***

الأصْـلُ :

ومنها ـ ويعني آل النبي صلى الله عليه :

هُمْ مَوْضعُ سِرِّهِ ، ولَجَأُ أمْرِهِ ، وَعَيْبَةُ عِلْمِهِ ، ومَوْئِلُ حُكْمِهِ ، وكُهُوفُ كُتُبِهِ ، وَجِبَالُ دِينِهِ . بِهِمْ أقَامَ انْحِنَاءَ ظَهْرِهِ ، وأذْهَبَ ارْتِعَادَ فَرَائِصِهِ .

الشَّـرْحُ :

اللجأ : ماتلتجئ إليه ، كالوَزَر ماتعتصم به. والموئل : ماترجع إليه؛ يقول: إن أمر النبي صلى الله عليه وآله ـ أى شأنه ـ ملتجِئ إليهم، وعلمه مودَع عندهم ؛ كالثوب يودَع العَيْبة. وحُكْمه ـ أى شرعه ـ يرجع ويؤول إليهم. وكتبه ـ يعني القرآن والسنة ـ عندهم، فهم كالكهوف له ، لاحتوائهم عليه . وهم جبال دينه لا يتحلحلون عن الدين ؛ أو أنّ الدين ثابت بوجودهم ؛ كما أنّ الأرض ثابتة بالجبال ، ولولا الجبال لمادتْ بأهلها .

والهاء في « ظهره » ترجع إلى الدين ، وكذلك الهاء في « فرائصه » والفرائص: جمع فَريصة ، وهي اللحمة بين الجنب والكتف لا تزال تُرْعَد من الدابة .

***

الأصْـلُ :

ومنها في المنافقين :

زَرَعُوا الفُجُورَ ، وَسَقَوْهُ الغُرُورَ ، وحَصَدُوا الثُّبُورَ ، لَا يُقَاسُ بِآلِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ مِنْ هَـذِهِ الأُمَّةِ أَحَدٌ ، وَلَا يُسَوَّى بِهِمْ مَنْ جَرَتْ نِعْمَتُهُمْ عَلَيْهِ أبَداً . هُمْ أساسُ الدِّينِ ، وَعِمَادُ اليَقِينِ ، إليهم يَفِيءُ الغَالِي ، وبِهِمْ يُلْحَقُ

التَّالِي ، وَلَهُمْ خَصَائِصُ حَقِّ الوِلَايَةِ ، وَفِيهِمُ الوَصِيَّةُ وَالوِرَاثَةُ . الآنَ إِذْ رَجَعَ الحَقُّ إِلَى أَهْلِهِ ، وَنُقِلَ إِلَى مُنْتَقَلِهِ .

***

الشَّرْحُ :

جعل مافعلوه من القبيح بمنزلة زَرْع زرعوه ، ثم سقوْه ، فالذى زرعوه الفجور ، ثم سقوْه بالغرور ؛ والاستعارة واقعة موقعها ، لأن تماديَهم وماسكنت إليه نفوسهم من الإمهال،هو الذى أوجب استمرارهم على القبائح التى واقعوها،فكان ذلك كما يُسقى الزرع، ويربَّى بالماء ويستحفظ .

ثم قال : « وحصدوا الثبور » ، أى كانت نتيجة ذلك الزرع والسقى حصادَ ماهو الهلاك والعطب .

وإشارته هذه ليست إلى المنافقين كما ذكر الرضيّ رحمه الله ، وإنما هى إشارة إلى مَنْ تغلّب عليه ، وجَحد حقه كمعاوية وغيره . ولعل الرضيّ رحمه الله تعالى عرَف ذلك وكنّى عنه .

ثم عاد إلى الثناء على آل محمد صلى الله عليه وآله،فقال : « هم أصول الدين،إليهم يفىء الغالى ، وبهم يلحَق التالى » ؛ جعلهم كمِقْنب يسير فى فلاة،فالغالى منه أى الفارط المتقدم، الذى قد غلا فى سيره يرجع إلى ذلك المِقْنب إذا خاف عدوًّا ، ومن قد تخلف عن ذلك المِقْنب فصار تاليا له يلتحق به إذا أشفَق من أن يُتخطّف .

ثم ذكر خصائص حق الولاية،والولاية : الإمْرة؛فأما الإماميّة فيقولون:أراد نصّ النبى صلى الله عليه وآله عليه وعلى أولاده.ونحن نقول:لهم خصائص حق ولاية الرسول صلى الله عليه وآله على الخلق .

ثم قال عليه السلام : « وفيهم الوصية والوراثة »،أما الوصيّة فلا ريبَ عندنا أنّ عليا عليه السلام كان وصىّ رسول الله صلى الله عليه وآله،وإنْ خالف فى ذلك مَنْ هو منسوب

مدنا إلى العناد ، ولسنا نعنى بالوصية النصّ والخلافة ، ولكن أموراً أخرى لعلّها - إذا لُمِحت - أشرفُ وأجلّ .

وأما الوراثة فالإمامية يحمِلونها على ميراث المال والخلافة ، ونحن نحملها على وراثة العلم .

ثم ذكر عليه السلام أنّ الحق رجع الآن إلى أهله ؛ وهذا يقتضى أن يكونَ فيما قبل فى غير أهله ، ونحن نتأوّل ذلك على غير ماتذكره الإماميّة ، ونقول : إنّه عليه السلام كان أوْلى بالأمر وأحقّ ، لا على وجه النصّ ، بل على وجه الأفضليّة ، فإنه أفضلُ البشر بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأحقُّ بالخلافة من جميع المسلمين ؛ لكنه ترك حقّه لما علمه من المصلحة ، وما تفرّس فيه هو والمسلمون من اضطراب الإسلام ، وانتشار الكلمة، لحسد العرب له ، وضغْنهم عليه . وجائز لمن كان أوْلى بشىء فتركه ثم استرجعه أن يقول: « قد رجع الأمر إلى أهله » ..

وأما قوله : « وانتقل إلى منتَقَله » ، ففيه مضاف محذوف، تقديره: « إلى موضع منتقله »، والمنتقَل بفتح القاف : مصدر بمعنى الانتقال ، كقولك : لى فى هذا الأمر مضطرَب ، أى اضطراب ، قال :

قَدْ كَانَ لِي مُضْطَرَبٌ وَاسِعٌ فِي الْأَرْضِ ذاتِ الطُّول والعَرْضِ (١)

وتقول : مامعتقدك ؟ أى ما اعتقادك . قد رجع الأمر إلى نصابه ، وإلى الموضع الذى هو على الحقيقة الموضعُ الذى يجب أن يكون انتقاله إليه .

فإن قيل : مامعنى قوله عليه السلام : « لا يقاس بآل محمد من هذه الأمة أحد ، ولا يسوّى بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً » ؟

قيل : لا شبهةَ أن المنعِم أعلى وأشرفُ من المنعَم عليه ، ولا ريب أنّ محمدا صلى الله

---

(١) ديوان الحماسة ١ : ٢٨٧ - بشرح المرزوقى ، من أبيات نسبها إلى خطاب بن المعلى ، واسمه فى التبريزى : « حطان بن المعلى » .

عليه وآله وأهله الأدنَين من بنى هاشم — لا سيما علياً عليه السلام — أنعموا على الخلق كافة بنعمة لا يقدَّر قدرها، وهى الدعاء إلى الإسلام والهداية إليه ، فمحمد صلى الله عليه وآله وإن كان هَدَى الخلق بالدعوة التى قام بها بلسانه ويده ؛ ونصرة الله تعالى له بملائكته وتأييده ، وهو السيّد المتبوع ،والمصطفى المنتجَب الواجب الطاعة ، إلاّ أنّ لعلىّ عليه السلام من الهداية أيضاً — وإن كان ثانياً لأوّل ، ومصلّياً على إثر سابق — مالا يُجحد ، ولولم يكن إلا جهادُه بالسيف أولاً وثانياً ، وما كان بين الجهادين من نشر العلوم وتفسير القرآن وإرشاد العرب إلى مالم تكن له فاهمة ولا متصوِّرة ، لكفى فى وجوب حَقّه ، وسبوغ نعمته عليه السلام .

فإن قيل : لا ريب فى أنّ كلامه هذا تعريض بمن تقدم عليه ، فأىّ نعمة له عليهم ؟ قيل : نعمتان : الأولى منهما الجهاد عنهم وهم قاعدون ، فإنّ من أنصفَ علم أنّه لولا سيف علىّ عليه السلام لاصطلم المشركون ؛ من أشار إليه وغيرهم من المسلمين ، وقد علمتَ آثاره فى بدر ، وأحد ، والخندق ، وخَيبر ، وحُنَين ؛ وأنّ الشرك فيها فَغَرفاه ، فلولا أن سدّه بسيفه لالتَهم المسلمين كافة — والثانية علومه التى لولاها لحُكِمَ بغير الصواب فى كثير من الأحكام ، وقد اعترف عمر له بذلك ، والخبر مشهور : «لولا علىٌّ لهلك عمر » .

ويمكن أن يخرّج كلامه على وجه آخر ؛ وذلك أنّ العرب تفضّل القبيلة التى[1] منها الرئيس الأعظم على سائر القبائل ، وتفضّل الأدنى منه نسبا ، فالأدنى على سائر آحاد تلك القبيلة ؛ فإنّ بنى دارم يفتخرون بحاجب وإخوته ، وبزُرارة أبيهم على سائر بنى تميم ؛ ويسوغ للواحد من أبناء بنى دارم أن يقول : لا يقاسُ ببنى دارم أحد من بنى تميم ، ولا يستوى بهم مَنْ جرت رياستهم عليه أبدا ؛ ويعنى بذلك أنّ واحداً من بنى دارم قد رأس على بنى تميم ؛ فكذلك لما كان رسول الله صلى الله عليه وآله رئيسَ الكلّ ،

(١) ا : « فيها » .

والنِّعَمَ على الكلّ ، جاز لواحد من بنى هاشم ؛ لا سيما مثل علىّ عليه السلام أن يقول هذه الكلمات .

***

واعلم أنّ عليا عليه السلام كان يدّعى التقدّمَ على الكلّ ، والشرف على الكلّ ، والنعمةَ على الكلّ ، بابن عمه صلى الله عليه وآله ، وبنفسه ، وبأبيه أبى طالب ، فإنّ من قرأ علوم السِّيَر عرف أنّ الإسلام لولا أبو طالب لم يكن شيئا مذكورا .

وليس لقائل أن يقول : كيف يقال هذا فى دِينٍ تكفّل الله تعالى بإظهاره ، سواء كان أبو طالب موجودا أو معدوما ! لأنا نقول : فينبغى على هذا ألّا يُمدح رسول الله صلى الله عليه وآله . ولا يقال : إنه هدى الناس من الضلالة ، وأنقذهم من الجهالة ، وإنّ له حقا على المسلمين . وإنّه لولاه لمَا عُبِد الله تعالى فى الأرض ، وألا يمدح أبو بكر ، ولا يقال : إن له أثرا فى الإسلام ، وإن عبد الرحمن وسعدا وطلحة وعثمان وغيرهم من الأولين فى الدين اتبعوا رسول الله صلى الله عليه وآله لاتباعه له ، وإنّ له يدا غير مجحودة فى الإنفاق واشتراء المعذّبين وإعتاقهم ، وإنّه لولاه لاستمرت الرِّدّة بعد الوفاة ، وظهرت دعوة مُسيلمة وطُليحة ؛ وإنه لولا عمر لما كانت الفتوح ، ولا جُهّزت الجيوش ، ولا قَوِىَ أمر الدين بعد ضعفه ، ولا انتشرتْ الدعوةُ بعد خمولها .

فإن قلتم فى كل ذلك : إنّ هؤلاء يُحمدون ويُثنَى عليهم ؛ لأن الله تعالى أجرى هذه الأمور على أيديهم ، ووفّقهم لها ، والفاعل بذلك بالحقيقة هو الله تعالى ؛ وهؤلاء آلة مستعملة ، ووسائط تجرى الأفعال على أيديها ، فحمْدُهم والثناء عليهم ، والاعتراف لهم إنما هو باعتبار ذلك .

قيل : لكم فى شأن أبى طالب مثله[1] .

***

(١) ا : « قيل لهم » .

واعلم أن هذه الكلمات؛ وهى قوله عليه السلام: «الآن إذ رجع الحق إلى أهله...»، إلى آخرها يبعدُ عندى أن تكون مقولة عقيب انصرافه عليه السلام من صِفّين، لأنه انصرف عنها وقتئذ مضطربَ الأمر، منتشرَ الحبل؛ بواقعة التحكيم، ومكيدة ابن العاص، وماتمّ لمعاويةَ عليه من الاستظهار، وما شاهد فى عسكره من الخذلان. وهذه الكلمات لاتقال فى مثل هذه الحال، وأخلق بها أن تكونَ قيلت فى ابتداء بيْعته، قبل أن يخرج من المدينة إلى البصرة، وأنّ الرضىّ رحمه الله تعالى نقل ماوجد، وحكى ماسمع، والغلط من غيره والوهم سابق له. وما ذكرناه واضح.

***

[ماورد فى الوصاية من الشعر]

ومما رويناه من الشعر المقول فى صدر الإسلام المتضمّن كونه عليه السلام وصىّ رسول الله قول عبدالله بن أبى سفيان بن الحارث بن عبد المطلب :

وَمِنّا علىّ ذاكَ صاحبُ خَيْبَرٍ — وَصَاحِبُ بَدْرٍ يومَ سالتْ كتائبُهْ
وَصِىُّ النبىّ المصطفى وابنُ عَمِّه — فمَنْ ذا يدانِيهِ ومَنْ ذَا يُقَارِبُهْ !

وقال عبد الرحمن بن جُعَيْل :

لَعَمْرِى لقَدْ بايعتُمُ ذا حفيظةٍ — على الدِّين، معروفَ العفافِ مُوَفَّقَا
عليًا وصىّ المصطفى وابنَ عمِّه — وأوّلَ مَنْ صَلّى أخا الدِّينِ والتُّقَى

وقال أبو الهيثم بن التَّيِّهان — وكان بدريًا :

قل للزبيرِ وقلْ لطلحة إنّنا — نحنُ الذين شعارُنا الأنصارُ
نحنُ الذين رأتْ قريشٌ فعلَنَا — يوم القَلِيب أولئكَ الكفارُ
كنّا شعارَ نبيِّنا ودثارَه — يَفْدِيهِ منّا الرُّوحُ والأبصارُ

إنّ الوصيّ إمامُنا ووليُّنا   بَرِحَ الخفاء وباحتِ الأسرار [١]

وقال عمر بن حارثة الأنصاريّ ، وكان مع محمد بن الحنفيّة يوم الجمل ، وقد لامه أبوه عليه السلام لما أمره بالحملة فتقاعس :

أبا حسنٍ أنت فصلُ الأمورِ   يبينُ بكَ الحِلُّ والمَحْرَمُ
جمعتَ الرجالَ على رايةٍ   بها ابنُكَ يوم الوغى مُقْحَمُ
ولم ينكص المرء من خيفةٍ   ولكنْ توالتْ له أسهمُ
فقال رويداً ولا تَعْجَلُوا   فإنّي إذا رشقوا مُقْدِمُ
فأعجلتَه والفتى مُجمِعٌ   بما يكره الوَجِلُ المحجِمُ
سَمِيُّ النبيّ وشِبهُ الوصيّ   ورايتُه لونُها العَنْدَمُ

وقال رجل من الأزْد يوم الجمل :

هذا عليّ وهو الوصيّ   آخاه يومَ النَّجْوَةِ النبيّ
وقال هذا بعديَ الوليّ   وَعاهُ واعٍ ونسِي الشقيّ

وخرج يوم الجمل غُلام من بني ضَبّة شاب مُعْلِم [٢] من عسكر عائشة ، وهو يقول:

نحنُ بَني ضَبّةَ أعداءُ عَلِي   ذاكَ الّذي يُعْرَفُ قِدْماً بالوصِي
وفارسِ الخيل على عهد النبي   ما أنا عن فضل عليٍّ بالعَمِي
لكنّني أنعى ابنَ عفّانَ التقِي   إنّ الوليَّ طالبٌ ثأرَ الوَلِي

وقال سعيد بن قيس الهَمْدانيّ يوم الجمل ـ وكان في عسكر علي عليه السلام :

أيّةُ حربٍ أضرمتْ نيرانَها   وكسّرتْ يومَ الوغى مُرّانَها [٣]

---

(١) برح الخفاء ، أى ظهر ما كان خافياً وانكشف ، مأخوذ من براح ؛ وهو البارز الظاهر .
(٢) المعلم ، بكسر اللام : الذى علم مكانه فى الحرب بعلامة أعلمها .
(٣) المران : الرماح الصلبة اللدنة ، واحده مرانة .

قُلْ لِلْوَصِيِّ أَقْبَلَتْ قَحْطَانُهَا فَادْعُ بِهَا تَكْفِيكَهَا هَمْدَانُهَا
* هُمْ بَنُوهَا وَهُمْ إِخْوَانُهَا *

وقال زياد بن لبيد الأنصارى يوم الجمل — وكان من أصحاب على عليه السلام :

كَيْفَ تَرَى الأَنْصَارَ فِي يَوْمِ الْكَلَبْ إِنَّا أُنَاسٌ لَا نُبَالِي مَنْ عَطِبْ
وَلَا نُبَالِي فِي الْوَصِيِّ مَنْ غَضِبْ وَإِنَّمَا الأَنْصَارُ جِدٌّ لَا لَعِبْ
هَذَا عَلِيٌّ وَابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ نَنْصُرُهُ الْيَوْمَ عَلَى مَنْ قَدْ كَذَبْ
* مَنْ يَكْسِبِ الْبَغْيَ فَبِئْسَمَا اكْتَسَبْ *

وقال حُجْر بن عدى الكندى فى ذلك اليوم أيضاً :

يَا رَبَّنَا سَلِّمْ لَنَا عَلِيَّا سَلِّمْ لَنَا الْمُبَارَكَ الْمُضِيَّا
الْمُؤْمِنَ الْمُوَحِّدَ التَّقِيَّا لَا خَطِلَ الرَّأْيِ وَلَا غَوِيَّا
بَلْ هَادِيًا مُوَفَّقًا مَهْدِيَّا وَاحْفَظْهُ رَبِّي وَاحْفَظِ النَّبِيَّا
فِيهِ فَقَدْ كَانَ لَهُ وَلِيَّا ثُمَّ ارْتَضَاهُ بَعْدَهُ وَصِيَّا

وقال خُزيمة بن ثابت الأنصارى، ذو الشهادتين — وكان بدريًّا — فى يوم الجمل أيضاً:

ليس بين الأنصار فى جَحْمَةِ الحر ب وبين العُداة إلا الطعانُ
وقِراع الكُماةِ بالقُضُبِ البيـ ضِ إذا ما تَحَطَّمَ المُرّانُ
فادعها تستجبْ فليس من الخز رجِ والأوس يا علىّ جبانُ
يا وصىَّ النبىِّ قد أجلت الحر بُ الأعادى وسارتِ الأظعانُ
وَاسْتَقَامَتْ لَكَ الأُمُورُ سوى الشـ ام وفى الشام يظهر الإذعانُ
حَسْبُهُمْ ما رَأَوْا وَحَسْبُكَ مِنَّا هَكَذَا نَحْنُ حَيْثُ كُنَّا وَكَانُوا

وقال خزيمة أيضاً فى يوم الجمل :

أعائشَ خلّى عنْ علىٍّ وعَيْبِهِ   بما ليس فيــه إنما أنتِ والِدَه
وصىّ رسول الله مِنْ دُون أهله   وأنتِ عَلَى مَا كَانَ مِنْ ذَاكَ شَاهِدَهْ
وَحَسْبُكِ مِنْه بعضُ ماتعلمينَهُ   ويَكْفيكِ لو لم تعلمى غيرُ واحدهْ
إذا قِيلَ مَاذَا عِبْتِ مِنْهُ رَمَيْتِهِ   بخذل ابن عفّانٍ وما تلك آبدَهْ
وَلَيْسَ سَمَاء الله قاطرةً دماً   لِذَاكَ وَمَا الأَرْضُ الفَضَاء بمائدَهْ

وقال ابن بديل بن ورقاء الُخزاعىّ يوم الجمل أيضاً :

ياقَوْمُ لِلْخُطَّةِ العُظْمَى الَّتى حَدَثَتْ   حرب الوصىّ وما للحرب مِنْ آسِى
الفاصلُ الحَكَمُ بالتقوى إذا ضربت   تلك القبائلُ أخمَاساً لأَسْدَاسِ (١)

وقال عمرو بن أحيحة يوم الجمل فى خطبة الحسن بن علىّ عليه السلام بعد خطبة عبدالله ابن الزُّبير :

حَسَنَ الخــير يا شَبِيهَ أبِيهِ   قُمْتَ فينا مقام خَــير خَطِيبِ
قُمْتَ بالخطبة الَّتِى صَـدَعَ اللّـ   ـه بِهَا عَنْ أبِيكَ أهلَ العيوب
وكشفت القناع فاتّضح الأمــ   ـر وأصلحتَ فاسداتِ القُلُوبِ
لَسْتَ كابنِ الزُّبَيْرِ لَجْلَجَ فى القوْ   لِ وَطَأْطَا عِنَانَ فَسْلٍ مُرِيبِ
وأبى الله أن يقوم بمــا قا   مَ به ابنُ الوصِىِّ وابنُ النَّجِيبِ
إنّ شخصاً بَيْنَ النبىِّ – لك الخيـــرُ – وبين الوصىِّ غيرُ مَشُوبِ

---

(١) يقال لمن يظهر شيئا ويريد غيره : ضرب أخماسا لأسداس . والخمس والسدس: من أظماء الإبل ، والأصل فيه أن الرجل إذا أراد سفرا بعيدا عود إبله أن تشرب خمسا ، ثم سدسا ، حتى إذا أخذت فى السير صبرت عن الماء . (مجمع الأمثال ١ : ٤١٨) .

وقال زَحْر بن قيس الجعفيّ يوم الجمل أيضاً :

أضربُكُمْ حتّى تقرُّوا لعلي ... خَيْرِ قُرَيْشٍ كلِّها بَعْدَ النَّبِي

مَنْ زَانَهُ اللهُ وَسَمَّاه الوَصِي ... إن الوَلِيّ حافظٌ ظَهْرَ الوَلِي

* كما الغَوِيّ تابعٌ أمْرَ الغَوِي *

ذكر هذه الأشعار والأراجيز بأجمعها أبو مِخْنَف لوط بن يحيى (١) في كتاب وقعة الجمل . وأبو مِخْنَف من المحدِّثين ، وممن يرى صحة الإمامة بالاختيار ، وليس من الشيعة ولا معدوداً من رجالها .

***

ومما رويناه من أشعار صِفِّين التي تتضمن تسميته عليه السلام بالوصيّ ماذكره نصر ابن مزاحم (٢) بن يسار المِنقريّ في كتاب صِفِّين ، وهو من رجال الحديث . قال نصر ابن مُزاحم : قال زَحْر (٣) بن قيس الجعفيّ :

فصَلَّى الإلهُ على أحمدٍ ... رَسُولِ المَليكِ تمامِ النِّعَمْ

رَسُولِ المليكِ وَمِنْ بَعْدِهِ ... خليفتنا القائمِ المدَّعَمْ

عَلِيًّا عَنَيْتُ وصيّ النبيّ ... نُجالِدُ عَنْهُ غُواةَ الأُمَمْ

قال نصر : ومن الشعر المنسوب إلى الأشعث بن قيس (٤) :

أتانا الرَّسُولُ رَسُولُ الإمام (٥) ... فَسُرَّ بمقدَمِهِ المُسْلِمُونا

رَسُولُ الوصيّ وصيّ النبيّ ... له السَّبْقُ والفضل في المؤمنينا

---

(١) هو لوط بن يحيى بن سعيد بن مخنف بن سليم الأزدي ؛ كان راوية أخبار وصاحب تصانيف في الفتوح وحروب الإسلام ، توفي سنة ١٥٧ . معجم الأدباء ١٧ : ٤١ ، الفهرست ٩٣ .

(٢) ذكره ابن حجر في لسان الميزان ٦ : ١٥٧ ؛ وقال : إنه توفي سنة ٢١٢ .

(٣) زحر ، ضبطه صاحب القاموس بفتح الزاي وسكون الحاء المهملة ؛ والذي في كتاب صفين ص ٢٢ ، أنها لجرير بن عبد الله البجلي ، ضمن عشرة أبيات .

(٤) كتاب صفين ٢٧ . (٥) صفين : « رسول علي » .

ومن الشعر المنسوب إلى الأشعث أيضاً :

أتانا الرَّسُولُ رسول الوصىّ عَلِىّ المهـــذَّبُ من هَاشِمِ (١)
وزيرُ النـــبىّ وذو صِهْرِه وَخَـــيْرُ البريَّةِ والعالَمِ (٢)

قال نَصْر بن مُزاحم : من شعر أمير المؤمنين عليه السلام فى صِفِّين :

ياعَجَبا لقَدْ سمِعْتُ مُنْـكَرَا كِذْباً عَلَى الله يُشِيبُ الشَّعَرَا (٣)
ما كانَ يَرْضَى أحْمَدُ لو أخبرا أن يَقرِنُوا وصيَّـــه والأبْـتَرَا
شانى الرسولِ واللعينَ الأخزرا (٤) إنى إذا الموتُ دَنَا وحضرا (٥)
شَمَّرْتُ ثَوْبِى وَدعوتُ قَنبَرا : قَدِّمْ لِوائى لا تؤخِّرْ حَــذَرَا
لَا يَدْفَعُ الحِذارُ ماقدْ قُدِّرَا (٦) لو أن عندى يابن حَرْبٍ جَعْفرا
أو حمزةَ القَرْمَ الهُمام الأزْهرا رأت قريش نجْمَ ليلٍ ظُهُرا

(١) كتاب صفين ٢٨

(٢) كتاب صفين : « وخير البرية فى العالم » . (٣) كتاب صفين ٤٨ ؛ وبعد هذا البيت :

* يَسْتَرِقُ ٱلسَّمْعَ وَيَغْشَى ٱلْبَصَرَا *

(٤) كذا فى ا ، وفى كتاب صفين ، وفى ب « الأخورا » ، وبعده هناك :

كِلاهُما فِى جُنْدِهِ قد عَسْكَرَا قَدْ بَاعَ هَـــذا دِينَهُ فَأفْجَرَا
مَنْ ذَا بِدُنْيَا بَيْعُهُ قَدْ خَسِرَا بِمُلْكِ مِصْرٍ أنْ أصابَ الظَّفَرَا

(٥) ا : « وأحضرا » .

(٦) كتاب صفين : « لنْ يدفع » وبعده :

لَمَّا رأيت ٱلمَوْتَ مَوْتاً أحْمَرَا عَبَّأتُ هَمْدَانَ وَعَبَّوْا حِمْـيَرَا
حَىٌّ يمانٍ يُعْظِمُونَ ٱلْخَطَرَا قِرْنٌ إذَا نَاطَحَ قِرْناً كَسَّرَا
قُلْ لابْنِ حَرْبٍ لَاتَدِبَّ ٱلْخَمَرَا أَرْوِدْ قَلِيلاً أُبْدِ مِنْكَ ٱلضَّجَرَا
لَا تَحْسَبَنِّى يَابْنَ حَرْبٍ غَمَرَا وَسَلْ بِنَا بَدْراً مَعاً وَخَيْبَرَا
كَانَتْ قُرَيْشٌ يَوْمَ بَدْرٍ جَزَرَا إذْ وَرَدُوا الأمْرَ فَذَمُّوا ٱلصَّدَرَا

وقال جرير بن عبد الله البَجَلىّ : كتب بهذا الشعر إلى شُرَحبيل بن السِّمط الكندىّ ، رئيس اليمانية من أصحاب معاوية :

نَصَحتُكَ يابن السِّمط لا تتَّبع الهوى ... فمالك فى الدُّنيا من الدِّين مِنْ بَدَلْ (١)
ولاتَكُ كالمُجْرِى إلى شَرِّ غايةٍ ... فقد خُرِقَ السِّرْبَالُ واستَنْوَقَ الجمل
مقالُ ابن هنــــد فى علىٍّ عضيهةٌ ... ولَلهُ فى صدرِ ابن أبى طالبٍ أجَلّ (٢)
وما كانَ إلَّا لازِماً قَعْرَ بيتِــــه ... إلى أنْ أتى عثمانَ فى بيتِــه الأجلْ
وصىُّ رسول الله مِنْ دُونِ أهــلِه ... وفارسه الحامِى بِهِ يُضْرَبُ المثل (٣)

وقال النعمان بن عجلان الأنصارى (٤) :

كيف التفرُّقُ والوصىُّ إمامُنا ... لا كيف إلا حَــيْرَةً وتخاذُلا
لاتغبِنَنَّ عقولَــكم ، لا خَيْرَ فِى ... مَنْ لم يــكن عند البلابل عاقِلا
وذَرُوا معاويةَ الغَوىَّ وتابِعوا ... دينَ الوصىِّ لتحمَدُوه آجِلا (٥)

وقال عبد الرحمن بن ذُؤَيب الأسلمىّ :

ألا أبلغْ معاويةَ بْنَ حَرْبٍ ... فَمَالَكَ لاتَهَشُّ إلى الضِّرَابِ (٦) !
فإنْ تَسْــلَمْ وتَبْقَ الدَّهرَ يوماً ... نَزُرْكَ بجحفلٍ عَدَدَ التراب
يقودهمُ الوصىُّ إليــك حَتَّى ... يردَّك عن ضلالٍ وارتيابِ

وقال المغيرة بن الحارث بن عبد المطلب :

يَا عُصْبَةَ الموتِ صَــبْراً لا يهولُــكُمُ ... جيشُ ابنِ حَرْبٍ فإنَّ الحقَّ قَدْ ظَهَرَا (٧)
وأيقِنوا أنَّ مَنْ أضحى يخالفُكم ... أضحَى شَقِيًّا وأمسَى نفسَه خَسِرا

(١) كتاب صفين ص ٥٣ ، ٥٤ ، وروايته هناك : « شرحبيل يابن السمط » .
(٢) صفين : « وقال ابن هند » . (٣) صفين : « وفارسه الأولى به » .
(٤) صفين ص ٤١٥ ، وفيه : « النضر بن عجلان » .
(٥) صفين : « تصادقوه عاجلا » . (٦) صفين ٤٣٤
(٧) صفين ٤٣٧ ، وفيه : « ياشرطة الخير » .

فيكم وصيّ رسول الله قائدُكُمْ　　وصهرُهُ وكتابُ الله قد نُشِرا

وقال عبد الله بن العباس بن عبد المطلب[1] :

وصيّ رسول الله من دُونِ أهْلِهِ　　وَفَارِسُهُ إن قيل هَلْ مِنْ مُنَازِلِ !

فَدُونَكَهُ إنْ كُنْتَ تَبْغِي مهاجِراً　　أشَمّ كنَصْل السّيْفِ عَيْرَ حَلاحِلِ[2]

والأشعار التى تتضمن هذه اللفظة كثيرة جدًّا ، ولكنا ذكرنا منها ها هنا بعض ما قيلَ فى هذين الحِزْبين ، فأما ما عداهما فإنه يجلّ عن الحصر ، ويعظُم عن الإحصاء والعدّ ، ولولا خوفُ الملالة والإضجار ، لذكرنا من ذلك ما يملأ أوراقاً كثيرة .

---

(١) صفين : ٤٧٤ ، ونسبها إلى الفضل بن عباس .

(٢) عير القوم : سيدهم ؛ والحلاحل بالفتح : جمع حلاحل ، بالضم ، وهو الشجاع .

— ٣ —

ومن خطبة له وهى المعروفة بالشقشقية[١] :

الأصـل :

أَمَا وَاللهِ لَقَدْ تَقَمَّصَهَا ابنُ أبي قُحَافَةَ[٢] ، وَإِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّ مَحَلِّي مِنْهَا مَحَلُّ الْقُطْبِ مِنَ الرَّحَا ؛ يَنْحَدِرُ عَنِّي السَّيْلُ ، وَلَا يَرْقَى إِلَيَّ الطَّيْرُ . فَسَدَلْتُ دُونَهَا ثَوْباً ، وَطَوَيْتُ عَنْهَا كَشْحاً ، وَطَفِقْتُ أَرْتَئِي بَيْنَ أَنْ أَصُولَ بِيَدٍ جَذَّاءَ ، أَوْ أَصْبِرَ عَلَى طَخْيَةٍ عَمْيَاءَ ، يَهْرَمُ فِيهَا الْكَبِيرُ ، وَيَشِيبُ فِيهَا الصَّغِيرُ ، وَيَكْدَحُ فِيهَا مُؤْمِنٌ[٣] حَتَّى يَلْقَى رَبَّهُ ؛ فَرَأَيْتُ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَى هَاتَا أَحْجَى ، فَصَبَرْتُ وَفِي الْعَيْنِ قَذًى ، وَفِي الْحَلْقِ شَجاً . أَرَى تُرَاثِي نَهْباً .

***

الشـرح :

سدلت دونها ثوبا ، أى أرخيتُ ، يقول: ضربتُ بينى وبينها حجاباً ؛ فِعلَ الزاهد فيها ، الراغب عنها . وطويتُ عنها كشحا ، أى قطعتها وصرمتها ؛ وهو مثل ، قالوا : لأن مَنْ كان إلى جانبك الأيمن مائلا فطويت كشحكَ الأيسر فقد مِلْتَ عنه ، والكشح : ما بين الخاصرة والجنب . وعندى أنهم أرادوا غير ذلك ، وهو أنّ من أجاع نفسه فقد طوى كشحه ، كما أنّ مَنْ أكل وشبع فقد ملأ كشحه ؛ فكأنه أراد أنى أجعتُ نفسى عنها ، ولم ألقمها . واليد الجذاء بالدال المهملة ، وبالذال المعجمة ، والحاء المهملة مع الذال المعجمة ، كلّه بمعنى المقطوعة . والطَّخية : قطعة من الغيم والسحاب . وقوله : «عمياء» ، تأكيد لظلام الحال واسودادها ؛ يقولون : مفازة عمياء ، أى يعمى فيها الدليل .

---

(١) مخطوطة النهج : « الشقشقية والمقمصة » . (٢) مخطوطة النهج : « فلان » .
(٣) مخطوطة النهج : « المؤمن » .

ويكدح : يسعى ويكدّ مع مشقة ، قال تعالى : ﴿ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً ﴾[١] وهاتا ، بمعنى هذه ، « ها » للتنبيه ، و « تا » للإشارة ، ومعنى « تا » ذى ، وهذا أحجى من كذا أى أليق بالحجا ، وهو العقل .

***

وفى هذا الفصل من باب البديع فى علم البيان عشرة ألفاظ :

أولها : قوله : « لقد تقمصها » ، أى جعلها كالقميص مشتملة عليه ، والضمير للخلافة ، ولم يذكرها للعلم بها ، كقوله سبحانه : ﴿ حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾[٢] ، وكقوله : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾[٣] ، وكقول حاتم :

أَمَاوِىَّ ما يُغْنِى الــثَّــرَاءُ عَنِ الْفَتَى ... إِذَا حَشْرَجَتْ يوماً وَضَاقَ بها الصَّدْرُ[٤]

وهذه اللفظة مأخوذة من كتاب الله تعالى فى قوله سبحانه : ﴿ وَلِبَاسُ التَّقْوَى ﴾[٥] وقول النابغة[٦] :

تَسَرْبَلَ سِرْبَالًا مِنَ النَّصْرِ وَارْتَدَى ... عَلَيْهِ بِعَضْبٍ فى الْكَرِيهَةِ قَاصِلِ

الثانية : قوله : « ينحدر عنى السيل » ، يعنى رفعة منزلته عليه السلام ، كأنه فى ذروة جبل أو يفاع مشرف ، ينحدر السيل عنه إلى الوهاد والغيطان ، قال الهذلىّ :

وعَيطاء يَكْثُرُ فيها الزليــلُ ... وينحدرُ السَّيْلُ عنها انحدارا[٧]

الثالثة : قوله عليه السلام : « ولا يَرْقَى إلىّ الطير » ، هذه أعظمُ فى الرفعة والعلوّ من التى قبلها ، لأنّ السيل ينحدر عن الرابية والهضبة ، وأما تعذّرُ رقىّ الطير فربما يكون للقِلال الشاهقة جدًّا ، بل ما هو أعلى من قِلال الجبال ، كأنه يقول : إنى لعلوّ منزلتى كمن فى السماء التى يستحيل أن يَرْقى الطير إليها ، قال أبو الطيب :

فَوْقَ السَّماء وفَوْقَ ما طَلَبُوا ... فإذَا أرادوا غايَةً نَزَلُوا[٨]

---

(١) سورة الانشقاق ٦
(٢) سورة ص ٣٢
(٣) سورة الرحمن ٢٦
(٤) ديوانه ١١٨
(٥) سورة الأعراف ٢٦
(٦) كذا فى الأصول ، والصواب أنه لأبى تمام ، كما فى ديوانه ٣ : ٨٢
(٧) عيطاء : مرتفعة . والزليل : الزلل .
(٨) ديوانه ٣ : ٣١٠

وقال حبيب :

مَكَارِمُ لَجَّتْ فى عُلُوٍّ كأنّما تحاولُ ثأراً عِنْدَ بعضِ الكواكِبِ[1]

الرابعة : قوله : « سدلت دونها ثوبا » ، قد ذكرناه .

الخامسة : قوله « وطويت عنها كشحا » قد ذكرناه أيضاً .

السادسة : قوله : « أصُولُ بيدٍ جَذّاء » ، قد ذكرناه .

السابعة : قوله : « أصْبِر على طَخْية عمياء » قد ذكرناه أيضاً .

الثامنة : قوله : « وفى العين قذى » ، أى صبرت على مضض كما يصبر الأرمد .

التاسعة : قوله : « وفى الحلق شَجاً » وهو مايعترض فى الحلق. أى كما يصبر من مُنِىَّ بأمرٍ فهو يكابد الخنق .

العاشرة : قوله : « أرى تُراثى نَهْباً » ، كنى عن الخلافة بالتراث ، وهو الموروث من المال .

* * *

فأما قوله عليه السلام : « إن محلّى منها محلّ القُطْب من الرحا » ، فليس من هذا النمط الذى نحن فيه ، ولكنه تشبيه محض ، خارج من باب الاستعارة والتوسع ؛ يقول : كما أنّ الرحا لا تدور إلا على القُطْب ، ودورانُها بغير قُطْب لا ثمرة له ولا فائدة فيه، كذلك نِسْبتى إلى الخلافة ، فإنها لا تقوم إلا بى ، ولا يدور أمرُها إلّا علىّ .

هكذا فسروه . وعندى أنه أراد أمرا آخر ، وهو أنّى من الخلافة فى الصميم ، وفى وَسَطها وبُحْبُوحَتِها ، كما أن القطب وسط دائرة الرحا ، قال الراجز[2] :

---

(١) ديوانه ١ : ٢١٧

(٢) هو جرير بن عطية ، ديوانه ٥٢٠ ؛ والأبيات أيضا فى الكامل ٢ : ١١٢ ، ٣ : ١٩١ ، يقولها فى الحكم بن أيوب بن أبى عقيل الثقفى ؛ ابن عم الحجاج ، وكان عامله على البصرة .

على قِلاَصٍ مثل خِيطان السَّلَمْ.(١) إذا قَطَعْن علمًا بَدَا عَلَمْ.(٢)
حتى أنخناها إلى باب الحَكَمْ(٣) خليفةِ الحجّاج غير المتّهمْ
* فى سُرّة المجد وبُحْبُوحِ الكَرَمْ.(٤) *

وقال أمية بن أبى الصلت لعبد الله بن جُدْعان :

فحللتَ منها بالبطا ح وحلّ غيرُكَ بالظّواهِرْ.(٥)

وأما قوله : « يَهْرَم فيها الكبير ، ويَشِيب فيها الصغير » فيمكن أنْ يكونَ من باب الحقائق ، ويمكن أن يكون من باب المجازات والاستعارات ؛ أما الأول فإنه يعنى به طولَ مدة ولاية المتقدّمين عليه ، فإنها مدة يهرم فيها الكبير ، ويشيب فيها الصغير .

وأما الثانى فإنه يعنى بذلك صعوبةَ تلك الأيام ؛ حتى إنّ الكبير من الناس يكاد يَهْرَم لصعوبتها ، والصغير يشيب من أهوالها ، كقولهم : هذا أمر يَشيب له الوليد ؛ وإن لم يَشِب على الحقيقة .

---

(١) القلاص : جمع قلوص ؛ وهى الناقة الفتية . والخيطان : جمع خوط ؛ وهو الغصن الناعم . والسلم : شجر ، واحدته سلمة .

وبعده فى رواية الديوان :

قَدْ طُوِيَتْ بُطُونُهَا عَلَى الأَدَمْ بَعْدَ انفضاجِ البُدْنِ واللحمِ الزِّيَمْ

(٢) بعده فى رواية الديوان :

* فَهُنَّ نَحْوًا كَمُضِلاَّتِ الخَدَمْ *

(٣) رواية الديوان :

* حتّى تَنَاهَيْنَ إلى بابِ الحَكَمْ *

(٤) رواية الديوان :

* فِى ضِئْضِئِ المجدِ وبُؤْبُؤِ الكَرَمْ *

(٥) البطاح : بطن مكة ، والظواهر أعلاها ؛ والبيت فى اللسان ٦ : ١٩٧ منسوب للكميت بهذه الرواية :

فَحَلَلْتَ مُعْتَلَجَ البطا حِ وَحَلَّ غيرك بالظّواهِرْ

واعلم أنّ فى الكلام تقديما وتأخيرا ، وتقديره : ولا يرق إلىّ الطير ، فطفقت أرتئى بين كذا وكذا ، فرأيت أنّ الصبر على هاتا أحجى فسدلت دونها ثوبا ، وطويت عنها كشحا ، ثم « فصبرت وفى العين قذى » ؛ إلى آخر القصة ، لأنه لا يجوز أن يسدل دونها ثوبا ويطوى عنها كشحا ، ثم يَطفِق يرتئى بين أنْ ينابذهم أو يصبر ؛ ألا ترى أنه إذا سَدَل دونها ثوبا ، وطوى عنها كشحا فقد تركها وصرمها ، ومن يتركْ ويَصرمْ لا يرتئى فى المنابذة ! والتقديم والتأخير طريق لا حب ، وسبيل مَهْيَع فى لغة العرب ، قال سبحانه: ﴿ الَّذِى أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا * قَيِّمًا ﴾ ،[1] أى أنزل على عبده الكتاب قَيِّمًا ، ولم يجعل له عوجا ، وهذا كثير .

وقوله عليه السلام : « حتى يأتِىَ ربَّهْ » بالوقف والإسكان ، كما جاءت به الرواية فى قوله سبحانه : ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهْ ﴾[2] بالوقف أيضاً .

* * *

[نسب أبى بكر ونبذة من أخبار أبيه]

ابن أبى قحافة المشار إليه ، هو أبو بكر ، واسمه القديم عبد الكعبة ، فسمّاه رسول الله صلى الله عليه وآله عبدَ اللهِ . واختلفوا فى « عَتيق » ، فقيل : كان اسمَه فى الجاهلية، وقيل: بل سماه به رسول الله صلى الله عليه وآله . واسم أبى قُحافة عثمان ، وهو عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تَيم بن مرّة بن كعب بن لؤىّ بن غالب . وأمه ابنة عمّ أبيه ، وهى أمّ الخير بنت صخر بن عمرو بن كعب بن سعد . أسلم أبو قحافة يوم الفتح ، جاء به ابنُه أبو بكر إلى النبىّ صلى الله عليه وآله ، وهو شيخ كبير رأسه كالثَّغامة[3] البيضاء ، فأسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « غيّروا شَيبته » .

---

(١) سورة الكهف ١ ، ٢ (٢) سورة البينة ٨

(٣) أورد الخبر ابن الأثير فى النهاية (١ : ١٢٩) : « أتى بأبى قحافة يوم الفتح وكأن رأسه ثغامة » . وقال : « هو نبت أبيض الزهر والثمر ، يشبه به الشيب . وقيل : هى شجرة تبيض كأنها الثلج » .

وولِيَ ابنُه الخلافة وهو حيّ منقطع في بيته ، مكفوف عاجز عن الحركة ، فسمع ضوضاء الناس ، فقال ، ما الخبر ؟ فقالوا : ولِيَ ابنُك الخلافة ، فقال : رضيتْ بنو عبد مناف بذلك ؟ قالوا : نعم ، قال : اللهمّ لا مانعَ لما أعطيت ، ولا معطيَ لما منعتَ .

ولم يلِ الخلافةَ مَنْ أبوه حيّ إلا أبو بكر وأبو بكر عبد الكريم[1] الطائع لله ، وَلِيَ الأمرَ وأبوه المطيع حيّ ، خلع نفسَه من الخلافة ، وعهِد بها إلى ابنه . وكان المنصورُ يسمّي عبدَ الله بن الحسن بن الحسن[2] أبا قُحافة تهكّما به ، لأن ابنَه[3] محمدا ادّعى الخلافة وأبوه حيّ .

ومات أبو بكر وأبو قُحافة حيّ ، فسمع الأصوات فسأل ، فقيل : مات ابنُك ، فقال : رزء جليل . وتوفّي أبو قحافة في أيام عمر في سنة أربع عشرة للهجرة ، وعمره سبع وتسعون سنة ، وهي السّنة التي توفي فيها نوفل بن الحارث بن عبدالمطلب بن هاشم[4] .

* * *

إن قيل : بيّنوا لنا ماعندكم في هذا الكلام ؟ أليس صريحُه دالًّا على تظليم القوم ونسبتهم إلى اغتصاب الأمر ! فما قولُكم في ذلك ؟ إن حكمتُم عليهم بذلك فقد طعنتُم فيهم ، وإن لم تحكموا عليهم بذلك فقد طعنتم في المتظلّم المتكلّم عليهم !

قيل : أما الإماميّة من الشيعة فتُجرى هذه الألفاظَ على ظواهرها ، وتذهبُ إلى أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله نصّ على أمير المؤمنين عليه السلام ، وأنّه غُصِب حقّه

---

(١) أصيب المطيع لله بالفالج ، ولما قوي عليه وثقل لسانه ، خلع نفسه . وبويع لولده الطائع ؛ وكان ذلك في سنة ٣٦٤ . الفخرى ص ٢٠٣ (٢) كان عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبي طالب ، شيخ بني هاشم في وقته ، والمقدم فيهم . وانظر أخباره في مقاتل الطالبيين ص ١٧٩ــ١٨٥ .

(٣) كان علماء آل أبي طالب يرون في محمد بن عبد الله بن الحسن أنه النفس الزكية ؛ وكان أفضل أهل بيته في علمه بكتاب الله وحفظه له ، مع فقهه في الدين وشجاعته وجوده وبأسه وكل أمر يجمل بمثله . وانظر ترجمته وأخباره في مقاتل الطالبيين ص ٢٣٢ ـ ٢٩٩

(٤) هو ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ له صحبة ؛ ، وكان أسن من أسلم من بني هاشم ؛ حتى من عميه حمزة والعباس . الإصابة ٦ : ٢٥٨

وأما أصحابُنا رحمهم الله ؛ فلهم أن يقولوا : إنه لما كان أميرُ المؤمنين عليه السلام هو الأفضل والأحقّ، وعُدِل عنه إلى مَنْ لا يساويه فى فضل ، ولا يوازيه فى جهاد وعِلْم؛ ولا يماثله فى سُؤدد وشرف ـ ساغَ إطلاقُ هذه الألفاظ ، وإن كان من وُسِم بالخلافة قبله عَدْلاً تقيا ، وكانت بيعتُه بيعةً صحيحة ؛ ألا ترى أنّ البلد قد يكون فيه فقيهان ؛ أحدُهما أعلمُ من الآخر بطبقاتٍ كثيرة، فيجعل السلطان الأنقصَ عِلماً منهما قاضياً، فيتوجّد الأعلم[1] ويتألّم ، وينفُث أحيانا بالشّكوى، ولا يكون ذلك طعناً فى القاضى ولا تفسيقا له، ولا حُكْمًا منه بأنه غير صالح ، بل للعدول عن الأحقّ والأوْلى ؛ وهذا أمر مركوز فى طباع البشر، ومجبول فى أصل الغريزة والفطرة ؛ فأصحابُنا رحمهم الله، لما أحسنُوا الظنّ بالصحابة ـ وحَملوا ماوقع منهم على وجه الصواب ، وأنّهم نظروا إلى مصلحة الإسلام ، وخافوا فتنةً لا تقتصر على ذهاب الخلافة فقطْ ، بل وتُفضى إلى ذهاب النبوّة والملّة ، فعدَلوا عن الأفضل الأشرف الأحقّ ، إلى فاضلٍ آخر دونه ، فعقدوا له ـ احتاجوا إلى تأويل هذه الألفاظ الصادرة عمّن يعتقدونه فى الجلالة والرفعة قريباً من منزلة النبوة ، فتأوّلوها بهذا التأويل ، وحملوها على التألّم للعدول عن الأوْلى .

وليس هذا بأبْعَد من تأويل الإماميّة قولَه تعالى : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾[2] ، وقولهم : معنى « عصى » أنه عدَل عن الأوْلى ، لأنّ الأمر بترك أكل الشجرة كان أمراً على سبيل الندب ، فلما تركه آدم ، كان تاركا للأفضل والأوْلى ، فسمى عاصيا باعتبار مخالفة الأوْلى ، وحملوا « غَوَى » على « خاب » لا على الغواية بمعنى الضلال . ومعلومٌ أنّ تأويلَ كلام أمير المؤمنين عليه السلام وحَمْلَه على أنه شكا من تركهم الأوْلى أحسنُ من حَمْل قوله تعالى : ﴿ وَعَصَى آدَمُ ﴾ على أنه تَرَكَ الأوْلى .

---

(١) ب : « الأعظم » ، والأجود ما أثبته من ا

(٢) سورة طه ١٢١

إن قيل : لا تخلو الصحابة إمّا أن تكون عدلت عن الأفضل لعلّة ومانع فى الأفضل أولا لمانع ؛ فإنْ كان لا لمانع كان ذلك عقداً للمفضول بالهوى ، فيكون باطلا ، وإن كان لمانع — وهو ما تذكرونه من خوف الفتنة ، وكوْن الناس كانوا يبغضون عليا عليه السلام ويحسدونه — فقد كان يجب أن يَعْذِرَهم أميرُ المؤمنين عليه السلام فى العدول عنه ، ويعلم أنّ العقد لغيره هو المصلحة للإسلام، فكيف حَسُن منه أن يشكوَهم بعدذلك؟ ويتوجّد عليهم !

وأيضاً ، فما معنى قوله: « فطفِقْت أرتئى بين أن أصول بيد جَذّاء » ، على ماتأوّلتم به كلامه ؛ فإنّ تارك الأوْلَى لا يُصال عليه بالحرب !

قيل : يجوز أن يكون أمير المؤمنين عليه السلام لم يغلِبْ على ظنه ماغَلب على ظنون الصحابة من الشّغْب وثَوَرَان الفتنة ، والظنونُ تختلف باختلاف الأمارات ، فربّ إنسان يغلب على ظنّه أمر يغلب على ظن غيره خلافُه . وأما قوله : «أرتئى بين أنْ أصول»، فيجوز أن يكون لم يعْنِ به صِيالَ الحرب، بل صيال الجدَل والمناظرة ؛ يبيِّن ذلك أنه لو كان جادلهم وأظهر مافى نفسه لهم ، فربّما خَصموه بأن يقولوا له : قد غلب على ظنوننا أنّ الفساد يعظُم ويتفاقم إن وَليت الأمر ، ولا يجوز مع غَلَبة ظنوننا لذلك أنْ نسلِّم الأمر إليك ، فهو عليه السلام قال : طفقت أرتئى بين أن أذكر لهم فضائلى عليهم ، وأحاجّهم بها، فيجيبونى بهذا الضّرب من الجواب — الذى تصير حُجّتى به جَذّاء[1] مقطوعة، ولا قدرةَ لى على تشييدها ونصرتِها — وبين أنْ أصبِر على مامُنيت به ، ودُفِعْت إليه .

إن قيل : إذا كان عليه السلام لم يغلبْ على ظنّه وجودُ العلة والمانع فيه، وقد استراب الصحابةَ وشكاهم لعدُولهم عن الأفضل الذى لا علّة فيه عنده فقد سلّمتم أنه ظَلّمَ الصحابة، ونسبهم إلى غصب حقّه ، فما الفرق بين ذلك وبين أن يستظلمَهم لمخالفة النص ؟ وكيف

(١) ا : « جدّاء » .

هربتم من نسبته لهم إلى الظلم لدفع النصّ ، ووقعتم فى نسبته لهم إلى الظلم لخلاف الأوْلى من غير علّة فى الأوْلى ، ومعلوم أن مخالفة الأوْلى من غير علة فى الأوْلى كتارك النصّ ، لأنّ العقد فى كلا الموضعين يكون فاسداً !

قيل : الفرق بين الأمرين ظاهر ، لأنه عليه السلام لو نَسَبهم إلى مخالفة النصّ لوجب وجودُ النصّ ، ولو كان النصُّ موجودا لكانوا فُسّاقا أو كفارا لمخالفته ، وأمّا إذا نَسَبهم إلى تركِ الأوْلى من غيرِ علّة فى الأوْلى ، فقد نسبهم إلى أمر يدّعون فيه خلافَ ما يدّعى عليه السلام ، وأحد الأمرين لازم ؛ وهو إما أن يكون ظنهم صحيحا أو غير صحيح ، فإن كان ظنُّهم هو الصحيح فلا كلام فى المسألة ، وإن لم يكن ظنُّهم صحيحا كانوا كالمجتهد إذا ظن وأخطأ فإنه معذور ، ومخالفةُ النصّ [أمرٌ] خارج عن هذا الباب ؛ لأنّ مخالِفَه غير معذور بحال ، فافترق المحلان .

* * *

[مرض رسول الله وإمرة أسامة بن زيد على الجيش]

لما مرض رسولُ الله صلى الله عليه وآله مرضَ الموت ، دعا أسامةَ بن زيد بن حارثة ، فقال : سرْ إلى مقتَل أبيك(1) ، فأوطئهم الخيل ، فقد ولّيتُك على هذا الجيش ، وإن أظفرَك الله بالعدوّ ، فأقلل اللّبث ، وبثّ العيون ، وقدّم الطلائع . فلم يبقَ أحد من وجوه المهاجرين والأنصار إلا كان فى ذلك الجيش ؛ منهم أبو بكر وعُمر ، فتكلّم قوم وقالوا : يستعمل هذا الغلامَ على جِلّة المهاجرين والأنصار ! فغضب رسولُ الله صلى الله عليه وآله لما سمع ذلك ، وخرجَ عاصباً رأسه ، فصعِد المنبر وعليه قَطيفة(2) فقال : « أيها الناس ، ما مقالة بلغتنى عن بعضكم فى تأمير أسامة ! لئن طعنتم فى تأميرى أسامة ، فقد طعنتم فى تأميرى أباه مِنْ قبله ، وأيمُ الله إن كان لخليقا بالإمارة ، وابنُه من(3) بعده لخليق بها ،

---

(1) قتل زيد بن حارثة بمؤتة ؛ إحدى قرى البلقاء ؛ وتفصيل الخبر فى الطبرى ، (حوادث السنة الثامنة) .
(2) القطيفة : كساء له أهداب .
(3) ا : « وإن ابنه من بعده لخليق بها » .

وإنهما لمن أحبِّ الناس إلىّ ؛ فاستوصوا به خيراً ، فإنه من خياركم » . ثم نزل ودخل بيته ، وجاء المسلمون يودّعون رسول الله صلى الله عليه وآله ، ويمضون إلى عسكر أسامة بالجُرْف[١] .

وثَقِل[٢] رسول الله صلى الله عليه وآله ، واشتدّ مايجده ، فأرسل بعضَ نسائه إلى أسامة وبعض مَنْ كان معه ، يُعلمونهم ذلك ، فدخل أسامة من معسكره ــ والنبىّ صلى الله عليه وآله مغمور ، وهو اليوم الذى لَدّوه[٣] فيه ــ فتطأطأ أسامة عليه فقبّله ، ورسول الله صلى الله عليه وآله قد أسكت فهو لا يتكلّم ، فجعل يرفع يديه إلى السماء ثم يضعهما على أسامة ؛ كالداعى له ، ثم أشار إليه بالرجوع إلى عسكره ، والتوجّه لما بعثه فيه ، فرجع أسامة إلى عسكره . ثم أرسل نساء رسول الله صلى الله عليه وآله إلى أسامة يأمُرْنه بالدخول ، ويقُلْن إن رسول الله صلى الله عليه وآله قد أصبح بارئا ، فدخل أسامة من معسكره يوم الاثنين ، الثانى عشر من شهر ربيع الأول فوجد رسول الله صلى الله عليه وآله مُفيقا ، فأمره بالخروج وتعجيل النفوذ ، وقال : اغدُ على بركة الله ، وجعل يقول : « أنفذوا بعث أسامة » ، ويكرّر ذلك ، فودّع رسول الله صلى الله عليه وآله ، وخرج ومعه أبو بكر وعمر ، فلما ركب جاءه رسول أمّ أيمن ، فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وآله يموت ، فأقبل ومعه أبو بكر وعمر وأبو عبيدة ، فانتهوْا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله حين زالت الشمس من هذا اليوم ، وهو يوم الاثنين ، وقد مات واللواء مع بُرَيْدة بن الحُصَيب ، فدخل باللّواء فركزه عند باب رسول الله صلى الله عليه وآله وهو مُغْلق ، وعلىّ عليه السلام وبعض بنى هاشم مشتغلون بإعداد جهازه وغسله ، فقال العباس لعلىّ ــ وهما فى الدار : امْدُدْ يدَكَ أبايعك فيقول الناس : عمّ رسول الله بايع ابنَ عمّ رسول الله ؛ فلا يختلف عليك

---

(١) الجرف : موضع على ثلاثة أميال من المدينة نحو الشام .

(٢) ثقل ، بالكسر : اشتد مرضه .

(٣) يقال : لد المريض، بالبناء للمجهول أى دووى باللدود ؛ بالفتح ؛ وهو من الأدوية ما يسقاه المريض فى أحد شق الفم ؛ وانظر النهاية لابن الأثير ٣ : ٥٥ ، واللسان ٤ : ٣٩٣

اثنان ، فقال له : أوَ يطمعُ ياعمّ فيهـا طامع غيرى ! قال : ستعلم ؛ فلم يلبثا أنْ جاءتهما الأخبار بأنّ الأنصـار أقعـدتْ سعداً لتُبايعَه ، وأنّ عمر جاء بأبى بكر فبايعَه ، وسبق الأنصارَ بالبَيْعة ، فندم علىٌّ عليه السلام على تفريطه فى أمر البيعة وتقاعده عنها ، وأنشده العباس قول دُرَيد :

أمَرْتُهُمُ أمرِى بمنعرَجِ اللِّـــوَى ... فلم يستبينُوا النُّصْحَ إلاَّ ضُحَى الغدِ(١)

***

وتزعُمُ الشيعةُ أنّ رسول الله صلى الله عليـه وآله كان يعلَمُ موته، وأنه سيَّر أبا بكر وعمر فى بعث أسامة لتخلُوَ دارُ الهجرة منهما ، فيصفُوَ الأمرُ لعلىّ عليـه السلام ، ويبايعَه مَن تخلّف من المسلمين بالمدينة على سكونٍ وطمأنينة ، فإذا جاءهما الخبر بموت رسول الله صلى الله عليه وآله وبيعة الناس لعلىّ عليه السلام بعده كانا عن المنازعة والخلاف أبعدَ ، لأنّ العرب كانت تلتزم بإتمـام تلك البَيْعة ، ويُحتاجُ فى نقضها إلى حروب شديدة ، فلم يتمّ له ماقدّر ، وتثاقل أسامة بالجيش أياما ، مع شدّة حثّ رسول الله صلى الله عليه وآله على نفوذه وخروجه بالجيش ، حتى مات صلى الله عليـه وآله وهما بالمدينـة ، فسبقا عليًّا إلى البيعة وجَرى ماجرى .

وهذا عندى غير منقدح ، لأنه إن كان صلى الله عليه وآله يعلم موتَه ، فهو أيضاً يعلم أنّ أبا بكر سيلى الخلافة ، وما يعلمه لا يحترِس منه ؛ وإنما يتمّ هـذا ويصحّ إذا فرضنا أنه عليـه السلام كان يظنّ موتَه ولا يعلمه حقيقة ، ويظنّ أن أبا بكر وعمر يتمالآن على ابن عمه ، ويخاف وقوع ذلك منهما ولا يعلمه حقيقة ، فيجوز إن كانت الحال هكذا أن ينقدح هذا التوهّم ، ويتطرق هـذا الظنّ ، كالواحد منا له ولدان ؛ يخاف من أحدهما

---

(١) ديوان الحماسة — بشرح المرزوق ٢ : ٨١٤ ، وروايته : « فلم يستبينوا الرشد » .

أن يتغلّب بعد موته على جميع ماله ، ولا يوصِل أخاه إلى شيء من حقه ؛ فإنه قد يخطر له عند مرضه الذى يتخوّف أن يموتَ فيه أن يأمر الولد المخوف جانبه بالسفر إلى بلد بعيد فى تجارة يسلمها إليه ، يجعل ذلك طريقا إلى دفع تغلّبه على الولد الآخر .

***

الأصْلُ :

حَتَّى مَضَى الأَوَّلُ لِسَبِيلِهِ ، فَأَدْلَى بِهَا إِلَى ابْنِ الْخَطَّابِ بَعْدَهُ (١)

شَتَّانَ مَا يَوْمِي عَلَى كُورِهَا وَيَوْمُ حَيَّانَ أَخِي جَابِرِ

فَيَاعَجَبا ! بَيْنَاهُوَ يَسْتَقِيلُهَا فِي حَيَاتِهِ ، إِذْ عَقَدَهَا لِآخَرَ بَعْدَ وَفَاتِهِ ! لَشَدَّ مَاتَشَطَّرَا ضَرْعَيْهَا ! فَصَيَّرَهَا فِي حَوْزَةٍ خَشْنَاءَ يَغْلُظُ كَلْمُهَا ، وَيَخْشُنُ مَسُّهَا ، وَيَكْثُرُ الْعِثَارُ فِيهَا ، وَالِاعْتِذَارُ مِنْهَا ، فَصَاحِبُهَا كَرَاكِبِ الصَّعْبَةِ ، إِنْ أَشْنَقَ لَهَا خَرَمَ ، وَإِنْ أَسْلَسَ لَهَا تَقَحَّمَ ، فَمُنِيَ النَّاسُ لَعَمْرُ اللهِ بِخَبْطٍ وَشِمَاسٍ ، وَتَلَوُّنٍ وَاعْتِرَاضٍ ، فَصَبَرْتُ عَلَى طُولِ الْمُدَّةِ ، وَشِدَّةِ الْمِحْنَةِ .

***

الشّرْحُ :

مضى لسبيله : مات ، والسّبيل الطريق ، وتقديره : مضى على سبيله ، وتجيء اللام بمعنى « على » كقوله (٢) :

* فَخَرَّ صَرِيعاً لِلْيَدَيْنِ وَلِلْفَمِ *

وقوله : « فأدلى بها » من قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ

(١) فى مخطوطة النهج : « ثم تمثل بقول الأعشى » . وكذلك فى حواشى ب .

(٢) لجابر بن حنى التغلبى ، وصدره :

* تَنَاوَلَهُ بِالرُّمْحِ ثُمَّ انْثَنَى لَهُ *

من قصيدة له مفضلية ٢٠٨ ـ ٢١٢ ، والبيت من شواهد المغنى ١ : ٢١٢ ، على وضع اللام موضع « على » .

وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى ٱلْحُكَّامِ ﴾ (١) أى تدفعوها إليهم رِشْوَةً ، وأصله من أدليت الدلو فى البئر ، أرسلتها .

فإن قلت : فإنّ أبا بكر إنما دفعها إلى عمر حين مات ، ولا معنى للرّشوة عند الموت !

قلت : لما كان عليه السلام يرى أنّ العدول بها عنه إلى غيره إخراج لها إلى غير جهة الاستحقاق شبّه ذلك بإدلاء الإنسان بمالِه إلى الحاكم ، فإنه إخراج للمال إلى غير وجهه ، فكان ذلك من باب الاستعارة .

* * *

[عهد أبى بكر بالخلافة إلى عمر بن الخطاب]

وابن الخطاب هو أبو حفص عُمَر الفاروق ، وأبوه الخطّاب بن نُفَيْل بن عبد العُزّى ابن رياح بن عبد الله بن قُرط بن رَزَاح بن عدىّ بن كعب بن لُؤىّ بن غالب . وأم عمر حَنْتَمة بنت هاشم بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم .

لما احتُضر أبو بكر ، قال للكاتب اكتب : هذا ما عهد عبد الله بن عثمان (٢) ، آخرَ عهده بالدنيا وأوّلَ عهده بالآخرة ، فى الساعة التى يبَرّ فيها الفاجر ، ويُسْلِم فيها الكافر . ثم أغمى عليه فكتب الكاتب : عمر بن الخطاب ، ثم أفاق أبو بكر ، فقال : اقرأ ما كتبت ، فقرأ وذكر اسم عمر ، فقال : أنّى لك هذا ! قال : ما كنت لتعدُوَه ، فقال : أصبت ، ثم قال : أتمّ كتابك ، قال : ما أكتب ؟ قال : اكتب : وذلك حيث أجال رأيه وأعمل فكره ، فرأى أنّ هذا الأمر (٣) لا يصلح آخرهُ إلا بما يصلح به أوله (٣) ، ولا يحتمله إلا أفضلُ العرب مقدرة ، وأملكُهم لنفسه ، وأشدّهم فى حال الشدة ، وأسلسهُم فى حال اللين ، وأعلمهم برأى ذوى الرأى ، لا يتشاغل بما لا يعنيه ، ولا يحزَن لما لم ينزل به ،

---

(١) سورة البقرة ١٨٨ .   (٢) عثمان اسم أبى قحافة .

(٣ ـ ٣) كذا فى ب ، ج وفى ا : « لا يصلح آخره إلا بما أوله به صلح » .

ولا يستحي من التعلّم ، ولا يتحيّر عند البديهة . قويّ على الأمور ، لا يجوز بشيء منها حدّه عدوانا ولا تقصيرا ، يرصدُ لما هو آت عَتاده من الحذر .

فلما فرغ من الكتاب ، دخل عليه قوم من الصحابة ؛ منهم طلحة ، فقال له[1] : ما أنت قائل لربّك غدا ، وقد ولّيتَ علينا فظّا غليظا ، تفرّق منه النفوس ؛ وتنفضّ عنه القلوب !

فقال أبو بكر : أسندوني — وكان مستلقيا — فأسندوه ، فقال لطلحة : أبالله تخوّفني ! إذا قال لي ذلك غدا قلت له : ولّيتُ عليهم خيرَ أهلك .

ويقال[2] : أصدقُ الناس فِراسة ثلاثة : العزيز في قوله لامرأته عن يوسف عليه السلام : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾[3] ، وابنة شعيب حيث قالت لأبيها في موسى : ﴿ يَا أَبَتِ ٱسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَأْجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴾[4] ، وأبو بكر في عمر .

* * *

وروَى كثير من الناس أنّ أبا بكر لما نزَل به الموت[5] دعا عبد الرحمن بن عوف ، فقال : أخبِرْني عن عمر ، فقال : إنه أفضلُ من رأيك [فيه[6]] إلا أنّ فيه غلظة ، فقال أبو بكر : ذاك لأنه يراني رقيقا ، ولو قد أفضَى الأمرُ إليه لترك كثيرا مما هو عليه ، وقد رمقتُه إذا أنا غضبتُ على رجل أراني الرّضا عنه ، وإذا لنتُ له أراني الشدة عليه . ثم دعا عثمان بن عفّان ، فقال: أخبِرْني عن عمر ، فقال : سريرتُه خير من علانيته[7] ، وليس فينا مثله . فقال لهما: لا تذكرا مما قلتُ لكما شيئا ، ولو تركتُ عمر لما عدوتُك يا عثمان ، والخيرة لك ألّا تلِيَ من أمورهم شيئا ، ولوددت أني كنت من أموركم خِلْواً ، وكنت فيمن مضى من سلَفِكم . ودخل طلحة بن عبيد الله على أبي بكر ، فقال : إنه بلغني أنّك يا خليفة

(١) كلمة « له » ساقطة من ب (٢) ا : « ويقال إنه »
(٣) سورة يوسف ٢١ (٤) سورة القصص ٢٦
(٥) ساقطة من ب (٦) تكملة من تاريخ الطبري ٣ : ٤٢٨ ، وفي ج : «أفضل من رأيت» .
(٧) ا : « تقصر عن علانيته »

رسول الله استخلفتَ على النــاس عمر ، وقد رأيتَ مايلقى الناس منه وأنت معــه ، فــكيف به إذا خلا بهم ، وأنت غداً لاقٍ ربك ، فيسألك عن رعيتك ! فقال أبو بكر : أجلسونى ، ثم قال : أبالله تخوّفنى ! إذا لقيتُ ربى فسألنى ، قلتُ : استخلفتُ عليهم خيْرَ أهلك . فقال طلحة : أعمر خــيرُ الناس ياخليفةَ رسول الله ! فاشتدّ غضبه ، وقال : إى والله ، هو خيرهم وأنت شرّهم . أما والله لو ولّيتُك لجعلتَ أنفك فى قفاك ، ولرفعتَ نفسك فوق قدرها، حتى يكون الله هو الذى يضعها ! أتيتنى وقد دلّــكت عينك ، تريد أن تفتننى عن دينى ، وتزيلنى عن رأيى ! قُمْ لا أقام الله رِجْلَيْك ! أما والله لئن عِشتُ فُواق ناقة، وبلغنى أنك غمصته فيها، أو ذكرته بسوء ، لألحقنّك بِمحْمضات قُنّة[1]، حيث كنتم تُسقَون ولا تَرْوَوْن ، وتَرْعَون ولا تشبعون ، وأنتم بذلك بَجِحُون[2] راضون ! فقام طلحة فخرج .

* * *

أحضر أبو بكر عثمان ــ وهو يجود بنفسه ــ فأمره أن يكتب عهداً ، وقال : اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ماعهد عبد الله بن عثمان[3] إلى المسلمين . أمّا بعد ، ثم أغمى عليه ؛ وكتب عثمان : قد استخلفتُ عليكم عمر بن الخطاب. وأفاق أبو بكر ، فقال : اقرأ فقرأه ، فــكبّر أبو بكر ، وسُرّ ، وقال: أراك خِفْتَ أن يختلف الناس إن متّ فى غشيتى! قال : نعم ، قال : جزاك الله خيرا عن الإسلام وأهله . ثم أتمّ العهد ، وأمر أن يُقرأ على الناس فقرئ عليهم . ثم أوصى عمر ، فقال له : إنّ لله حقّاً بالليل لا يقبلُه فى النهار ، وحقّاً فى النهار لا يقبله بالليل ، وإنه لا يقبلُ نافلة مالم تؤدّ الفريضة ، وإنما ثقلت موازين مَن اتّبع الحق مع ثقله عليه، وإنما خفّت موازين من اتّبع الباطل لخفّته عليه ، إنما أنزلت آية الرخاء مع آية الشدّة ، لئلا يرغب المؤمن رغبة يتمنّى فيها على الله ماليس له ، ولئلاّ

(١) الوضع الذى ترعى فيه الإبل الحمض . وقنة : موضع بعينه .
(٢) البجح : الفرح والسرور .   (٣) الطبرى ٣ : ٤٢٩ : « أبو بكر من أبى قحافة » .

يرهب رهبة يلقى فيها بيده، فإن حفظتَ وصيتى ، فلا يكن غائبٌ أحبَّ إليك من الموت ولستَ معجزَه .

ثم توفى أبو بكر .

***

دعا أبو بكر عمر يوم موته بعد عهده إليه ، فقال: إنى لأرجو أن أموت فى يومى هذا فلا تُمْسِيَنّ حتى تندب الناس مع المثنىّ بن حارثة ، وإن تأخّرتُ إلى الليل فلا تصبحَنّ حتى تندب الناس معه، ولا تَشغلنّكم مصيبة عن دينكم ، وقد رأيتَنى متوفَّى رسول الله صلى الله عليه وآله كيف صنعت .

وتوفِّىَ أبو بكر ليلة الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة من سنة ثلاث عشرة .

***

وأما البيت الذى تمثل به عليه السلام ، فإنه للأعشى الكبير ، أعشى قيس. وهو أبو بصير ميمون بن قيس بن جَنْدل ، من القصيدة التى قالها فى منافرة علقمة بن عُلاثة وعامر بن الطفيل ، وأولها :

عَلقَمُ ما أنتَ إلى عامرِ النَّاقضِ الأوْتارِ والوَاترِ (١)

يقول فيها :

وَقَدْ أُسَلِّى الهمَّ إذْ يَعْتَرِى بجَسْرَةٍ دَوْسَرَةٍ عاقِرِ (٢)

زَيَّافَةٍ بالرَّحْلِ خَطَّارَةٍ تُلْوِى بِشَرْخَىْ مَيْسَةٍ قاتِرِ (٣)

ـ شرخا الرّحل : مقدّمه ومؤخره ، والمَيْس : شجر يتخذ منه الرّحال ، ورحل قاتر: جيّد الوقوع على ظهر البعير ـ

---

(١) ديوانه ١٠٤ ــ ١٠٨ ؛ ويتم هذا البيت الخامس عشر منها ، وأولها :

شَاقَتْكَ مِنْ قَتْلَةَ أطلالُها بالشَّطِّ فالوِتْرِ إلى حاجِرِ

(٢) الجسرة : الناقة السريعة ، والدوسرة : الضخمة . والعاقر : التى لم تحمل ، وفى الديوان : «حين اعترى» .

(٣) الزيافة : المختالة فى سيرها . والخطارة : التى تخطر بذنبها نشاطا .

شَتَّانَ ما يَوْمِى عَلَى كُورِها وَيومُ حَيَّانَ أخى جابِرِ
أرْمِى بِهَا البَيْدَاءَ إذْ هَجَّرتْ وأنتَ بين القَرْوِ والعاصِرِ(١)
فى مِجْـدَلٍ شُيِّدَ بُنْيَانُهُ يَزِلّ عنـهُ ظُفُرُ الطَّائِرِ

تقول : شتَّان ما هما ، وشتَّان هما ، ولا يجوز: شتّان ما بينهما، إلا على قول ضعيف . وشتّان : أصله شتت ، كوشْكَان ذا خروجاً ، من وَشُكَ . وحيّان وجابر ابنا السَّمين الحنفيّان ، وكان حيّان صاحبَ شراب ومعاقرة خمر ، وكان نديم الأعشى ، وكان أخوه جابر أصغر سنًّا منه ، فيقال : إن حيّان قال للأعشى : نسبتنِي إلى أخى ؛ وهو أصغرُ سِنًّا منّى ! فقال : إنّ الروىّ اضطرنى إلى ذلك ، فقال : والله لا نازعتكُ كأساً أبدا ماعشت . يقول : شتان يومى وأنا فى الهاجرة والرمضاء ، أسيرُ على كور هذه الناقة ويوم حيّان وهو فى سَكْرة الشراب ، ناعم البال ، مرفّه من الأكدار والمشاق . والقَرْو : شبه حوض ، يتّخذ من جِذْع أو من شجر يُنْبذ فيه ، والعاصِر : الذى يعتصر العنب . والمجْدَل : الحِصْن المنيع .

***

وشبيه بهذا المعنى قول الفضل بن الربيع فى أيام فتنة الأمين يذكر حاله وحال أخيه المأمون : إنما نحن(٢) شُعب من أصل ، إن قَوِىَ قوينا ، وإن ضَعُف ضعفنا ؛ وإنّ هـذا الرجل قد ألقى بيده إلقاء الأمة الوكعاء ، يشاور النساء ، ويُقْدِم على الرؤيا ، قد أمكن أهلَ الخسارة واللهو من سمعه ، فهم يمنّونه الظفر ، ويَعِدونه عُقَب الأيام ؛ والهلاك أسرع إليه من السيل إلى قيعان الرمل ، ينام نوم الظَّرِبان ، وينتبه انتباه الذئب ، هَمّه بطنُه وفرْجه ، لا يفكّر فى زوال نعمة ، ولا يُرَوِّى فى إمضاء رأى ولا مكيدة ، قد شمّر له عبد الله

(١) لم يرد هذا البيت فى ديوانه ، وهو فى اللسان ٢٠ : ٣٤ ، وروايته :

* أرْمِى بها البيداء إذ أعْرَضَتْ *

(٢) الخبر بالتفصيل فى تاريخ الطبرى (حوادث سنة ١٩٦) .

عن ساقه ، وفوّق إليه أسدّ سِهامه ، يرميه على بعد الدار بالحتف النافذ ، والموت القاصد ، قد عَبّأ له المنايا على متون الخيل ، وناط له البلايا بأسنّة الرماح وشِفار السيوف، فهو كما قال الشاعر[١] :

لشتّان ما بينى وبين ابن خالدٍ ... أميّة فى الرزق الذى الله يقسِمُ[٢]

يقارع أتراكَ ابن خاقانَ ليلَهُ[٣] ... إلى أن يرَى الإصباحَ لا يتلعثمُ

وآخــذها حمراء كالمسك ريحُها ... لهــا أرجٌ مِنْ دَنّها يتنسّمُ[٤]

فيُضْبِحمن طُولِ الطّراد وَجِسْمُهُ ... نحيلٌ وأضحى فى النّعيم أصمّمُ

وأمية المذكور فى هــذا الشعر ، هو أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبى العيص ابن أميّة بن عبد شمس ، كان والى خراسان ، وحارب الترك . والشعر للبَعيث .

***

يقول أمير المؤمنين عليه السلام : شتّان بين يومى فى الخلافة مع ما انتقض علىّ من الأمر ومُنِيت به من انتشار الحبل واضطراب أركان الخلافة ، وبين يوم عمر حيثُ وليها على قاعدة ممهّدة ، وأركان ثابتة ، وسكون شامل ، فانتظم أمرُه ، واطّرد حاله ، وسكنت أيامه .

قوله عليه السلام : « فياعجبا » أصله « فياعجبى » ، كقولك : يا غلامى ، ثم قلبوا الياء ألفا ، فقالوا : يا عجبا ، كقولهم : يا غلاما ، فإن وقفت وقفت على هاء السكت ، فقلت : يا عجباه ! ويا غلاماه ! قال : العجب منه وهو يستقيل المسلمين من الخلافة أيام حياته ، فيقول : أقيلونى ثم يعقدها عند وفاته لآخر ، وهذا يناقض الزهد فيها والاستقالة منها .

وقال شاعر من شعراء الشّيعة :

حَمَلُوها يومَ السّقيفةِ أوزا ... راً تَخِفّ الجبال وَهىَ ثِقالُ

---

(١) الطبرى : « وتمثل بشعر البعيث » .

(٢) الشعر والخبر فى تاريخ الطبرى وابن الأثير (حوادث سنة ١٩٦) مع اختلاف فى الرواية وعدد الأبيات وترتيبها . (٣) كذا فى الأصول والطبرى ، والوجه ما أثبته من ابن الأثير .

(٤) ابن الأثير : « لها أرج فى دنها حين يرسم » وهذا البيت سقط من تاريخ الطبرى .

ثم جاءوا من بَعْدِها يستقيلو نَ ، وهيهاتَ عثرة لا تقال !

وقد اختلف الرواة فى هذه اللفظة ، فكثير من الناس رواها : « أقيلونى فلست بخيركم » ، ومن الناس من أنكر هذه اللفظة ولم يروها ، وإنما روى قوله : « وليتكم ولست بخيركم » . واحتجّ بذلك من لم يشترط الأفضليّة فى الإمامة . ومن رواها أعتذر لأبى بكر فقال : إنما قال : أقيلونى ، ليثوِّر[1] ما فى نفوس[2] الناس من بيعته ، ويَخْبُر ما عندهم من ولايته ، فيعلم مريدهم وكارههم ، ومحبّهم ومبغضهم ؛ فلما رأى النفوسَ إليه ساكنة ، والقلوب لبيعته مذعنة ، استمرّ على إمارته ، وحكَم حكم الخلفاء فى رعيته ، ولم يكن مُنْكَراً منه أن يعهد إلى من استصلحه لخلافته .

قالوا : وقد جرى مثلُ ذلك لعلىّ عليه السلام ، فإنه قال للناس بعد قتل عثمان : دَعونى والتمسوا غيرى ، فأنا لكم وزيراً خير منى لكم أميرا . وقال لهم : اتركونى ، فأنا كأحدكم ، بل أنا أَسْمَعُكم وأطوَعُكم لِمَنْ وليتموه أمركم . فأبوا عليه وبايعوه ، فكرهها أوّلا ، ثم عهد بها إلى الحسن عليه السلام عند موته .

قالت الإماميّة : هذا غير لازم ، والفرق بين الموضعين ظاهر ، لأنّ عليّاً عليه السلام لم يقل : إنّى لا أصلح ، ولكنه كره الفتنة ، وأبو بكر قال كلاما معناه : إنى لا أصلح لها ، لقوله : « لست بخيركم » ، ومَنْ نفى عن نفسه صلاحيتَه للإمامة ، لا يجوز أن يعهد بها إلى غيره .

واعلم أنّ الكلام فى هذا الموضع مبنىّ على أنّ الأفضليّة هل هى شرط فى الإمامة أم لا ؟ وقد تكلّمنا فى شرح " الغرر " لشيخنا أبى الحسين[3] رحمه الله تعالى فى هذا البحث بما لا يحتمله هذا الكتاب .

---

(١) يثور : يبحث . (٢) ا : « قلوب » .

(٣) هو أبو الحسين محمد بن على بن الطيب المتكلم المعتزلى ؛ توفى سنة ٤٣٦ ، وكتابه « غرر الأدلة » . ذكره ابن خلكان ١ : ٤٨٢ .

وقوله عليه السلام : « لشدّ ما تشطّرا ضرعيها » ، شدّ ، أصله « شدد » ، كقولك : حبّ فى « حبّذا » أصله حَبَب ، ومعنى « شدّ » صار شديداً جدًّا ، ومعنى « حبّ » صار حبيباً ، قال البحترىّ :

شَدّ ما أغريَتْ ظَلُومُ بهَجْرِى بَعْدَ وَجْدِى بها وَغُلّةِ صَدْرِى[١]

وللناقة أربعة أخلاف : خِلفان قادمان وخِلفان آخران ، وكلّ اثنين منهما شطر . وتَشطّرا ضَرْعيها اقتسما فائدتَهما ونفعهما . والضمير للخلافة ، وسَمّى القادمَيْن معا ضَرْعا ، وسَمّى الآخرين مَعًا ضَرْعا لمّا كانا — لتجاورهما ، ولكونهما لا يُحْلَبان إلّا معا — كشىء واحد .

قوله عليه السلام : « فجعلها فى حَوْزَة خشناء » ، أى فى جهة صعبة المرام ، شديدة الشّكيمة . والكَلْم : الجرح .

وقوله : « يغلُظ » ، من الناس مَنْ قال : كيف قال : « يغلظ كَلْمها » ، والكَلْم لا يوصف بالغِلَظ ! وهذا قلّة فَهْمٍ بالفصاحة ، ألا ترى كيف قد وصف الله سبحانه العذاب بالغِلظ ، فقال : ﴿ وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾[٢] أى متضاعف، لأن الغليظ من الأجسام هو ما كَثُف وجسم ، فكان أجزاؤه وجواهره متضاعفة ، فلما كان العذاب — أعاذنا الله منه — متضاعفا ، سُمّىَ غليظا ؛ وكذلك الجرح إذا أمعن وعَمُق ، فكأنّه قد تضاعف وصار جُروحا ، فسمى غليظا .

إن قيل : قد قال عليه السلام « فى حَوْزَةٍ خَشْناء » فوصفها بالخشونة ، فكيف أعاد ذكر الخشونة ثانية فقال : « يَخْشُنُ مَسُّها » !

قيل: الاعتبار مختلف ؛ لأن مراده بقوله : « فى حوزة خشناء » أى لا يُنال ما عندها ولا يرام ، يقال : إنّ فلانا لخشن الجانب ووعر الجانب ، ومراده بقوله : « يَخْشُنُ

(١) ديوانه ٢ : ٩٢٠ (طبعة المعارف) . (٢) سورة هود ٥٨

مَسُّها» ، أى تؤذى وتضر وتنكى مَنْ يمسّها ؛ يصف جفاء أخلاق الوالى المذكور ونفور طبعه وشدة بادرته .

قوله عليه السلام : « ويكثر العِثار فيها ، والاعتذار منها » ، يقول : ليست هذه الجهة جَدَدًا مَهْيَعًا ، بل هى كطريق كثير الحجارة ، لا يزال الماشى فيه عاثرا .

وأما « منها » فى قوله عليه السلام : « والاعتذار منها » ، فيمكن أن تكون « مِنْ » على أصلها ، يعنى أنّ عمر كان كثيرا مايحكم بالأمر ثم ينقضهُ ، ويفتى بالفُتْيا ثم يرجع عنها ، ويعتذر مما أفتى به أولا . ويمكن أن تكون « من » هاهنا للتعليل والسّببية ، أى ويكثر اعتذار الناس عن أفعالهم وحركاتهم لأجلها ، قال :

أَمِنْ رَسْمِ دارٍ مَرْبَعٌ وَمصيفُ ... لِعَيْنَيْكَ مِنْ ماءِ الشُّؤُونِ وَكِيفُ ![1]

أى لأجل أنْ رسم المربع والمصيف هذه الدار وكَف دمعُ عينيك !

والصّعْبة من النوق : مالم تُرْكَبُ ولم تُرَضْ ، إنْ أشنَق لها راكبها بالزمام خرم أنفها ، وإن أسلس زمامها تقحّم فى المهالك فألقته فى مَهْواة أو ماء أو نار ، أو نَدّت فلم تقف حتى تُرْدِيَه عنها فَهلك .

وأشنَقَ الرّجلُ ناقته ، إذا كفّها بالزمام ، وهو راكبها ، واللغة المشهورة شنَق ، ثلاثية . وفى الحديث : إنّ طلحةَ أنشِد قصيدةً فما زال شانقًا راحلته ، حتى كتبت له[2] . وأشْنَقَ البعيرُ نفسه ، إذا رفع رأسه ؛ يتعدّى ولا يتعدى ، وأصله من الشّناق ، وهو خيطٌ يُشَدُّ به فَمُ القِرْبة .

وقال الرضىُّ أبو الحسن رحمه الله تعالى : إنما قال عليه السلام : أشنَقَ لها ، ولم يقل : « أشنقها » ، لأنه جعل ذلك فى مقابلة قوله : « أسلس لها » وهذا حسن ، فإنّهم إذا

---

(١) وكيف الدمع : سيلانه .

(٢) الخبر فى الفائق ١ : ٦٧٧ ، وقال فى شرحه : « هو أن يجذب رأسها بزمامها ، حتى يدانى قفاها قادمة الرحل ؛ وقد شنقها وأشنقها » .

قصدوا الازدواج فى الخطابة فعلوا مثل هذا ، قالوا : الغدايا والعشايا ، والأصل الغَدَوَات جمع غُدوة . وقال صلى الله عليه وآله : « ارجِعْن مأزورات غير مأجورات » ، وأصله « موزورات » بالواو ، لأنه من الوِزْر .

وقال الرضىّ رحمه الله تعالى : ومما يشهد على أنّ أَشنَقَ بمعنى « شَنَق » قولُ عدىّ ابن زيد العِبادى :

سَاءَهَا مالها تَبَيَّنَ فى الأَيْــــدِى وإشنَاقُها إلى الأعنَاقِ

قلت : « تبيّنَ » فى هذا البيت فعل ماض ، تَبيَّن يتبيّن تبيّنا ، واللام فى « لها » تتعلق بـ « تبيّنَ » . يقول : ظهر لها ما فى أيدينا فساءها .

وهذا البيت من قصيدة أولها :

لَيسَ شَىْءٌ عَلَى ٱلمَنُونِ بِبَاقِ غيرَ وَجْهِ المسبَّحِ الخلاقِ[(١)]

وقد كان زارته بنيّة له صغيرة اسمها هند ، وهو فى الحبس — حبس النعمان — ويداه مغلولتان إلى عنقه ، فأنكرت ذلك ، وقالت : ما هذا الذى فى يدك وعنقك يا أبت ! وبكت ، فقال هذا الشعر . وقبل هذا البيت :

وَلَقَدْ غَمَّنِى زِيَارَةُ ذِى قُرْ بَى صَغِيرٍ لِقُرْبِنَا مُشْتَاقِ

سَاءَهَا مَالَهَا تَبَيَّنَ فى الأَيْــدِى وإشنَاقُهـا إلى الأَعْنَاقِ[(٢)]

أى ساءها ما ظهر لها من ذلك . ويروى : « ساءها ما بنا تبيّن » أى ما بان وظهر ، ويروى « ما بنا تبيّنُ » بالرفع على أنّه مضارع .

ويروى « إشناقُها » بالرفع عطفا على « ما » ، التى هى بمعنى الذى ، وهى فاعلة . ويروى بالجرّ عطفا على « الأيدى » .

---

(١) الأغانى ٢ : ١١٦ ، اللسان (شنق) .

(٢) بعده فى رواية الأغانى :

فاذهَبِى يا أُمَيمَ غَيرَ بَعِيدٍ لَا يُؤَاتِى ٱلعِنَاقَ مَن فى الوِثَاقِ

واذهَبِى يا أُمَيمَ إنْ يشأ اللَّــــهُ يُنَفِّسْ مِنْ أَزْمِ هذا الخناقِ

وقال الرضىّ رحمه الله تعالى أيضا : ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وآله خطب الناس وهو على ناقة قد شَنَق لها وهى تَقَصَّعُ بجرّتها .

قلت : الجِرّة : مايعلو من الجوف وتجترّه الإبل ، والدِّرّة: مايسفل . وتَقَصَّعُ بها : تدفع ، وقد كان للرضىّ رحمه الله تعالى إذا كانت الرواية قد وردت هكذا أن يحتجّ بها على جواز « أشنق لها » ، فإن الفعل فى الخبر قد عُدّىَ باللام لا بنفسه .

قوله عليه السلام : « فَنِيَ النَّاسُ » أى بُلِيَ الناس ، قال :

* مُنِيتُ بِزَمَّرْدَةٍ كالعَصَا * (١)

والخَبْط : السَّيْر على غير جادّة ، والشِّماس : النِّفار . والتلوّن : التبدُّل . والاعتراض: السَّيْرُ لا على خط مستقيم ، كأنّه يسير عَرْضا فى غضون سيره طولا ، وإنما يفعلُ ذلك البعير الجامح الخابط . وبعيرٌ عُرُضِىّ : يعترض فى مسيره ؛ لأنه لم يتمّ رياضته ، وفى فلان عُرُضِيّة، أى عَجْرفة وصُعوبة .

***

[طرف من أخبار عمر بن الخطاب]

وكان عمر بن الخطّاب صعبا ، عظيم الهيْبة شديد السياسة، لا يُحابِى أحداً ، ولا يراقب شريفا ولا مشروفا . وكان أكابر الصحابة يتحامَوْن ويتفادَوْن من لقائه ؛ كان أبو سفيان ابن حَرْب فى مجلس عمر ،وهناك زياد ابن سُمَيّة وكثير من الصحابة ، فتكلّم زياد فأحسن ـ وهو يومئذ غلام ـ فقال علىّ عليه السلام ـ وكان حاضراً ـ لأبى سفيان وهو إلى جانبه: لله هذا الغلام ، لو كان قرشيًّا لساق العرب بعصاه! فقال له أبو سفيان : أما والله لو عرفتَ أباه لعرفت أنه من خير أهلك ، قال : ومَنْ أبوه ؟ قال: أنا وضعتهُ والله فى رَحِم أمّه، فقال علىّ عليه السلام : فما يمنعُك من استلحاقه؟ قال:أخاف هذا العَيْر (٢) الجالس أن يخرق علىّ إهابى !

(١) لأبى الغطمش الحنفى؛ ذكره أبو تمام فى الحماسة ١٨٨١ ـ بشرح المرزوقى، ورواه: « بِزِنْمِرْدَةٍ » ، وقال : هو حجر يملأ الكف » ، وبعده :

* ألصّ وأخبثَ مِنْ كِنْدِشٍ *

(٢) عير القوم : سيدهم .

وقيل لابن عباس لما أظهر قوله فى العَوْل[١] بعد موت عمر – ولم يكن قبل يظهره: هلاقلت هذا وعمرُ حىّ ؟ قال : هِبتُه ، وكان امرأً مهابا[٢] .

واستدعَى عمر امرأة ليسألها عن أمر – وكانت حاملا – فلِشدّة هيبته ألقت ما فى بطنها، فأجهضت به جنينا ميتا ، فاستفتى عمر أكابرَ الصحابة فى ذلك ، فقالوا : لا شىء عليكَ ، إنما أنت مؤدِّب ، فقال له علىّ عليه السلام : إن كانوا راقَبوك فقد غشُّوك ، وإن كان هذا جُهْد رأيهم فقد أخطئوا؛ عليك غُرّة – يعنى عتق رقبة – فرجع عمرُ والصحابة إلى قوله .

وعمر هو الذى شدّ بيْعَة أبى بكر ووقَمَ[٣] المخالفين فيها فكسر سيف الزبير لمّا جرّده، ودفع فى صدر المقداد ، ووطِئ فى السقيفة سَعْد بن عبادة ، وقال : اقتلوا سعدا ، قتل الله سعدا ! وحطَّم أنف الحُباب بن المنذر الذى قال يوم السَّقيفة : أنا جُذَيلُها[٤] المحكَّك ، وعُذَيقُها المرجّب . وتوعَّد مَنْ لجأ إلى دار فاطمة عليها السلام من الهاشميين ، وأخرجهم منها . ولولاه لم يثبت لأبى بكر أمر ، ولا قامت له قائمة .

وهو الذى ساسَ العمال وأخذ أموالَهم فى خلافته ، وذلك من أحسن السياسات .

وروى الزبيرُ بن بكار ، قال : لما قلّد عمر عمرو بن العاص مصر ، بلغَه أنّه قد صار له مال عظيم من ناطق وصامت[٥] ، فكتب إليه ، أما بعد : فقد ظهرَ لى مِنْ مالكَ مالم يكن فى رزقك، ولا كان لك مال قبلَ أنْ أستعمِلَك ، فأنّى لك هذا ! فوالله لو لم يهمّنى فى ذات الله إلّا من اختان فى مال الله ، لكثر همّى ، وانتثر أمرى ، ولقد كان عندى من المهاجرين الأولين مَنْ هو خير منك ، ولكنّى قلّدتك رجاء غنائك ؛ فاكتب إلىّ من أين لك هذا المال ، وعجِّل .

(١) عول الفريضة ، وهو أن تزيد سهامها ، فيدخل النقصان على أهل الفرائض .

(٢) كذا فى ا ، وفى ب : « وكان امرأً مهيبا » .

(٣) وقم البعير : كواه ؛ والمراد أذله .

(٤) الفائق ا : ١٨٠ ، وبقية الخبر فيه : « منا أمير ومنكم أمير » . الجذيل : تصغير الجذل ، بالكسر ، وهو فى الأصل عود ينصب للجربى تحتك به فتستشفى . والمحكك : الذى كثر به الاحتكاك حتى صار مملسا . والمرجب : المدعوم بالرجبة ، وهى خشبة ذات شعبتين ؛ قال الزمخشرى فى تفسيره : « إنى ذو رأى يشفى بالاستضاءة به كثيرا فى مثل هذه الحادثة ، وأنا فى كثرة التجارب والعلم بموارد الأحوال فيها وفى أمثالها ومصادرها كالنخلة الكثيرة الحمل » .

(٥) قولهم : ماله صامت ولا ناطق . فالناطق: الحيوان والصامت: ماسواه .

فكتب إليه عمرو : أمّا بعد، فقد فهمت كتاب أمير المؤمنين، فأمّا ما ظهر لى من مال، فإنا قدِمْنا بلادا رخيصةَ الأسعار، كثيرة الغزو، فجعلنا ما أصابنا فى الفضول التى اتصل بأمير المؤمنين نبؤها، ووالله لو كانت خيانتُك حلالاً ماخنتُك؛ وقد ائتمنتَنى، فإنّ لنا أحسابا إذا رجعنا إليها أغنتْنا عن خيانتك. وذكرت أنّ عندك من المهاجرين الأولين مَنْ هو خير منّى، فإذا كان ذاك فوالله مادقَقْتُ لك يا أمير المؤمنين بابًا، ولا فتحت لك قُفْلا.

فكتب إليه عمر : أما بعد، فإنى لستُ من تسطيرك الكتاب وتشقيقك الكلام فى شىء؛ ولكنّكم معشرَ الأمراء قعدتم على عيون الأموال، ولن تعدِموا عُذْراً، وإنما تأكلون النّار، وتتعجّلون العار، وقد وجّهت إليك محمد بن مسلمة، فسلِّم إليه شطر مالك.

فلما قدم محمد صنع له عمرو طعاما ودعاه فلم يأكل، وقال: هذه تقدمة الشرّ، ولو جئتنى بطعام الضيف لأكلت، فنحِّ عنى طعامك، وأحضِرْ لى مالك، فأحضره، فأخذ شطْرَه. فلما رأى عمرو كثرةَ ما أخذ منه، قال: لعن الله زمانا صرتُ فيه عاملا لعمر، والله لقد رأيتُ عمر وأباه على كلّ واحد منهما عباءة قَطَوانيّة (١) لا تجاوز مأبِض (٢) ركبتيه، وعلى عنقه حُزْمة حَطب، والعاص بن وائل فى مُزَرَّرَاتِ الدّيباج. فقال محمد: إيهاً عنك ياعمرو! فعمرُ والله خير منك، وأما أبوك وأبوه فإنهما فى النار، ولولا الإسلام لألفِيت معتلقاً شاة، يسرّك غزْرها، ويسوءك بُكُوءها (٣). قال: صدقت فاكتم علىّ، قال: أفعل.

* * *

قال الربيع بن زياد الحارثىّ : كنتُ (٤) عاملا لأبى موسى الأشعرى على البحرين

---

(١) قطوانية : منسوبة إلى قطوان ، موضع بالكوفة ، تنسب إليه الأكسية .

(٢) المأبض : باطن الركبة .

(٣) يقال : بكأت الناقة بكوءا ؛ إذا قل لبنها .

(٤) الخبر فى الكامل ١ : ١٥٢ ، ١٥٣ .

فكتب إليه عمر بالقدوم عليه هو وعمّاله، وأنْ يستخلفوا جميعا. فلما قدِمْنا المدينةَ أتيت يَرْفأ حاجبَ عمر، فقلت: يا يرفأ، مسترشد وابنُ سبيل! أىّ الهيآت أحبُّ إلى أمير المؤمنين أن يَرَى فيها عمّاله؟ فأومأ إلىّ بالخشونة، فاتخذت خُفّين مُطارَقين[1]، ولبست جُبّة صوف، ولُثْتُ عمامتى على رأسى، ثم دخلنا على عمر فصفّنا بين يديه، فصعّد بصره فينا وصوّب، فلم تأخذ عينُه أحدا غيرى، فدعانى، فقال: مَنْ أنت؟ قلت: الربيع بن زياد الحارثىّ، قال: وماتتولّى من أعمالنا؟ قلت: البحرين، قال: كم تُرْزَق؟ قلت: ألفا، قال: كثير، فما تصنع به؟ قلت: أتقوّت منه شيئا، وأعود بباقيه على أقاربَ لى، فما فضَلَ منهم فعلى فقراء المسلمين، قال: لا بأس، ارجع إلى موضعك. فرجعت إلى موضعى من الصف، فصعّد فينا وصوّب، فلم تقع عينُه إلا علىّ فدعانى، فقال: كم سنُّك؟ قلت: خمس وأربعون، فقال: الآن حيث استحكمت! ثم دعا بالطعام، وأصحابى حديثٌ عهدهم بلين العيش، وقد تجوّعت له، فأُتى بخبز يابس وأكسار[2] بعير، فجعل أصحابى يعافُون ذلك، وجعلت آكل فأجيد، وأنا أنظر إليه، وهو يلحظنى من بينهم، ثم سبقتْ منّى كلمة تمنيت لها أنى سُخْتُ فى الأرض، فقلت: يا أمير المؤمنين، إن الناس يحتاجون إلى صلاحك، فلو عمدْتَ إلى طعامٍ ألينَ من هذا! فزجرنى، ثم قال: كيف قلت؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، أن تنظرَ إلى قوتك من الطحين فيخبز قبل إرادتِك إياه بيوم، ويُطبخ لك اللحم كذلك، فتُؤتَى بالخبز لينا، وباللحم غريضا. فسكَنَ من غرْبه، وقال: أهاهنا غُرْت[3]؟ قلت: نعم، فقال: يا ربيع، إنّا لو نشاء لملأنا هذه الرِّحاب من صَلائق[4] وسبائك[5] وصِنَاب[6]، ولكنى رأيتُ الله نَعَى على قومٍ شهواتهم، فقال: ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ

---

(١) لبس خفين مطارقين، أى مطبقين، واحدا فوق الآخر.

(٢) أكسار الإبل: أعضاؤها، واحدها كسر، بالفتح والكسر.

(٣) غرت: ذهبت، وفى الأصول: «غربه» تحريف.

(٤) الصلائق: ماعمل بالنار طبخا وشيا.

(٥) السبائك: ماسبك من الدقيق ونخل فأخذ خالصه، يعنى الحوارى؛ وكانوا يسمون الرقاق السبائك.

(٦) الصناب: صباغ يؤتدم به.

فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا ﴾ (١) ، ثم أمر أبا موسى بإقرارى ، وأن يستبدل بأصحابى .

***

أسلم عمر بعد جماعة من الناس ، وكان سبب إسلامه أنّ أخته وبعلها أسلما سرًّا من عمر ، فدخل إليهما خبّاب بن الأرتّ ، يعلّمهما الدّين خفية ، فوشى بهم واشٍ إلى عمر ، فجاء دارَ أخته ، فتوارى خبّاب منه داخلَ البيت ، فقال عمر : ماهذه الهينمةُ عندكم ؟ قالت أخته : ماعدا حديثا تحدّثناه بيننا . قال : أراكما قد صبوْتما ! قال ختَنُه : أرأيت إن كان هو الحقّ ! فوثب عليه عمر فوطِئه وطئًا شديدا ، فجاءت أخته فدفعته عنه، فنفحها بيده،فدَمِيَ وجهها ، ثم ندِم ورقّ،وجلس واجما ، فخرج إليه خبّاب فقال : أبشِرْ ياعمر، فإنى أرجُو أن تكون دعوة رسول الله لك الليلة ، فإنه لم يزل يدعُو منذ الليلة : « اللّهم أعزّ الإسلام بعمر بن الخطاب أو بعمرو بن هشام » .

قال : فانطلق عمرُ متقلّدا سَيْفَه حتى أتى إلى الدار التى فيها رسول الله صلى الله عليه وآله يومئذ، وهى الدّار التى فى أصل الصّفا،وعلى الباب حمزة وطلحة وناس من المسلمين،فوجِلَ القومُ من عمر إلا حمزة فإنه قال : قد جاءنا عمر ، فإنْ يُرد الله به خيرا يَهْده ، وإنْ يُردْ غير ذلك كان قتلُه علينا هيّنا۔والنبىّ صلى الله عليه وآله داخل الدار يوحَى إليه ۔ فسمِع كلامهم،فخرج حتى أتى عمر، فأخذ بمجامع ثوبه وحمائل سيفه ، وقال : « ماأنت بمنتهٍ ياعمر حتى يُنزِل الله بك من الخِزْى والنّكال ماأنزل بالوليد بن المغيرة . اللّهمّ هذا عمر،اللهم أعزّ الإسلام بعمر » ، فقال عمر : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله .

***

مرّ يوما عمر فى بعض شوارع المدينة فناداه إنسان : ما أراك إلا تستعملُ عمّالك ، وتعهد إليهم العهود،وترى أنّ ذلك قد أجزأك . كلاّ والله،إنّك المأخوذ بهم إن لم تتعهّدهم ،

---

(١) سورة الأحقاف ٢٠ .

قال : ماذاك ؟ قال: عياض بن غَنْم يلبس اللّيّنَ ، ويأكل الطيّب ، ويفعل كذا وكذا قال : أسابع (١) ؟ قال : بل مؤدٍّ ما عليه ، فقال لمحمد بن مسلمة : الحقْ بعياض بن غَنْم فأتنى به كما تجده ؛ فمضى محمد بن مسلمة حتى أتى باب عياض ـ وهو أمير على حِمْص ـ وإذا عليه بوّاب، فقال له : قل لعياض: على بابك رجل يريد أن يلقاك ، قال : ماتقول؟ قال : قل له ما أقول لك ؛ فقام كالمعجَّب فأخبره ، فعرف عياض أنه أمرٌ حدَث ، فخرج فإذا محمد بن مسلمة ، فأدخله ، فرأى على عياض قيصا رقيقا ، ورداء ليّنا ، فقال : إنّ أمير المؤمنين أمرنى ألا أفارقك حتى آتيَه بك كما أجدك . فأقدمه على عمر وأخبره أنه وجده فى عيش ناعم . فأمر له بعصا وكساء ، وقال : اذهب بهذه الغَنَم ، فأحسن رعيها ، فقال : الموتُ أهْوَنُ من ذلك ، فقال : كذبت ، ولقد كان تركُ ما كنتَ عليه أهونَ عليك من ذلك . فساق الغنم بعصاه ، والكساء فى عنقه ، فلما بُعد ردّه ، وقال : أرأيت إن رددتُك إلى عملك أتصنع خيراً ؟ قال : نعم والله يا أمير المؤمنين ، لا يبلغُك منّى بعدها ماتكرَهُ . فردّه إلى عمله ، فلم يبلغه عنه بعدها مايَنقِمه عليه .

* * *

كان الناس بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله يأتون الشجرة التى كانت بيعةُ الرضوان تحتَها فيصلّون عندها ، فقال عمر : أراكم أيها الناس رجعتم إلى العُزّى ! ألا لا أوتَى منذ اليوم بأحدٍ عاد لمثلها إلا قتلتهُ بالسيف كما يُقتل المرتد، ثم أمر بها فقطِعت.

* * *

لما مات رسول الله صلى الله عليه وآله،وشاع بين الناس موتُه ، طاف عمر على الناس قائلا : إنه لم يمتْ ، ولكنه غاب عنا كما غابَ موسى عن قومه ، وليرجعنّ فليقطعَنّ أيدىَ رجال وأرجلَهم يزعمون أنّه مات . فجعل لا يمرّ بأحد يقول إنه مات إلا ويخبطه ويتوعّده ، حتى جاء أبو بكر ، فقال:أيها الناس ، مَنْ كان يعبد محمدا فإن محمداًقد مات،

(١) الساعي هنا : الواشي .

ومن كان يعبد ربّ محمد فإنه حيّ لم يمت ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ﴾(١) ، قالوا : فو الله لكأنّ الناس ماسمعوا هذه الآية حتى تلاها أبو بكر . وقال عمر : لما سمعته يتلوها هَوَيْتُ إلى الأرض ، وعلمتُ أن رسولَ الله قد مات .

***

لما قتل خالد مالك بن نويرة ونكح امرأته ، كان فى عسكره أبو قَتادة الأنصارىّ ، فركب فرسه ، والتحق بأبى بكر ، وحلف ألّا يسيرَ فى جيش تحت لواء خالد أبداً ، فقصّ على أبى بكر القصّة ، فقال أبو بكر : لقد فتنتِ الغنائمُ العرب ، وترك خالد ما أمر به ، فقال عمر : إنّ عليك أن تُقيده بمالك ، فسكت أبو بكر ، وقدم خالد فدخل المسجد وعليه ثياب قد صدئت من الحديد ، وفى عمامته ثلاثة أسهم ، فلما رآه عمر قال : أرياء ياعدو الله ! عدوتَ على رجل من المسلمين فقتلته ونكحت امرأته ؛ أما والله إن أمكننى الله منك لأرجمنك ، ثم تناول الأسهم من عمامته فكسرها — وخالد ساكت لا يردّ عليه ، ظنا أنّ ذلك عن أمر أبى بكر ورأيه — فلما دخل إلى أبى بكر وحدّثه ، صدّقه فيما حكاه وقبل عذره . فكان عمر يحرّض أبا بكر على خالد ويُشير عليه أن يقتصّ منه بدم مالك ، فقال أبو بكر : إيها ياعمر ! ماهو بأوّل مَنْ أخطأ ، فارفع لسانَك عنه . ثم وَدَى مالكا من بيت مال المسلمين .

***

لما صالح خالد أهلَ اليمامة وكتب بينه وبينهم كتاب الصلح ، وتزوّج ابنة مُجّاعة ابن مُرارة الحنفىّ ، وصل إليه كتاب أبى بكر : لَعَمْرِى يابن أمّ خالد ، إنك لفارغ حتى تزوّج النساء ، وحَوْل حجرتك دماء المسلمين لم تجفّ بعد ... فى كلام أغلظ له فيه ، فقال خالد : هذا الكتاب ليس من عمل أبى بكر ، هذا عمل الأُعيسر — يعنى عمر .

(١) سورة آل عمران ١٤٤ .

عزل عمر خالداً عن إمارة حِمص فى سنة سبع عشرة ، وأقامه للناس ، وعقله بعمامته ، ونزع قلنسوته عن رأسه وقال : أعلمنى ، من أين لك هذا المال ؟ وذلك أنه أجاز الأشعث ابن قيس بعشرة آلاف درهم ، فقال: من الأنفال والسُّهمان ، فقال : لا والله ، لا تعمل لى عملا بعد اليوم ، وشاطره ماله ، وكتب إلى الأمصار بعزله ، وقال . إنّ الناس فُتنوا به ، فخفت أن يُوكِلوا إليه ، وأحببت أن يعلموا أنّ الله هو الصانع .

***

لما أُسِر الهُرْمزان حُمِل إلى عمر من تُستَر إلى المدينة ، ومعه رجال من المسلمين ،منهم الأحنف بن قيس ، وأنس بن مالك ، فأدخلوه المدينة فى هيئته وتاجه وكِسْوته ، فوجدوا عمر نائما فى جانب المسجد ، فجلسوا عنده ينتظرون انتباهه ، فقال الهُرْمزان : وأين عمر ؟ قالوا : هاهو ذا ؛ قال : أين حرسُه ؟ قالوا : لا حاجبَ له ولا حارس.قال : فينبغى أن يكون هذا نبيًّا ، قالوا : إنه يعمل بعمل الأنبياء . واستيقظ عمر ، فقال : الهرمزان ؟ فقالوا: نعم؛ قال : لا أكلمه أو لا يبقى عليه من حِلْيته شىء ، فرمَوْا ماعليه ، وألبسوه ثوبا صفيقا ، فلما كلمه عمر ، أمر أبا طلحة أن ينتضِىَ سيفه ويقوم على رأسه ، ففعل . ثم قال له : ماعذرُك فى نقض الصلح ونكث العهد ؟ـ وقد كان الهرمزان صالح أوّلا ، ثم نقض وغدر ـ فقال: أخبرك ، قال : قل ، قال : وأنا شديد العَطَش ! فاسقنى ثم أخبرك . فأُحضِر له ماء ، فلما تناوله جعَلَتْ يده تُرْعَد ، قال : ماشأنُك؟ قال : أخاف أن أمدّ عنقى وأنا أشرب فيقتلنى سيفك . قال : لا بأس عليك حتى تشرب ، فألقى الإناء عن يده ، فقال : مابالك ؟ أعيدوا عليه الماء ، ولا تجمعوا عليه بين القتل والعطش ، قال : إنك قد أمّنتَنى ، قال : كذبت ! قال : لم أكذب ، قال أنس : صدق ياأمير المؤمنين ، قال : ويحك يا أنس ! أنا أؤمّن قاتل مجزأة بن ثور والبَراء بن مالك ! والله لتأتينى بالمخرج أو لأعاقبنّك؛ قال: أنت ياأمير المؤمنين قلت : لا بأس عليك حتى تشرب . وقال له ناس من المسلمين

مثل قول أنس ، فقال للهرمزان : ويحك ! أتخدعُني والله لأقتلنَّك إلا أن تُسْلِم ، ثم أومأ إلى أبي طلحة ، فقال الهرمزان : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. فأمّنه وأنزله المدينة .

***

سأل عمر عمرو بن معد يكرب عن السلاح فقال له: ماتقول في الرمح ؟ قال : أخوك وربما خانك ، قال فالنَّبل؟ قال : رسل المنايا ؛ تخطىء وتُصيب، قال فالدرع ؟ قال : مَشْغلة للفارس ، متعبة للراجل ، وإنها مع ذلك لحِصْن حصين ، قال فالتُّرس ؟ قال : هو المِجَنّ ، وعليه تدور الدوائر ، قال: فالسيف ؟ قال: هناك قارعت أمُّك الهَبل ، قال : بل أمّك، قال: والحُمّى أضرَعتنِي لك (١) .

***

وأولُ مَنْ ضرب عمر بالدِّرة أمّ فروة بنت أبي قُحافة، مات أبو بكر فناح النساء عليه، وفيهنّ أخته أم فروة ، فنهاهنّ عمر مرارا ، وهنّ يعاوِدْن ، فأخرج أمّ فروة من بينهنّ، وعَلاَها بالدِّرة ، فهربْنَ وتفرّقن .

***

كان يقال : دِرّة عمر أهْيَبُ من سيف الحجّاج . وفي الصحيح : إن نسوةً كنّ عند رسول الله صلى الله عليه وسلّم قد كثر لغَطُهُنّ ، فجاء عمر فهربْنَ هيبة له ، فقال لهنّ : ياعُديّات أنفسِهن ، أتَهبْنَنِي ولا تَهبْنَ رسول الله ! قلن : نعم ، أنت أغلظ وأفظّ .

***

وكان عمر يُفتِي كثيراً بالحُكم ثم ينقضُه ، ويفتي بضده وخلافه ؛ قضى في الجدّ مع الإخوة قضايا كثيرة مختلفة ، ثم خاف من الحُكم في هذه المسألة فقال : مَنْ أراد أن يتقحّم جراثيم جهنم فليقلْ في الجدّ برأيه .

---

(١) الحمى أضرعتني لك ؛ مثل يضرب في الذل عند الحاجة تنزل ؛ وورد المثل محرفا في الأصول ، والتصويب من الميداني ١ : ٢٠٥ ، وعيون الأخبار ١ : ١٣٠ ، والعقد ١ : ٢١٠ .

وقال مرة : لا يبلغنى أنّ امرأة تجاوز صداقُها صداقَ نساء النبىّ إلا ارتجعت ذلك منها، فقالت له امرأة : ماجعل الله لك ذلك ، إنه تعالى قال : ﴿ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴾[1] ، فقال : كلّ الناس أفقهُ من عُمر ، حتى ربّات الحجال ! ألا تعجبون من إمام أخطأ وامرأة أصابت ، فاضلتْ إمامكم ففضلته !

* * *

ومرّ يوما بشابّ من فتيان الأنصار وهو ظمآن ، فاستسقاه ، فجَدَح[2] له ماء بعسل فلم يشربه ، وقال : إنّ الله تعالى يقول : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا ﴾ فقال له الفتى : يا أمير المؤمنين ، إنها ليست لك ولا لأحد من هذه القبيلة ، اقرأ ماقبلها : ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا ﴾[3] ، فقال عمر : كلّ الناس أفقه من عمر !

وقيل : إن عمر كان يَعُسّ بالليل ، فسمع صوتَ رجل وامرأة فى بيت ، فارتاب فتسوّر الحائط ، فوجد امرأة ورجلا ، وعندهما زِقّ خمر ، فقال : ياعدوّ الله ، أكنت ترى أن الله يسترك وأنت على معصيته ! قال : يا أمير المؤمنين ، إن كنت أخطأت فى واحدة فقد أخطأت فى ثلاث ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾[4] ، وقد تجسّست . وقال : ﴿ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ﴾[5] وقد تسوّرت ، وقال : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا ﴾[6] ، وما سلّمت !

وقال : مُتعتان كانتا على عهد رسول الله وأنا محرّمهما ، ومعاقِب عليهما : متعة النساء ومتعة الحجّ . وهذا الكلام وإن كان ظاهرُه منكراً فله عندنا مخرج وتأويل ، وقد ذكره أصحابنا الفقهاء فى كتبهم .

* * *

(١) سورة النساء ٢٠
(٢) جدح : خلط
(٣) سورة الأحقاف ٢٠
(٤) سورة الحجرات ١٢
(٥) سورة البقرة ١٨٩
(٦) سورة النور ٦١

وكان فى أخلاق عمر وألفاظه جَفاء وعُنْجُهية ظاهرة، يحسبه السامع لها أنه أراد بها مالم يكنْ قد أراد، ويتوهَّم من تُحْـكَى له أنه قصدبها ظاهراً مالم يقصده، فمنها الكلمة التى قالها فى مرض رسول الله صلى الله عليه وآله . ومعاذ الله أن يقصد بها ظاهرها ! ولـكنه أرسلها على مقتضى خشونة غريزته ، ولم يتحفظ منها . وكان الأحسنُ أن يقول : « مغمور » أو « مغلوب بالمرض » ، وحاشاهُ أن يعنى بها غير ذلك !

ولجفاة الأعراب من هذا الفنّ كثير ، سمع سليمان بن عبد الملك أعرابيا يقول فى سنة قَحْط :

رَبَّ العِبَادِ مَالَنَا وَمَالَـكَا ... قَدْ كُنتَ تَسقِينا فَما بَدَا لَـكَا !

* أنْزِل عَلَيْنَا القَطْرَ لا أبا لَـكا *

فقال سليمان : أشهد أنه لا أبَ له ولا صاحبة ولا ولد ، فأخرجه أحسن مخرَج [١] .

وعلى نحو هذا يُحتمل كلامه فى صُلح الحديبية لما قال للنبى صلى الله عليه وآله : ألم تَقُلْ لنا : ستدخلونها ! فى ألفاظ نَـكِرَة حكاياتها، حتى شكاه النبى صلى الله عليه وآله إلى أبى بكر ، وحتى قال له أبو بكر : الزَمْ بِغَرْزِه [٢] ، فوالله إنه لَرسول الله .

وعمر هو الذى أغلَظ على جَبَلة بن الأيهم حتى اضطره إلى مفارقة دار الهجرة ، بل مفارقة دار الإسلام كلّها ، وعاد مرتدًّا داخلا فى دين النصرانية ، لأجل لطمة لَطِمها . وقال جَبَلة بعد ارتداده متندِّما على مافعل :

تَنَصَّرَتِ الأشرافُ مِنْ أجْلِ لَطْمَةٍ ... وَمَا كَانَ فِيها لَوْ صَبَرْتُ لَها ضَرَرْ !

فَيالَيْتَ أمّى لم تَلِدْنى وَلَيْتَنِى ... رَجَعْتُ إلى القولِ الّذى قاله عُمَرْ

* * *

(١) الخبر فى الكامل ٧ : ١٤٥ — بشرح المرصفى

(٢) الغرز فى الأصل : ركاب الرحل ، وفى الكلام استعارة ، والمراد هنا : اتبع قوله . وفى اللسان والنهاية : « استمسك بغرزه » ، ورواية ابن هشام : « الزم غرزه » .

الأصْلُ :

حَتَّى إِذَا مَضَى لِسَبِيلِهِ ، جَعَلَهَا فِي سِتَّةٍ زَعَمَ أَنِّي أَحَدُهُمْ ؛ فَيَالَلهِ وَلِلشُّورَى ! مَتَى اعْتَرَضَ الرَّيْبُ فِيَّ مَعَ الْأَوَّلِ مِنْهُمْ حَتَّى صِرْتُ أُقْرَنُ إِلَى هَذِهِ النَّظَائِرِ ! لَكِنِّي أَسْفَفْتُ إِذْ أَسَفُّوا، وَطِرْتُ إِذْ طَارُوا ، فَصَغَا رَجُلٌ مِنْهُمْ لِضِغْنِهِ ،وَمَالَ الْآخَرُ لِصِهْرِهِ، مَعَ هَنٍ وَهَنٍ .

***

الشَّرْحُ :

اللام فى « يالله » مفتوحة ، واللام فى « ولِلشورى » مكسورة؛لأن الأولى للمدعو، والثانية للمدعو إليه ، قال :

يالَلرِّجال لِيومِ الأربعاء أما   ينفكّ يُحدِث لى بَعْدالنُّهى طَرَبا[(1)] !

اللام فى « للرجال » مفتوحة، وفى « ليوم » مكسورة . وأسفّ الرجل،إذا دخل فى الأمر الدنىّ ، أصله من «أسفّ الطائر » إذا دنا من الأرض فى طيرانه.والضغن : الحقد .

وقوله « مع هنٍ وهنٍ » ،أى مع أمور يكنى عنها ولا يصرّح بذكرها ، وأكثر مايستعمل ذلك فى الشرّ ، قال[(2)] :

* عَلَى هَنَوَاتٍ شَرُّها مُتتابعُ *

يقول عليه السلام : إنّ عمر لما طُعن جعل الخلافة فى ستّة ، هو عليه السلام أحدهم ، ثم تعجب من ذلك ، فقال : متى اعترض الشك فىّ مع أبى بكر،حتى أقرن بسعد بن أبى وقاص وعبدالرحمن بن عوف وأمثالهما ! لكنّى طابت الأمروهو موسوم بالأصاغرمنهم، كما طلبته أولا وهو موسوم بأكابرهم؛أى هو حق فلا أستنكف من طلبه،إن كان المنازع فيه جليل القدر أو صغير المنزلة .

وصغا الرجل بمعنى مال ، الصَّغو : الميل ، بالفتح والكسر .

---

(١) لعبد الله بن مسلم بن جندب فى الكامل ٣ : ٢٧٠ من غير نسبة ، وهو أيضا من أبيات له رواها ثعلب فى المجالس ٤٧٤ ، وهى فى معجم البلدان ١ : ١٣٦ .

(٢) البيت فى اللسان (٢٠ : ٢٤٣) من غير نسبة ، وأوله :

* أرَى ابنَ نزارٍ قَدْ جَفَانى ومَلَّنى *

[قصة الشُّورى]

وصورة هذه الواقعة أنّ عمر لما طعنه أبو لؤلؤة ، وعَلِمَ أنّه ميت ، استشار فيمن يولّيه الأمر بعده،فأشير عليه بابنه عبدالله ، فقال:لاها الله إذاً ! لايليها رجلان من وَلَدِالخطاب! حسب عمر ماحُمِّل ! حَسْبُ عمر ما احتقب،لاها الله ! لا أتحملها حيا وميتا ! ثم قال : إن رسول الله مات وهو راض عن هذه الستة من قريش : على ، وعثمان ،وطلحة ، والزبير، وسعد ، وعبد الرحمن بن عوف ؛ وقد رأيتُ أن أجعلَهاشورى بينهم ليختاروا لأنفسهم. ثم قال: إن أستَخْلِف فقداستخلف مَنْ هوخير منى - يعنى أبا بكر - وإن أترُكْ فقد ترَكَ من هو خير منى - يعنى رسول الله صلى الله عليه وآله - ثم قال : ادعُوهم لى ، فدعوْهم ، فدخلوا عليه وهو مُلْقًى على فراشه يجود بنفسه .

فنظر إليهم ، فقال : أكلّـكم يطمعُ فى الخلافة بعدى ! فوَجَموا ، فقال لهم ثانية ، فأجابه الزُّبير وقال:وما الذى يُبعدنا منها ! وليتَها أنتَ فقمتَ بها،ولسْنا دونك فى قريش ولا فى السابقة ولا فى القرابة .

- قال الشيخ أبو عثمان الجاحظ:والله لولا عِلْمه أنّ عمر يموت فى مجلسه ذلك لم يُقدم على أن يفوه من هذا الكلام بكلمة ، ولا إن يَنْبِس منه بلفظة -

فقال عمر : أفلا أخبرُكم عن أنفُسِكم ! قال : قل ، فإنا لو استعفيناك لم تُعفنا ، فقال : أما أنت يازبير فوَعِق لَقِس[(١)] ،مؤمن الرضا ، كافر الغضب ، يوما إنسان، ويوماشيطان، ولعلها لو أفضتْ إليك ظَلْتَ يومَك تلاطم بالبطحاءعلى مُدٍّ من شعير ! أفرأيتَ إن أفضت إليك ! فليت شِعْرى ، مَنْ يكون للناس يومَ تكون شيطانا،ومنْ يكون يومَ تغضب! وما كان الله ليجمع لك أمر هذه الأمة ، وأنت على هذه الصفة .

ثم أقبل على طلحة - وكان له مبغِضاً منذ قال لأبى بكر يوم وفاته ماقال فى عمر - فقال له:أقول أم أسكت ؟ قال : قل،فإنك لاتقول من الخير شيئاً،قال:أما إنى أعرفك منذ أصيبتْ إصبعك يوم أُحُد والبَأْو[(٢)] الذى حدث لك،ولقد مات رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) الوعق : الضجر المتبرم ، واللقس : من لايستقيم على وجه .
(٢) البأو : الكبر والفخر . ونقل صاحب اللسان عن الفقهاء : « فى طلحة بأواء » .

ساخطا عليك بالكلمة التى قلتها يوم أُنزِلت آية الحجاب .

قال شيخنا أبو عثمان الجاحظ رحمه الله تعالى : الكلمة المذكورة أنّ طلحة لما أُنزلَتْ آية الحجاب قال بمحضر ممَّنْ نقل عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم : ما الذى يغنيه حجابهنّ اليوم ! وسيموت غَدا فننكِحُهُنّ. قال أبو عثمان أيضا : لو قال لعمر قائل:أنت قلت:إن رسول الله صلى الله عليه وسلّم مات وهو راض عن الستة،فكيف تقول الآن لطلحة إنه مات عليه السلام ساخطا عليك للكلمة التى قلتها ! لكان قد رماه بمشاقصه[1]،ولكن مَن الذى كان يجسر على عمر أن يقول له مادون هذا ، فكيف هذا !

قال : ثم أقبل على سعد بن أبى وقاص فقال : إنما أنت صاحبُ مِقْنَب[2] من هذه المقانب ، تقاتل به، وصاحب قَنَص وقَوْس وأسهم ، وما زُهْرة[3] والخلافة وأمور الناس!

ثم أقبل على عبد الرحمن بن عوف ، فقال: وأما أنت ياعبد الرحمن ، فلو وُزِن نصف إيمان المسلمين بإيمانك لرجح إيمانُك به ، ولكن ليس يَصلح هذا الأمر لمن فيه ضعف كضعفك ، وما زهرة وهذا الأمر !

ثم أقبل على علىّ عليه السلام ، فقال : لله أنت لولا دُعابة فيك!أما والله لئن وليتَهم لتحملنّهم على الحق الواضح ، والمحجّة البيضاء .

ثم أقبل على عثمان ، فقال : هيهاً إليك ! كأنى بك قد قلّدتْك قريش هذا الأمر لحبّها إياك ، فحملتَ بنى أمية وبنى أبى مُعَيط على رقاب الناس ، وآثرتهم بالفىء ، فسارت إليك عصابة من ذُؤْبان العرب ، فذبحوك على فراشك ذبحاً.والله لئن فعلوا لتفعلنّ، ولئن فعلت ليفعلنّ . ثم أخذ بناصيته ، فقال : فإذا كان ذلك فاذكر قولى ؛ فإنه كائن .

ذكر هذا الخبر كلّه شيخنا أبو عثمان فى كتاب " السُّفيانية "[4]، وذكره جماعة غيره فى باب فراسة عمر . وذكر أبو عثمان فى هذا الكتاب عقيب رواية هذا الخبر قال:وَرَوى

(١) المشاقص : جمع مشقص ؛ وهو نصل السهم إذا كان طويلا

(٢) المقنب : جماعة الخيل . (٣) زهرة : قبيلة سعد بن أبى وقاص .

(٤) فى المسعودى ٣ : ٢٥٣ أن الجاحظ ألف كتابا فى نصرة معاوية بن أبى سفيان .

معمر بن سليمان التيمىّ عن أبيه عن سعيد بن المسيّب عن ابن عباس ، قال : سمعت عمرَ ابن الخطاب يقول لأهل الشورى : إنكم إن تعاونتم وتوازرتم وتناصحتم أكلتموها وأولادكم ، وإن تحاسدتم وتقاعدتم وتدابرتم وتباغضتم، غَلَبكم على هذا الأمر معاوية بن أبى سفيان . وكان معاوية حينئذ أمير الشام .

ثم رجع بنا الكلام إلى تمام قصة الشورى . ثم قال : ادعوا إلىّ أبا طلحة الأنصارىّ ، فدعَوه له فقال: انظر يا أبا طلحة ، إذا عدتم من حُفْرتى ،فكن فى خمسين رجلا من الأنصار حاملى سيوفكم ، فخذ هؤلاء النفر بإمضاء الأمر وتعجيله ،واجمعهم فى بيت،وقف بأصحابك على باب البيت ليتشاوروا ويختاروا واحداً منهم، فإن اتّفق خمسة وأبَى واحد فاضرب عنقه ، وإن اتفق أربعة وأبَى اثنان فاضرب أعناقهما ، وإن اتّفق ثلاثة وخالف ثلاثة ، فانظر الثلاثة التى فيها عبد الرحمن ، فارجع إلى ماقد اتفقتْ عليه ، فإن أصرّت الثلاثة الأخرى على خِلافها فاضرب أعناقها ، وإن مضت ثلاثة أيام ولم يتفقوا على أمر ، فاضرب أعناق الستّة، ودع المسلمين يختاروا لأنفُسِهم .

فلما دُفِن عمر ، جَمعهم أبو طلحة ، ووقف على باب البيت بالسيف فى خمسين من الأنصار ، حاملى سيوفهم ، ثم تكلّم القوم وتنازعوا ، فأوّلُ ماعمل طلحةُ أنّه أشهدَهم على نفسه أنّه قد وهب حقه من الشورى لعثمان ،وذلك لعلمه أنّ الناسَ لا يعدِلون به عليًّا وعثمان ، وأن الخلافة لا تخلُص له وهذان موجودان ، فأراد تقوية أمر عثمان وإضعافَ جانب علىّ عليه السلام ، بهبَة أمر لا انتفاعَ له به ،ولا تمكُّن له منه .

فقال الزبيرُ فى معارضته : وأنا أشهدكم على نفسى أنّى قد وهبتُ حقّى من الشورى لعلىّ؛ وإنما فعل ذلك لأنه لما رأى عليًّا قد ضَعُف وانخزل بهبَةِ طلحة حقّهُ لعثمان، دخلته حميَّة النَّسب ، لأنه ابن عمة أمير المؤمنين عليه السلام ، وهى صفيّة بنت عبد المطلب ، وأبو طالب خالُه . وإنّما مال طلحةُ إلى عثمان لانحرافه عن علىّ عليه السلام ، باعتبار أنّه

تَيميّ ، وابنُ عمّ أبي بكر الصديق ، وقد كان حصلَ في نفوس بني هاشم من بني تَيْم حَنَق شديد لأجل الخلافة ، وكذلك صار في صدور تَيْم على بني هاشم ؛ وهذا أمرٌ مركوز في طبيعة البَشَر ، وخصوصا طينة العرب وطباعها ، والتجربة إلى الآن تحقق ذلك ؛ فبقيَ من الستة أربعة .

فقال سعد بن أبي وقاص : وأنا قد وهبتُ حقّي من الشورى لابن عمّي عبدالرحمن - وذلك لأنّهما من بني زُهْرة ، ولِعلم سعد أنّ الأمرَ لا يتمّ له - فلما لم يبقَ إلّا الثلاثة . قال عبدالرحمن لعليّ وعثمان : أيّكما يُخرج نفسَه من الخلافة ، ويكون إليه الاختيار في الاثنين الباقيين ؟ فلم يتكلّم منهما أحد ، فقال عبد الرحمن : أشهدُكم أنني قد أخرجتُ نفسي من الخلافة على أنْ أختار أحدَهما ، فأمسكا . فبدأ بعليّ عليه السلام ، وقال له : أبايعك على كتاب الله ، وسنة رسول الله ، وسيرة الشيخين : أبي بكر وعمر . فقال : بل على كتاب الله وسنّة رسوله واجتهاد رأيي . فعدل عنه إلى عثمان ، فعرض ذلك عليه ، فقال : نعم ، فعاد إلى عليّ عليه السلام ، فأعاد قوله ؛ فعل ذلك عبد الرحمن ثلاثا ، فلما رأى أنّ عليا غيرُ راجع عمّا قاله ، وأنّ عثمان يُنعِم له [١] بالإجابة ، صفَقَ [٢] على يد عثمان ، وقال: السلامُ عليك ياأمير المؤمنين ، فيقال : إن عليا عليه السلام قال له : والله مافعلتَها إلا لأنّك رجوتَ منه مارجا صاحبُكما من صاحبه ، دقّ الله بينكما عِطرَ مَنْشِم [٣] .

قيل : ففسد بعد ذلك بين عثمان وعبد الرحمن ، فلم يكلّم أحدُهما صاحبَه حتى مات عبد الرحمن .

---

(١) أنعم له ؛ إذا قال مجيبا « نعم » .

(٢) يقال : صفق يده بالبيعة وعلى يده صفقا ، أي ضرب بيده على يده .

(٣) قال الأصمعي : منشم ، بكسر الشين : اسم امرأة كانت بمكة عطارة ، وكانت خزاعة وجرهم إذا أرادوا القتال تطيبوا من طيبها ، وكانوا إذا فعلوا ذلك كثرت القتلى فيما بينهم ، فكان يقال : أشأم من عطر منشم ؛ فصار مثلا . صحاح الجوهري ٥ : ٢٠٤١

ثم نرجع إلى تفسير ألفاظ الفصل :

أما قوله عليه السلام : « فصغا رجل منهم لضِغْنه » ، فإنه يعنى طلحة . وقال القطب الراوندىّ : يعنى سعدَ بن أبى وقّاص ؛ لأنّ عليا عليه السلام قتلَ أباه يوم بدر . وهذا خطأ فإن أباه أبو وقّاص ، واسمه مالك بن أهيب بن عبد مناف بن زُهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤىّ بن غالب ؛ مات فى الجاهلية حتْفَ أنفِه .

وأما قوله : « ومال الآخرُ لِصهْره » يعنى عبدَ الرحمن مال إلى عثمان ، لأنّ أم كلثوم بنت عُقْبة بن أبى معيط كانت تحتَه ، وأمّ كلثوم هذه هى أخت عثمان مِن أمّه أرْوَى بنت كُرَيز .

وروى القُطْب الراوندىّ أنّ عمر لما قال : كونوا مع الثلاثة التى عبد الرحمن فيها، قال ابن عباس لعلىّ عليه السلام : ذهبَ الأمرُ مِنّا ، الرجل يريد أن يكون الأمر فى عثمان. فقال علىّ عليه السلام : وأنا أعلمُ ذلك ، ولكنّى أدخل معهم فى الشورى ، لأنّ عمر قد أهّلنى الآن للخلافة ، وكان قبل ذلك[1] يقول : إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: إنّ النبوّة والإمامةَ لا يجتمعان فى بيت ، فأنا[2] أدخل فى ذلك لأظهِر للناس مناقضة فعله لروايته .

الذى ذكره[3] الراوندىّ غير معروف ، ولم ينقُلْ عمر هذا عن رسول الله صلى الله عليه، ولكنّه قال لعبد الله بن عباس يوما : ياعبد الله ، ماتقول منع قومكم منكم[4] ؟ قال : لا أعلم ياأمير المؤمنين ، قال : اللهم غفراً ! إن قومكم كرهوا أن تجتمع لكم النبوّة والخلافة، فتذهبون فى السماء بَذَخاً وشُمَخاً ، لعلكم تقولون : إن أبا بكر أراد الإمرة عليكم وهَضَمكم ! كلاّ ، لكنّه حضره أمر لم يكن عنده أحزمَ مما فعل ، ولولا رأىُ أبى بكر

---

(١) كلمة « ذلك » ساقطة من ب.

(٢) ا : « وأنا » .   (٣) ب « رواه » .

(٤) كذا فى الأصول ، وربما كانت كلمة « تقول » مصحفة ، أو تكون بمعنى الظن . وفى تاريخ الطبرى : « أتدرى مامنع قومكم منكم » .

فيّ بعد موته لأعاد أمرَ كم إليكم ، ولو فعل ماهنأ كم مع قومكم ، إنّهم لينظرون إليكم نظر الثّور إلى جازره .

فأما الرواية التى جاءت بأنّ طلحة لم يكن حاضرا يوم الشورى ، فإن صحّتْ فذُو الضغْن هو سعد بن أبى وقاص ، لأن أمه حَمْنَة بنت سفيان بن أمية بن عبد شمس ، والضغينة التى عنده على علىّ عليه السلام من قِبَل أخواله الذين قتل صناديدَهم ، وتقلّد دماءهم ؛ ولم يُعرفْ أن عليًّا عليه السلام قتَل أحداً من بنى زُهْرة لِيُنْسَب الضغْن إليه .

* * *

وهذه الرواية هى التى اختارها أبو جعفر محمد بن جرير الطبرىّ صاحب " التاريخ " قال : لمّا طُعن عمر[1] قيل له : لو استخلفت . [ياأمير المؤمنين!][2] فقال : [من أستخلف؟][2] لو كان أبو عبيدةَ حيًّا لاستخلفته[3] وقلت لربى لو سألنى : سمعتُ نبيّك يقول : « أبو عبيدة أمين هذه الأمة »[4] ولو كان سالم مولى أبى حذيفة حيًّا استخلفته ، وقلت لربّى إن سألنى[5] : سمعتُ نبيّك عليه السلام يقول : « إنّ سالما شديدُ الحبّ لله» ، فقال له رجل : وَلِّ[6] عبد الله بن عمر ، فقال : قاتلك الله ! واللهِ ما الله أردتَ بهذا الأمر ! [ويحك !][2] كيف أستخلفُ رجلاً عجز عن طلاق امرأته ! لا أرَبَ لعمر فى خلافتكم[7] ، ماحِمدتُها فأرغبَ فيها لأحد من أهل بيتى ؛ إن تك خيراً فقد أصبنا منه ، وإن تَكُ شرًّا يُصرَفْ عنّا[8] . حسبُ آلِ عمر أنْ يحاسبَ منهم [رجل][2] واحد ، ويُسأل عن أمر أمة محمد .

فخرج الناس من عنده ، ثم راحوا إليه فقالوا له : لو عهدتَ عهدا ! قال : قد كنتُ أجمعتُ بعد مقالتى [لكم[2]] أن أولّىَ أمرَ كم رجلا هو أحراكم أن يحملكم على الحق

---

(١) تاريخ الطبرى ٤ : ٢٢٧ وما بعدها (طبع دار المعارف) مع تصرف واختصار

(٢) تكملة من تاريخ الطبرى (٣) الطبرى : « استخلفته »

(٤) الطبرى : « أدلك عليه ؟ عبد الله بن عمر » . (٥) الطبرى : « فإن سألنى ربى قلت . . . »

(٦) الطبرى : « إنه أمين هذه الأمة (٧) الطبرى : « أموركم » .

(٨) فى الطبرى : « فحسبنا آل عمر » .

وأشار إلى علىّ عليه السلام ـ فرهقتنى غشية ، فرأيت رجلا يدخل جنّة [قد غرسها](١) فجعل يقطف كلّ غضّة ويانعة ؛ فيضمها إليه ، ويصيرها تحته ، فخفت أن أتحمّلها حيًّا وميتا ، وعلمت أنّ الله غالب أمره عليكم بالرهط الذى قال رسول الله عنهم : إنهم من أهل الجنة ، ثم ذكر خمسة : عليًّا ، وعثمان ، وعبد الرحمن ، والزبير ، وسعدا .

ـ قال : ولم يذكر فى هذا المجلس طلحة ، ولا كان طلحة يومئذ بالمدينة ـ

ثم قال لهم : انهضوا إلى حجرة عائشة فتشاوروا فيها ، ووضع رأسه وقد نزفه الدم ، فقال العباس لعلىّ عليه السلام : لا تدخلْ معهم ، وارفع نفسك عنهم ، قال : إنى أكره الخلاف ، قال : إذنْ ترى ما تكره ، فدخلوا الحجرة فتناجوْا حتى ارتفعت أصواتهم ، فقال عبد الله بن عمر : إنّ أمير المؤمنين لم يمُتْ بعد ، ففيم هذا اللغط ! وانتبه عمر ، وسمع الأصوات ، فقال : ليُصلِّ بالناس صُهيب ، ولا يأتينّ اليوم الرابع من يوم موتى إلا وعليكم أمير ، وليحضر عبدُ الله بن عمر مشيرا وليس له شىء من الأمر ، وطلحة بن عبيد الله شريككم فى الأمر ، فإن قدم إلى ثلاثة أيام فأحضروه أمركم ، وإلا فأرضُوه ، ومَنْ لى برضا طلحة ! فقال سعد : أنا لك به ، ولن يخالف إن شاء الله تعالى .

ثم ذكر وصيّته لأبى طلحة الأنصارىّ وما خصّ به عبد الرحمن بن عوف من كَوْن الحق فى الفئة التى هوَ فيها وأمْره بقتل من يخالف ، ثم خرج الناسُ فقال علىّ عليه السلام لقوم معه من بنى هاشم : إنْ أُطيعَ فيكم قومُكم من قريش لم تؤمَّروا أبدا .

وقال للعباس : عُدِل بالأمر عنى ياعمّ . قال : وماعلمك ؟ قال : قُرِن بى عثمان . وقال عمر : كونوا مع الأكثر ، فإن رضى رجلان رجلا ورجلان رجلا ، فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن ، فسعد لا يخالفُ ابنَ عمه ، وعبد الرحمن صهر عثمان لا يختلفان ، فيوليها أحدهما الآخر ، فلو كان الآخران مَعِى لم يغنيا شيئا . فقال العباس : لم أدفعك إلى شىء إلّا رجعت إلىّ

---

(١) من الطبرى .

مستأخرا بما أكره ، أشرتُ عليك عند مرض رسول الله صلى الله عليه أنْ تسأله عن هذا الأمر فيمن هو فأبيت ، وأشرت عليك عند وفاته أنْ تعاجل البَيعة(١) فأبيت ، وقد أشرتُ عليك حينَ سمّاك عمر فى الشورى اليوم أن ترفَع نفسك عنها ، ولا تدخل معهم فيها فأبيت ، فاحفظ عنى واحدة ؛ كلّما عرض عليك القوم الأمر فقل : لا ، إلا أن يولّوك . واعلم أنّ هؤلاء لا يبرحون يدفعونك عن هذا الأمر حتى يقوم لك به غيرُك ، وايم الله لا تناله إلا بشرّ لا ينفع معه خير . فقال عليه السلام : أما إنّى أعلم أنهم سيولّون عثمان ، وليحدِثنّ البدع والإحداث ، ولئن بقى لأذكرنّك ، وإن قتل أو مات ليتداولنّها بنو أمية بينهم ، وإن كنت حيًّا لتجدنّى حيث تكرهون ، ثم تمثل :

حلفتُ برَبِّ الرّاقصاتِ عشيّةً غدَوْنَ خِفافا يبتدرْنَ المحصّبَا(٢)

ليجتلبن رهطُ ابنِ يعمرَ غدوةً(٣) نجيعاً بنو الشُّدّاخِ وِرْداً مُصلّبا

قال : ثم التفتَ فرأى أبا طلحة الأنصاريّ ، فكره مكانه ، فقال أبو طلحة : لا تُرَع أبا حسن . فلما مات عمر ودُفِن وخَلَوْا بأنفسهم للمشاورة فى الأمر ، وقام أبو طلحة يحجُبهم بباب البيت ، جاء عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة ، فجلسا بالباب ، فحصبهما سعد وأقامهما ، وقال : إنما تريدان أن تقولا حضرْنا وكنّا فى أصحاب الشورى .

فتنافس القومُ فى الأمر وكثُر بينهم الكلام ، فقال أبو طلحة : أنا كنتُ لأنْ تدافعوها أخوفَ منى عليكم أن تنافسوها ! أما والذى ذهب بنفس عمر لا أزيدكم على الأيام الثلاثة التى وقفت لكم ، فاصنعوا ما بدا لكم !

قال : ثم إنّ عبد الرحمن قال لابن عمه سعد بن أبى وقاص : إنى قد كرهتُها ، وسأخلع نفسى منها ، لأنى رأيت الليلة رَوْضَةً خضراء كثيرة العُشب ، فدخل فحل ما رأيت

---

(١) الطبرى : « الأمر » .   (٢) الطبرى : « فابتدرن » .

(٣) الطبرى : ليخذلن رهط ابن يعمر مارثا » ، وابن الأثير ٣ : ٣٦ : « ليختلين رهط ابن يعمر فارسا » .

أكرم منه ، فمر كأنه سهم لم يلتفت إلى شيء منها حتى قطعها ، لم يعرّج ، ودخل بعير يتلوه تابع أثره ، حتى خرج منها . ثم دخل فَحْل عبقريّ يجرّ خِطامه ، ومضى قصد الأولين ، ثم دخل بعير رابع ، فوقع في الروضة يرتَع ويخضم . ولا والله لا أكون الرابع ؛ وإن أحدا لايقوم مقام أبي بكر وعمر فيرضى الناس عنه .

ثم ذكر خَلْعَ عبد الرحمن نفسَه من الأمر ، على أن يولّيَها أفضَلهم في نفسه ، وأن عثمان أجاب إلى ذلك ، وأن عليا عليه السلام سكت ، فلما روجع رضى على موثقٍ أعطاه عبد الرحمن ؛ أن يؤثر الحق ، ولا يتبع الهوى ، ولايخصّ ذا رحم ، ولا يألو الأمة نصحا ، وأن عبد الرحمن ردّد القول بين عليّ وعثمان متلوّما ، وأنه خلا بسعد تارة ، وبالمسوَر بن مخرمة الزهريّ تارة أخرى ، وأجال فِكْرَه ، وأعمل نظره ، ووقف موقفَ الحائر بينهما . قال : قال عليٌّ عليه السلام لسعد بن أبي وقاص : يا سعد ، ﴿ اتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ﴾ ، أسألك برحِم ابنى هذا من رسول الله صلى الله عليه وبرَحِم عمّى حمزة منك ، ألاتكون مع عبد الرحمن لعثمان ظهيرا .

- قلت : رحِمُ حمزة من سعد ، هى أنّ أم حمزة هالة بنت أهيب بن عبد مناف ابن زُهرة ؛ وهى أيضاً أم المقوّم وحَجْل - واسمه المغيرة - والغيداق أبناء عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ؛ هؤلاء الأربعة بنُو عبد المطلب من هالة ، وهالة هذه هى عمة سعد بن أبي وقاص ؛ فحمزة إذَنْ ابن عمة سعد ؛ وسعد ابن خال حمزة -

قال أبو جعفر : فلما أتى اليومُ الثالث جَمَعهم عبد الرحمن ، واجتمع الناس كافة ، فقال عبد الرحمن : أيها الناس ، أشيروا علىّ فى هذين الرجلين . فقال عمّار بن ياسر : إن أردتَ ألّا يختلف الناس ، فبايعْ عليًّا عليه السلام ، فقال المقداد : صدق عمار ، وإن بايعتَ عليا سمعْنا وأطعنا . فقال عبد الله بن أبي سَرْح : إن أردتَ ألّا تختلف قريشٌ ،

فبايعْ عثمان . وقال عبدالله بن أبى ربيعة المخزومىّ : صدق ، إن بايعت عثمان سمعنا وأطعنا . فشتم عمّارٌ ابنَ أبى سَرْح ، وقال له : متى كنت تنصح الإسلام[1] !

فتكلّم بنو هاشم وبنو أمية ، وقام عمار ، فقال : أيّها الناس ، إن الله أكرمَكم بنبيّه ، وأعزَّكم بدينه ، فإلى متى تصرفون هذا الأمرَ عن أهل بيت نبيكم ! فقال رجل من بنى مخزوم : لقد عدَوْتَ طورَك يابن سُميّة ، وما أنت وتأمير قريش لأنفسها ! فقال سعد : يا عبدَ الرحمن ، افرُغ من أمرك قبل أن يفتتِن الناس . فحينئذ عرَض عبد الرحمن على علىّ عليه السلام العملَ بسيرة الشيخين ، فقال : بل أجتهد برأيِى . فبايع عثمان بعد أن عرض عليه فقال : نعم . فقال علىّ عليه السلام : ليس هذا بأوّلِ يوم تَظاهرتُم فيه علينا ، فصبرٌ جميل والله المستعان على ما تصفون ؛ والله ما ولّيتَه الأمرَ إلا ليردّه إليك ، والله كلَّ يوم فى شأْن .

فقال عبد الرحمن : لا تجعلنّ على نفسك سبيلا يا علىّ — يعنى أمْرَ عمر أبا طلحة أن يضرب عُنُقَ المخالف — فقام علىّ عليه السلام فخرج ، وقال : سيبلغ الكتابُ أجلَه ، فقال عمّار : يا عبد الرحمن ، أما والله لقد تركتَه ، وإنّه من الذين يقضون بالحق وبه كانوا يعدلون . فقال المقدادُ : تا لله ما رأيتُ مثلَ ما أُتى إلى أهل هذا البيت بعد نبيّهم ، واعجبا لقريش ! لقد تركتْ رجلاً ما أقولُ ولا أعلم أن أحداً أقضَى بالعدل ولا أعلم ولا أتقى منه ! أما والله لو أجد أعوانا ! فقال عبدالرحمن : اتّقِ الله يامقداد ، فإنى خائف عليك الفتنة .

وقال علىّ عليه السلام : إنى لأعلمُ ما فى أنفسهم ؛ إن الناس ينظرون إلى قريش ، وقريش تنظر فى صلاح شأنها ، فتقول : إنْ وَلِىَ الأمرَ بنو هاشم لم يخرج منهم أبدا ، وما كان فى غيرهم فهو متداول فى بطون قريش .

قال : وقدم طلحة فى اليوم الذى بويع فيه لعثمان فتلكّأ ساعة ، ثم بايع .

***

---

(١) الطبرى : « المسلمين » .

وروى أبو جعفر رواية أخرى أطالها ، وذكر خطب أهل الشورى وما قاله كل منهم ، وذكر كلاما قاله عليّ عليه السلام فى ذلك اليوم ، وهو :

الحمدُ لله الذى اختار محمداً منا نبيًّا ، وابتعثه إلينا رسولا ، فنحنُ أهل بيت النبوّة ومعدن الحكمة ؛ أمانٌ لأهل الأرض ، ونجاةٌ لمن طلب ؛ إنّ لنا حقًّا إن نعطَه نأخذه ، وإن نمنعه نركبْ أعجاز الإبل وإن طال السُّرَى ، لو عهد إلينا رسول الله صلى الله عليه وآله عهدا لأنفذنا عهده ، ولو قال لنا قولا لجالدْنا عليه حتى نموت . لن يسرع أحد قبلى إلى دعوة حقٍّ وصلة رَحِم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . اسمعوا كلامى، وعُوا منطقى ، عسى أن تروْا هذا الأمر بعد هذا الجمع تُنتَضَى فيه السيوف ، وتُخان فيه العهود ؛ حتى لا يكون لكم جماعة ، وحتى يكون بعضُكم أئمةً لأهل الضلالة وشيعة لأهل الجهالة .

* * *

قلت : وقد ذكر الهروىّ[1] فى كتاب « الجمع بين الغريبين » قوله : « وإن نمنعه نركب أعجاز الإبل » ، وفسّره على وجهين :

أحدهما : أنّ منْ ركب عَجُز البعير يعانى مشقة ، ويقاسى جهداً ، فكأنه قال : وإن نُمنَعه نصبرْ على المشقة ؛ كما يصبر عليها راكبُ عجُز البعير .

والوجه الثانى أنه أراد : نتبع غيرنا ، كما أنّ راكبَ عجز البعير يكون رَديفا لمن هو أمامه ، فكأنه قال : وإن نمنعه نتأخر ونتبع غيرنا كما يتأخر راكب البعير .

* * *

---

(١) هو أبو عبيد أحمد بن محمد الهروى ، صنف كتابه فى الجمع بين غريب القرآن والحديث .

وقال أبو هلال العسكريّ في كتاب " الأوائل " : استجيبت دعوة عليّ عليه السلام في عثمان وعبد الرحمن، فما ماتا إلا متهاجرين متعاديين. أرسل عبد الرحمن إلى عثمان يعاتبه وقال لرسوله : قل له : لقد وليتُك ماوليتك من أمر الناس، وإن لي لأمورا ماهي لك : شهدتُ بدرا وما شهدتَها، وشهدتُ بَيْعةَ الرضوان وما شهدتَها، وفررتَ يوم أُحد وصبرتُ ! فقال عثمان لرسوله : قل له : أمّا يومَ بدْر فإن رسول الله صلى الله عليه ردّني إلى ابنته لِما بهامن المرض، وقد كنتُ خرجتُ للذي خرجتَ له، ولقيتُه عند منصرفه، فبشّرني بأجرٍ مثل أجوركم، وأعطاني سهما مثل سهامكم. وأما بَيْعة الرضوان فإنّه صلى الله عليه بعثني أستأذن قريشا في دخوله إلى مكة، فلما قيل له : إني قُتلت، بايع المسلمين على الموت لِما سمعه عني، وقال : إن كان حيًّا فأنا أبايع عنه، وصَفَق بإحدى يديه على الأخرى، وقال : يساري خير من يمين عثمان، فيدُك أفضل أم يد رسول الله صلى الله عليه ! وأما صبرُك يوم أُحد وفراري، فلقد كان ذلك، فأنزل الله تعالى العفوَ عني في كتابه، فعيّرتني بذنب غفره الله لي، ونسيت من ذنوبك مالا تَدْرِي أغفر لك أم لم يغفر !

لما بنى عثمان قصره طَمَار[١] بالزوراء، وصنع طعاما كثيراً، ودعا الناس إليه، كان فيهم عبد الرحمن، فلما نظر للبناء والطعام قال : يابن عفان، لقد صدّقنا عليك ما كنا نكذّب فيك، وإني أستعيذ بالله من بيعتك. فغضب عثمان، وقال : أخرجه عني ياغلام، فأخرجوه، وأمر الناس ألّا يجالسوه، فلم يكن يأتيه أحد إلا ابنُ عباس، كان يأتيه فيتعلّم منه القرآن والفرائض. ومرض عبد الرحمن فعاده عثمان وكلّمه فلم يكلّمه حتى مات.

* * *

(١) طمار : موضع عند سوق المدينة، ذكره ياقوت.

الأصل :

إلى أنْ قامَ ثالِثُ القوْمِ نافجاً حِضْنَيْهِ، بَيْنَ نَثِيلِهِ وَمُعْتَلَفِهِ، وقامَ مَعَهُ بَنُو أبيهِ يَخْضَمُونَ مالَ اللهِ خَضْمَ الإبلِ نِبْتَةَ الرَّبيعِ؛ إلى أنِ انتكثَ فَتْلُهُ، وأجْهَزَ عَلَيْهِ عَمَلُهُ، وكَبَتْ بِهِ بِطْنَتُهُ .

الشرح :

نافجا حِضنيه: رافعا لهما، والحِضن: مابين الإبط والكشح، يقال للمتكبر: جاء نافجاً حِضْنيه، ويقال لمن امتلأ بطنه طعاما: جاء نافجا حِضْنيه، ومراده عليه السلام هذا الثانى. والنثيل: الروث. والمعتلف: موضع العلف؛ يريد أنّ همّه الأكل والرجيع، وهذا من ممضّ الذم، وأشدُّ من قول الحطيئة الذى قيل: إنه أهجى بيت للعرب:

دَعِ المَكارِمَ لا تَرْحَلْ لِبُغْيَتِها وَاقْعُدْ فإنّكَ أنْتَ الطّاعِمُ الكاسِي(١)

والخضم: أكلٌ بكلّ الفم، وضدّه القضم، وهو الأكل بأطراف الأسنان. وقيل: الخضم أكلُ الشىء الرّطب، والقَضمُ أكلُ الشىء اليابس؛ والمراد على التفسيرين لا يختلف، وهو أنّهم على قَدَم عظيمة من النّهَم وشدّة الأكل وامتلاء الأفواه. وقال أبو ذرّ رحمه الله تعالى عن أبنى أمية: يخضَمون ونقضَم، والموعدالله. والماضى «خَضِم» بالكسر، ومثله قَضِمْت.

والنِّبتة، بكسر النون كالنبات، تقول: نَبتَ الرطب نباتا ونِبْتة. وانتكث فتلُه: انتقض؛ وهذه استعارة. وأجهز عليه عمله: تمم قتله. يقال: أجهزتُ على الجريح، مثل ذَفَفْتُ، إذا أتممتَ قَتْلهوكَبَتْ به بِطنته، كبا الجواد، إذا سقط لوجهه. والبِطنة: الإسراف فى الشِّبَع.

* * *

(١) ديوانه ٥٤

[نتف من أخبار عثمان بن عفان]

وثالث القوم هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبدمناف، كُنيته أبو عمرو، وأمه أروى بنت كُرَيز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس.

بايعه الناس بعد انقضاء الشورى واستقرار الأمر له، وصحّتْ فيه فِراسة عمر، فإنه أوطأ بني أمية رقابَ الناس، وولّاهم الوِلايات وأقطعهم القطائع، وافتُتِحَتْ إفريقيّة في أيامه، فأخذ الخُمس كلَّه فوهبه لمروان، فقال عبد الرحمن بن حنبل الجمحيّ:

أحْلِفُ باللهِ رَبِّ الأنا … م ماتَرَكَ اللهُ شيئاً سُدَى
ولكن خلقتَ لنا فتنة … لكي نبتلَى بك أو تبتلى
فإنّ الأمِينَيْنِ قدْ بَيَّنَا … مَنارَ الطَّرِيقِ عَلَيْهِ الْهُدَى
فما أخذا درهما غِيلَةً … ولا جَعَلا دِرْهَماً في هَوى
وَأعطيتَ مَرْوَانَ خُمْسَ البِلادِ … فَهَيْهَاتَ سَعْيُكَ مِمَّنْ سَعَى!

الأمينان: أبو بكر وعمر.

وطلب منه عبد الله بن خالد بن أسِيد صِلَةً، فأعطاه أربعمائة ألف درهم.

وأعاد الحكَم بن أبي العاص، بعد أن كان[1] رسول الله صلى الله عليه وآله قد سيّره ثم لم يردّه أبو بكر ولا عمر؛ وأعطاه مائة ألف درهم.

وتصدّق رسول الله صلى الله عليه وآله بموضع سوق بالمدينة يعرف بمهزور على المسلمين، فأقطعه عثمان الحارثَ بن الحكم أخا مروان بن الحكم.

وأقطع مروان فَدَكَ[2]، وقد كانتْ فاطمةُ عليها السلام طلبتْها بعد وفاة أبيها صلوات الله

---

(١) كلمة «كان» ساقطة من ب

(٢) فدك: قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان؛ أفاءها الله على رسوله في سنة سبع صلحا، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما نزل خيبر، وفتح حصونها، ولم يبق إلا ثلث، واشتد بهم الحصار، راسلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه أن ينزلهم على الجلاء، وفعل، وبلغ ذلك أهل فدك، فأرسلوا إلى رسول الله أن يصالحهم على النصف من ثمارهم وأموالهم فأجابهم إلى ذلك؛ فهي مما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب، فكانت خالصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم. معجم البلدان ٦ : ٣٤٣.

عليه ، تارةً بالميراث ، وتارة بالنِّحلة فدُفِعت عنها .

وحَمى المراعىَ حولَ المدينة كلَّها من مواشى المسلمين كلِّهم إلا عن بنى أميَّة .

وأعطى عبدَ الله بن أبى سَرْح جميع ما أفاء الله عليه من فتح إفريقيَّة بالمغرب — وهى من طرابلس الغرب إلى طَنْجة — من غير أنْ يَشْرَكه فيه أحد من المسلمين .

وأعطى أبا سفيان بن حرب مائتى ألف من بيت المال، فى اليوم الذى أمر فيه لمروان بن الحكم بمائة ألف من بيت المال ، وقد كان زوّجه ابنته أم أبان ، فجاء زيد بن أرقم صاحب بيت المال بالمفاتيح ، فوضعها بين يدى عثمان وبكى ، فقال عثمان : أتبكى أن وَصَلْتُ رَحِمِى ! قال : لا ، ولكن أبكى لأنى أظنك أنك أخذتَ هذا المال عِوضا عما كنتَ أنفقتَه فى سبيل الله فى حياة رسول الله صلى الله عليه وآله . والله لو أعطيتَ مروان مائة درهم لكان كثيرا ، فقال : ألقِ المفاتيح يابن أرقم ؛ فإنا سنجد غيرك .

وأتاه أبو موسى بأموال من العراق جليلة ، فقسَّمها كلَّها فى بنى أميَّة . وأنكح الحارث ابن الحكم ابنته عائشة ، فأعطاه مائة ألف من بيت المال أيضاً بعد صَرْفه زيد بن أرقم عن خزنه .

وانضمَّ إلى هذه الأمور أمور أخرى نقمها عليه المسلمون ، كتسيير أبى ذرّ رحمه الله تعالى إلى الرَّبَذة ؛ وضَرْب عبد الله بن مسعود حتى كسر أضلاعه، وما أظهر من الحجاب والعدول عن طريقة عمر فى إقامة الحدود وردّ المظالم، وكفّ الأيدى العادية ، والانتصاب لسياسة الرعيّة، وختم ذلك ما وجدوه من كتابه إلى معاوية[1] يأمره فيه بقتل قوم من المسلمين، واجتمع عليه كثير من أهل المدينة مع القوم الذين وصلوا من مصر لتعديد أحداثه عليه فقتلوه .

وقد أجاب أصحابنا عن المطاعن فى عثمانَ بأجوبة مشهورة مذكورة فى كتبهم . والذى نقول نحن : إنها وإن كانت أحداثا ، إلا أنها لم تبلغ المبلغ الذى يستباح به دمه ،

(١) كذا فى جميع الأصول ؛ ويرى الأستاذ مكى السيد جاسم أن الصحيح أن الكتاب الذى وجدوه معه موجه إلى عبد الله بن أبى سرح لا إلى معاوية .

وقد كان الواجب عليهم أن يخلعوه من الخلافة حيث لم يستصلحوه لها ، ولا يعجلوا بقتله، وأمير المؤمنين عليه السلام أبرأ النّاس من دمه ، وقد صرّح بذلك فى كثير من كلامه ؛ من ذلك قوله عليه السلام : واللهِ ماقتلتُ عثمان ولا مالأتُ على قتله .

وصدق صلوات الله عليه .

***

الأصْـلُ :

فَمَا رَاعَنِي إِلَّا وَالنَّاسُ إِلَيَّ كَعُرْفِ الضَّبُعِ ، يَنْثَالُونَ عَلَيَّ مِنْ كُلِّ جانِبٍ ، حَتَّى لَقَدْ وُطِئَ الْحَسَنَانِ ، وَشُقَّ عِطْفَايَ ، مُجْتَمِعِينَ حَوْلِي كَرَبِيضَةِ الْغَنَمِ . فَلَمَّا نَهَضْتُ بِالْأَمْرِ نَكَثَتْ طَائِفَةٌ ، وَمَرَقَتْ أُخْرَى، وفَسَقَ آخَرُونَ ؛ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا كَلَامَ اللهِ حَيْثُ يَقُولُ : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[1] ؛ بَلَى وَاللهِ لَقَدْ سَمِعُوهَا وَوَعَوْهَا، وَلَكِنَّهُمْ حَلِيَتِ الدُّنْيا فِي أَعْيُنِهِمْ ، وَرَاقَهُمْ زِبْرِجُها .

***

الشّـرْحُ :

عُرْف الضّبع ثخين ، ويضرب به المثل فى الازدحام . وينثالون : يتتابعون مزدحمين . والحَسَنان : الحسن والحسين عليهما السلام. والعِطْفان : الجانبان من المنكب إلى الورك؛ ويروى « عطافى » ، والعطاف : الرداء وهو أشبه بالحال ؛ إلّا أن الرواية الأولى أشهر ؛ والمعنى خُدش جانباى لِشدّة الاصطكاك منهم والزحام .

***

وقال القطب الراوندىّ : الحسنان : إبهاما الرجل ؛ وهذا لا أعرفه .

(١) سورة القصص ٨٣

وقوله : « كربيضة الغنم » أى كالقِطْعة الرابضة من الغنم ، يصف شِدَّة ازدحامهم حوله ، وجثومَهم بين يديه .

وقال القطب الراونديّ : يصف بلادَتهم ونقصان عقولهم ؛ لأنَّ الغنَم توصف بقِلَّة الفطنة . وهذا التفسير بعيد وغير مناسب للحال .

فأما الطائفة النَّاكثة ، فهم أصحابُ الجمل ، وأما الطائفة الفاسقة فأصحاب صِفِّين . وسماهم رسول الله صلى الله عليه وآله القاسِطين . وأما الطائفة المارقة فأصحاب النَّهْرَوان ؛ وأشرنا نحن بقولنا : سماهم رسول الله صلى الله عليه وسلم القاسطين إلى قوله عليه السلام : « ستقاتلُ بعدى الناكثين ، والقاسطين والمارقين » . وهذا الخبر من دلائل نبوّته صلوات الله عليه ، لإنه إخبار صريح بالغيب ، لا يَحتمل التَّمويهَ والتدليس كما تحتمله الأخبار المجمَلة ، وصدَّق قوله عليه السلام : « والمارقين » ، قوله أولا فى الخوارج : « يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميَّة » ، وصدق قوله عليه السلام « الناكثين » كونهم نكثوا البيعة باديءْ بدء ، وقد كان عليه السلام يتلو وقت مبايعتهم له : ﴿ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾(١) .

وأما أصحاب صفين ، فإنهم عند أصحابنا رحمهم الله مخلَّدون فى النار لِفِسْقهم ، فصحَّ فيهم قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾(٢) .

وقوله عليه السلام : « حليت الدنيا فى أعينهم » تقول : حلا الشىء فى فمى يحلُو ، وحلِىَ لعينى يَحْلَى . والزبرج : الزينةُ من وَشْيٍ أو غيره ، ويقال : الزبرج : الذهب .

فأما الآية فنحن نذكر بعض مافيها ، فنقول : إنه تعالى لم يعلّق الوعدَ بترك العلوّ فى الأرض والفساد ، ولكن بترك إرادتهما ، وهو كقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ

---

(١) سورة الفتح ١٠ (٢) سورة الجن ١٥

ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴾ (١) ؛ علّق الوعيد بالركون اليهم والميل معهم ، وهذا شديد في الوعيد .

ويروى عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال : إنّ الرجل ليعجبه أن يكون شِراك نعله أحسنَ من شِراك نعل صاحبه فيدخل تحت هذه الآية . ويقال : إن عمر بن عبد العزيز كان يردّدها حتى قُبِض .

* * *

الأصْلُ :

أَمَا وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ ، لَوْلَا حُضُورُ الْحَاضِرِ ، وَقِيَامُ الْحُجَّةِ بِوُجُودِ النَّاصِرِ ، وما أَخَذَ اللهُ عَلَى الْعُلَمَاءِ أَلَّا يُقَارُّوا عَلَى كِظَّةِ ظَالِمٍ ، وَلَا سَغَبِ مَظْلُومٍ ، لَأَلْقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَى غَارِبِهَا ، وَلَسَقَيْتُ آخِرَهَا بِكَأْسِ أَوَّلِهَا ، وَلَأَلْفَيْتُمْ دُنْيَاكُمْ هَذِهِ أَزْهَدَ عِنْدِي مِنْ عَفْطَةِ عَنْزٍ .

* * *

الشَّرْحُ :

فَلَقَ الحبة ، من قوله تعالى : ﴿ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى ﴾ (٢) . والنَّسمة : كلّ ذى رُوح من البشر خاصة .

قوله : « لولا حضور الحاضر » ، يمكن أن يريدَ به لولا حضور البيعة ؛ فإنها بعد عقدها تتعين المحاماة عنها ، ويمكن أن يريد بالحاضر مَنْ حَضَره من الجيش الذين يستعين بهم على الحرب . والكِظّة بكسر الكاف : مايعترى الإنسان من الثِّقل والكَرْب عند الامتلاء من الطعام . والسَّغَب : الجوع . وقولهم : قد ألقى فلان حبل فلان على غاربه ،

---

(١) سورة هود ١١٣ (٢) سورة الأنعام ٩٥

أى تركه هَمَلًا يسرح حيث يشاء من غير وازع ولا مانع ؛ والفقهاء يذكرون هذه اللفظة فى كنايات الطلاق . وعَفْطَة عنز : ماتنثره من أنفها ، عفَطت تعفِط بالكسر ؛ وأكثر مايستعمل ذلك فى النعجة ، فأمّا العنز فالمستعمل الأشهر فيها « النفطة » بالنون ، ويقولون : ماله عافط ولا نافط ، أى نعجة ولا عنز . فإن قيل : أيجوز أن يقال العفطة هاهنا الحَبْقة؟ فإن ذلك يقال فى العنز خاصة ، عفَطت تعفط . قيل : ذلك جائز ، إلا أن الأحسن والأليق بكلام أمير المؤمنين عليه السلام التفسير الأول ؛ فإن جلالته وسؤدده تقتضى أن يكون ذاك أراد لا الثانى . فإن صحّ أنه لا يقال فى العَطْسة عَفْطة إلا للنعجة . قلنا : إنه استعمله فى العنز مجازا .

يقول عليه السلام : لولا وجود مَنْ ينصرنى ـ لا كما كانت الحال عليها أوّلا بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله ، فإنى لم أكن حينئذ واجدا للناصر مع كونى مكلّفا ألا أمكّن الظالم من ظلمه ـ لتركت الخلافة ، ولرفضتها الآن كما رفضتها قبل ، ولوجدتم هذه الدنيا عندى أهون من عَطْسة عنز ؛ وهذا إشارة إلى مايقوله أصحابنا من وجوب النهى عن المنكر عند التمكن .

***

الأصْـلُ :

قَالُوا : وَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ السَّوَادِ عِنْدَ بُلُوغِهِ إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ مِنْ خُطْبَتِهِ ، فَنَاوَلَهُ كِتَاباً فَأَقْبَلَ يَنظر فِيهِ ؛ فلمّا فرغ من قراءته قَالَ لَهُ ابْنُ عباس رضى اللهُ عنهما : يَاأَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، لَوِ اطَّرَدَتْ مَقَالَتُكَ مِنْ حَيْثُ أَفْضَيْتَ ! فَقَالَ : هَيْهَاتَ يابن عباس ! تِلْكَ شِقْشِقَةٌ هَدَرَتْ ثُمَّ قَرَّتْ .

قَالَ ابن عباس : فَوَاللهِ مَا أَسِفْتُ عَلَى كَلَامٍ قطُّ كَأَسَفِى عَلَى هَذَا الْكَلَامِ ألا يَكُونَ أَمِيرُ الْمُؤْمنين بلَغَ مِنْهُ حَيْثُ أَرَادَ .

***

قوله عليه السلامُ فِي هَذِهِ الْخُطْبَةِ : « كَرَاكِبِ الصَّعْبَةِ إِنْ أَشْنَقَ لَهَا خَرَمَ وَإِنْ أَسْلَسَ لَهَا تَقَحَّمَ » يُرِيدُ أَنَّهُ إِذَا شَدَّدَ عَلَيْهَا فِي جَذْبِ الزِّمَامِ وَهِيَ تُنَازِعُهُ رَأْسَهَا خَرَمَ أَنْفَهَا ، وَإِنْ أَرْخَى لَهَا شَيْئًا مَعَ صُعُوبَتِهَا تَقَحَّمَتْ بِهِ فَلَمْ يَمْلِكْهَا . يُقَالُ : أَشْنَقَ النَّاقَةَ إِذَا جَذَبَ رَأْسَهَا بِالزِّمَامِ فَرَفَعَهُ ، وَشَنَقَهَا أَيْضًا ، ذَكَرَ ذَلِكَ ابْنُ السِّكِّيتِ فِي "إِصْلَاحِ الْمَنْطِقِ" . وَإِنَّمَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « أَشْنَقَ لَهَا » وَلَمْ يَقُلْ « أَشْنَقَهَا » لِأَنَّهُ جَعَلَهُ فِي مُقَابَلَةِ قَوْلِهِ : « أَسْلَسَ لَهَا » ، فَكَأَنَّهُ قَالَ : إِنْ رَفَعَ لَهَا رَأْسَهَا بِالزِّمَامِ يعني أَمْسَكَهُ عَلَيْهَا . وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم خَطَبَ عَلَى نَاقَةٍ وَقَدْ شَنَقَ لَهَا فَهِيَ تَقْصَعُ بِجِرَّتِهَا .

وَمِنَ الشَّاهِدِ عَلَى أَنَّ « أَشْنَقَ » بِمَعْنَى شَنَقَ قَوْلُ عديِّ بنِ زَيْدٍ العبادِيِّ :

سَاءَهَا مَا لَهَا تَبَيَّنَ فِي الأَيْـ ... ـدِي وَإِشْنَاقُهَا إِلَى الأَعْنَاقِ

***

الشَّرْحُ :

سُمِّيَ السواد سوادا لخضرته بالزروع والأشجار والنخل ، والعرب تسمي الأخضر أسود ، قال سبحانه : ﴿ مُدْهَامَّتَانِ ﴾[1] يريد الخضرة . وقوله : « لو اطَّردت مقالتك » ، أي أتبعتَ الأوَّلَ قولا ثانيا ! من قولهم اطَّرد النهر ، إذا تتابع جريُه .

وقوله : « من حيث أفضيت » أصل أفضى خرجَ إلى الفضاء ، فكأنه شبَّهه عليه السلام حيث سكت عما كان يقوله ، بمن خرج من خباء أو جدار إلى فضاء من الأرض ، وذلك لأنَّ النفس والقوى والهمة عند ارتجال الخطب والأشعار تجتمع إلى القلب ، فإذا قطع الإنسان وفرغ ، تفرقت وخرجت عن حجر الاجتماع واستراحت .

(١) سورة الرحمن ٦٤ .

والشّقشقة ، بالكسر فيهما : شيء يُخرجه البعير من فيه إذا هاج ، وإذا قالوا للخطيب : ذو شقشقة فإنما شبّهوه بالفحل . والهدير : صوتها .

وأما قول ابن عباس : « ما أسِفتُ على كلام . . » إلى آخره ، فحدثني شيخي أبو الخير مصدّق بن شبيب الواسطي[1] في سنة ثلاث وستمائة ، قال : قرأتُ على الشيخ أبي محمد عبد الله بن أحمد المعروف بابن الخشاب هذه الخطبة ، فلما انتهيتُ إلى هذا الموضع ، قال لي : لو سمعتُ ابن عباس يقول هذا لقلت له : وهل بَقِيَ في نفس ابن عمك أمرٌ لم يبلغه في هذه الخطبة لتتأسف ألّا يكون بلغ من كلامه ما أراد ! والله مارجع عن الأولين ولا عن الآخرين ، ولا بَقِي في نفسه أحد لم يذكره إلا رسول الله صلى الله عليه وآله .

قال مصدّق : وكان ابن الخشاب صاحبَ دعابة وهزل . قال : فقلت له : أتقول إنها منحولة ! فقال : لا والله ، وإني لأعلم أنّها كلامه ، كما أعلم أنك مصدّق . قال : فقلت له : إن كثيراً من الناس يقولون إنها من كلام الرضيّ رحمه الله تعالى . فقال : أنَّى للرضيّ ولغير الرضيّ هذا النَّفَس وهذا الأسلوب ! قد وقفنا على رسائل الرضيّ ، وعرفنا طريقته وفنّه في الكلام المنثور ، ومايقع مع هذا الكلام في خَلّ ولا خَمْر . ثم قال : والله لقد وقفتُ على هذه الخطبة في كتب صُنِّفت قبل أن يخلق الرضيّ بمائتي سنة ، ولقد وجدتُها مسطورة بخطوط أعرفها ، وأعرف خطوط مَنْ هو من العلماء وأهل الأدب قبل أن يخلق النقيبُ أبو أحمد والد الرضيّ .

قلت : وقد وجدت أنا كثيراً من هذه الخطبة في تصانيف شيخنا أبي القاسم البلخي[2]

(١) مصدق بن شبيب بن الحسين الصلحي الواسطي ؛ ذكره القفطي في إنباه الرواة (٣ : ٢٧٤) ، وقال إنه قدم بغداد ، وقرأ بها على ابن الخشاب وحبشي بن محمد الضرير ، وعبد الرحمن بن الأنباري وغيرهم ؛ وتوفي ببغداد سنة ٦٠٥

(٢) أبو القاسم البلخي ، ذكره ابن النديم وقال : « كان من أهل بلخ ، يطوف البلاد ويجول الأرض ؛ حسن المعرفة بالفلسفة والعلوم القديمة . . . ورأيت بخطه شيئا كثيرا في علوم كثيرة مسودات ودساتير لم يخرج منها إلى الناس كتاب تام » . الفهرست ٢٩٩ . وابن خلكان ١ : ٢٠٢

إمام البغداديين من المعتزلة ، وكان فى دولة المقتدر قبل أن يُخلق الرضىّ بمدة طويلة .
ووجدت أيضاً كثيراً منها فى كتاب أبى جعفر بن قِبَة أحد متكلّمى الإمامية[1] وهو الكتاب المشهور المعروف بكتاب « الإنصاف » . وكان أبو جعفر هذا من تلامذة الشيخ أبى القاسم البلخىّ رحمه الله تعالى ، ومات فى ذلك العصر قبل أن يكون الرضىّ رحمه الله تعالى موجودا .

---

(١) هو أبو جعفر بن محمد بن قبة ؛ من متكلمى الشيعة وحذاقهم ، وله من الكتب كتاب الإنصاف فى الإمامة . الفهرست ١٧٦

(٤)

الأَصْلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

بِنَا اهْتَدَيْتُمْ فِي الظَّلْمَاءِ، وَتَسَنَّمْتُمُ العَلْيَاءَ[1]. وَبِنَا انْفَجَرْتُمْ عَنِ السِّرَارِ.
وُقِرَ سَمْعٌ لَمْ يَفْقَهِ الوَاعِيَةَ؛ وَكَيْفَ يُرَاعِي النَّبْأَةَ مَنْ أَصَمَّتْهُ الصَّيْحَةُ!
رُبِطَ جَنَانٌ لَمْ يُفَارِقْهُ الخَفَقَانُ.

مَا زِلْتُ أَنْتَظِرُ بِكُمْ عَوَاقِبَ الغَدْرِ، وَأَتَوَسَّمُكُمْ بِحِلْيَةِ المُغْتَرِّينَ؛ سَتَرَنِي عَنْكُمْ جِلْبَابُ الدِّينِ، وَبَصَّرَنِيكُمْ صِدْقُ النِّيَّةِ.

أَقَمْتُ لَكُمْ عَلَى سَنَنِ الحَقِّ فِي جَوَادِّ المَضَلَّةِ؛ حَيْثُ تَلْتَقُونَ وَلَا دَلِيلَ، وَتَحْتَفِرُونَ وَلَا تُمِيهُونَ.

اليَوْمَ أُنْطِقُ لَكُمُ العَجْمَاءَ ذَاتَ البَيَانِ.

عَزَبَ رَأْيُ امْرِئٍ تَخَلَّفَ عَنِّي، مَا شَكَكْتُ فِي الحَقِّ مُذْ أُرِيتُهُ.

لَمْ يُوجِسْ مُوسَى خِيفَةً عَلَى نَفْسِهِ؛ أَشْفَقَ مِنْ غَلَبَةِ الجُهَّالِ وَدُوَلِ الضَّلَالِ.

اليَوْمَ تَوَاقَفْنَا عَلَى سَبِيلِ الحَقِّ وَالبَاطِلِ. مَنْ وَثِقَ بِمَاءٍ لَمْ يَظْمَأْ.

* * *

---

(١) في ا « وتسنمتم ذروة العلياء ».

الشرح :

هذه الكلمات والأمثال ملتقطة من خطبة طويلة منسوبة إليه عليه السلام ، قد زاد [1] فيها قوم أشياء حملتهم عليها أهواؤهم ، لا توافق ألفاظُها طريقته عليه السلام فى الخطب ، ولا تناسب فصاحتُها فصاحتَه ، ولا حاجة إلى ذكرها فهى شهيرة . ونحن نشرح هذه الألفاظ ، لأنها كلامُه عليه السلام ، لا يشكّ فى ذلك مَنْ له ذوق ونقد ومعرفة بمذاهب الخطباء والفصحاء فى خُطَبهم ورسائلهم ، ولأنّ الرواية لها كثيرة ، ولأن الرضىّ رحمة الله تعالى عليه قد التقطها ونسبها إليه عليه السلام ، وصحّحها وحذف ما عداها .

وأما قوله عليه السلام : « بنا اهتديتم فى الظّلماء » ، فيعنى بالظلماء الجهالة ، وتسنّمتم العلياء : ركبتم سنامها ؛ وهذه استعارة .

قوله : « وبنا انفجرتم عن السِّرار » ، أى دخلتم فى الفَجْر ، والسِّرار : الليلة والليلتان يستتر فيهما القمر فى آخر الشهر فلا يظهر . وروى « أفجرتم » ، وهو أفصح وأصحّ ، لأن « انفعل » لا يكون إلا مطاوع « فعل » ، نحو كسرته فانكسر ، وحطمته فانحطم ، إلا ماشذّ من قولهم : أغلقت الباب فانغلق وأزعجته فانزعج . وأيضاً فإنه لا يقع إلا حيث يكون علاج وتأثير ، نحو انكسر وانحطم ؛ ولهذا قالوا : إنّ قولهم : انعدم خطأ ، وأما « أفعل » فيجىء لصيرورة الشىء على حال وأمر ، نحو أغدّ البعير ، أى صار ذا غُدّة ، وأجرَب الرجل ، إذا صار ذا إبلٍ جَرْبى ، وغير ذلك . فأفجرتم ؛ أى صرتم ذوى فجر .

وأما « عن » فى قوله : « عن السرار » فهى للمجاوزة على حقيقة معناها الأصلىّ ، أى منتقلين عن السرار ومتجاوزين له .

وقوله عليه السلام : « وقر سمع » هذا دعاء على السمع الذى لم يفقه الواعية بالثِّقل والصَّمَم ، وُقِرَت أُذُنُ زيد ، بضم الواو فهى موقورة ، والوَقْر ، بالفتح : الثِّقَل فى الأذن ،

---

(١) ب : « رأى » .

وَقِرَتْ أذنُه - بفتح الواو وكسر القاف - تَوْقَر وَقْراً أى صَمَّت ، والمصدر فى هذا الموضع جاء بالسكون ، وهو شاذٌ ، وقياسه التحريك بالفتح ، نحو ورِم وَرَماً . والوَاعيـة : الصارخة ، من الوُعاء ، وهو الجَلَبة والأصوات ، والمراد العبر والمواعظ .

قوله : « كيف يُرَاعِي النبأة » ، هـذا مثل آخر ، يقول : كيف يلاحظ ويراعى العِبَر الضعيفةَ مَنْ لم ينتفع بالعِبَر الجليّة الظاهرة ، بل فسد عندها ، وشبّه ذلك بمن أصَمَّتْهُ الصَّيحة القوية ؛ فإنّه محال أن يراعِيَ بعد ذلك الصوت الضعيف . والنبأة : هى الصوت الخفىّ .

فإن قيل : هذا يخالف قولـكم : إنّ الاستفساد لا يجوز على الحكيم سبحانه ، فإنّ كلامه عليه السلام صريح فى أنّ بعض المكلّفين يفسد عند العبر والمواعظ .

قيل : إن لفظة « أفعل » قد تأتى لوجود الشيء على صفة ، نحو أحمدته ، إذا أصبته محموداً . وقالوا : أحْيَيْتُ الأرض ، إذا وجدتَها حية النبات [(١)] ، فقوله : « أصَمَّتْهُ الصيحة » ، ليس معناه أنّ الصيحة كانت علّة لصممه ، بل معناه صادفته أصمّ ، وبهـذا تأول أصحابنا قوله تعالى : ﴿ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾ [(٢)] .

قوله : « رُبط جَنَان لم يفارقه الخَفَقان » ، هذا مثل آخر ، وهو دعاء لقلب لا يزال خائفا من الله يَخفُق بالثبوت والاستمساك .

قوله : « مازلت أنتظر بكم » ، يقول : كنت مترقباً غدرَكم متفرّساً فيـكم الغَرَر ، وهو الغفلة .

وقيل : إنّ هذه الخطبة خَطَبها بعد مقتل طلحة والزبير ، مخاطباً بها لهما ولغيرهما من أمثالهما ، كما قال النبي صلى الله عليه وآله يوم بدر ، بعد قَتْل مَنْ قتل من قريش : « ياعُتْبة بن ربيعة ،

(١) ا : « ذات النبات » (٢) سورة الجاثية ٢٣

ياشيبة بن ربيعة ، ياعمرو بن هشام » ، وهم جِيَف منتنة قد جُرّوا إلى القَلِيب .

قوله : « سترنى عنكم » ، هذا يحتمل وجوها ؛ أوضحها أنّ إظهارَكم شعار الإسلام عصمكم منى مع علمى بنفاقكم ، وإنما أبصرت نفاقكم وبواطنكم الخبيثة بصِدْق نِيّتى . كما يقال : المؤمن يُبصر بنور الله . ويحتمل أن يريد : سترنى عنكم جلبابُ دينى ، ومنعنِى أن أعرّفكم نفسى وما أقدر عليه من عَسْفكم ، كما تقول لمن استهان بحقك : أنت لا تعرفنى ولو شئت لعرّفتُك نفسى .

وفسّر القُطْب الراوندىّ قوله عليه السلام : « وبَصّرتيكمْ صدقُ النية » ، قال : معناه أنكم إذا صدقتم نياتكم ، ونظرتم بأعين لم تطرّفْ بالحسد والغشّ وأنصفتمونى ، أبصرتم عظيمَ منزلتى .

وهذا ليس بجيِّد ، لأنه لو كان هو المراد لقال : وبصّركم إيّاى صدقُ النية ، ولم يقل ذلك ، وإنما قال : « بَصّرتيكم » ، فجعل صدقَ النيّة مبصّرًا له لالهم . وأيضاً فإنه حكم بأنّ صدقَ النية هو علّة التبصير ، وأعداؤه لم يكن فيهم صادق النية ، وظاهر الكلام الحكْم والقطع ؛ لا التعليق بالشرط .

قوله : « أقمت لكم على سَنَن الحق » ، يقال : تنحّ عن سَنَن الطريق وسُنَن الطريق بفتح السين وضمها ، فالأول مفرد والثانى جمع سُنّة ، وهى جادّة الطريق والواضح منها . وأرض مَضَلّة ومَضِلّة ، بفتح الضاد وكسرها : يضلّ سالكها . وأماهَ المحتفِر يميه ؛ أنبط الماء . يقول : فعلتُ من إرشادكم وأمركم بالمعروف ونهيكم عن المنكر مايجب على مثلى ، فوقفت لكم على جادّة الحق ومنهجه ؛ حيث طرُق الضلال كثيرة مختلفة من سائر جهاتى ، وأنتم تائهون فيها تلتقون ، ولا دليل لكم ، وتحتفرون لتجدوا ماء تنقعون به غُلّتكم فلا تظفرون بالماء ، وهذه كلُّها استعارات .

قوله : « اليوم أنطق » ، هذا مثلٌ آخر . والعجماء : التى لا نطق لها ، وهذا إشارة إلى الرموز التى تتضمّنها هـذه الخطبة ، يقول : هى خفية غامضة ، وهى مع غموضها جليّة لأولى الألباب ، فـكأنهـا تنطق كما ينطق ذوو الألسنة ، كما قيل : ما الأمور الصامتة الناطقة ؟ فقيـل : الدلائل المخبرة والعبَر الواعظة . وفى الأثر : سل الأرضَ : مَنْ شقّ أنهارك ، وأخرج ثمارَك ؟ فإن لم تُجبك حوارا ، أجابتْك اعتبارا .

قوله : « عزبَ رأيُ امرئٍ تخلّفَ عَنّى » هذا كلام آخر ، عزب ، أى بعد ، والعازب : البعيد . ويحتمل أن يكونَ هذا الـكلام إخباراً وأن يـكون دعاء ، كما أنّ قوله تعالى : ﴿ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ ﴾ (١) يحتمل الأمرين .

قوله : « ماشكَـكْتُ فى الحق مذ رأيته » ، هذا كلام آخر ، يقول : معارف ثابتة لا يتطرّق إليها الشكّ والشبهة .

قوله : « لم يوجس موسى » ، هذا كلام شريف جدًّا ، يقول : إن موسى لما أوجسَ الخيفة ، بدلالة قوله تعالى : ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ ﴾ (٢) ، لم يكن ذلك الخوفُ على نفسه ، وإنما خاف من الفتنة والشُّبْهة الداخلة على المـكلّفين عند إلقاء السحرة عصيّهم ، فخيّل إليه من سحرهم أنّهـا تسعى ، وكذلك أنا لا أخافُ على نفسى من الأعداء الذين نَصَبُوا لىَ الحبائل ، وأرصدوا لىَ المـكائد ، وسعّروا علىّ نيران الحرب ؛ وإنما أخاف أن يفتتن المـكلّفون بشُبههم وتمويهاتهم ، فتقوى دولةُ الضلال ، وتغلب كلمة الجهال .

قوله : « اليوم تواقفنا » ، القاف قبل الفاء ، تواقَفَ القوم على الطريق ، أى وقفوا كلّهم عليها ؛ يقول : اليوم اتّضح الحق والباطل ، وعرفناهما نحن وأنتم .

قوله : « مَنْ وثق بماء لم يظمأ » ، الظمأ الذى يكون عند عدم الثقة بالماء ، وليس

---

(١) سورة النساء ٩٠ . (٢) سورة طه ٦٧ .

يريد النفيَ المطلق ؛ لأنّ الواثق بالماء قد يظمأ ، ولكن لا يكون عطشه على حدّ العطش الكائن عند عدم الماء ، وعدم الوثوق بوجوده ، وهذا كقول أبي الطيب :

وما صَبابَةُ مُشْتاقٍ عَلَى أَمَـــلٍ   مِنَ اللِّقاءِ كَمُشْتاقٍ بِلاَ أَمَلِ(١)

والصائم في شهر رمضان يُصبح جائعاً تنازعه نفسه إلى الغِذاء ، وفي أيام الفِطْر لا يجد تلك المنازعة في مثل ذلك الوقت ؛ لأنّ الصائم ممنوع ، والنفس تحرِصُ على طلب مامُنعت منه ؛ يقول : إن وثقتم بي وسكنتم إلى قولي كنتم أبعدَ عن الضّلال وأقربَ إلى اليقين وثَلَج النفس ؛ كمن وثق بأنّ الماء في إداوته ، يكون عن الظمأ وخوف الهلاك من العطش أبعدَ ممّن لم يثقْ بذلك .

---

(١) ديوانه ٣ : ٧٥ .

(٥)

الأصل :

ومن كلام له[1] عليه السلام لما قبض رسول الله صلى الله عليه وآله ، وخاطبه العباس وأبو سفيان بن حرب فى أن[2] يبايعا له بالخلافة :

أَيُّهَا النَّاسُ ؛ شُقُّوا أَمْوَاجَ الْفِتَنِ بِسُفُنِ النَّجَاةِ ، وَعَرِّجُوا عَنْ طَرِيقِ الْمُنَافَرَةِ ، وَضَعُوا تِيجَانَ الْمُفَاخَرَةِ . أَفْلَحَ مَنْ نَهَضَ بِجَنَاحٍ ، أَوِ اسْتَسْلَمَ[3] فَأَرَاحَ . مَاءٌ آجِنٌ ، وَلُقْمَةٌ يَغَصُّ بِهَا آكِلُهَا . وَمُجْتَنِي الثَّمَرَةِ لِغَيْرِ وَقْتِ إِينَاعِهَا كَالزَّارِعِ بِغَيْرِ أَرْضِهِ ، فَإِنْ أَقُلْ يَقُولُوا : حَرَصَ عَلَى الْمُلْكِ ، وَإِنْ أَسْكُتْ يَقُولُوا : جَزِعَ مِنَ الْمَوْتِ .

هَيْهَاتَ بَعْدَ اللَّتَيَّا وَالَّتِي ! وَاللهِ لَابْنُ أَبِي طَالِبٍ آنَسُ بِالْمَوْتِ مِنَ الطِّفْلِ بِثَدْيِ أُمِّهِ ، بَلِ انْدَمَجْتُ عَلَى مَكْنُونِ عِلْمٍ لَوْ بُحْتُ بِهِ لَاضْطَرَبْتُمُ اضْطِرَابَ الْأَرْشِيَةِ فِي الطَّوِيِّ الْبَعِيدَةِ[4] .

***

الشرح :

المفاخرة : أن يذكر كلٌّ واحد من الرجلين مفاخرَه وفضائله وقديمه ، ثم يتحاكما إلى ثالث . والماء الآجن : المتغيِّر الفاسد ، أجَنَ الماء ، بفتح الجيم ، يأجِن ويأجُن ، بالكسر والضم . والإيناع : إدراكُ الثمرة . واللّتيّا[5] : تصغير التى ، كما أنّ اللّذيّا تصغير الذى . واندمجت : انطويت . والطَّوِىّ : البئر المطويّة بالحجارة . يقول : تخلّصوا عن الفتنة وانجُوا منها بالمتاركة والمسالمة والعدول عن المنافرة والمفاخرة .

---

(١) ا : «خطبة» . (٢) ا : «أن يبايعاه» .
(٣) ا : «واستسلم» . (٤) بعد هذه الكلمة فى مخطوطة النهج : «السلام» .
(٥) فى القاموس بفتح اللام المشددة وضمها .

أفلح مَنْ نهض بجناح، أى مات ؛ شبّه الميّتَ المفارقَ للدنيا بطائر نهضَ عن الأرض بجناحه . ويحتمل أن يريد بذلك : أفلح مَن اعتزل هذا العالم ، وساح فى الأرض منقطعا عن تكاليف الدنيا . ويحتمل أيضاً أن يريد : أفلح مَنْ نهض فى طلب الرياسة بناصر ينصره ، وأعوان يجاهدون بين يديه ؛ وعلى التقادير كلّها تنطبق اللفظةُ الثانية ، وهى قوله : « أو استسلم فأراح »(١)، أى أراح نفسه باستسلامه .

ثم قال : الإمْرَة على الناس وخيمة العاقبة ، ذات مشقّة فى العاجلة ، فهى فى عاجلها كالماء الآجن يجدُ شاربه مشقّة ، وفى آجلها كاللقمة التى تحدُث عن أكلها الغُصّة . ويَغَصّ مفتوح حرف المضارعة ومفتوح الغين ، أصله : « غَصِصْتُ » بالكسر . ويحتمل أن يكون الأمران معا للعاجلة ؛ لأن التّغصص فى أول البلع ، كما أن ألم شرب الماء الآجن يحدث فى أول الشرب . ويجوز ألّا يكون عنَى الإمْرة المطلقة ؛ بل هى(٢) الإمْرة المخصوصة ، يعنى بيعةَ السقيفة .

ثم أخذ فى الاعتذار عن الإمساك وترك المنازعة ، فقال : مجتنِى الثمرة قبل أن تُدْرِك لا ينتفع بما اجتناه ، كمن زرع فى غير أرضه ، ولا ينتفع بذلك الزرع ؛ يريد أنّه ليس هذا الوقت هو الوقت الذى يَسُوغ لى فيه طلب الأمر ، وأنّه لم يَأْنِ بعد .

ثم قال : قد حصَلْت بين حالين ؛ إن قلتُ ، قال الناس : حَرَص على المُلْك ، وإن لم أقل ، قالوا : جَزِع من الموت .

قال : هيهات ، استبعادا لظنّهم فيه(٣) الجزع. ثم قال : « اللّتيا والّتى » ، أى : أبَعْد اللّتيا والتى أجزع ! أبَعْدَ أن قاسيتُ الأهوال الكبار والصغار ، ومُنِيت بكل داهية عظيمة وصغيرة ! فاللّتيّا للصغيرة والّتى للكبيرة .

---

(١) ا : « واستسلم » .
(٢) ا : « هذه » .
(٣) ساقطة من ا .

ذكر أنّ أنسه بالموت كأُنسِ الطفل بثدى أمه، وأنّه انطوى على علم هو ممتنع لموجبه من المنازعة، وأنّ ذلك العلم لا يُباح به [1]، ولو باح به لاضطرب سامعوه كاضطراب الأرشِية ـ وهى الحبال ـ فى البئر البعيدة القعر، وهذا إشارة إلى الوصيّةِ التى خُصّ بها عليه السلام. إنه قد كان من جملتها الأمر بترك النزاع فى مبدأ الاختلاف عليه.

***

[استطراد بذكر طائفة من الاستعارات]

واعلم أن أحسنَ الاستعارات ما تضمّن مناسبةً بين المستعار والمستعار منه، كهذه الاستعارات، فإنّ قوله عليه السلام: «شُقّوا أمواجَ الفِتَن بسفُن النجاة» من هذا النوع؛ وذلك لأنّ الفتن قد تتضاعف وتترادف، فحسُنَ تشبيهها بأمواج البحر المضطربة. ولما كانت السفن الحقيقيّة تنجّى من أمواج البحر، حسُن أن يستعار لفظُ السُّفن لما ينجّى من الفِتن. وكذلك قوله: «وضعوا تيجان المفاخرة»، لأنّ التاج لما كان مما يعظُم به قَدْر الإنسان استعاره لما يتعظّم به الإنسان من الافتخار وذكر القديم وكذلك استعارة النهوض بالجناح لمن اعتزل الناس، كأنه لما نفض يديه عنهم صار كالطائر الذى ينهض من الأرض بجناحيه.

وفى الاستعارات ما هو خارج عن هذا النوع، وهو مستقبح؛ وذلك كقول أبى نواس:

بُحّ صَوْتُ المـــالِ مِمّا ... مِنْكَ يَبْــكى وَيَنُوحُ [2]

وكذلك قوله:

مَا لِرجْلِ المـــالِ أضحتْ ... تَشْتَـكى مِنكَ الكَلَالَا [3]

(1) ساقطة من ب.
(2) ديوانه ٧٠، وفيه: «يصيح».
(3) ديوانه ١١٩.

وقول أبي تمام :

وكَمْ أحْرَزَتْ مِنكُمْ على قُبْحِ قَدّها   صرُوفُ النَّوى مِنْ مُرْهَفٍ حَسَنِ القَدِّ(١)

وكقوله :

بِلَوْنَاكَ ، أمَّا كَعْبُ عِرْضِكَ فى العُلا   فَعَالٍ ، ولكن خَدُّ مالكَ أسْفَلُ(٢)

فإنه لا مناسبة بين الرِّجْل والمال ، ولا بين الصوت والمال ، ولا معنى لتصييره للنَّوى قدّا ، ولا للعِرْض كعبا ، ولا للمال خدّا .

وقريب منه أيضاً قوله :

لَا تَسْقِنِى مَاءَ المَلَامِ فإنّنى   صَبٌّ قَدِ اسْتَعْذَبْتُ مَاءَ بُكَائِى(٣)

ويقال : إن مَخْلَداً الموصلىّ(٤) بعث إليه بقارورة يسأله أن يبعث له فيها قليلا من ماء الملام ، فقال لصاحبه : قل له يبعثْ إلىّ بريشة من جَناح الذّل لأستخرج بها من القارورة ما أبعثه إليه .

وهذا ظلم من أبي تمام لمخلد ، وما الأمرانِ سواء ، لأنّ الطائر إذا أعيا وتعب ذلّ وخفض جناحيه ، وكذلك الإنسان إذا استسلم ألقى بيديه ذُلًّا ، ويدُه جناحه ، فذاك هو الذى حسّن قوله تعالى : ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ ﴾ (٥) الا ترى أنه لو قال : واخفِضْ لهما ساق الذّل ، أو بطن الذُّلّ لم يكنْ مستحسناً !

* * *

ومن الاستعارة المستحسنة فى الكلام المنثور ، ما اختاره قُدامة بن جعفر فى كتابه " الخراج " نحو قول أبي الحسين جعفر بن محمد بن ثوابة فى جوابه لأبى الجيش خمارويه

(١) ديوانه ٢ : ١١٠ .   (٢) ديوانه ٣ : ٧٣ .

(٣) ديوانه ١ : ٢٥ .

(٤) هو مخلد بن بكار الموصلى ، وله مع أبي تمام أخبار ومساجلات ، ذكرها الصولى فى كتابه أخبار أبي تمام ٢٣٤ — ٢٤٣ .

(٥) سورة الإسراء ٢٤ .

ابن أحمد بن طولون عن المعتضد بالله، لما كتب بإنفاذ ابنته قَطْر الندى التي تزوّجها المعتضد، وذلك قول ابن ثوابة هذا: وأمّا الوديعةُ فهى بمنزلة ما انتقل من شِمالك إلى يمينك، عنايةً بها وحِياطة لها، ورعايةً لمودتك فيها.

وقال ابنُ ثوابة لمّا كتب هذا الكتاب لأبى القاسم عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير المعتضد: والله إنّ تسميتى إياها بالوديعة نصفُ البلاغة.

وذكر أحمدُ بن يوسف الكاتب رجلاً خلا بالمأمون، فقال: مازال يفتِلُه فى الذِّرْوة والغارِب حتى لفَتَه عن رأيه.

وقال إسحق بن إبراهيم الموصلىّ: النبيذ قَيْد الحديث.

وذكر بعضهم رجلا فذمّه، فقال: هو أملس[١] ليسَ فيه مستقرٌّ لخير ولا شر.

ورضىَ بعض الرؤساء عن رجل من موجِدة، ثم أقبل يوبّخه عليها، فقال: إنْ رأيت ألّا تخدش وجهَ رضاك بالتوبيخ فافعل.

وقال بعض الأعراب: خرجنا فى ليلةٍ حِنْدس[٢]، قد ألقتْ على الأرض أكارِعَها، فمحت صورة الأبدان؛ فما كنّا نتعارف إلا بالآذان.

وغزت حنيفة نُميراً، فأتبعتْهم نُمير فأتوْا عليهم، فقيل لرجل منهم: كيف صنع قومُك؟ قال: اتّبعوهم والله، وقد أحقَبوا كل جُمَالِيّة خَيْفَانة[٣]، فما زالوا يخصِفُون آثار المطىّ بحوافر الخيل حتى لحقوهم، فجعلوا المُرّان[٤] أرشيةَ الموت، فاستقوْا بها أرواحهم.

ومن كلامٍ لعبد الله بن المعتزّ، يصف القلم: يخدُم الإرادَة، ولا يملّ الاستزادة،

---

(١) ا: « إبليس » تحريف.
(٢) ليلة حندس: شديدة الظلمة.
(٣) أحقب البعير: وضع له الحقب؛ وهو حبل يشد به الرحل فى بطن البعير. والجمالية: الناقة الوثيقة، تشبه بالجمل فى خلقتها وشدتها وعظمها. والخيفانة: السريعة، شبهت بالجرادة السريعة.
(٤) حاشية ب: « المران: الرماح... ».

ويسكت واقفا ، وينطق سائرا ، على أرضٍ بياضها مظلم ، وسوادُها مضيء .

* * *

فأمّا القطب الراونديّ فقال :قوله عليه السلام : «شُقّوا أمواج الفتن بسفُن النجاة» معناه : كونوا مع أهل البيت لأنّهم سفن النجاة ، لقوله عليه السلام : « مثلُ أهل بيتى كسفينة نوح : مَنْ ركبها نجا ، ومَنْ تخلّف عنها غَرِق » .

ولقائل أن يقول : لا شبهةَ أنّ أهلَ البيت سفُنُ النّجاة ، ولكنّهم لم يُرادوا هاهنا بهذه اللفظة ؛ لأنّه لو كان ذلك هو المراد ، لكان قد أمر أبا سفيان والعباس بالكون مع أهل البيت ، ومرادُه الآن بنقْض ذلك ، لأنّه يأمر بالتقيّة وإظهار اتباع الذين عُقِد لهم الأمر ، ويرى أنّ الاستسلام هو المتعيّن ، فالذى قالَه الراونديّ لا يحتمله الكلامُ ولا يناسبه .

وقال أيضاً : التعريجُ على الشيء : الإقامة عليه ، يقال : عرّج فلان على المنزل ، إذا حبس نفسه عليه ، فالتقدير : عَرِّجوا على الاستقامة منصرِفين عن المنافرة .

ولقائل أن يقول:التعريج يُعَدّى تارة بـ«عن» وتارة بـ«على» ، فإذاعدّيته بعن أردت التجنّب والرفض،وإذا عدّيته بـ«على» أردت المقام والوقوف ؛ وكلامه عليه السلام معدّى بـ« عن » . قال : « وعرّجوا عن طريق المنافرة ».

وقال أيضاً : « آنس بالموت » أي أسَرُّ به ، وليس بتفسير صحيح ؛ بل هو من الأنس ضدّ الوحشة .

* * *

[اختلاف الرأي فى الخلافة بعد وفاة رسول الله]

لمّا قبض رسول الله صلى الله عليه وآله ، واشتغل علىّ عليه السلام بغسله ودفنه ، وبُويع أبو بكر ؛ خلا الزبير وأبو سفيان وجماعة من المهاجرين بعبّاس وعلىّ عليه

السلام لإجالة الرأى ، وتكلّموا بكلام يقتضى الاستنهاضَ والتهييج ، فقال العباس رضى الله عنه : قد سمعنا قولَكم فلا لِقلّة نستعين بكم ، ولا لِظِنّةٍ نترك آراءكم ، فأمهلونا نراجع الفكر ؛ فإن يكنْ لنا من الإثم مخرج يصرّ بنا وبهم الحقّ صَرِيرَ الجُدْجُد(١) ، ونبسط إلى المجد أكفًّا لانقبضها أو نبلغَ المدى، وإن تكنِ الأخرى ، فلا لِقلّة فى العدد ولا لوَهَنٍ فى الأيْد ، والله لولا أنّ الإسلام قيّد الفتك،لَدَكْدَكْت جنادلَ صخر يسمع اصطكاكها من المحل العلىّ .

فحلّ على عليه السلام حَبْوته ، وقال : الصبْر حلم ، والتقوى دين ، والحجّة محمد ، والطريق الصراط . أيها الناس شُقُّوا أمواج الفتن ... الخطبة . ثمّ نهض فدخل إلى منزله وافترق القوم .

* * *

وقال البَراء بن عازب:لم أزل لبنى هاشم محبًّا،فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم خِفْتُ أن تمالأ قريش على إخراج هذا الأمر عنهم ، فأخذنى مايأخذ الوالهة العَجُول ، مع مافى نفسى من الحُزْن لوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلّم،فكنت أتردّد إلى بنى هاشم وهم عند النبىّ صلى الله عليه وسلّم فى الحجرة،وأتفقّد وجوهَ قريش ، فإنّى كذلك إذْ فقدت أبا بكر وعمر ، وإذا قائل يقول : القومُ فى سقيفة بنى ساعدة ، وإذا قائل آخر يقول : قد بُويع أبو بكر ، فلم ألبث ؛ وإذا أنا بأبى بكر قد أقبل ومعه عمر وأبو عبيدة وجماعة من أصحاب السَقيفة ، وهم محتجزون بالأُزُر الصنعانيّة لا يمرّون بأحد إلا خبطوه ، وقدّموه فمدّوا يده فمسحوها على يد أبى بكر يبايعه ؛ شاء ذلك أو أبى ؛ فأنكرتُ عقلى ، وخرجت أشتدُّ حتى انتهيت إلى بنى هاشم ، والباب مغلق ، فضربت عليهم الباب ضربا عنيفا ، وقلت : قد بايع الناس لأبى بكر بن أبى قُحافة . فقال العباس : تَرِبَتْ أيديكم إلى آخر الدهر ؛ أما إنّى قد أمرتُكم فعصيْتُمونى : فمكثتُ أكابِد مافى نفسى،ورأيت

(١) الجدجد : دويبة كالجندب .

فى الليل المِقداد وسلمان وأبا ذَرّ وعبادة بن الصامت وأبا الهيثم بن التَّيِّهان وحُذَيفة وعمّاراً، وهم يريدون أن يُعيدوا الأمرَ شورى بين المهاجرين .

وبلغ ذلك أبا بكر وعمر ، فأرسلا إلى أبى عبيدة وإلى المغيرة بن شعبة ، فسألاهما عن الرأى ، فقال المغيرة : الرأىُ أن تلقوا العباسَ فتجعلوا له ولولده فى هذه الإمْرة نصيبا ، ليقطعوا بذلك ناحية علىّ بن أبى طالب .

فانطلق أبو بكر وعمر وأبو عبيدة والمغيرة؛ حتى دخلوا على العباس، وذلك فى الليلة الثانية من وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله ، فحمِد أبو بكر الله وأثنى عليه ، وقال :

إنّ الله ابتعث لكم محمدا صلى الله عليه وسلّم نبيًّا، وللمؤمنين وليًّا؛ فمنّ الله عليهم بكونه بين ظَهْرانيهم ؛ حتى اختار له ماعنده ؛ فخلّى على الناس أمورَهم ليختاروا لأنفسهم متفقين غير مختلفين ، فاختارونى عليهم والياً ، ولأمورهم راعياً ، فتولّيت ذلك ، وما أخاف بعونِ الله وتسديده وَهْناً ولا حَيْرة ولا جُبْنا ، وما توفيقى إلّا بالله عليه توكّلت وإليه أنيب. وما أنفكُّ يبلغنى عن طاعن يقول بخلاف قول عامّة المسلمين ، يتخذكم لجأ فتكونون حصنه المنيع ، وخطبه البديع ، فإمّا دخلتم فيما دخل فيه الناس ، أو صرفتموهم عمّا مالوا إليه . فقد جئناك ، ونحن نريد أن نجعل لك فى هذا الأمر نصيبا ، ولمن بعدك من عقبك ، إذ كنت عمّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم، وإن كان المسلمون قد رأوا مكانك من رسول الله صلى الله عليه وآله ، ومكان أهلِك ، ثم عدلوا بهذا الأمر عنكم . وعلى رِسْلِكم بنى هاشم ؛ فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله منّا ومنكم .

فاعترض كلامه عمر، وخرج إلى مذهبه فى الخشونة والوعيد وإتيان الأمر من أصعب جهاته ، فقال : إى والله . وأخرى : إنّا لم نأتكم حاجةً إليكم ، ولكنْ كرهنا أن يكونَ الطعنُ فيما اجتمع عليه المسلمون منكم ، فيتفاقمَ الخطب بكم وبهم . فانظروا لأنفسكم ولعامّتهم . ثم سكت .

فتكلم العباس ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : إنّ الله ابتعث محمداً نبيًّا كما وصفت ووليًّا للمؤمنين ، فمنّ الله به على أمته حتى اختار له ما عنده ، فخلّى الناس على أمرهم ليختاروا لأنفسهم ، مصيبين للحقّ ، مائلين عن زَيْغ الهوى ؛ فإن كنت برسول الله طلبت فحقّنا أخذت ، وإن كنت بالمؤمنين فنحن منهم ؛ ما تقدّمنا في أمركم فرَطا ، ولا حللنا وسطا ، ولا نزحنا شحَطا ؛ فإن كان هـذا الأمرُ يجب لك بالمؤمنين فما وجب إذ كنا كارهين . وما أبعد قولك : إنّهم طعنوا من قولك إنهم مالوا إليك ! وأما ما بذلت لنا ، فإن يكنْ حقّك أعطيتناه فأمسِكه عليك ، وإن يكن حقّ المؤمنين فليس لك أن تحكم فيه ، وإن يكن حقّنا لم نرض لك ببعضه دون بعض . وما أقول هذا أروم صرفَك عمّا دخلتَ فيه ، ولكن للحجّة نصيبها من البيان . وأما قولك : إن رسول الله صلى الله عليه وآله منّا ومنكم ، فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله من شجرة نحن أغصانها ، وأنتم جيرانها . وأما قولك يا عمر : إنّك تخاف الناس علينا ، فهذا الذي قدمتموه أوّل ذلك ، وبالله المستعان .

***

لما اجتمع المهاجرون على بَيْعة أبي بكر ، أقبل أبو سفيان وهو يقول : أما والله إني لأرَى عجاجة لا يطفئها إلا الدم ؛ يالَعبد مناف ، فيم أبو بكر من أمركم ! أين المستضعفان؟أين الأذلّان ؟يعني عليا والعباس. ما بالُ هذا الأمر في أقلّ حيّ من قريش . ثم قال لعليّ :ابسط يدك أبايعك ،فوالله إن شئت لأملأنّها على أبي فصيل – يعني أبا بكر– خيْلا ورَجلا . فامتنع عليه عليّ عليه السلام ؛ فلما يئس منه قام عنه وهو ينشد شعر المتلمّس :

وَلَا يُقِيمُ عَلَى ضَيْمٍ يُرَادُ بِهِ   إِلَّا الْأَذَلَّانِ، عَيْرُ الحيّ والوتِدُ[1]
هذا على الخسفِ مربوط برُمّتِهِ   وَذَا يُشَجُّ فلا يَرْثِي له أَحَـــدُ[2]

***

قيل لأبى قُحافة يوم ولى الأمرَ ابنُه : قد ولى ابنك الخلافة ، فقرأ : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ ﴾[3] ، ثم قال: لم ولّوه ؟ قالوا : لسنّه ، قال : أنا أسنّ منه .

نازع أبو سفيان أبا بكر فى أمر فأغلظ له أبو بكر ، فقال له أبو قحافة : يابنىّ ، أتقول هذا لأبى سُفيان شيخِ البطحاء ! قال : إن الله تعالى رفع بالإسلام بيوتا ، ووضع بيوتا، فكان مما رفع بيتُك يا أبت ، ومما وضع بيتُ أبى سفيان .

---

(١) معاهد التنصيص ٢ : ٣٠٦ . والعير هنا : الحمار .
(٢) الخسف : النقيصة . والرمة : القطعة من الحبل .
(٣) سورة آل عمران ٢٦ .

(٦)

الأصْـلُ :

ومن كلام له لما أشير عليه بألا يتبع طلحة والزبير ولا يُرْصد لهما القتال :

وَٱللهِ لَا أَكُونُ كَالضَّبُعِ تَنَامُ عَلَى طُولِ ٱللَّدْمِ ؛ حَتَّى يَصِلَ إِلَيْهَا طَالِبُهَا، وَيَخْتِلَهَا رَاصِدُهَا ؛ وَلٰكِنِّي أَضْرِبُ بِالْمُقْبِلِ إِلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُدْبِرَ عَنْهُ ، وَبِالسَّامِعِ ٱلْمُطِيعِ العَاصِيَ ٱلْمُرِيبَ أَبَدًا ، حَتَّى يَأْتِيَ عَلَيَّ يَوْمِي ؛ فَوَٱللهِ مَازِلْتُ مَدْفُوعًا عَنْ حَقِّي ، مُسْتَأْثَرًا عَلَيَّ[1] مُنْذُ قَبَضَ ٱللهُ نَبِيَّهُ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ حَتَّى يَوْمِ ٱلنَّاسِ هَذَا .

* * *

الشَّـرْحُ :

يقال : أرصد له بشرّ ، أى أعدّ له وهيأه ؛ وفى الحديث : « إلا أنْ أرصُدَه لِدَيْنٍ علىّ »[2] . واللَّدْم : صوت الحجر أو العصا أو غيرهما، تضرب به الأرض ضربا ليس بشديد.

ولما شرح الراوندىّ هذه اللفظات ، قال : وفى الحديث : « والله لا أكون مثل الضبُع تسمعُ اللَّدْم حتى تخرج فتُصاد » ، وقد كان ــ سامحه الله ــ وقت تصنيفه الشرح ينظر فى ''صحاح الجوهرىّ'' ،[3] وينقل منها ، فنقل هذا الحديث ظنًّا منه أنه حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله ، وليس كما ظنّ ، بل الحديث الذى أشار إليه الجوهرىُّ هو حديث علىّ عليه السلام الذى نحن بصدد تفسيره .

ويختلها راصدها : يخدعها مترقبها ، ختلتُ فلانا : خدعته . ورصدته : ترقبته . ومستأثَراً علىّ ، أى مستبَدًّا دونى بالأمر ، والاسم الأثَرة ، وفى الحديث : إنه صلى الله عليه وآله ،

(١) مخطوطة النهج : « مُسْتَأْثَرًا عَلَيَّ غَيْرِي » .

(٢) نقله ابن الأثير فى النهاية (٢ : ٨٢) عن أبى ذر : قال له عليه الصلاة والسلام : « ما أحب عندى مثل أحد ذهبا فأنفقه فى سبيل الله ، وتمسى ثالثة وعندى منه دينار ؛ إلا دينارا أرصده لدين » .

(٣) صحاح الجوهرى ٥ : ٢٠٢٩

قال للأنصار: «ستلقون بعدى أثَرَة، فإذا كان ذلك فاصبروا حتى تَرِدُوا علَىَّ الحوض»[١].

والعرب تقول فى رموزها وأمثالها: أحمق من الضبُع[٢]؛ ويزعمون أنّ الصائد يدخل عليها وِجارَها، فيقول لها: أطرق أمّ طُرَيْق، خامرى أمّ عامر، ويكرر ذلك عليها مراراً. معنى أطرِقى أمّ طُرَيْق طأطِئى رأسك، وكناها أمّ طُرَيْق لكثرة إطراقها، على «فُعَيْل» كالقُبَيْط للناطف، والعُلَّيق لنبْت. ومعنى «خامرى» الزمى وجارك واستترى فيه، خامر الرجلُ منزلَه إذا لزمه. قالوا: فتلجأ إلى أقصى مغارها وتتقبّض، فيقول: أمّ عامر ليست فى وِجارها، أم عامر نائمة، فتمدّ يديْها ورجليها وتستلقى، فيدخل عليها فيوثقها، وهو يقول لها: أبشرى أمّ عامر بِكَمّ[٣] الرجال، أبشرى أم عامر بشاء هزلى، وجرادٍ عَظْلى[٤]، أى يركب بعضه بعضا، فتشدّ عراقيبَها فلا تتحرك، ولو شاءت أن تقتله لأمكنها، قال الكميت:

فعْلَ المُقِرَّة للمقالة خامِرى ياأمَّ عامرْ[٥]

وقال الشَّنْفَرى:

لا تَقْبُرُونِى إن قبْرِى مُحَرَّمٌ عليكمْ ولكِنْ خامرى أمّ عامرِ[٦]
إذا مامضى رأسى وفى الرأس أكثرى وغُودِرَ عِنْدَ الملتقى ثَمّ سائرى[٧]
هنالك لا أرجُو حياةً تَسرُّنى سَجِيسَ الليالى مُبْسَلا بالجرائرِ[٨]

(١) ذكره ابن الأثير فى النهاية (١: ١٥)، وقال: «الأثرة، بفتح الهمزة والثاء الاسم من آثر يؤثر إيثارا؛ إذا أعطى؛ أراد أنه يستأثر عليكم فيفضل غيركم فى نصيبه فى الفئ».

(٢) المثل فى جمهرة الأمثال ١: ٢٧٦

(٣) كم: جمع كمة؛ وهى قلفة الذكر، وفى جمهرة الأمثال: «كمر»؛ جمع كمرة؛ وهى رأس الذكر.

(٤) فى اللسان: «تعاظلت الجراد، إذا تسافدت» وأورد المثل.

(٥) من أبيات فى معانى ابن قتيبة ١: ٢١٤

(٦) ديوانه ٣٦ (من مجموعة الطرائف الأدبية)، وفيه: «أبشرى أم عامر»

(٧) ديوانه:

* إذا احتملوا رأسى وفى الرأس أكثرى *

(٨) سجيس الليالى؛ أى أبدا؛ ومبسلا، أى مسلما؛ كذا فسره صاحب اللسان فى (٧: ٨٠٤)، (١٣: ٥٧)، واستشهد بالبيت.

أوصاهم ألّا يدفنوه إذا قُتل ، وقال: اجعلونى أُكُلًا للسباع ، كالشىء الذى يرغَبُ به الضبُع فى الخروج ؛ وتقدير الكلام : لا تقبرونى ولكن اجعلونى كالتى يقال لها : خامرِى أمَّ عامر ، وهى الضبُع ، فإنها لا تقبَر . ويمكن أن يقالَ أيضا : أراد لا تقبرونى واجعلونى فَريسة للتى يقال لها : خامرى أم عامر ؛ لأنها تأكل الجيفَ وأشلاء القتلى والموتى .

وقال أبو عبيدة : يأتى الصائد فَيضرِب بعقِبه الأرض عند باب مَغارها ضربا خفيفاً ؛ وذلك هو اللَّدْم ، ويقول: خامرى أم عامر ؛ مرارا، بصوت ليس بشديد ، فتنام على ذلك، فيدخل إليها ، فيجعل الحَبْل فى عرقوبها ويجرّها فيخرجها . يقول : لا أقعدُ عن الحربِ والانتصار لنفسى وسلطانى ، فيكون حالى مع القوم المشار إليهم حال الضَّبُع مع صائدها ، فأكون قد أسلمتُ نفسى ، فعلَ العاجز الأحمق، ولكنّى أحارب مَنْ عصانى بمن أطاعنى حتى أموت ، ثم عقّب ذلك بقوله: إن الاستئثار علىّ والتغلّب أمر لم يتجدّد الآن؛ ولكنه كان منذ قبض رسول الله صلى الله عليه وسلّم .

* * *

[طلحة والزبير ونسبهما]

وطلحة هو أبو محمد طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة . أبوه ابن عمّ أبى بكر ، وأمه الصَّعبة بنت الحضرمىّ ، وكانت قبل أن تكون عند عبيد الله تحت أبى سفيان صخر بن حرب ، فطلقها ثم تبعتْها نفسُه ، فقال فيها شعراً أوله :

وإنّى وصَعْبَــةَ فيما أرَى   بَعيدانِ والوُدُّ ودٌّ قريبُ

فى أبيات مشهورة. وطلحة أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، وأحدُ أصحاب الشورى ، وكان له فى الدِّفاع عن رسول الله صلى الله عليه وآله يوم أحُد أثر عظيم ، وشَلّت بعضُ

أصابعه يومئذ وقى رسول الله صلى الله عليه وآله بيده من سيوف المشركين، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله يومئذ : « اليوم أوْجَب طلحة الجنة »[1] .

والزّبير هو أبو عبد الله الزُّبير بن العوام بن خُوَيلِد بن أسد بن عبدالعزى بن قصيّ، أمه صفيّة بنت عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، عمة رسول الله صلى الله عليه وآله ، وهو أحد العشرة أيضاً، وأحدُ الستة، وممن ثبَت مع رسول الله صلى الله عليه وآله يوم أُحُد وأبلى بلاء حسنا، وقال النبيّ صلى الله عليه وآله: « لكل نبيّ حواريّ وحواريّ الزبير». والحواريّ : الخالصة ، تقول : فلان خالصة فلان ، وخُلَصانه وحواريّه ، أي شديد الاختصاص به والاستخلاص له .

***

[خروج طارق بن شهاب لاستقبال عليّ بن أبي طالب]

خرج طارق بن شهاب الأحمسيّ يستقبل عليا عليه السلام ، وقد صار بالرَّبذة طالبا عائشة وأصحابها، وكان طارق من صحابة عليّ عليه السلام وشيعته، قال : فسألتُ عنه قبل أن ألقاه : ما أقدمه ؟ فقيل : خالفه طلحة والزبير وعائشة فأتوا البصرة ، فقلت في نفسي : إنّها الحرب ! أفأقاتل أمّ المؤمنين ، وحواريّ رسول الله صلى الله عليه وآله ! إنّ هذا لعظيم ، ثم قلت : أأدَعُ عليًا ، وهو أوّلُ المؤمنين إيمانًا بالله وابنُ عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله ووصيه ! هذا أعظم . ثم أتيتُه فسلّمتُ عليه ، ثم جلست إليه ، فقصّ عليّ قصة القوم وقصّته ، ثم صلى بنا الظهر ، فلما انفتل جاءه الحسن ابنُه عليهما السلام ، فبكى بين يديه ، قال : مابالك ؟ قال : أبكى لقتلك غداً بمَضيعة ولا ناصر لك . أما إني أمرتك فعصيتَني ، ثم أمرتُك فعصيتَني . فقال عليه السلام : لا تزال تَحِنّ حنين[2] الأمَة ! ما الذى أمرتَني به فعصيتُك ! قال : أمرتُك حين أحاط الناس بعثمان أن تعتزل ، فإنّ الناس إذا قتلوه طلبوك أينما كنت حتى يبايعوك ، فلم تفعل. ثم أمرتُك لما قُتل عثمان ألّا توافقهم على

(١) أوجب، أي عمل عملا أوجب له الجنة . وانظر النهاية لابن الأثير ٤ : ١٩٤

(٢) الحنين : تردد البكاء حتى يكون في الصوت غنة . والخبر في اللسان (خنن) وفي الأصول : « حنين » ، تحريف .

البيعة حتى يجتمعَ الناس ويأتيَكَ وفودُ العرب فلم تفعل . ثم خالفك هؤلاء القوم، فأمرتُك ألّا تخرج من المدينة ، وأنْ تدَعَهم وشأنهم، فإن اجتمعتْ عليك الأمة فذاك، وإلّا رضيتَ بقضاء الله . فقال عليه السلام : والله لا أكون كالضَّبُع تنام على اللّدْم حتى يدخلَ إليها طالبها فيعلّق الحبل برجلها، ويقول لها : دَبابِ دَبابِ ، حتى يُقطع عُرقُوبها ... وذكر تمام الفصل . فكان طارق بن شهاب يبكي إذا ذكر هذا الحديث .

دَبابِ : اسم الضَّبع ، مبني على الكسر كبَرَاحِ اسم للشمس .

(٧)

الأصْلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

اتَّخَذُوا الشَّيْطَانَ لِأَمْرِهِمْ مِلَاكاً، وَاتَّخَذَهُمْ لَهُ أَشْرَاكاً، فَبَاضَ وَفَرَّخَ فِي صُدُورِهِمْ، وَدَبَّ وَدَرَجَ فِي حُجُورِهِمْ؛ فَنَظَرَ بِأَعْيُنِهِمْ، وَنَطَقَ بِأَلْسِنَتِهِمْ، فَرَكِبَ بِهِمُ الزَّلَلَ، وَزَيَّنَ لَهُمُ الْخَطَلَ؛ فِعْلَ مَنْ قَدْ شَرِكَهُ الشَّيْطَانُ فِي سُلْطَانِهِ، وَنَطَقَ بِالْبَاطِلِ عَلَى لِسَانِهِ.

* * *

الشَّرْحُ :

يجوز أن يكون أشْرَاكاً جمع شريك، كشريف وأشراف. ويجوز أن يكون جمع شَرَك، كجَبَل وأجبال، والمعنى بالاعتبارين مختلف.

وباض وفرّخ في صدورهم، استعارة للوسوسة والإغواء، ومرادُه طولُ مكثه وإقامته عليهم، لأنّ الطائر لا يبيض ويفرّخ إلا في الأعشاش التي هي وطنه ومسكنه. ودبّ ودرج في حُجورهم، أي ربّوا الباطل كما يربّي الوالدان الولد في حجورهما. ثم ذكر أنّه لشدة اتحاده بهم وامتزاجه صار كمن ينظر بأعينهم، وينطق بألسنتهم، أي صار الاثنان كالواحد، قال أبو الطيّب :

ما الخِــلُّ إلاّ مَنْ أودّ بقلبِه وأرَى بطَرْفٍ لا يَرَى بِسَوَائِهِ[1]

وقال آخر :

كُنّا من المساعــدَهْ نَحْيا برُوحٍ واحدهْ

(١) ديوانه ١ : ٤

وقال آخر :

جُبِلَتْ نَفسُكَ فى نفسى كما تُجْبَلُ الخمرةُ بالماء الزلالِ

فإذا مَسَّكَ شىء مَسَّنِى فإذا أنتَ أنا فى كلِّ حالِ

والخطل: القول الفاسد. ويجوز : أشرَكه الشيطان فى سلطانه، بالهمزة ، وشرِكه أيضاً؛ • بغير الهمزة أفصح .

(٨)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام يعنى به الزبير فى حال اقتضت ذلك :

يَزْعُمُ أَنَّهُ قَدْ بَايَعَ بِيَدِهِ وَلَمْ يُبَايِعْ بِقَلْبِهِ ؛ فَقَدْ أَقَرَّ بِالْبَيْعَةِ، وَادَّعَى الْوَلِيجَةَ. فَلْيَأْتِ عَلَيْهَا بِأَمْرٍ يُعْرَفُ ، وَإِلاَّ فَلْيَدْخُلْ فِيمَا خَرَجَ مِنْهُ .

***

الشرح :

الوليجة : البطانة،والأمر يُسَرّ ويكتم،قال الله سبحانه : ﴿ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ﴾ (١) . كان الزبير يقول : بايعتُ بيدى لا بقلبى ؛ وكان يدّعى تارة أنه أُكره ، ويدّعى تارة أنه ورّى فى البيعة تورية،ونوَى دخيلة، وأتى بمعاريض لا تُحمل على ظاهرها،فقال عليه السلام : هذا الكلام إقرارٌ منه بالبيعة وادعاء أمر آخر لم يُقِمْ عليه دليلا ، ولم ينصب له برهانا،فإمّا أن يقيم دليلا على فساد البيعة الظاهرة، وأنها غير لازمة له ، وإمّا أن يعاود طاعته .

قال علىّ عليه السلام للزّبير يوم بايعه : إنّى لخائف أن تغدِر بى وتنكث بيعتى،قال: لا تخافنّ ؛ فإنّ ذلك لا يكون منى أبدا ، فقال عليه السلام : فلى الله عليك بذلك راعٍ وكفيل . قال : نعم ، الله لك علىّ بذلك راعٍ وكفيل .

***

[أمر طلحة والزبير مع علىّ بن أبى طالب بعد بيعتهما له]

لما بويع علىٌّ عليه السلام كتب إلى معاوية : أمّا بعدُ ، فإنّ الناس قتلوا عثمان عَنْ غير

---

(١) سورة التوبة ١٦

مشورة منّى ، وبايعونى عن مشورة منهم واجتماع ، فإذا أتاك كتابى فبايع لى ، وأوفِدْ إلىّ أشراف أهل الشام قِبَلك .

فلما قدم رسوله على معاوية ، وقرأ كتابه ، بعث رجلا من بنى عُمَيْس ، وكتب معه كتابا إلى الزبير بن العوام ، وفيه :

بسم الله الرحمن الرحيم . لعبد الله الزبير أمير المؤمنين من معاوية بن أبى سفيان : سلام عليك ، أمّا بعد ، فإنى قد بايعتُ لكَ أهل الشام ، فأجابوا واستوسقوا(١) كما يستوسق الجَلَب ، فدونك الكوفة والبَصْرة ، لا يسبقك إليها ابن أبى طالب ، فإنّه لا شيء بعد هذين المِصْرَيْنِ ، وقد بايعتُ لطلحة بن عبيد الله من بعدك ، فأظهِرا الطلب بدم عثمان ، وادْعُوَا الناس إلى ذلك ، ولْيَكُنْ منكما الجِدّ والتشمير ، أظفركما الله ، وخذل مناوئكما !

فلما وصل هذا الكتابُ إلى الزُّبير سُرّ به ، وأعلم به طلحة وأقرأه إياه ، فلم يشكّا فى النُّصح لهما من قِبَل معاوية ، وأجمعا عند ذلك على خِلاف علىّ عليه السلام .

***

جاء الزبيرُ وطلحة إلى علىّ عليه السلام بعد البيعة بأيام ، فقالا له : يا أمير المؤمنين ، قد رأيتَ ما كنّا فيه من الجفوة فى ولاية عثمان كلّها ، وعلمت رأىَ عثمان كان فى بنى أمية ، وقد ولّاك الله الخلافة مِنْ بعده ، فولّنا بعضَ أعمالك ، فقال لهما : ارضيا بقسْم الله لكما ، حتى أرى رأيى ، واعلما أنّى لا أشرك فى أمانتى إلّا من أرضى بدينه وأمانته من أصحابى ، ومن قد عرفت دخيلته .

فانصرفا عنه وقد دَخَلهما اليأس ، فاستأذَناه فى العمرة .

---

(٢) استوسقوا : استجمعوا وانضموا . وفى نهاية ابن الأثير : « ومنه حديث أحد : استوسقوا كما يستوسق جرب الغنم ، أى استجمعوا » .

طلب طلحة والزبير من عليّ عليه السلام أن يولّيهما المِصْرين: البصرة والكوفة، فقال: حتى أنظر. ثم استشار المغيرة بن شعبة، فقال له: أرى أن تولّيهما إلى أن يستقيم لك أمر الناس. فخلا بابن عباس، وقال: ما تَرَى؟ قال: يا أمير المؤمنين، إنّ الكوفة والبصرة عَيْن الخلافة، وبهما كنوزُ الرجال، ومكان طلحة والزبير من الإسلام ما قد علمتَ، ولستُ آمنهما إن وليّتهما أنْ يُحْدِثا أمرا. فأخذ عليّ عليه السلام برأى ابن عباس. وقد كان استشار المغيرة أيضا فى أمر معاوية، فقال له: أرى إقرارَه على الشام، وأن تبعثَ إليه بعده إلى أن يسكنَ شَغْبُ الناس، ولك بعدُ رأيك. فلم يأخذ برأيه.

فقال المغيرة بعد ذلك: والله ما نصحتُه قبلها، ولا أنصحه بَعْدَها ما بقيت.

***

دخل الزبير وطلحة على عليّ عليه السلام، فاستأذناه فى العمرة، فقال: ما العمرةَ تريدان؟ فحلفا له بالله أنهما ما يريدان غيرَ العمرة، فقال لهما: ما العمرةَ تريدان، وإنما تريدان الغَدْرة ونَكْث البَيْعة؟ فحلفا بالله ما الخلافَ عليه ولا نكْث بيعةٍ يريدان، وما رأيُهما غير العمرة. قال لهما: فأعِيدا البيعةَ لى ثانية، فأعاداها بأشدِّ ما يكون من الأيمان والمواثيق، فأذِن لهما، فلما خرجا من عنده، قال لمن كان حاضرا: والله لا ترونّهما إلا فى فتنة يقتتلان فيها. قالوا: يا أمير المؤمنين، فمُرْ بردِّهما عليك، قال: لِيَقْضِيَ الله أمرا كان مفعولا.

***

لما خرج الزبير وطلحة من المدينة إلى مكّة لم يلقيا أحدا إلا وقالا له: ليس لعليّ فى أعناقنا بَيْعة، وإنّما بايعناه مكرَهين. فبلغ عليا عليه السلام قولهما، فقال: أبعدهما الله وأغربَ[1] دارهما! أما والله لقد علمتُ أنّهما سيقتُلان أنفسَهما أخبث مقتل، ويأتيان مَنْ

---

(١) يقال: أغرب داره: أبعدها.

وردا عليه بأشأم يوم ، والله ما العُمْرَةَ يريدان ، ولقد أتيانى بوجهَىْ فاجرين ، ورجعا بوجهَىْ غادرين ناكثين ، والله لا يلقيانني بعد اليوم إلا فى كَتيبة خَشْناء[1] ، يقتُلان فيها أنفسهما ، فبُعداً لهما وسحقاً !

* * *

وذكر أبو مخنف فى "كتاب الجمل" أنّ عليًّا عليه السلام خطب لما سار الزبير وطلحة من مكة ومعهما عائشة يريدون البَصْرة ، فقال : أيها الناس ، إنّ عائشة سارت إلى البصرة ، ومعها طلحة والزبير ، وكلٌّ منهما يرى الأمرَ له دون صاحبه ، أما طلحةُ فابنُ عمِّها ، وأما الزبير فَخَتَنُها ، والله لو ظفروا بما أرادوا — ولن ينالوا ذلك أبدا — ليضربنّ أحدُهما عنقَ صاحبه بعد تنازع منهما شديد . والله إنّ راكبةَ الجمل الأحمر ما تقطَع عقبة ولا تحلّ عُقْدة إلا فى معصية الله وسَخَطه ، حتى توردَ نفسها ومَنْ معها موارد الهلكة ؛ أى والله ليَقتلَنّ ثلثهم ، وليهربنّ ثلثهم ، وليتوبنّ ثلثهم ، وإنها التى تنبحُها كلاب الحوءب ، وإنهما ليعلمان أنهما مخطئان . وربّ عالمٍ قتله جهلُه ، ومعه علمه لا ينفعه ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ! فقد قامت الفتنة فيها الفئة الباغية ، أين المحتسبون ؟ أين المؤمنون ؟ مالى ولقريش ! أما والله لقد قتلتهم كافرين ، ولأقتلنّهم مفتونين ! وما لنا إلى عائشة من ذَنْب إلا أنا أدخلناها فى حَيِّزنا . والله لأبْقُرنّ الباطل ، حتى يَظهر الحقّ من خاصِرته ، فقل لقريش فلتضج ضجيجَها . ثم نزل .

* * *

برز علىٌّ عليه السلام يوم الجمل ، ونادى بالزُّبير : يا أبا عبد الله ، مرارا ، فخرج الزبير ، فتقاربا حتى اختلفتْ أعناقُ خيلهما ، فقال له علىٌّ عليه السلام : إنما دعوتُك لأذكِّرك حديثا قاله لِى ولك رسول الله صلى الله عليه ؛ أتذكر يومَ رآك وأنت معتنِق ، فقال لك :

---

(١) كتيبة خشناء ، أى كثيرة السلاح خشنته .

«أتحبه» ؟ قلت : ومالى لا أحبّه وهو أخى وابن خالى ! فقال : «أما إنك ستحارب به وأنت ظالم له» . فاسترجع الزبير ، وقال : أذكرتنى ما أنسانيه الدّهر ، ورجع إلى صفوفه . فقال له عبد الله ابنه : لقد رجعتَ إلينا بغير الوجه الذى فارقتنا به ! فقال : أذكرنى علىّ حديثاً أنسانيه الدهر فلا أحاربُه أبدا ، وإنى لراجع وتاركُكم منذ اليوم . فقال له عبد الله : ما أراك إلا جُبُنت عن سيوف بنى عبد المطّلب ، إنها لَسُيوف حِداد ، تحملها فتية أنجاد ؛ فقال الزبير : ويلك ! أتهيجُنى على حرْبه ! أما إنى قد حلفت ألا أحاربَه ، قال : كفِّرْ عن يمينك ؛ لا تتحدث نساء قريش أنك جبنت ، وما كنت جبانا ، فقال الزبير : غلامى مكحولٌ حرّ كفارة عن يمينى ، ثم أنصلَ(١) سِنان رمحه ، وحمل على عسكر علىّ عليه السلام برُمْح لا سنان له ، فقال على عليه السلام : أفرجوا له ، فإنه مُحْرَج ، ثم عاد إلى أصحابه ، ثم حمل ثانية ، ثم ثالثة ، ثم قال لابنه : أجبنا ويلك ترى ! فقال : لقد أعذرت .

* * *

لما أذكر علىّ عليه السلام الزبيرَ بما أذكره به ورجع الزبير ، قال :

نَادَى علىٌّ بأمر لستُ أُنكِرُه ... وَكَانَ عمر أبيك الخير مُذْ حِينِ

فَقُلْتُ حسبك من عَذْلٍ أبا حَسَنٍ ... بَعْضُ الذى قلتَ مُنذ اليوم يَكْفِينِى

تَرْكُ الأمور التى تُخشَى مَغَبّتُها ... والله أمثلُ فى الدّنيا وفى الدين

فَاخْتَرْتُ عارا على نارٍ مؤجّجة ... أنى يقومُ لَهَا خَلْقٌ مِنَ الطِّين !

* * *

لما خرج علىّ عليه السلام لطلب الزبير خرج حاسرا ، وخرج إليه الزبير دارعاً مُدَجّجا ، فقال للزبير : يا أبا عبدِ الله ، قد لَعَمْرى أعددْتَ سلاحا ، وحبذا فهل أعددت عند الله عذرا ؟ فقال الزبير : إنّ مردّنا إلى الله ، قال علىٌّ عليه السلام : ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴾ (٢) ، ثم أذكره الخبر ، فلما كرّ

(١) أنصل سنان رمحه ، أى نزعه .

(٢) سورة النور ٢٥

الزبيرُ راجعاً إلى أصحابه نادما واجما ، رجع علىٌّ عليه السلام إلى أصحابه جذِلاً مسرورا ، فقال له أصحابه : يا أميرَ المؤمنين ، تبرز إلى الزبير حاسرا ، وهو شاكٍ[1] فى السلاح ، وأنت تعرف شجاعته ! قال : إنّه ليس بقاتلى ، إنّما يقتلُنى رجل خامل الذكر ، ضئيل النسب ، غيلةً فى غير مأقِطِ[2] حرب ، ولا معركة رجال ، وَيلُمّهُ أشقى البشر ! ليودّنَ أنّ أمه هبِلت به ! أما إنّه وأحمر ثمود لمقرونان فى قَرَن .

* * *

لمّا انصرف الزبير عن حَرْب علىّ عليه السلام مرّ بوادى السباع ، والأحنف بن قيس هناك فى جمع من بنى تميم قد اعتزل الفريقين ، فأخبِر الأحنف بمرور الزُّبير ، فقال رافعاً صوته : ما أصنع بالزبير ! لفّ غارّيْن[3] من المسلمين ، حتى أخذت السيوفُ منهما مأخذها ، انسلّ وتركهم . أما إنّه لخليق بالقتل ، قتله الله ! فاتبعه عمرو بن جُرْموز — وكان فاتكاً — فلما قرُب منه وقف الزبير ، وقال : ما شأنك ؟ قال : جئت لأسألَك عن أمر الناس ، قال الزبير : إنى تركتُهم قياما فى الرّكَب ، يضرب بعضُهم وجهَ بعض بالسيف . فسار ابن جُرموز معه ، وكلٌّ واحد منهما يتّقى الآخر . فلما حضرت الصلاة ، قال الزبير : ياهذا ، إنّا نريد أن نصلّيَ .

فقال ابن جرموز : وأنا أريد ذلك ، فقال الزبير : فتؤمّنى وأؤمنك ؟ قال : نعم ، فثنى الزبير رجلَه ، وأخذ وضوءه . فلما قام إلى الصلاة شد ابن جُرموز عليه فقتله ، وأخذ رأسه وخاتمه وسيفه ، وحثا عليه ترابا يسيرا ، ورجع إلى الأحنف ، فأخبره ، فقال : والله ما أدرى أسأت أم أحسنت ؟ اذهب إلى علىّ عليه السلام فأخبره ، فجاء إلى علىّ عليه السلام ، فقال للآذن : قل له : عمرو بن جُرْموز بالباب ومعه رأسُ الزبير وسيفُه ، فأدخله . وفى كثير من الروايات أنه لم يأت بالرأس بل بالسيف ، فقال له : وأنت قتلتَه ؟ قال : نعم ، قال : والله ما كان ابنُ صفيّة جبانا ولا لئيما ، ولكن الحَيْن ومصارع السوء ،

(١) يقال : رجل شاكى السلاح ؛ إذا كان ذا شوكة وحد فى سلاحه (٢) المأقط : ساحة القتال .
(٣) الغار هنا : الجيش ، وفى اللسان ٦ : ٣٤ : « جمع بين غارين » .

ثم قال : ناولنى سيفه ، فناوله فهزّه ؛ وقال : سيف طالما جَلّى به الكَرْبَ عن وجه رسول الله صلى الله عليه وآله . فقال ابنُ جرموز : الجائزة ياأمير المؤمنين ، فقال : أما إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « بَشِّر قاتل ابن صفيّة بالنار » ، فخرج ابن جُرْموز خائبا ، وقال :

أتيتُ عليًّا برأس الزّبيرِ أبْغى بهِ عندَهُ الزُّلفَهْ (١)
فَبَشَّر بالنّارِ يَوْمَ الحسابِ فبئسَتْ بِشارةُ ذى التُّحفَهْ
فقلتُ له إنّ قتلَ الزّبيْر لولا رضاكَ من الكُلفَهْ
فإنْ ترضَ ذاكَ فمنكَ الرِّضا وإلا فَدُونَكَ لى حَلْفَهْ
وَرَبِّ المحلّين والمحرمينَ وَرَبِّ الجماعةِ والأُلفَهْ
لَسِيّان عِندِىَ قتلُ الزبيرِ وضرطة عنزٍ بذى الجُحفَهْ

ثم خرج ابن جُرموز على علىّ عليه السلام مع أهل النهر ، فقتله معهم فيمن قتل.

(١) المسعودى ١ : ٣٧٣

(٩)

الأصلُ :

ومن كلام له عليه السلام :

وَقَدْ أَرْعَدُوا وَأَبْرَقُوا ، ومَعَ هٰذَيْنِ الأَمْرَيْنِ الْفَشَلُ ، وَلَسْنَا نُرْعِدُ حَتّى نُوقِعَ ، وَلاَ نُسِيلُ حَتّى نُمْطِرَ .

* * *

الشَّرْحُ :

أرعد الرجل وأبرق ، إذا أوعد وتهدّد ، وكان الأصمعيّ ينكره ، ويزعم أنه لا يقال إلا رعد وبرق ، ولما احتُجّ عليه ببيت الكميت :

أَرْعِدْ وَأَبْرِقْ يا يزيــــد فما وَعيدُك لي بِضائِرْ

قال : الكميتُ قرويّ لا يُحتجّ بقوله[1]

وكلام أميرِ المؤمنين عليه السلام حُجّة دالة على بطلان قول الأصمعيّ . والفَشَل : الجُبْن والخَوَر .

وقوله : « ولا نسيلُ حتى نُمطر » ، كلمة فصيحة ، يقول : إنّ أصحاب الجمل في وعيدهم وإجلابهم بمنزلة مَنْ يدّعي أنه يحدث السيل قبل إحداث المطر ؛ وهذا محال ، لأنّ السَّيل إنما يكون من المطر ، فكيف يسبق المطر ! وأمّا نحن فإنا لا ندّعي ذلك ، وإنما نُجْري الأمور على حقائقها ، فإنْ كان منّا مطر كان منّا سيل ، وإذا أوقعنا بخصمنا أوعدْنا حينئذ بالإيقاع به غيرَه من خصومنا .

(١) الخبر والبيت في أمالي القالي ١ : ٩٦

وقوله عليه السلام : « ومع هذين الأمرين الفَشَل » معنًى حسَن ، لأنّ الغالبَ من الجبناء كثرة الضوضاء والجلَبة يوم الحرب ، كما أنّ الغالبَ من الشجعان الصمت والسكون .

وسمع أبو طاهر الجَنّابى[1] ضوضاء عسكر المقتدر بالله ودَبادِبَهم[2] وبُوقاتهم ، وهو فى ألف وخمسمائة ، وعسكر المقتدر فى عشرين ألفا ، مقدّمهم يوسف بن أبى الساج ، فقال لبعض أصحابه : ما هذا الزَّجَل[3] ؟ قال : فَشَل ، قال : أجَل .

ويقال : إنه ما رُئِىَ جيش كجيش أبى طاهر ، ما كان يسمع لهم صوت ، حتى إنّ الخيل لم تكن لها حَمحَمة ، فرشقَ عسكرُ ابن أبى الساج[4] القرَامطةَ بالسّهام المسمُومة ، فجرح منهم أكثر من خمسمائة إنْسان .

وكان أبو طاهر فى عمارية له ، فنزل وركب فرسا ، وحمل بنفسه ومعه أصحابه حملة على عسكر ابن أبى الساج ، فكسروه وفلّوه وخلصوا إلى يوسف فأسروه ، وتقطّع عسكره بعد أن أتى بالقتل على كثير منهم ، وكان ذلك فى سنة خمس عشرة وثلثمائة .

ومن أمثالهم : الصدقُ ينبِى عنك لا الوعيد .

---

(١) هو أبو طاهر سليمان بن أبى سعيد الحسن بن بهرام الجنابى ؛ كان أبوه الحسن كبير القرامطة ؛ وقتل سنة ٣٠١ ، قتله خادم له صقلبى ، فتولى ابنه أبو طاهر أمر القرامطة بعده ، بعد أن عجز أخوه سعيد عن الأمر . تاريخ ابن الأثير ٦ : ١٤٧ .

(٢) فى اللسان : « الدبادب : صوت كأنه دب ، دب ؛ وهى حكاية الصوت » .

(٣) الزجل : الجلبة ورفع الصوت .

(٤) هو يوسف بن أبى الساج ؛ أحد ولاة الرى فى عهد المقتدر ؛ وكان استقل عن الخليفة ، ثم عاد إلى طاعته . وانظر طرفا من أخباره فى تاريخ ابن الأثير فى ٦ : ١٧٥ ، وما بعدها .

(١٠)

الأصْلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

أَلَا وَإِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ جَمَعَ حِزْبَهُ ، وَاسْتَجْلَبَ خَيْلَهُ وَرَجِلَهُ ؛ وَإِنَّ مَعِي لَبَصِيرَتِي ؛ مَا لَبَّسْتُ عَلَى نَفْسِي ، وَلَا لُبِّسَ عَلَيَّ . وَايْمُ اللهِ لَأُفْرِطَنَّ لَهُمْ حَوْضاً أَنَا مَاتِحُهُ ، لَا يَصْدُرُونَ عَنْهُ ، وَلَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ .

* * *

الشَّرْحُ :

يمكن أن يَعْنِيَ بالشيطان الشيطانَ الحقيقيَّ ، ويمكن أن يَعْنِيَ به معاوية ، فإن عَنَى معاوية ، فقوله : « قد جمع حزبه ، واستجلب خيله ورجْله » كلام جارٍ على حقائقه ، وإن عَنَى به الشيطان ، كان ذلك من باب الاستعارة ؛ ومأخوذاً من قوله تعالى : ﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾[1] ، والرَّجْل : جمع راجل ، كالشَّرْب ، جمع شارب ، والرَّكْب : جمع راكب .

قوله : « وإنّ معي لَبَصيرتي » ، يريد أنّ البصيرةَ التي كانت معي في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله لم تتغيَّرْ .

وقوله : « ما لبّست » تقسيم جيّد ، لأنّ كل ضالّ عن الهداية ، فإمّا أن يضلّ من تلقاء نفسه ، أو بإضلال غيره له .

وقوله : « لأُفرِطَنَّ » من رواها بفتح الهمزة ، فأصله « فَرَطَ » ثلاثيّ ، يقال : فرَطَ

---

(١) سورة الإسراء ٦٤ .

زيد القوم أى سبقهم ، ورجل فَرَطٌ : يسبق القوم إلى البئر ، فيهيّئ لهم الأرْشيةوالدِّلاء، ومنه قوله عليه السلام : « أنا فَرَطُكم على الحوض » ، ويكون تقدير الكلام : وايمُ الله لأفرِطَنّ لهم إلى حوض ، فلما حذف الجارّ عدّى الفعل بنفسه ، فنصب ، كقوله تعالى : ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ ﴾(١) ، وتكون اللام فى « لهم » إمّا لامَ التعدية ، كقوله: « ويؤمن للمؤمنين » أى ويؤمن المؤمنين ، أو تكون لام التعليل ، أى لأجلهم . ومن رواها « لأُفرِطَنّ » بضم الهمزة ، فهو من أفرط المزادة ، أى ملأها .

والماتح : المستقِى ، متح يمتَح،بالفتح ، والمايح ، بالياء:الذى ينزل إلى البئر فيملأ الدلو.

وقيل لأبى علىّ رحمه الله : ما الفرق بين الماتح والمايح ؟ فقال : هما كإعجامهما ، يعنى أنّ التاء بنقطتين من فوق ، وكذلك الماتح لأنه المستقى ، فهو فوق البئر ، والياء بنقطتين من تحت ، وكذلك المايح لأنه تحت فى الماء الذى فى البئر يملأ الدلاء . ومعنى قوله : « أنا ماتحه » ، أنا خبير به ؛ كما يقول مَنْ يدّعى معرفة الدار : أنا بانى هذه الدار ، والكلام استعارة ؛ يقول : لأملأنّ لهم حياض الحرب التى هى دُرْبَتى وعادتى ، أو لأسْبِقنّهم إلى حياض حرب أنا متدرِّب بها ، مجرِّب لها، إذا وردوها لا يصدُرون عنها . يعنى قتلهم وإزهاق أنفسهم ، ومَنْ فَرَّ منهم لا يعود إليها. ومن هذا اللفظ قول الشاعر:

تَخضتُ بِدَلْوِهِ حتّى تَحَسَّى ذَنُوبَ الشرّ مَلْأَى أو قُرابا(٢)

* * *

(١) سورة الأعراف ١٥٥

(٢) البيت فى شرح الحماسة للمرزوقى ٥٣٣ من غير نسبة .

(١١)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام لابنه محمد بن الحنفيّة لما أعطاه الراية يوم الجمل :

تَزُولُ الجِبَالُ وَلَا تَزُلْ ، عَضَّ عَلَى نَاجِذِكَ ، أَعِرِ اللهَ جُمْجُمَتَكَ ، تِدْ فِي الأَرْضِ قَدَمَكَ ، ارْمِ بِبَصَرِكَ أَقْصَى القَوْمِ ، وَغُضَّ بَصَرَكَ ، وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مِنْ عِنْدِ اللهِ سُبْحَانَهُ .

الشرح :

قوله : « تَزُولُ الجِبالُ ولَا تَزُل »، خبر فيه معنى الشرط،تقديره : إن زالتِ الجبالُ فلا تَزُل أنتَ ؛ والمراد المبالغة. في أخبار صِفِّين أن بني عُكْلٍ - وكانوا مع أهل الشام - حملوا في يوم من أيام صِفِّين، خرجوا وعقلوا أنفسَهم بعمائمهم، وتحالفوا أنّا لا نفِرّ حتى يفِرّ هذا « الحكْر » ، بالكاف ، قالوا : لأن عُكْلاً تبدل الجيم كافا.

والناجِذُ: أقصى الأضراس. وتِدْ ، أمر من وتَد قَدَمه في الأرض؛ أى أثبِتْها فيها كالوتِد. ولا تَنَاقُضَ بين قوله : « ارم ببصرك » وقوله : « غُضَّ بَصَرَكَ » ، وذلك لأنه في الأولى أمرَه أن يفتح عينَه ويرفع طَرْفَه، ويحدّق إلى أقاصى القوم ببَصره ؛ فِعْلَ الشجاعِ المِقدَام غيرِ المكترث ولا المبالى، لأنّ الجبانَ تضعُف نفسه ويخفُق قلبُه فيقصر بصره ، ولا يرتفع طَرْفه ، ولا يمتدّ عنقه ، ويكونُ ناكسَ الرأس ، غضيضَ الطرف . وفي الثانية أمرَه أن يَغُضَّ بصرَه عن بَريق سيوفهم ولمعانِ دروعهم ، لئلا يبرُق بصرُه ، ويدهش ويستشعر خوفا. وتقديرُ الكلام « واحمل» وحذف ذلك للعلم به، فكأنه قال: إذا عزمت على الحملة

وصممت ، فغُضّ حينئذ بصرَك واحمل ، وكن كالعَشْوَاء التي تخبِط ما أمامها ولا تبالي .

وقوله : «عضّ على ناجِذك» ، قالوا: إنّ العاضّ على نواجِذه ينبو السيف عن دِماغه، لأنّ عظام الرأس تشتدّ وتصلب ؛ وقد جاء في كلامه عليه السلام هذا مشروحاً في موضع آخر، وهو قوله: «وعَضّوا على النواجذ، فإنه أنبَى للصوارِم عن الهام» . ويحتمل أن يريد به شِدّة الحَنَق ؛ قالوا : فلان يحرِقُ عَلَيّ الأُرَّم ، يريدون شدة الغيظ ، والحرْق : صريف الأسنان وصوتها ، والأُرَّم : الأضراس .

وقوله : « أعِرِ اللهَ جُمجمتك »، معناه ابذُلها في طاعة الله. ويمكن أن يقال: إن ذلك إشعارٌ له أنه لا يُقتل في تلك الحرب، لأنّ العاريّة مردودة، ولو قال له : بع ِ الله جُمجمتَك، لكان ذلك إشعاراً له بالشهادة فيها .

وأخذ يزيد بن المهلّب هذه اللفظة فخطب أصحابَه بواسط، فقال : إنّي قد أسمع قول الرعاع : جاء مَسْلَمة، وجاء العباس[1]، وجاء أهل الشام، ومَنْ أهلُ الشام! والله ما هم إلا تسعة أسياف ، سبعة منها معي ، واثنان عليّ ، وأما مَسلمة فجرادة صفراء ، وأما العباس فنسطوس ابن نسطوس[2]، أتاكم في برابرة وصقالبة وجَرامقة وجراجمة[3] وأقباط وأنباط وأخلاط ، إنما أقبل إليكم الفلاحون وأوباش كأشلاء اللحم . والله ما لقوا قطّ كحديدكم وعديدكم ، أعيروني سواعدَكم ساعة تصفِقون بها خراطيمهم ، فإنما هي غَدْوة أو روْحة ؛ حتى يحكم الله بيننا وبين القوم الظالمين .

من صفات الشجاع قولهم : فلان مغامر ، وفلان غَشَمْشَم ، أي لا يبصرُ ما بين يديه في الحرب، وذلك لشدة تقحّمه وركوبه المهلكة، وقلّة نظره في العاقبة ، وهذا هو معنى قوله عليه السلام لمحمد : « غُضّ بصرك » .

---

(١) هما مسلمة بن عبد الملك والعباس بن الوليد بن عبد الملك ، جهزهما يزيد بن عبد الملك لقتال يزيد ابن المهلب . انظر ابن خلكان ، ترجمة يزيد بن المهلب .   (٢) إشارة إلى أن أمه كانت أمة رومية نصرانية .   (٣) الجرامقة : قوم من العجم صاروا بالموصل في أوائل الإسلام . والجرامقة : قوم من العجم بالجزيرة ، أو نبط الشام .

[ذكر خبر مقتل حمزة بن عبد المطلب]

وكان حمزة بن عبد المطلب مغامِراً غَشَمْشَما لا يبصِرُ أمامه ، قال جُبَير بن مُطْعِم ابن عدىّ بن نوفل بن عبدمناف لعبده وحشىّ يوم أُحُد : وَيْلَكَ ! إن عليًا قتل عمّى طُعَيمة سيّد البطحاء يوم بدر ، فإن قتلتَه اليوم فأنت حُرّ ، وإن قتلتَ محمداً فأنت حُرّ ، وإن قتلت حمزة فأنت حرّ ، فلا أحَد يَعدِل عمّى إلّا هؤلاء . فقال : أمّا محمد فإن أصحابه دونَه ، ولن يُسلِموه ، ولا أرانى أصِلُ إليه ، وأما علىّ فرجُلٌ حذِر مَرِس[1] ، كثير الالتفات فى الحرب لا أستطيع قتلَه ، ولكن سأقتل لك حمزة ، فإنه رجل لا يُبصِر أمامه فى الحرب ، فوقف لحمزة حتى إذا حاذاه زَرَقه بالحرْبة كما تَزْرِق[2] الحبشة بحرابها ، فقتله .

***

[محمد بن الحنفيّة ونسبه وبعض أخباره]

دفع أمير المؤمنين عليه السلام يوم الجمل رايتَه إلى محمد ابنه عليهما السلام ، وقد استوتِ الصفوف ، وقال له : احمِل ؛ فتوقّف قليلا ، فقال له : احمل ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أما ترى السّهام كأنّها شآبيبُ المطر ! فدفع فى صدره ، فقال : أدركك عِرْق من أمّك ، ثم أخذ الرّاية فهزّها ، ثم قال :

اطعَنْ بها طعن أبيك تُحْمَدِ لا خير فى الحرْبِ إذا لم تُوقَدِ
* بالمَشْرفىّ والقَنا المسدَّدِ *

ثم حمل وحمل الناس خلفه ، فطحن عسكر البصرة .

---

(١) رجل مرس : شديد العلاج للأمور .
(٢) زرقه : طعنه .

قيل لمحمد: لِمَ يُغرِّرُ بك أبوك فى الحرب ولا يغرِّر بالحسن والحسين عليهما السلام؟ فقال: إنّهما عيناه وأنا يمينه، فهو يدفع عن عينيه بيمينه.

كان عليّ عليه السلام يقذِفُ بمحمد فى مهالك الحرب، ويكُفّ حسنا وحُسينا عنها.

ومن كلامه فى يوم صِفِّين: امْلِكوا عنّى هذين الفتَيَيْن، أخاف أن ينقطِع بهما نسلُ رسول الله صلى الله عليه وآله.

أمّ محمد رضى الله عنه خَوْلة بنت جعفر بن قيس بن مسلمة بن عبيد بن ثعلبة بن يربوع ابن ثعلبة بن الدُّوَل بن حَنيفة بن لُجَيم بن صَعْب بن عليّ بن بكر بن وائل.

واختُلِف فى أمرها، فقال قوم: إنّها سبِيّة من سبايا الرِّدة، قوتل أهلُها على يد خالد ابن الوليد فى أيام أبى بكر، لمّا منع كثيرٌ من العرب الزكاة، وارتدّتْ بنو حنيفة، وادّعتْ نبوّةَ مُسَيْلِمة، وإن أبا بكر دفعها إلى عليّ عليه السلام من سَهْمه فى المغنم.

وقال قوم، منهم أبو الحسن على بن محمد بن سيف المدائنيّ: هى سبيّة فى أيام رسول الله صلى الله عليه وآله، قالوا: بعثَ رسول الله صلى الله عليه وآله عليًّا إلى اليمن، فأصاب خَوْلة فى بنى زُبَيْد، وقد ارتدُّوا مع عمرو بن معدى كرب، وكانت زُبَيْد سَبَتْها من بنى حَنيفة فى غارة لهم عليهم، فصارت فى سَهْم عليّ عليه السلام، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: إنْ ولدتْ منك غلاما فسمِّه باسمى، وكَنِّه بكنيتى، فولدتْ له بعد موت فاطمة عليها السلام محمداً، فكنّاه أبا القاسم.

وقال قوم، وهم المحققون، وقولهم الأظهر: إنّ بنى أسدٍ أغارت على بنى حَنيفة فى خلافة أبى بكر الصدّيق، فسبَوْا خَوْلة بنت جعفر، وقدِموا بها المدينة فباعوها من عليّ عليه السلام،

وبلغ قومَها خبرُها ، فقدِموا المدينة على علىّ عليه السلام ، فعرفوها وأخبروه بموضعها منهم ، فأعتقها ومهرها وتزوّجها ، فولدت له محمداً ، فكنّاه أبا القاسم .

وهذا القول ، هو اختيار أحمد بن يحيى البلاذُرى فى كتابه المعروف بـ " تاريخ الأشراف " .

***

لما تقاعس محمد يوم الجمل عن الحملة ، وحمل علىّ عليه السلام بالراية ، فضعضع أركان عسكر الجمل ، دفع إليه الراية ، وقال : امحُ الأولى بالأخرى ، وهذه الأنصار معك.

وضمّ إليه خُزَيمة بن ثابت ذا الشهادتين ، فى جَمْع من الأنصار ، كثير منهم من أهل بدر ، فحمل حَملات كثيرة ، أزالَ بها القومَ عن مواقفهم وأبلَى بلاء حسنا . فقال خزيمة بن ثابت لعلىّ عليه السلام : أما إنه لو كان غيرُ محمد اليوم لافتضح ، ولئن كنت خِفْتَ عليه الحين وهو بينك وبين حمزة وجعفر لما خِفْناه عليه ، وإنْ كنتَ أردتَ أن تعلّمه الطعان فطالما علّمته الرجال . .

وقالت الأنصار : يا أمير المؤمنين ، لولا ماجعل الله تعالى للحسن والحسين لما قدّمنا على محمد أحداً من العرب . فقال علىّ عليه السلام : أين النّجم من الشمس والقمر ! أما إنّه قد أغنى وأبلى ، وله فضله ، ولا ينقص فضلَ صاحبيه عليه ، وحسب صاحبكم ما انتهت به نعمة الله تعالى إليه ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ، إنّا والله لا نجعله كالحسن والحسين ، ولا نظلمهما له ، ولا نظلمه ـ لفضلهما عليه ـ حقّه ، فقال علىّ عليه السلام : أين يقع ابنى من ابنىْ بنت رسول الله صلى الله عليه وآله ! فقال خُزَيمة بن ثابت فيه :

محمدا فى عُودك اليوم وَصْمَةٌ ... ولا كُنتَ فى الحرْبِ الضَّرُوس مُعَرِّدا(١)
أبوك الذى لم يركب الخيلَ مثلُه ... علىّ ، وسمّاك النبىُّ محمدا
فلو كان حقا من أبيك خليفةٌ ... لكنت ، ولكن ذاك مالا يرى بدّا

(١) معرد : منهزم .

وأنت بحمد الله أطولُ غالبٍ[1] لساناً ، وأنداها بمـا ملكتْ يدا
وأقربُها من كلِّ خيرٍ تريدُه قُرَيْشٌ وأوفاها بما قال مَوْعـدا
وأطعنُهم صـدرَ الكميِّ برمحه وأكسامُهم للهـامِ عَضْباً مُهَنَّدا
سوى أخويكَ السيِّدين ، كلاهما إمام الورى والداعيانِ إلى الهـدى
أبى اللهُ أن يعطى عـدوَّك مقعـدا من الأرض أوفى الأوج مَرْقًى ومصعدا

---

(١) غالب : يقصد به ذرية غالب بن فهر بن مالك .

(١٢)

الأصْلُ :

ومن كلام له عليه السلام لما أظفره الله بأصحاب الجمل ، وقد قال له بعض أصحابه: وددت أن أخى فلانا كان شاهدنا ليرى مانصرك الله به على أعدائك ، فقال على عليه السلام:

أَهَوَى أَخِيكَ مَعَنَا ؟ فَقَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : فَقَدْ شَهِدَنَا ، وَلَقَدْ شَهِدَنَا فِي عَسْكَرِنَا هٰذَا قَوْمٌ فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ ، وَأَرْحَامِ النِّسَاءِ ، سَيَرْعَفُ بِهِمُ الزَّمَانُ ، وَيَقْوَى بِهِمُ الْإِيمَانُ .

***

الشّرْحُ :

يرعَفُ بهم الزمان : يوجِدهم ويخرجهم ، كما يرعَف الإنسان بالدم الذى يخرجه من أنفه ، قال الشاعر :

وما رَعَف الزمان بمثل عمرو ولا تَلِدُ النساء له ضريبـــا

والمعنى مأخوذ من قول النبىّ صلى الله عليه وآله لعثمان ـ ولم يكن شهد بدرا ، تخلّفَ على رُقَيّة ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا مرضتْ مرضَ موتها ـ : «لقد كنتَ شاهداً وإن كنت غائبا ، لك أجرك وسهمك » .

***

[من أخبار يوم الجمل]

قال الكلبىّ : قلت لأبى صالح : كيف لم يضع علىّ عليه السلام السيفَ فى أهل البصرة يوم الجمل بعد ظفره ؟ قال : سار فيهم بالصفح والمنّ الذى سار به رسول الله صلى الله

عليه وآله فى أهل مكة يوم الفتح ، فإنه أراد أن يستعرضَهم بالسيف ، ثم منَّ عليهم ، وكان يحب أن يهديَهم الله .

قال فِطْر بن خليفة : مادخلتُ دار الوليد بالكوفة التى فيها القصارُون إلا وذكرت بأصواتهم وقعَ السيوف يومَ الجمل .

حرب بن جَيهان الجُعْفىّ : لقد رأيتُ الرماح يوم الجمل قد أشرعَها الرجال بعضهم فى صدر بعض ، كأنها آجامُ القصب ، لو شاءت الرجال أن تمشىَ عليها لمشتْ ، ولقد صَدَقونا القتال حتى ماظننت أن ينهزموا ، وما رأيت يوماً قطّ أشبهَ بيوم الجمل من يوم جَلُولاء الوقيعة(١) .

الأصبغ بن نُباتة : لما انهزم أهلُ البصرة ركب علىّ عليه السلام بَغلة رسول الله صلى الله عليه وآله الشَّهْباء ، وكانت باقية عنده ، وسار فى القتلى يستعرضهم ، فمرّ بكعب بن سور القاضى ، قاضى البصرة ، وهو قتيل ، فقال: أجلسوه ، فأجلِس ، فقال له : وَيْلُمِّكَ كعب ابن سور ! لقد كان لك عِلْم لو نفَعك ! ولكنّ الشيطانَ أضلّك فأزلّك ، فعجّلك إلى النار ، أرسلوه . ثم مر بطلحة بن عبيد الله قتيلا ؛ فقال : أجلسوه ، فأجلِسَ ـ قال أبو مخنف فى كتابه : فقال : وَيْلُمِّكَ طلحة ! لقد كان لك قَدَم لو نفعك ! ولكن الشيطان أضلّك فأزلّك فعجلك إلى النار .

وأما أصحابُنا فيروُون غير ذلك ؛ يروون أنه عليه السلام قال له لما أجلسوه : أعزِزْ علىّ أبا محمد أن أراك معفرًا تحت نجوم السماء وفى بطن هذا الوادى ! أبَعْدَ جهادك فى الله ، وذبّك عن رسول الله صلى الله عليه وآله ! فجاء إليه إنسان فقال : أشهد ياأمير المؤمنين ، لقد مررتُ عليه بعد أن أصابه السهمُ وهو صريع ، فصاح بى ، فقال : مِنْ أصحابِ مَن أنت ؟ فقلت : من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام ، فقال : امدُد يدَك لأبايع

(١) جلولاء : موضع فى طريق خراسان، كانت بها وقعة المسلمين على الفرس سنة ١٦ ؛ وسميت الوقيعة لما أوقع بهم المسلمون (ياقوت) .

لأمير المؤمنين عليه السلام ، فمددت إليه يدى فبايعنى لك . فقال علىّ عليه السلام : أبى الله أن يدخُلَ طلحة الجنةَ إلا وبيعتى فى عنقه .

ثم مرّ بعبد الله بن خلف الخزاعىّ ، وكان عليه السلام قتله بيده مبارزة ، وكان رئيسَ أهل البصرة ، فقال : أجلسوه ، فأجلِس ، فقال : الويل لك يابن خَلَف ! لقد عانيت أمراً عظيما .

وقال شيخنا أبو عثمان الجاحظ : ومرّ عليه السلام بعبد الرحمن بن عتّاب بن أَسِيد ، فقال : أجلسوه ، فأجلس ، فقال : هذا يعسوبُ قريش ، هذا اللّباب المَحضُ من بنى عبد مناف . ثم قال : شفيتُ نفسى ، وقتلتُ معشرى ، إلى الله أشكو عُجَرِى وبُجَرِى[1] ! قتلتُ الصناديدَ من بنى عبد مناف ، وأفلتنى الأعيار[2] من بنى جُمَح . فقال له قائل : لشدّ ما أطريت هذا الفتى منذ اليوم يا أمير المؤمنين ! قال : إنّه قام عنّى وعنه نسوةٌ لم يقمن عنك .

***

قال أبو الأسود الدؤلىّ : لما ظهر علىّ عليه السلام يومَ الجمل ، دخل بيت المال بالبصرة فى ناس من المهاجرين والأنصار وأنا معهم ، فلما رأى كثرةَ ما فيه ، قال : غُرِّى غيرى ... مرارا . ثم نظر إلى المال ، وصعّد فيه بَصره وصوّب ، وقال : اقسموه بين أصحابى خمسمائة خمسمائة ، فقسم بينهم ، فلا والذى بعث محمدا بالحق ما نقصَ درهما ولا زاد درهما ، كأنه كان يعرف مبلغه ومقداره ، وكان ستة آلاف ألف درهم ، والناس اثنا عشر ألفا .

---

(١) عجرى وبجرى ، نقل صاحب اللسان (٦ : ٢١٦) من محمد بن يزيد : « معناه همومى وأحزانى ؛ وقيل : ماأبدى وأخفى ، وكله على المثل » . وقال : « وأصل العجر العروق المتعقدة فى الصدر ، والبجر العروق المنعقدة فى البطن خاصة » .

(٢) الأعيار هنا : جمع عير ؛ وعير القوم : سيدهم ؛ وعليه قول الحارث بن حلزة :

زَعَموا أنّ كلَّ مَن ضَرَبَ العَيْـ ... ـرَ موالٍ لنـــا وأنّى الولاء

حَبّة العُرَنى(١) ، قَسّم علىّ عليه السلام بيت مال البصرة على أصحابه خمسمائة خمسمائة ، وأخذ خمسمائة درهم كواحد منهم ، فجاءه إنسان لم يحضر الوقعة ، فقال : يا أمير المؤمنين ، كنتُ شاهداً معك بقلبى ، وإن غاب عنك جسمى ، فأعطنى من الفىء شيئا . فدفع إليه الذى أخذه لنفسه وهو خمسمائة درهم ، ولم يصب من الفىء شيئا .

***

اتفقت الرواة كلها على أنّه عليه السلام قَبض ماوجد فى عسكر الجمل من سلاح ودابّة ومملوك ومتاع وعُروض ، فقسّمه بين أصحابه ، وأنهم قالوا له : اقسِمْ بيننا أهلَ البصرة فاجعلهم رقيقا ، فقال : لا ، فقالوا : فكيف تُحِلّ لنا دماءهم وتحرّم علينا سَبْيَهم ! فقال : كيف يحلّ لكم ذرّية ضعيفة فى دار هجرة وإسلام ! أما ما أجْلَب به القومُ فى معسكرهم عليكم فهو لكم مَغْنَم ، وأما ما وارت الدّور وأُغلقَتْ عليه الأبواب فهو لأهله ، ولا نصيب لكم فى شىء منه ، فلما أكثروا عليه قال : فأقرِعوا على عائشة ، لأدفعها إلى مَنْ تصيبه القُرْعة ! فقالوا : نستغفر الله يا أمير المؤمنين ! ثم انصرفوا .

---

(١) حبة ، بفتح أوله ، ثم موحدة ثقيلة ، بن جوين العرنى ، والكوفى . كان غاليا فى التشيع ؛ قال فى التهذيب : مات أول ما قدم الحجاج العراق سنة ٧٦ .

(١٣)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام فى ذم أهل البصرة :

كُنْتُمْ جُنْدَ ٱلْمَرْأَةِ ، وَأَتْبَاعَ ٱلْبَهِيمَةِ . رَغَا فَأَجَبْتُمْ ، وَعُقِرَ فَهَرَبْتُمْ . أَخْلَاقُكُمْ دِقَاقٌ ، وَعَهْدُكُمْ شِقَاقٌ ، وَدِينُكُمْ نِفَاقٌ ، وَمَاؤُكُمْ زُعَاقٌ ، وَٱلْمُقِيمُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ مُرْتَهَنٌ بِذَنْبِهِ ، وَالشَّاخِصُ عَنْكُمْ مُتَدَارَكٌ بِرَحْمَةٍ مِنْ رَبِّهِ ؛ كَأَنِّى بِمَسْجِدِكُمْ كَجُؤْجُؤِ سَفِينَةٍ ، قَدْ بَعَثَ اللهُ عَلَيْهَا ٱلْعَذَابَ مِنْ فَوْقِهَا وَمِنْ تَحْتِهَا ، وَغَرِقَ مَنْ فِى ضِمْنِهَا .

وفى رواية :

وَايْمُ ٱللهِ ، لَتَغْرَقَنَّ بَلْدَتُكُمْ ، حَتَّى كَأَنِّى أَنْظُرُ إِلَى مَسْجِدِهَا كَجُؤْجُؤِ سَفِينَةٍ ، أَوْ نَعَامَةٍ جَاثِمَةٍ .

وفى رواية :

كَجُؤْجُؤِ طَيْرٍ فِى لُجَّةِ بَحْرٍ .

وفى رواية أخرى :

بِلَادُكُمْ أَنْتَنُ بِلَادِ اللهِ تُرْبَةً ؛ أَقْرَبُهَا مِنَ ٱلْمَاءِ ، وَأَبْعَدُهَا مِنَ ٱلسَّمَاءِ ؛ وَبِهَا تِسْعَةُ أَعْشَارِ ٱلشَّرِّ . ٱلْمُحْتَبَسُ فِيهَا بِذَنْبِهِ ، وَٱلْخَارِجُ بِعَفْوِ ٱللهِ .

كَأَنِّى أَنْظُرُ إِلَى قَرْيَتِكُمْ هٰذِهِ قَدْ طَبَّقَهَا ٱلْمَاءُ ، حَتَّى مَا يُرَى مِنْهَا إِلَّا شُرَفُ ٱلْمَسْجِدِ ؛ كَأَنَّهُ جُؤْجُؤُ طَيْرٍ فِى لُجَّةِ بَحْرٍ .

***

الشَّرْحُ :

قوله : « وأتباع البهيمة » ، يعنى الجمل ، وكان جمل عائشة راية عسكر البصرة ، قُتِلوا دونه كما تُقتَل الرجال تحت راياتها .

وقوله : « أخلاقكم دقاق » ، يصفهم باللؤم ، وفى الحديث أنّ رجلا قال له : يارسول الله إنى أحبُّ أن أنكح فلانة ، إلا أنّ فى أخلاق أهلها دِقّة ، فقال له : « إيّاك وخَضْراء الدِّمن ، إياك والمرأة الحسناء فى مَنْبت السوء » .

قوله : « وعهدكم شقاق » يصفهم بالغدر ، يقول : عهدكم وذمتكم لا يوثق بها ، بل هى وإن كانت فى الصورة عهدا أو ذمّة ، فإنها فى المعنى خلاف وعداوة .

قوله : « وماؤكم زعاق » ، أى مِلْح ، وهذا وإن لم يكن من أفعالهم إلا أنه مما تُذَم به المدينة ، كما قال :

بلاد بها الُحمّى وأُسْدُ عَرِينَةٍ وفيها المعلّى يعتــدِى ويَجُورُ
فإنى لِمَنْ قَدْ حَلّ فِيهَا لَرَاحِمٌ وإنى من لمْ يأتِهـــا لَنَذِيرُ

ولا ذنب لأهلها فى أنّها بلاد الحمّى والسباع .

ثم وصف المقيم بين أظهرهم بأنه مرتَهَن بذنبه ، لأنّه إما أن يشاركهم فى الذنوب أو يراها فلا ينكِرُها ؛ ومذهب أصحابِنا أنّه لا تجوز الإقامة فى دار الفسق ، كما لا تجوز الإقامة فى دار الكفر .

والجؤجؤ : عَظْم الصدر ؛ وجؤجؤ السفينة : صدرها .

فأما إخباره عليه السلام أنَّ البَصْرة تغرَّق عدا المسجدَ الجامع بها ، فقد رأيتُ مَنْ يذكر أنَّ كتب الملاحم تدلّ على أنّ البصرة تَهْلِك بالماء الأسود ينفجر من أرضها ، فتغرق ويبقى مسجدها .

والصحيح أن المخبَر به قد وقع ، فإنَّ البصرة غرقت مرتين ؛ مرة فى أيام القادر بالله ، ومرة فى أيام القائم بأمر الله ، غرقت بأجمعها ولم يبق منها إلا مسجدها الجامع بارزا بعضه كجؤجؤ الطائر ، حسَب ما أخبر به أمير المؤمنين عليه السلام ، جاءها الماء من بحر فارس من جهة الموضع المعروف الآن بجزيرة الفرس ، ومن جهة الجبل المعروف بجبل السّنام ، وخربت دورها ، وغرق كلّ ما فى ضِمْنها ، وهلك كثير من أهلها .

وأخبار هذين الغرقين معروفة عند أهل البصرة ، يتناقلها خلَفهم عن سلفهم .

* * *

[من أخبار يوم الجمل أيضاً]

قال أبو الحسن على بن محمد بن سيف المدائنىّ ومحمد بن عمر الواقدىّ : ما حُفِظ رَجَز قطّ أكثر من رَجَز قيل يوم الجمل ، وأكثره لبَنِى ضَبّة والأزْد ، الذين كانوا حول الجمل يُحامون عنه ، ولقد كانت الرءوس تَنْدُر[1] عن الكواهل ، والأيدى تَطِيحُ من المعاصم وأقتاب البطن[2] تندلِق من الأجواف ؛ وهم حول الجمل كالجراد الثابتة لا تتحلحل ولا تتزلزل ؛ حتى لقد صرخ عليه السلام بأعلى صوته : ويلَكم اعقِروا الجمل فإنه شيطان! ثم قال : اعقِروه وإلا فنيت العرب . لا يزال السيفُ قائماً وراكعاً حتى يهوِى هذا البعيرُ

---

(١) تندر : تقطع .

(٢) الأقتاب : الأمعاء ؛ واحده قتب ، محركة ، أو بكسر فسكون .

إلى الأرض ، فصمدوا له حتى عقروه فسقط وله رغاء شديد ؛ فلمّا برك كانت الهزيمة .

* * *

ومن الأراجيز المحفوظة يوم الجمل لعسكر البصرة قول بعضهم[(١)] :

نَحْنُ ـ بنى ضَبّة ـ أصحابُ الْجَمَلْ ... نُنازِلُ الموتَ إذا الْمَوْتُ نَزَلْ

نَنْعَى ابن عفان بأطراف الأَسَلْ ... ردّوا علينا شيخنــــا ثُمّ بَجَلْ[(٢)]

الموت أحْلَى عندنا من العَسَلْ ... لا عار فى الموت إذا حانَ الأَجَلْ

إنّ عليــا هو من شرّ البَدَلْ ... إن تعدلوا بشيْخِنا لا يُعتَدَلْ

* أينَ الوِهادُ وشمارِيخُ القُلَلْ[(٣)] *

فأجابه رجل من عسكر الكوفة من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام :

نحن قتلنا نَعْثَلًا فيمن قُتِلْ ... أكثر من أكْثَرَ فيه أو أقَلّ[(٤)]

أنّى يُرَدُّ نَعْثَلٌ وقد قَحَلْ ... نَحْنُ ضَرَبْنَا وَسْطَه حَتّى انجدَلْ[(٥)]

لَحُكْمِهِ حُكْمُ الطواغِيتِ الأُوَلْ[(٦)] ... آثَرَ بالفَىْءِ وَجافَى فى العملْ

فأبدل الله بِهِ خيرَ بَدَلْ ... إنّى امرؤ مستقدِمٌ غيرُ وَكَلْ

* مشمِّرٌ للحربِ مَعْروفٌ بَطَلْ *

ومن أراجيز أهل البصرة :

يأيهــا الجنـد الصليب الإيمانْ ... قوموا قياماً واستغيثوا الرحمنْ

(١) الأبيات فى الطبرى (٤ : ٥١٨) ، منسوبة إلى رجل يدعى الحارث من بنى ضبة ، وفى المسعودى (٢ : ٣٧٥) من غير نسبة ، مع اختلاف فى الرواية وعدد الأبيات .

(٢) بجل : حسب ؛ كذا فسره صاحب اللسان (١٣ : ٤٨) ، واستشهد بالبيت .

(٣) الشماريخ : رءوس الجبال .

(٤) قال صاحب اللسان : « نعثل : رجل من أهل مصر ، كان طويل اللحية ؛ قيل : إنه كان يشبه عثمان رضى الله عنه ؛ هذا قول أبى عبيد . وشاتمو عثمان رضى الله عنه يسمونه نعثلا ؛ تشبيها بالرجل المصرى لطول لحيته ، ولم يكونوا يجدون فيه عيبا غير هذا » .

(٥) قحل : مات وجف جلده . وانجدل : سقط ، وفى ج : « انجزل » ، أى انقسم قسمين .

(٦) رواية البيت فى كتاب صفين :

* لمّا حكى حكم الطواغيت الأُوَلْ *

إني أتاني خَبَرٌ ذو ألوانْ　　أنّ عليًّا قتل ابنَ عفانْ

ردُّوا إلينا شيخنا كما كانْ　　يارب وابعثْ ناصراً لعثمانْ

* يقتلهم بقوةٍ وسلطانْ *

فأجابه رجل من عسكر الكوفة :

أبَتْ سُيوفُ مَذْحِجٍ وَهَمْدانْ　　بأنْ تَرُدَّ نَعْثَلاً كَمَا كَانْ

خلقاً سويًّا بعد خلقِ الرحمنْ　　وَقَدْ قضى بالحكمِ حكمِ الشيطانْ

وفارق الحقَّ ونورَ الفرقانْ　　فذاقَ كأسَ الموتِ شُرْبَ الظمآنْ

ومن الرجز المشهور المقول يوم الجمل ، قاله أهل البصرة :

يا أمَّنا عائشُ لا تُراعى　　كلُّ بنيك بطلُ المِصاعِ (١)

ينعَى ابنَ عفانَ إليكِ ناعِ　　كعبُ بنُ سورٍ كاشفُ القِناعِ

فارضَىْ بنصرِ السيدِ المطاعِ　　والأزدُ فيها كَرَمُ الطباعِ

ومنه قول بعضهم :

يا أمَّنا يكفيكِ منّا دنوهْ　　ان يؤخذ الدهرَ الخطامُ عنوَهْ

وحولكِ اليوم رجالٌ شنوَهْ　　وحيّ همدانَ رجالُ الهبوَهْ (٢)

والمالكيونَ القليلو الكبوَهْ　　والأزدُ حيٌّ ليس فيهمْ نبوَهْ

قالوا : وخرجَ من أهل البصرة شيخ صَبيحُ الوجه ، نبيل ، عليه جُبّة وَشْيٍ ، يحضّ الناس على الحرب ، ويقول :

يامَعْشَرَ الأزدِ عليكُمْ أمَّكُمْ　　فإنها صلاتُكُمْ وَصَوْمُكُمْ

والحرْمَةُ العظمى التي تعمُّكُمْ　　فأحضروها جِدَّكُمْ وَحَزْمَكُمْ

---

(١) المصاع : الجلاد والضراب .　(٢) الهبوة : الغبرة ؛ يريد مايتناثر في المعارك من الغبار والتراب ، ومن ملاحظات الأستاذ جاسم : « يلزم أن يكون بدلا من حي همدان اسم آخر إذ لم يوجد في ذلك العهد من همدان أحد بالبصرة » ، والمثبت ما في الأصول .

لَا يَغْلِبَنْ سُمُّ العَــدُوِّ سُمَّكُمْ   إن العَدوّ إن عَلَاكُمْ زَمَّكُمْ
وَخَصَّكُم بِجَــوْرِهِ وَعَمَّكُمْ   لا تُفضحوا اليوم فداكم قَوْمُكُمْ

قال المدائنيّ والواقدي: وهذا الرَّجَز يصدّق الرواية أن الزبير وطلحة قاما في الناس، فقالا: إنّ عليًّا إن يظفر فهو فناؤكم يا أهل البصرة، فاحموا حقيقتكم، فإنه لا يُبْقِي حُرْمة إلا انتهكها، ولا حريمًا إلا هتكه، ولا ذرِّية إلا قتلها، ولا ذواتِ خِدْر إلّا سَباهُنّ، فقاتلوا مقاتلةَ مَنْ يحمى عن حريمه، ويختار الموت على الفضيحة يراها في اهله.

وقال أبو مِخْنَف: لم يقل أحد من رُجّاز البصرة قولا كان أحبّ إلى أهل الجمل من قول هذا الشيخ، استقتل الناس عند قوله، وثبتوا حول الجمل؛ وانتدبوا، فخرج عوف بن قَطَن الضَّبّيّ؛ وهو ينادى: ليس لعثمان ثأر إلا عليّ بن أبي طالب وولده، فأخذ خِطام الجمل، وقال:

يا أمُّ يا أمُّ خَــلَا مِنِّى الوَطَنْ   لا أبتغى القبرَ ولا أبغى الكَفَنْ
من ها هنا محشر عوفِ بن قَطَنْ   إن فاتنا اليوم عليّ فالغَبَنْ
أو فاتَنَا ابناهُ حسين وحسنْ   إذاً أُمُتْ بطول همّ وَحَزَنْ

ثم تقدم، فضرب بسيفه حتى قتل.

وتناول عبد الله بن أبْزى خِطام الجمل، وكان كلّ من أراد الجدّ في الحرب وقاتل قتال مستميت يتقدّم إلى الجمــل فيأخذ بخِطامه، ثم شدّ على عسكر عليّ عليه السلام، وقال:

أضرِبُهُمْ وَلَا أرَى أبا حَسَنْ   ها إنّ هذا حَزَنٌ مِنَ الحَزَنْ

فشدّ عليه عليّ أمير المؤمنين عليه السلام بالرمح فطعنه فقتله، وقال: قد رأيت أبا حسن، فكيف رأيته! وترك الرمح فيه.

وأخذت عائشة كفًّا من حصَى ، فحصبَتْ به أصحابَ علىّ عليه السلام ، وصاحت بأعلى صوتها : شاهت الوجوه ! كما صنع رسولُ الله صلى الله عليه وآله يومَ حُنَين ، فقال لها قائل : وما رميتِ إذْ رَمَيْتِ ولـكنّ الشيطان[1] رمى. وزحف علىّ عليه السلام نحو[2] الجمل بنفسه فى كتيبته الخضراء من المهاجرين والأنصار ، وحوله بنوه : حسن وحسين ومحمد عليهم السلام ، ودفَع الراية إلى محمد ، وقال : أقدِم بها حتى تركُزها فى عين[3] الجمَل ، ولا تقفَنّ دونه . فتقدّم محمد ؛ فرَشَقَتْه السهام ، فقال لأصحابه : رويداً حتى تنفَد سهامُهم ، فلم يبق لهم إلّا رَشْقة أو رَشقتان . فأنفذ إليه علىّ عليه السلام إليه يستحثّه ، ويأمرُه بالمناجزة ، فلمّا أبطأ عليه جاء بنفسه من خَلْفه ، فوضع يده اليسرى على مَنْـكِبه الأيمن ، وقال له : أقدِمْ لا أمّ لك ! فـكان محمد رضى الله عنه إذا ذكر ذلك بعدُ يبكي ، ويقول : لـكأنّى أجد ريحَ نَفَسِه فى قفاى ، والله لا أنسى أبداً . ثم أدركَتْ عليًّا عليه السلام رِقّة على ولده ، فتناول الرايةَ منه بيده اليسرى ، وذو الفقار مشهور فى يُمْنى يديه ، ثم حمل فغاص فى عسكر الجمل ، ثم رجع وقد انحنى سيفُه ، فأقامه بركبته . فقال له أصحابه وبنوه والأشتر وعمّار : نحن نـكفيك يا أمير المؤمنين . فلم يجب أحداً منهم ولا ردّ إليهم بصرَه ؛ وظل ينحطُ[4] ويزأر زئيرَ الأسد ، حتى فَرِق[5] مَنْ حوله . وتبادروه ؛ وإنّه لطامح ببصره نحو عسكر البصرة ، لا يبصر مَنْ حوله ، ولا يردُّ حِوارا ، ثم دفع الراية إلى ابنه محمد ، ثم حمل حملة ثانية وحده ، فدخل وسطهم فضربهم بالسيف قُدُماً قُدُماً ، والرجال تفرّ من بين يديه ، وتنحاز عنه يَمْنَة ويَسْرَة ، حتى خَضَبَ الأرضَ بدماء القتلى ، ثم رجع وقد انحنى سيفُه ، فأقامه بركبته ، فاعصوصَبَ[6] به أصحابُه ، وناشدوه الله فى نفسه وفى الإسلام ، وقالوا : إنّك إن تُصَبْ يذهب الدين ، فأمسِك ونحن نـكفيك . فقال : والله ما أريد بما ترون إلّا وجه الله والدار الآخرة . ثم قال لمحمد ابنه : هكذا تصنع يا بن الحنفيّة ، فقال الناس : مَن الذى يستطيع ما تستطيعه يا أمير المؤمنين !

---

(١) كذا فى ا ، وفى ب « ولـكن الله » . (٢) ا : « يوم » . (٣) ا : « عجز » .
(٤) ينحط : يزفر . (٥) فرق ، من باب تعب ؛ أى خاف . (٦) اعصوصبوا به : استجمعوا والتفوا حوله

ومن كلماته الفصيحة عليه السلام في يوم الجمل، ما رواه الكلبيّ عن رجل من الأنصار قال: بينا أنا واقف في أوّل الصفوف يوم الجمل؛ إذ جاء عليّ عليه السلام فانحرفتُ إليه فقال: أين مَثْرَى القوم؟ فقلت: هاهنا ــ نحو عائشة.

قال الكلبيّ: يريد أينَ عددهُم؟ وأين جمهورهم وكثرتهم؟ والمال الثريّ على «فعيل» هو الكثير، ومنه رجل ثَرْوَان، وامرأة ثروَى، وتصغيرها ثُرَيَّا. والصدقة مثراة للمال، أي مَكْثَرة له.

* * *

قال أبو مخنف: وبعث عليّ عليه السلام إلى الأشتر: أن احمِلْ على ميسرتهم، فحمل عليها وفيها هلال بن وكيع، فاقتتلوا قتالا شديداً، وقُتل هلال؛ قتله الأشتر؛ فمالت الميسرة إلى عائشةَ فلاذوا بها، وعظمهم بنو ضَبّة وبنو عَدِيّ، ثم عطفت الأزد وضَبّة وناجية وباهلة إلى الجمل، فأحاطوا به، واقتتل الناس حوله قتالا شديداً، وقُتِل كعب بن سور قاضي البصرة، جاءه سهم[1] غَرْب فقتله وخِطام الجمل في يده، ثم قُتل عمرو بن يثربيّ الضّبيّ[2]، وكان فارسَ أصحاب الجمل وشجاعَهم، بعد أن قتل كثيراً من أصحاب علي عليه السلام.

قالوا: كان عَمرو أخذ بخِطام الجمل، فدفعه إلى ابنه، ثم دعا إلى البراز، فخرج إليه عِلباء بن الهيثم السّدوسيّ، فقتله عمرو، ثم دعا إلى البراز، فخرج إليه هند بن عمرو الجمليّ[3] فقتله عمرو، ثم دعا إلى البراز، فقال زيد بن صُوحان العبديّ لعليّ عليه السلام: يا أميرَ المؤمنين، إني رأيت يدا أشرفت عليّ من السماء وهي تقول: هلمّ إلينا، وأنا خارج إلى

(١) يقال: أصابه سهم غرب (بفتحتين) وغرب (بفتح فسكون)، إذا كان لا يدرى من رماه؛ وقيل: إذا أتاه من حيث لا يدري. اللسان ٢: ١٣٣.

(٢) عمرو بن يثربي، كان من رءوس ضبة في الجاهلية، ثم أسلم، واستقضاه عثمان على البصرة الإصابة ٥: ١٢٠، والاشتقاق ٤١٣.

(٣) هو هند بن عمرو الجملي، نسبة إلى جمل بن سعد العشيرة، حي من مذحج. الاشتقاق ٤١٣.

بن يثربىّ ، فإذا قتلنى فادفنّى بدمى ولا تُغسّلنى ، فإنى مخاصم عنـد ربّى . ثم خرج فقتله عمرو ، ثم رجع إلى خطام الجمل مرتجزا يقول :

أردَيْتُ عِلباء وهِنْـــدا فى طَلَقْ ⁂ ثم ابنَ صُوحان خَضيباً فى عَلَقْ[1]

قَدْ سَبَقَ اليومَ لنـا ماقد سَبَقْ ⁂ والوِترُ مِنّا فى عدىّ ذى الفرَقْ

والأشترالغاوى وعمرو بن الحَمِقْ[2] ⁂ والفارس المُعلِم فى الحربِ الحَنِقْ

ذاك الذى فى الحادثات لم يُطَقْ ⁂ أعنى علياً ليتـــه فِينا مِزَقْ

قال : قوله: «والوِتر منا فى عدىّ» يعنى عدىّ بن حاتم الطائىّ، وكان من أشدّ الناس على عثمانَ ، ومن أشدّهم جهادا مع علىّ عليه السلام . ثم ترك ابنُ يثربىّ الخطام، وخرج يطلب المبارزة ، فاختُلف فى قاتله ، فقال قوم : إن عمّار بن ياسر خرج إليـه والناس يسترجعون له ، لأنه كان أضعفَ مَنْ برز إليه يومئذ . أقصرُهم سيفاً ، وأقصفُهم رمحاً ، وأحمشُهم[3] ساقاً ، حمالة سيفه من نِسْعة[4] الرّحْل ، وذُباب سيفه[5] قريب من إبطه. فاختلفا ضربتين ، فنشب سيف ابن يثربىّ فى حَجَفَة[6] عمّار ، فضربه عمّار على رأسه فصرعه، ثم أخذ برجله يسحبه حتى انتهى به إلى علىّ عليه السلام ، فقال : ياأميرَ المؤمنين، استَبْقِنى أجاهد بين يديك ، وأقتل منهم مثل ماقتلتُ مِنكم. فقال له علىّ عليه السلام : أبعْد زيد وهند وعلباء أستبقيك ! لاها الله إذاً ! قال : فأدنِنى منك أسارّك ، قال له : أنت متمرّد، وقد أخبرنى رسول الله صلى الله عليـه وآله بالمتمرّدين ، وذكَرك فيهم . فقـال : أما والله لو وصلتُ إليكَ لعضضتُ أنفَكَ عضّةً أبنْتُه منك .

فأمر به علىّ عليه السلام فضربَتْ عنقه .

---

(١) الطلق : الشوط ، والعلق : الدم .

(٢) عمرو بن الحمق ، يعرف بالكاهن ، صحب الرسول عليه السلام وشهد المشاهد مع على ، وقتله معاوية بالجزيرة ، وكان رأسه أول رأس صلب فى الإسلام . الاشتقاق ٤٧٤ .

(٣) أحمش الساقين : دقيقهما .

(٤) النسع : سير ينسج عريضا على هيئة أعنة النعال ، تشد به الرحال ؛ والقطعة منه نسعة .

(٥) الذباب : حد السيف ، أو طرفه المتطرف .

(٦) الحجفة : واحدة الحجف ، وهى التروس من جلد أو خشب .

وقال قوم : إن عمراً لما قَتَل مَنْ قَتَل،وأراد أن يخرج لطلب البراز ، قال للأَزْد: يامعشر الأزد ، إنكم قوم لكم حياء وبأس،وإنى قد وَتَرْتُ القوم ، وهم قاتلىَّ،وهذه أمكم نَصْرُها دَيْن ، وخِذْلانها عقوق ، ولست أخشى أن أقتل حتى أصرَع،فإن صرعت فاستنقذونى. فقالت له الأزد : مافى هذا الجمع أحد نخافه عليك إلا الأشتر ، قال : فإياه أخاف .

قال أبو مخنف : فقيضه الله له ، وقد أعلما جميعا ، فارتجز الأشتر :

إنى إذا ما الحربُ أبدتْ نابَها　　وأغلقتْ يومَ الوغَى أبوابَها
ومزَّقَتْ من حنَقٍ أثوابَها　　كنّا قُدَاماها ولا أذنابَهــــا[1]
ليس العــدوُّ دوننا أصحابَها　　مَنْ هابهــا اليوم فلن أهابَها
* لا طعنَها أخشى ولا ضِرَابَها *

ثم حمل عليه فطعنه فصرعه،وحامت عنه الأزد فاستنقذوه،فوثب وهو وقيذ ثقيل[2] ، فلم يستطع أن يدفع عن نفسه ، واستعرضه عبدُ الرحمن بن طود البكرىّ ، فطعنه فصرعه ثانية ، ووثب عليه رجل من سدوس،فأخذه مسحوباً برجله حتى أتى به علياً عليه السلام، فناشده الله وقال : يا أميرَ المؤمنين ، اعفُ عنّى ، فإنّ العرب لم تزل قائلةً عنك : إنك لم تُجهِزْ على جريح قطّ . فأطلقه،وقال : اذهبْ حيث شئت ، فجاء إلى أصحابه وهو لما به. حضره الموت ، فقالوا له : دمُك عند أىّ الناس ؟ فقال : أما الأشتر فلقيَنى وأنا كالمُهر الأرِن[3] ، فعلا حدُّه حَدِّى ، ولقيت رجلا يبتغى له عشرة أمثالى . وأما البكرىّ فلقيَنى ، وأنا لما بى ، وكان يبتغى لى عشرة أمثاله ، وتولّى أسرِى أضعفُ القوم ، وصاحبى الأشتر .

قال أبو مخنف: فلمّا انكشفت الحرب،شكرت ابنةُ عمرو بن يثربىّ الأزد،وعابت قومها ، فقالت :

---

(١) قداى الجيش : مقدمه .
(٢) الوقيذ : الجريح المشرف على الموت .
(٣) الأرن : النشيط .

يَا ضَبُّ إنكِ قَدْ فُجِعْتِ بفارسٍ حَامى الحقيقةِ قاتلِ الأقرانِ
عمرو بن يثربِ الّذى فُجعتْ به كلّ القبائل من بنى عدْنانِ
لم يَحْمِه وسط العَجاجَة قومُـــه وَحَنَتْ عليهِ الأزد ، أزْد عُمانِ
فلهمْ عليّ بذاكَ حادِثُ نعمةٍ ولحُبِّهمْ أحببتُ كلّ يمانِ
لَوْ كَانَ يَدْفَعُ عَنْ مَنيّةِ هَالِكٍ طولُ الأكفِّ بذابلِ المُرّانِ
أو معشرٌ وصلوا الخطاَ بسيوفِهمْ وَسطَ العَجَاجَة والحتوفُ دَوانِ
ما نيلَ عَمْرٌ والحوادث جَمّةٌ حتى ينـــال النجم والقمرانِ
لو غَـــيرُ الأشترِ نالَهُ لندبتهُ وبكيتهُ ما دامَ هَضْبُ أبانِ (١)
لَـكِنّهُ مَنْ لَا يُعابُ بِقَتْــــله أسدُ الأسود وفارسُ الفُرْسَانِ

قال أبو مخنف : وبَلغنا أنّ عبد الرحمن بن طود البكرىّ قال لقومه : أنا والله قتلت عمرا ، وإنّ الأشتر كان بَعْدِى وأنا أمامه فى الصعاليك ، فطعنت عمرا طعنة لم أحسب أنها تجعل للأشتر دونى ، وإنّما الأشتر ذو حظّ فى الحرب ، وإنّه ليعلم أنه كان خَلْفى ، ولـكن أبى الناس إلا أنّه صاحبه ، ولا أرى أن أكون خصم العامة ، وإنّ الأشتر لأهلٌ ألا ينازَع . فلما بلغ الأشترَ قولُه قال : أما والله لولا أنى أطفأت جَمْرته عنه ما دنا منه ، وما صاحبه غيرى ، وإنّ الصّيد لمن وَقَذه . فقال عبد الرحمن : لا أنازِع فيه ، ما القول إلا ما قاله ، وأنّى لى أن أخالف الناس !

***

قال : وخرج عبد الله بن خَلَف الخزاعىّ ، وهو رئيس البصرة ، وأكثر أهلها مالا وضياعا ، فطلب البِراز ، وسأل ألّا يخرج إليه إلا علىّ عليه السلام ، وارتجز فقال :

أبا تراب أدْنُ مِنّى فِتْرا (٢) فإنّنى دانٍ إليك شِــبْرَا
* وإنّ فى صَدْرِى عليك غِمْرا (٣) *

(١) أبان : من أسماء الجبال عندهم .
(٢) كذا فى ا ، وفى ب « ياباتراب » .
(٣) الغمر : الحقد والعداوة .

فخرج إليه عليّ عليه السلام ، فلم يُمهِله أن ضَرَبه ، ففلق هامته .

* * *

قالوا : استدار الجمل كما تدور الرَّحا ، وتكاثفت الرجال من حوله ، واشتد رُغاؤه ، واشتدّ زحام الناس عليه ، ونادى الحُتات المجاشعيّ : أيها الناس ، أمّكم أمّكم ! واختلط الناس فضرب بعضُهم بعضا ، وتقصّد أهلُ الكوفة قصْد الجمل ؛ والرجال دونه كالجبال ، كلّما خفّ قوم جاء أضعافهم . فنادى عليّ عليه السلام : ويحكم ! ارْشُقوا الجمل بالنَّبْل ، اعقِروه لعنه الله ! فرُشِق بالسهام ، فلم يبقَ فيه موضع إلا أصابه النَّبْل ، وكان مجفَفاً [١] فتعلّقت السهام به ، فصار كالقنفذ ، ونادت الأزْد وضَبّة : ياثارات عثمان ! فاتخذوها شعارا ، ونادى أصحاب عليّ عليه السلام : يامحمد ! فاتخذوها شعارا ، واختلط الفريقان ؛ ونادى عليّ عليه السلام بشعار رسول الله صلى الله عليه وآله : يا منصور أمِتْ [٢] . وهذا في اليوم الثاني من أيام الجمل ، فلما دعا بها تزلزلت أقدامُ القوم ، وذلك وقت العصر ، بعد أن كانت الحرب من وقت الفجر .

قال الواقديّ : وقد رُوِيَ أن شعاره عليه السلام كان في ذلك اليوم « حمٓ لا ينصرون . اللهم انصرنا على القوم الناكثين » ثم تحاجز الفريقان ، والقَتْل فاشٍ فيهما ، إلّا أنه في أهل البصرة أكثر ، وأمارات النصر لائحة لعسكر الكوفة ، ثم تواقفوا في اليوم الثالث ، فبرز أوّلَ الناس عبد الله بن الزبير ، ودعا إلى المبارزة ، فبرز إليه الأشتر ، فقالت عائشة : مَنْ برز إلى عبد الله ؟ قالوا : الأشتر ، فقالت : وَاثُكْلَ أسماء ! فضربَ كلٌّ منهما صاحبَه فجرحه ، ثم اعتنقا ، فصرع الأشتر عبدَ الله ، وقعدَ على صدره ، واختلط الفريقان : هؤلاء لينقذوا عبد الله ، وهؤلاء ليُعينوا الأشتر . وكان الأشتر طاوياً ثلاثة أيام

---

(١) كان مجففا ، أى ألبس التجفاف ، وهو آلة الحرب توضع على الفرس .

(٢) هو أمر بالموت ، والمراد به التفاؤل بالنصر بعد الأمر بالإماتة ، مع حصول الغرض (النهاية لابن الأثير)

لم يَطْعَم - وهذه عادته فى الحرب - وكان أيضاً شيخاً عاليَ السنّ ، فجعل عبد الله ينادى :

* اقتلونى ومالـكا [1] *

فلو قال : « اقتلونى والأشتر » لقتلوهما ، إلا أنّ أكثرَ من كان يمرّ بهما لا يعرفهما؛ لـكثرة مَنْ وقع فى المعركة صَرْعى بعضُهم فوق بعض ، وأفلت ابن الزبير مِنْ تحته ولم يكد ، فذلك قول الأشتر :

أعائشُ لولا أننى كُنتُ طَاوِياً ... ثلاثا لألفَيتِ ابنَ أُختِكِ هَالِـكَا
غَـداةَ ينادى والرِّجالُ تحوزهُ ... بأضعف صوت: اُقتلُونى ومالـكا!
فلَمْ يعرِفُوه إذ دعاهم وغَمَّهُ ... خِدَبٌ عليـه فى العَجَاجَة بارِكا [2]
فنجّاه مـــنّى أكلُه وشبابه ... وأنّى شَيْخٌ لم أكن متماسكا

* * *

وروى أبو مخنف عن الأصبغ بن نُباتة،قال:دخل عمّار بن ياسر ومالك بن الحارث الأشتر على عائشة بعـد انقضاء أمر الجمـل ، فقالت عائشة : ياعمّار ، مَنْ معك؟ قال : الأشتر. فقالت : يامالك ، أنت الذى صنعتَ بابن أختى ما صنعت ؟ قال : نعم ، ولولا أنّى كنت طاويا ثلاثة أيام لأرَحْتُ أمة محمد منه ، فقالت : أما علمتَ أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يحلّ دم مسلم إلا بأحد أمور ثلاثة : كفر بعد إيمـان ، أو زناً بعد إحصان ، أو قتل نفس بغير حق » ! فقال الأشتر : عَلَى بعض هذه الثلاثة قاتلناه ياأم المؤمنين، وايمُ الله ماخاننى سيفى قبلها ، ولقد أقسمت ألّا يصحبَنى بعدها .

قال أبو مخنف : فنى ذلك يقول الأشتر من جملة هذا الشعر الذى ذكرناه :

وَقَالَتْ على أىّ الخصال صرعتَه ... بقتلٍ أتى ، أم رِدَّةٍ لا أبا لَـكَا!
أم المحصَن الزّانى الذى حَلّ قتلُه ... فقلت لها لابُدّ من بعض ذلـكا

* * *

(١) بقيته :

* واُقتُلُوا مَالِـكاً مَعِى *

وانظر المسعودي ٢ : ٣٧٦

(٢) الخدب : الضخم .

قال أبو مِخنف : وانتهى الحارث بن زهير الأزديّ من أصحاب عليّ عليه السلام إلى الجمل ، ورجل [1] آخذ بخِطامه ، لا يدنو منه أحد إلا قتله ، فلما رآه الحارث بن زهير مشى إليه بالسيف وارتجز ، فقال لعائشة :

يا أمّنا أعقّ أمٍّ نَعلَمُ [2] والأمّ تغذو وُلدَها وتَرحَمُ
أما تَرين كم شجاعٍ يُكلَمُ ! وتُختَلَى هامتُه والمِعصَمُ ! [3]

فاختلف هو والرجل ضربتين ، فكلاهما أثخن صاحبه .

قال جندب بن عبد الله الأزديّ : فجئت حتى وقفت عليهما وهما يفحصان بأرجلهما حتى ماتا . قال : فأتيتُ عائشة بعد ذلك أسلّم عليها بالمدينة ، فقالت : مَنْ أنت ؟ قلت : رجل من أهل الكوفة ، قالت : هل شهِدتنا يوم البصرة ؟ قلت : نعم ، قالت : مع أيّ الفريقين ؟ قلت : مع عليّ ، قالت : هل سمعتَ مقالة الذى قال :

* يا أمّنا أعقّ أمٍّ نَعلَمُ *

قلت : نعم ، وأعرفه ، قالت : ومن هو ؟ قلت : ابن عمّ لى ، قالت : وما فعل؟ قلت: قُتل عند الجمل ، وقُتل قاتله ، قال : فبكت حتى ظننت والله أنها لا تسكت ، ثم قالت : لوددت والله أنى كنت مِتّ قبل ذلك اليوم بعشرين سنة .

قالوا : وخرج رجل من عسكر البصرة يعرف بخبّاب بن عمرو الراسبيّ ، فارتجز فقال:

أضرِبُهُمْ ولَوْ أرى عَليّا عَمَّمْتُه أبيضَ مَشْرَفيّا
* أريح منه مَعْشراً غويّا *

فصمد عليه الأشتر فقتله .

ثم تقدّم عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس وهو

(١) هو عمرو بن الأشرف . الطبرى ٥ : ٢١١ .

(٢) ذكر الطبرى رواية أخرى فى هذا الرجز :

* يا أمّنا ياخيْرَ أمٍّ نَعلَمُ *

(٣) تختلى : تقطع .

من أشراف قريش ـ وكان اسم سيفه « ولول » ـ فارتجز ، فقال :

أَنَا ابْنُ عَتَّابٍ وَسَيْفِي وَلْوَلْ   والموتُ دون الْجَمَلِ المجلَّلْ[(١)]

فحمل عليه الأشتر فقتله . ثم خرج عبد الله بن حكيم بن حزام من بنى أسد بن عبد العُزّى بن قصىّ ، من أشراف قريش أيضاً ، فارتجز وطلب المبارزة ، فخرج إليه الأشتر فضربه على رأسه فصرعه ، ثم قام فنجا بنفسه .

قالوا : وأخذ خِطام الجمل سبعون من قريش ، قُتلوا كلّهم ، ولم يكن يأخذ بخِطام الجمل أحدٌ إلا سالت نفسه ، أوقطعت يده . وجاءت بنو ناجية فأخذوا بخِطام الجمل ، ولم يكنْ يأخذ الخطامَ أحد إلا سألت عائشة : من هذا ؟ فسألت عنهم ، فقيل : بنو ناجية ؛ فقالت عائشة : صبراً يابنى ناجية ، فإنى أعرف فيكم شمائل قريش . قالوا : وبنو ناجية مطعون فى نسبهم[(٢)] إلى قريش[(٢)] ، فقتلوا حولها جميعا .

قال أبو مخنف : وحدثنا إسحاق بن راشد عن عبد الله بن الزبير ، قال : أمسيتُ يوم الجمل وبى سبعة وثلاثون جُرحا ، من ضربة وطعنة ورَمْية ، وما رأيتُ مثلَ يوم الجمل قط ، ما كان الفريقان إلّا كالجبلين لا يزولان .

قال أبو مخنف : وقام رجل إلى علىّ عليه السلام فقال : يا أميرَ المؤمنين ، أىّ فتنة أعظم من هذه ؟ إن البَدْرِيّة لَيمشى بعضها إلى بعض بالسيف ، فقال علىّ عليه السلام : ويحك ! أتكون فتنة أنا أميرها وقائدها ! والّذى بعث محمدا بالحق وكرّم وجهه ، ما كَذَبْتُ ولا كُذِّبْتَ ، ولا ضَلَلْتُ ولا ضُلّ بى ، ولا زَلَلْتُ ولا زُلّ بى ، وإنى لَعلى بيّنة من ربّى ، بيّنها الله لرسوله ، وبيّنها رسوله لى ، وسأُدْعَى يوم القيامة ولا ذَنْب لى ، ولو كان لى ذنب لكفّر عنى ذنوبى ما أنا فيه من قتالهم .

قال أبو مخنف : وحدّثنا مسلم الأعور عن حَبّة العُرَنىّ قال : فلما رأى علىّ عليه السلام

---

(١) ب : « عند الجمل » .   (٢ ـ ٢) ساقط من ب .

أن الموتَ عند الجمل ، وأنه مادام قائماً فالحرب لا تُطفأ ، وضع سيفه على عاتقه ، وعطف نحوه ، وأمر أصحابه بذلك ، ومشى نحوه والخطام مع بنى ضَبّة ، فاقتتلوا قتالا شديدا ، واستحرّ القتْل فى بنى ضَبّة ، فقتل منهم مقتلة عظيمة ، وخَلَص علىّ عليه السلام فى جماعة من النّخَع وهَمْدان إلى الجمل ، فقال لرجل من النّخَع اسمه بُجَير : دونَك الجمل يا بُجير ، فضرب عَجُزَ الجمل بسيفه فوقع لجنبه ، وضرب بجِرانه الأرض ، وعجّ عجيجا لم يُسْمع بأشدّ منه ، فما هو إلا أنْ صُرِع الجمل حتى فرّت الرجال ، كما يطير الجراد فى الريح الشديدة الهبوب ، واحتُملت عائشة بهودجها ، فحُملت إلى دار عبد الله بن خَلَف ، وأمر علىّ عليه السلام بالجمل أنْ يُحرَق ثم يذَرّى فى الريح . وقال عليه السلام : لعنه الله من دابّة ! فما أشبَهه بعجل بنى إسرائيل ، ثم قرأ : ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾[1] .

---

(١) سورة طه ٩٧ .

(١٤)

الأصْـلُ :

ومن كلام له عليه السلام فى مثل ذلك :

أَرْضُـكُمْ قَرِيبَةٌ مِنَ الْمَاءِ ، بَعِيدَةٌ مِنَ السَّمَاءِ . خَفَّتْ عُقُولُـكُمْ ، وَسَفِهَتْ حُلُومُـكُمْ ؛ فَأَنْتُمْ غَرَضٌ لِنَابِلٍ ، وَأُكْلَةٌ لآكِلٍ ، وفَرِيسَةٌ لِصَائِلٍ .

***

الشَّـرْحُ :

الغَرَض : ما يُنصَب ليُرمى بالسهام . والنَّابِل : ذو النَّبْل . والأُكْلة ، بضم الهمزة : المأكول . وفريسة الأسد : ما يفترسه .

وسَفِه فلان ، بالكسر ، أى صار سفيها ، وسَفُهَ بالضم أيضا . فإذا قلت : سَفِه فلان رأيَه أو حلمَه أو نفسَه ، لم تقل إلا بالكسر ، لأنّ « فَعُل » بالضم لا يتعدّى . وقولهم : سَفِه فلان نفسَه ، وغَبِن رأيَهُ ، وبَطِر عيشَه ، وأَلِمَ بطنَه ، ورفِق حالَه ، ورَشِد أمرَه ، كان الأصل فيه كله : سَفِهَتْ نفسُ زيد فلما حوّل الفعل إلى الرجل انتصب ما بعده بالمفعوليّة . هذا مذهب البصريين والكسائىّ من الكوفيين .

وقال الفرّاء : لما حُوّل الفعل إلى الرجل خرج ما بعده مفسّرا ليدلّ على أن السفاهة فيه ، وكان حكمه أن يكون : سَفِه زيدٌ نفسا ، لأنّ المفسّر لا يكون إلّا نكرة ، ولكنه ترك على إضافته ، ونُصِب كنصب النكرة ، تشبيها بها .

ويجوز عند البصريين والكسائىّ تقديمُ المنصوب ، كما يجوز : ضرب غلامَه زيدٌ ، وعند الفرّاء لا يجوز تقديمه ، لأن المفسّر لا يتقدّم[1] .

---

(١) الصحاح ٦ : ٢٢٣٥

فأمّا قوله : « أرضُكم قريبة من الماء ، بعيدة من السماء » فقدقدّمنا[1] معنى قوله « قريبة من الماء » وذكرنا غرَقها من بحر فارس دَفعتين ، ومراده عليه السلام بقوله : « قريبة من الماء » ، أى قريبة من الغرَق بالماء . وأما « بعيدة من السماء » ؛ فإنّ أربابَ علم الهيئة وصناعة التنجيم يذكرون أنّ أبعدَ موضع فى الأرض عن السماء الأُبُلّة[2] ، وذلك موافق لقوله عليه السلام .

ومعنى البعد عن السماء ها هنا هو بعد تلك الأرض المخصوصة عن دائرة معدّل النهار والبقاع ، والبلاد تختلف فى ذلك . وقد دلّت الأرصاد والآلات النجُوميّة على أنّ أبعد موضع فى المعمورة عن دائرة معدّل النهار هو الأُبُلّة ، والأبلّة هى قصبة البصرة .

وهذا الموضع من خصائص أمير المؤمنين عليه السّلام ، لأنّه أخبر عن أمر لا تعرفه العرب ، ولا تهتدى إليه ، وهو مخصوص بالمدقّقين من الحكماء . وهذا من أسراره وغرائبه البديعة .

---

(١) ص ٢٥٣ من هذا الجزء .

(٢) الأبلة بضم أوله وثانيه وتشديد اللام وفتحها : بلدة على شاطىء دجلة البصرة العظمى ، فى زاوية الخليج الذى يدخل إلى مدينة البصرة ؛ وهى أقدم من البصرة . مراصد الاطلاع ١ : ١٨ .

(١٥)

الأَصْـلُ :

ومن كلام له عليه السلام فيما رده على المسلمين من قطائع عثمان رضى الله عنه :

وَاللهِ لَوْ وَجَدْتُهُ قدْ تُزُوِّجَ بِهِ النساء ، وَمُلِكَ بِهِ الْإِمَاء ؛ لَرَدَدْتُهُ ؛ فَإِنَّ فِي الْعَدْلِ سَعَةً . وَمَنْ ضَاقَ عَلَيْهِ الْعَدْلُ ، فَالْجَوْرُ عليهِ أَضْيَقُ .

* * *

الشَّـرْحُ :

القطائع : ما يُقطِعه الإمام بعضَ الرعيّة من أرض بيت المال ذاتِ الخراج ، ويُسقط عنه خراجَه ، ويجعلُ عليه ضريبة يسيرة عوضا عن الخراج . وقد كان عثمان أقطع كثيراً من بنى أميّة وغيرهم من أوليائه وأصحابه قطائعَ من أرض الخراج على هذه الصورة ، وقد كان عمرُ أقطع قطائع ؛ ولكن لأربابِ الغَناء فى الحرب والآثار المشهورة فى الجهاد ؛ فعلَ ذلك ثمناً عما بذلوه من مُهَجِهم فى طاعة الله سبحانه ، وعثمان أقطع القطائع صلةً لرَحِمِه، وميلا إلى أصحابه ، عن غير عناء فى الحرب ولا أثر .

وهذه الخطبة ذَكرَها الكلبيّ مرويّةً مرفوعةً إلى أبى صالح، عن ابن عباس رضى الله عنهما : أنّ عليا عليه السلام خَطب فى اليوم الثانى من بيعته بالمدينة ، فقال :

ألا إنّ كلَّ قطيعةٍ أقطعها عُثمان ، وكلَّ مال أعطاهُ من مال الله ، فهو مَرْدود فى بيت المال ، فإنّ الحقّ القديم لا يُبطله شىء ، ولو وجدته وقد[1] تُزوّج به النساء ، وفُرّق فى البلدان ، لرددته إلى حاله[2] ؛ فإنّ فى العدل سعة ، ومَنْ ضاق عنه الحق فالجور عليه أضيق .

---

(١) ب : « قد » .

(٢) ب : « على حاله » .

وتفسيرُ هذا الكلام أنّ الوالِيَ إذا ضاقت عليه تدبيرات أموره فى العدل، فهى فى الجَوْر أضيق عليه؛ لأنّ الجائر فى مَظِنّة أن يُمنع ويُصَدّ عن جوره.

***

قال الكلبيّ: ثم أمر عليه السلام بكلّ سلاح وُجِد لعثمان فى داره مما تقوّى به على المسلمين فقبض، وأمر بقبض نجائب كانت فى داره من إبل الصدقة، فقبضت، وأمر بقبض سيفه ودرعه، وأمر ألّا يعرض لسلاح وُجد له لم يقاتل به المسلمون، وبالكفّ عن جميع أمواله التى وجدت فى داره وفى غير داره، وأمر أن تُرتجع الأموال التى أجاز بها عثمان حيث أصيبت أو أصيب أصحابها.

فبلغ ذلك عَمْرو بن العاص، وكان بأَيْلة من أرض الشام، أتاها حيث وثب الناس على عثمان، فنزلها فكتب إلى معاوية: ما كنت صانعاً فاصنع، إذ قَشَرك ابن أبى طالب من كلّ مال تملكه كما تُقْشَر عن العصا لِحاها.

وقال الوليد بن عُقْبة ـ وهو أخو عثمان من أمه ـ يذكر قبض علىّ عليه السلام نجائبَ عثمان وسيفَه وسلاحه (١):

بَنِى هاشمٍ رُدُّوا سلاحَ ابنِ أختِكُمْ ... وَلَا تَنْهبُوه لَا تَحِلُّ مَناهِبُهْ
بَنِى هاشمٍ كيف الهَوادةُ بيننا ... وعِنْدَ علىٍّ دِرْعُهُ ونَجائبُهْ!
بَنِى هاشمٍ كيف التَّوَدُّدُ مِنكُمُ ... وبَزُّ ابنِ أرْوَى فيكُمُ وحَرائبُهْ! (٢)
بنى هاشم إلّا تردُّوا فإنّنا ... سواء علينا قاتلاه وسالبُه
بنى هاشم إنّا وما كان منكُمُ ... كصَدْعِ الصَّفا لا يشعَبُ الصَّدْعَ شاعِبُهْ
قَتَلْتُمْ أخِى كيما تكونُوا مكانَهُ ... كما غدرتْ يوماً بِكِسْرَى مَرازِبُهْ (٣)

(١) الأبيات فى المسعودى ٢: ٣٥٦؛ والأغانى ٤: ١٧٥ (ساسى)، والكامل ٣: ٢٨ مع اختلاف فى الرواية وترتيب الأبيات.

(٢) البز: متاع البيت من الثياب. والحرائب: جمع حريبة؛ وهو مال الرجل الذى يقوم به أمره؛ ورواية البيت فى المسعودى:

بَنِى هاشمٍ كيفَ الهَوادةُ بيننا ... وسَيْفُ ابنِ أرْوَى عِندَكُم وحَرائبُهْ

(٣) رواية المسعودى:

* غدرْتُمْ بِهِ كَيْما تكونُوا مكانَهُ *

فأجابه عبد الله بن أبى سفيان بن الحارث بن عبد المطّلب بأبيات طويلة[١] من جملتها:

فَلَا تَسْأَلُونا سَيْفَكُمْ إِنَّ سَيْفَكُمْ … أُضِيعَ وأَلْقَاهُ لَدَى الرَّوْعِ صَاحِبُهْ

وَشَبَّهْتَهُ كِسْرَى وقد كان مثله … شبيها بِكِسْرى هَدْيُهُ وَضَرَائِبُهْ

أى كان كافرا كما كان كسرى كافرا .

وكان المنصور رحمه الله تعالى إذا أنشد هذا الشعر[٢] يقول : لعن الله الوليد ! هو الذى فَرَّق بين بنى عبد مناف بهذا الشعر !

---

(١) نسبها المسعودى وصاحب الأغانى الى الفضل بن العباس بن عتبة بن أبى لهب .

(٢) ب : « البيت » .

(١٦)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام لما بويع بالمدينة :

ذِمَّتِي بِمَا أَقُولُ رَهِينَةٌ ، وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ . إِنَّ مَنْ صَرَّحَتْ لَهُ الْعِبَرُ عَمَّا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْمَثُلَاتِ ، حَجَزَتْهُ التَّقْوَى عَنْ تَقَحُّمِ الشُّبُهَاتِ . أَلَا وَإِنَّ بَلِيَّتَكُمْ قَدْ عَادَتْ كَهَيْئَتِهَا يَوْمَ بَعَثَ اللهُ نَبِيَّهُ[(١)] . وَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ لَتُبَلْبَلُنَّ بَلْبَلَةً ، وَلَتُغَرْبَلُنَّ غَرْبَلَةً ، وَلَتُسَاطُنَّ سَوْطَ الْقِدْرِ ؛ حَتَّى يَعُودَ أَسْفَلُكُمْ أَعْلَاكُمْ ، وَأَعْلَاكُمْ أَسْفَلَكُمْ ، وَلَيَسْبِقَنَّ سَابِقُونَ كَانُوا قَصَّرُوا ، وَلَيُقَصِّرَنَّ سَبَّاقُونَ كَانُوا سَبَقُوا .

وَاللهِ مَا كَتَمْتُ وَشْمَةً ، وَلَا كَذَبْتُ كِذْبَةً ، وَلَقَدْ نُبِّئْتُ بِهَذَا الْمَقَامِ وَهَذَا الْيَوْمِ .

أَلَا وَإِنَّ الْخَطَايَا خَيْلٌ شُمُسٌ حُمِلَ عَلَيْهَا أَهْلُهَا ، وَخُلِعَتْ لُجُمُهَا ، فَتَقَحَّمَتْ بِهِمْ فِي النَّارِ .

أَلَا وَإِنَّ التَّقْوَى مَطَايَا ذُلُلٌ ، حُمِلَ عَلَيْهَا أَهْلُهَا ، وَأُعْطُوا أَزِمَّتَهَا ، فَأَوْرَدَتْهُمُ الْجَنَّةَ .

حَقٌّ وَبَاطِلٌ ، وَلِكُلٍّ أَهْلٌ ، فَلَئِنْ أَمِرَ الْبَاطِلُ لَقَدِيمًا فَعَلَ ، وَلَئِنْ قَلَّ الْحَقُّ لَرُبَّمَا وَلَعَلَّ ؛ وَلَقَلَّمَا أَدْبَرَ شَيْءٌ فَأَقْبَلَ .

* * *

(٢) قال الرضيّ عليه السلام(٢) : وأقول : إنّ في هذا الكلام الأدنى من مواقع

---

(١) كذا في ا ومخطوطة النهج ، وفي ب : « نبيهم » .

(٢ ـ ٢) ساقط من ب

الإِحْسَانَ مَا لا تَبْلُغُهُ مَوَاقِعُ الاسْتِحْسَانِ . وَإِنَّ حَظَّ العَجَبِ مِنْهُ أَكْثَرُ مِنْ حَظِّ العُجْبِ بِهِ ، وَفِيهِ مَعَ الحَالِ الَّتِي وَصَفْنَا[1] زَوَائِدُ مِنَ الفَصَاحَةِ لَا يَقُومُ بِهَا لِسَانٌ ، وَلَا يَطَّلِعُ فَجَّهَا[2] إِنْسَانٌ ، وَلَا يَعْرِفُ مَا أَقُولُ إِلَّا مَنْ ضَرَبَ فِي هَذِهِ الصِّنَاعَةِ بِحَقٍّ ، وَجَرَى فِيهَا عَلَى عِرْقٍ ، ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا العَالِمُونَ ﴾ .

***

ومن هذه الخطبة :

شُغِلَ مَنِ الجَنَّةُ وَالنَّارُ أَمَامَهُ . سَاعٍ سَرِيعٌ نَجَا ، وَطَالِبٌ بَطِيءٌ رَجَا ، وَمُقَصِّرٌ فِي النَّارِ هَوَى .

اليَمِينُ وَالشِّمَالُ مَضَلَّةٌ ، وَالطَّرِيقُ الوُسْطَى هِيَ الجَادَّةُ ، عَلَيْهَا بَاقِي[3] الكِتَابِ وَآثَارُ النُّبُوَّةِ ، وَمِنْهَا مَنْفَذُ السُّنَّةِ ، وَإِلَيْهَا مَصِيرُ العَاقِبَةِ .

هَلَكَ مَنِ ادَّعَى ، وَخَابَ مَنِ افْتَرَى .

مَنْ أَبْدَى صَفْحَتَهُ لِلْحَقِّ هَلَكَ عِنْدَ جَهَلَةِ النَّاسِ . وَكَفَى بِالمَرْءِ جَهْلًا أَلَّا يَعْرِفَ قَدْرَهُ .

لَا يَهْلِكُ عَلَى التَّقْوَى سِنْخُ أَصْلٍ ، وَلَا يَظْمَأُ عَلَيْهَا زَرْعُ قَوْمٍ ؛ فَاسْتَتِرُوا فِي بُيُوتِكُمْ ، وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ، وَالتَّوْبَةُ مِنْ وَرَائِكُمْ ، وَلَا يَحْمَدْ حَامِدٌ إِلَّا رَبَّهُ ، وَلَا يَلُمْ لَائِمٌ إِلَّا نَفْسَهُ .

***

(١) مخطوطة النهج : « وصفناه » .
(٢) الفج : الطريق الواسع بين جبلين ، وطلع الطريق : بلغه .
(٣) مخطوطة النهج : « ماق الكتاب » .

الشَّرح :

الذِّمّة : العقد والعهد ، يقول : هذا الدَّين في ذمّتي ، كقولك : في عنقي ؛ وهما كناية عن الالتزام والضمان والتقلّد. والزّعيم: الكفيل، ومخرج الكلام لم مخرج الترغيب في سماع مايقوله ، كما يقول المهتمّ بإيضاح أمر لقوم لهم : أنا المُدْرِكُ المتقلّد بصدق ما أقوله لكم. وصرّحت: كشفت. والعِبَر: جمع عِبْرة، وهي الموعظة. والمَثُلات: العقوبات . وحجزه : منعه.

وقوله : « لَتُبَلْبَلُنَّ » أي لَتُخلَطُنَّ ، تبلبلت الألسن ، أي اختلطت . « ولَتُغَرْبَلُنَّ » ، يجوز أن يكون من الغِرْبال الذي يُغَرْبَلُ به الدّقيق ، ويجوز أن يكون من غَرْبَلْتُ اللحم ، أي قطعته . فإنْ كان الأول كان له معنيان : أحدهما الاختلاط ، كالتبلبل ، لأن غربلة الدقيق تخلط بعضَه ببعض . والثاني أن يريدَ بذلك أنه يَستَخلِصُ الصالح منكم من الفاسد ، ويَتميّز كما يتميّزُ الدقيق عند الغَرْبلة من نُخالته .

وتقول : ما عصيت فلاناً وَشْمة ، أي كلمة . وحِصان شَموس : يمنع ظهره ، شَمَس الفرسُ ، بالفتح ، وبه شِماس . وأَمِرَ الباطل : كَثُرَ .

وقوله : « لقديماً فعل » ، أي لقديما فعل الباطل ذلك ، ونَسَب الفعل إلى الباطل مجازا . ويجوز أن يكون « فعل » بمعنى « انفعل » كقوله[1] :

* قَدْ جَبَرَ الدِّينَ الإلٰهُ فَجَبَرْ *

أي فانجبر . والسِّنْخ : الأصل ، وقوله : « سِنْخ أصل » كقوله[2] :

* إذا خاصَ عَيْنَيْهِ كَرَى النَّوْمِ . . . *

وفي بعض الروايات : « من أبدى صفحته للحق هلك عند جهلة الناس » ، والتأويل مختلف ، فراده على الرواية الأولى — وهي الصحيحة — مَنْ كاشف الحقّ مخاصما له هَلَك ،

---

(١) مطلع أرجوزة للعجاج ، ديوانه ١٥ ، واللسان ٥ : ١٨٥ .

(٢) لتأبط شرا ، والبيت برواية أبي تمام في الحماسة — بشرح المرزوقي ١ : ٩٧ :

إذا خاط عينيه كَرَى النومِ لَمْ يزَلْ   لَهُ كالئٌ مِنْ قَلْبِ شَيْحَانَ فَاتِكِ

وهى كلمة جارية مَجْرَى المثل . ومراده على الرواية : الثانية : مَنْ أبدى صفحته لنُصْرَة الحق غَلَبَه أهلُ الجهل ـ لأنهم العامّة ، وفيهم الكثرة ـ فهلك .

***

وهذه الخطبة من جلائل خطبه عليه السلام ومن مشهوراتها ، قد رواها الناس كلّهم ، وفيها زيادات حذفها الرضىّ ، إمّا اختصاراً أو خوفا من إيحاش السامعين ، وقد ذكرها شيخنا أبو عثمان الجاحظ فى كتاب " البيان والتبيين " (١) على وجهها ، ورواها عن أبى عُبيدة مَعْمَر بن المُثنى .

قال : أوّل خطبة خطبها أمير المؤمنين علىّ عليه السلام بالمدينة فى خلافته (٢) حمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبى صلى الله عليه وآله (٢) ، ثم قال :

ألا لَا يُرْعِيَنّ (٣) مُرْعٍ إلّا على نفسه . شُغِل مَن الجنّة والنارُ أمامه (٤) . ساعٍ مجتهد [ينجو] (٥) ، وطالب يرجو ، ومقصّر فى النار (٦) ؛ ثلاثة . واثنان : مَلَكٌ طار بجناحَيه ، ونبىّ أخذ اللهُ بيده (٧) ؛ لا سادس . هَلَكَ من ادّعى ، وردِيَ من اقتحم . (٨) اليمين والشمال مَضَلّة ، والوسطَى الجادّة (٩) ؛ منهج عليه باقى الكتاب والسُّنّة وآثار النبوة . إن الله داوَى هذه الأمّة بدواءين : السوط والسّيف ؛ لا هَوادة عند الإمام فيهما . استَتِروا فى بيوتكم (١٠) ، وأصلحوا ذات بينكم (١١) ، والتّوبةُ من ورائكم . من أبدَى صفحته

---

(١) البيان والتبيين (٢ : ٥٠ ـ ٥٢) ، ورواها أيضا ابن قتيبة فى عيون الأخبار (٢ : ٢٣٦) .
(٢ ـ ٢) البيان : « أنه قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه » .
(٣) البيان : « أما بعد فلا يرعين » .
(٤) فى البيان : « فإن من أرعى على غير نفسه شغل عن الجنة والنار أمامه » .
(٥) تكملة من البيان والتبيين .
(٦) عند ابن قتيبة فى العيون : « ساع سريع نجا ، وطالب بطىء رجا ، ومقصر فى النار هوى » .
(٧) البيان والعيون : « بيديه » . (٨) البيان : « فإن اليمين » .
(٩) الجادة : الطريق الواضح .
(١٠) البيان : « استتروا ببيوتكم » ، والعيون : « فاستتروا ببيوتكم » .
(١١) البيان : « وأصلحوا فيما بينكم » .

للحقّ هلك . قد كانتْ [لـكم] (١) أمور [مِلْتُمْ فيها علىّ مَيْلَة] (١) لم تـكونوا عندى فيها محمودين (٢) [ولا مُصيبين] (١) . أما إنّى لو أشاء لقلتُ ، عفا الله عمّا سلف . سبق الرّجلان وقام الثالث كالغراب هِمّتُهُ بَطْنه . ويحَهُ (٣) لو قُصّ جَناحاه ، وقُطع رأسه لـكان خيراً له !

انظروا فإن أنـكرتم فأنـكِروا ، وإنْ عرفتم فآزِروا . حَقٌّ وباطل ، ولـكلٍّ أهل. ولئن أمِرَ الباطلُ لقديماً فَعَل ، ولئن (٤) قلّ الحق لَرُبّما ولَعَلّ ، وَقلّما أدبر شىء فأقبل (٥) . ولئن رَجَعَتْ إليكم أمورُكم إنـكم لَسعداء ، وإنى لأخشَى أن تـكونوا فى فَترةٍ ، وما علينا إلّا الاجتهاد .

قال شيخنا أبو عثمان رحمه الله تعالى : وقال أبو عبيدة : وزاد (٦) فيها فى رواية جعفر ابن محمد عليهما السلام عن آبائه عليهم السلام (٦) :

ألا إنّ أبرار عِتْرَتى ، وأطايبَ أرُومتى ، أحلم الناس صغارا ، وأعلم الناس كبارا . ألا وإنّا أهل بيت مِنْ علم الله علمنا ، وبحُكْمِ الله حـكمنا ، ومِنْ قولِ صادق سَمِعْنا ، فإن تَتّبِعوا آثارنا تهتدوا ببصائرنا ، وإنْ لم تفعلوا يُهْـلِـكْـكُم الله بأيدينا . ومعنا رايةُ الحق؛ مَنْ تبعها لَحِق ، ومَنْ تأخّر عنها غَرِق . ألا وبنا يُدْرَكُ تِرَةُ كل مؤمن ، وبنا تُخلع رِبْقَة الذلّ عن أعناقـكم (٧) وبنا فُتِح (٨) لا بكم ، ومنا يُخْتَمُ لا بِكُمْ .

* * *

قوله : « لا يُرْعِيَنّ » أى لا يبقِيَنّ ، أرعيتُ عليه ، أى أبقيت ؛ يقول : مَنْ أبقى على الناس فإنما أبقى على نفسه . والهوادة : الرفق والصلح ، وأصله اللينُ . والتهويد: المشى،

---

(١) تـكملة من البيان والتبيين .

(٢) البيان : « محمودين » .

(٣) البيان : « ياويحه » .

(٤) ب : « وإن » .

(٥) البيان : « ما أدبر شىء فأقبل » .

(٦ – ٦) البيان : « وروى فيها جعفر بن محمد » .

(٧) البيان : « من أعناقـكم » .

(٨) ا ، البيان : « فتح الله » .

رويدا ، وفى الحديث : «أسرعوا المشىَ فى الجنازة ولا تُهوّدوا كما تُهوّد أهل الكتاب ». وآزرتُ زيدا : أعنته . التِّرة : والوتر . والرِّبقة : الحبل يُجعل فى عنق الشاة . وَرِدِيَ : هلك ، من الرَّدَى ، كقولك : عَمِيَ من العَمَى ، وشجِيَ من الشَّجَى .

وقوله : «شُغِلَ مَنِ الجنة والنار أمامه » ؛ يريدُ به أنَّ مَنْ كانت هاتان الداران أمامه لَفِى شُغل عن أمور الدنيا إن كان رشيدا .

وقوله : « ساعٍ مجتهد » إلى قوله : « لا سادس » كلام تقديره : المكلَّفون على خمسة أقسام : ساعٍ مجتهد ، وطالب راجٍ ، ومقصّر هالك . ثم قال : ثلاثة ، أى فهؤلاء ثلاثة أقسام ، وهذا ينظر إلى قوله سبحانه : « ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ »(١) ، ثم ذكر القسمين : الرابع والخامس ، فقال : هما مَلَكٌ طار بجناحيه ، ونبىّ أخذ الله بيده ؛ يريد عِصْمَة هذين النوعين من القبيح ، ثم قال : « لا سادس » ، أى لم يبق فى المكلّفين قسم سادس . وهذا يقتضِى أنَّ العِصْمة ليست إلّا للأنبياء والملائكة ، ولو كان الإمام يجب أن يكون معصوما لكان قسما سادسا ، فإذن قد شهد هذا الكلام بصحة ماتقوله المعتزلةُ فى نفى اشتراط العصمة فى الإمامة ، اللهم إلاّ أنْ يُجعل الإمام المعصوم داخلا فى القسم الأول ، وهو الساعى المجتهد . وفيه بُعْد وَضَعْف .

وقوله : « هلك مَنِ ادّعى ، وَرَدِيَ مَنِ اقتحَم » ، يريد هلكَ مَنِ ادّعى وكذب ، لا بدّ من تقدير ذلك ؛ لأنّ الدعوى تعمّ الصِّدق والكذب ، وكأنه يقول: هلكَ مَنِ ادّعى الإمامة ، وَرَدِى مَن اقتحمها وَوَلَجها عن غير استحقاق ؛ لأنّ كلامه عليه السلام فى هذه الخطبة ، كلُّه كنايات عن الإمامة لا عن غيرها .

---

(١) سورة فاطر ٣٢ .

وقوله : « اليمين والشمال »، مثال لأنّ السالك الطريقَ المَنْهَجَ اللاحب ناجٍ ، والعادل عنها يميناً وشمالاً مُعرَّض للخطر .

ونحو هذا الكلام ما رُوِي عن عمر، أنه لما صدر عن مِنًى في السنة التي قتل فيها، كوَّم كَوْمةً من البَطْحاء (١) فقام عليها ، فخطب الناس ، فقال : أيّها الناس ، قد سُنّت لكم السّنن ، وفُرِضت لكم الفرائض، وتُرِكْتُم على الواضحة ، إلّا أن تميلوا بالناس يمينا وشمالا، ثم قرأ : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ (٢)، ثم قال : ألا إنهما نَجْدا الخير والشرّ ؛ فما جعل نجدَ الشرّ أحبَّ إليكم من نَجْد الخير .

* * *

[من كلام للحجّاج وزياد نسَجَا فيه على منوالِ كلام علىّ]

وقوله : « إن الله دَاوَى هذه الأمّة بدواءين » كلام شريف ، وعلى منواله نسج الحجّاج وزياد كلامَيهما المذكور فيه السوط والسيف . فمن ذلك قول الحجّاج (٣) :

مَن أعياه داؤه فعليّ دواؤه ، ومن استبطأ أجلَه فعليّ أن أعجّله ، ومن استثقلَ رأسه وضعت عنه ثِقْلَه ، ومَن استطال ماضيَ عمره قصّرتُ عليه باقيه . إنّ للشيطان طَيْفاً ، وإن للسلطان سيفاً ، فمن سَقِمت سريرتُه ، صحّتْ عقوبته ، ومَنْ وَضَعه ذنبُه ، رفعه صَلْبُه ، ومَنْ لم تسعه العافية ، لم تَضِقْ عنه المَلَكة ؛ ومَنْ سبقته بادرةُ فمِه ، سَبَق بدنَه سفكُ دمه . إنى لأُنذِر ثم لا أُنظِر ، وأُحذِّر ثم لا أعذِر ، وأتوعّد ثم لا أغفر ؛ إنما أفسدكم (٤) تَرقيقُ وُلاتكم . ومَنِ استرخى لَبَبُه (٥)، ساء أدبُه . إن الحزْمَ والعزْم سَلَبانى

(١) البطحاء : التراب السهل مما جرته السيول .
(٢) سورة البلد ٨ — ١٠ .
(٣) نهاية الأرب ٧ : ٢٢٤ ، صبح الأعشى ١ : ٢٢٠ ، سرح العيون ١٨٤ .
(٤) فى صبح الأعشى : « ترنيق » ، والترنيق : الضعف فى الأمر .
(٥) اللبب : مايشد فى صدر الدابة ليمنع استئخار الرحل ؛ يريد أن الموادة واللين لما يفسد الرعية .

سوطى ،(١ وجعلا سوطى سيفى ١)، فقائمُهُ فى يَدِى ، ونِجَادُهُ(٢) فى عُنقى ، وذُبَابُه(٣) قِلادةٌ لِمَنْ عَصانى. والله لا آمرُ أحداً أن يخرُجَ من (٤ باب من ٤) أبوابِ المسجد فيخرجَ من الباب الذى يليه إلا ضربت عنقه .

ومن ذلك قولُ زياد :

إنما هو زَجْر بالقول ، ثم ضَرْب بالسّوط ، ثم الثالثة التى لا شَوَى(٥) لها . فلا يكونَنّ لسانُ أحدِكم شَفْرَةً(٦) تجرى على أوْداجه(٧) ، وليعلمْ إذا خلا بنفسه أنّى قد حملتُ سيفى بيده ؛ فإن شَهَرَه لم أغمِدْه ، وإن أغمده لم أشهره .

* * *

وقوله عليه السلام : « كالغراب » يعنى الحرصَ والجشع ، والغراب يقع على الجيفة، ويقع على الثّمرة، ويقع على الحبّة؛ وفى الأمثال : «أجشع من غراب» ، و «أحرص من غراب » .

وقوله : « ويحَهَ لو قُصّ » ، يريد لو كان قُتِل أو مات قبل أن يتلبّس بالخلافة لكان خيرا له من أن يعيش ويدخل فيها . ثم قال لهم : أفكروا فيما قد قلت ، فإن كان منكَرا فأنكِروه ، وإن كان حقّا فأعينوا عليه .

وقوله : « استتروا فى بيوتكم » نهىٌ لهم عن العصبيّة(٨) والاجتماع والتحزّب، فقد كان قوم بعد قتل عثمان تكلّموا فى قتله من شيعة بنى أمية بالمدينة

(١ — ١) صبح الأعشى : « وأبدلانى به سيفى » . (٢) النجاد : علاقة السيف .
(٣) ذباب السيف : حده . (٤ — ٤) ساقط من ب ، وهو فى ا وصبح الأعشى.
(٥) لاشوى لها ، أى لا خطأ لها ، أو لا براء ؛ ومنه قول الكميت :

أجِيبُوا رُقَى الآسِى النِّطَاسِيِّ وَاحْذَرُوا ... مُطَفِّئَةَ الرَّضْفِ الَّتِي لَا شَوَى لَهَا

(٦) الشفرة : السكين العظيم ، أو ما عرض من الحديد وحدد .
(٧) الأوداج : عروق العنق .
(٨) ا : « العصبة » .

وأما قوله : « قد كانت أمور لم تكونوا عندى فيها محمودين » ، فمراده أمرُ عثمان وتقديمه فى الخلافة عليه . ومن الناس مَنْ يحمِلُ ذلك على خلافة الشيخين أيضاً . ويبعدُ عندِي أن يكونَ أراده ، لأنّ المدة قد كانت طالتْ ، ولم يَبْقَ مَنْ يعاتبه ليقول : قد كانت أمور لم تكونوا عندى فيها محمودين ، فإنّ هذا الكلام يُشعر بمعاتبة قوم على أمر كان أنكره منهم . وأمّا بيعة عثمان ، ثمّ ما جرى بينه وبين عثمان من منازعاتٍ طويلة ، وغضب تارة ، وصُلْحٍ أخرى ، ومراسلاتٍ خشنة ولطيفة ، وكون الناس بالمدينة كانوا حزبيْن وفئتين : إحداهما معه عليه السلام ، والأخرى مع عثمان ؛ فإنّ[١] صَرْف الكلام إلى ماقلناه بهذا الاعتبار أليق .

ولسنا نمنع من أن يكون فى كلامه عليه السلام الكثير من التوجّد والتألّم لصرْف الخلافة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله عنه ؛ وإنما كلامنا الآن فى هذه اللفظات التى فى هذه الخطبة ؛ على أنّ قوله عليه السلام : « سبق الرجُلان » والاقتصار على ذلك فيه كفاية فى انحرافه عنهما .

وأما قوله : « حق وباطل . . . » إلى آخر الفصل ، فمعناه كلّ أمر فهو إمّا حقّ وإمّا باطل ، ولكلّ واحدٍ من هذيْن أهلٌ ، وما زال أهل الباطل أكثرَ من أهل الحق ؛ ولئن كان الحقّ قليلا لربّما كَثُر ، ولعله ينتصر أهلُه .

ثم قال على سبيل التضجر بنفسه : « وقلّما أدبرَ شىء فأقبل » ، استبعد عليه السلام أن تعود دولة قوم بعد زوالها عنهم ؛ وإلى هذا المعنى ذهب الشاعر فى قوله :

وَقَالُوا يَعُودُ الماء فى النّهرِ بعد ما ... ذَوَى نبت جَنْبَيْهِ وَجَفّ المَشارِعُ
فقلتُ إلى أن يرجع النهرُ جارياً ... ويُعشب جَنْبَاهُ تموتُ الضفادِعُ

---

(١) ا : « وإن » .

ثم قال : « ولئن رجعت عليكم أموركم » أى إن ساعدنى الوقت ، وتمكنت من أن أحكم فيكم بحكم الله تعالى ورسوله ، وعادت إليكم أيام شبيهة بأيام رسول الله صلى الله عليه وآله ، وسيرةٌ مماثلة لسيرته فى أصحابه ؛ إنكم لَسُعداء .

ثم قال : « وإنى لأخشى أن تكونوا فى فترة » ، الفترةُ هى الأزمنة التى بين الأنبياء إذا انقطعت الرسل فيها ؛ كالفَتْرة التى بين عيسى عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وآله ، لأنه لم يكن بينهما نبىّ ، بخلاف المدة التى كانت بين موسى وعيسى عليهما السلام ، لأنه بُعِث فيها أنبياء كثيرون ، فيقول عليه السلام : إنّى لَأخشى ألّا أتمكن من الحكم بكتاب الله تعالى فيكم ، فتكونوا كالأمم الذين فى أزمنة الفَتْرة لا يرجعون إلى نبىّ يشافههم بالشرائع والأحكام ؛ وكأنه عليه السلام قد كان يعلم أنّ الأمر سيضطرب عليه .

ثم قال : « وماعلينا إلا الاجتهاد » ، يقول : أنا أعمل مايجب علىّ(١ من الاجتهاد(١ فى القيام بالشريعة وعزل ولاة السوء وأمراء الفساد عن المسلمين ، فإنْ تمّ ماأريده فذاك ، وإلا كنت قد أعْذَرْتُ .

وأما التتِمّة المروية عن جعفر بن محمد عليهما السلام فواضحة الألفاظ ، وقوله فى آخرها : « وبنا تُختم لا بِكُم » إشارة إلى المهدىّ الذى يظهر فى آخر الزمان . وأكثر المحدّثين على أنه من وَلَد فاطمة عليها السلام . وأصحابنا المعتزلة لا ينكرونه ، وقد صرّحوا بذكره فى كتبهم ، واعترف به شيوخهم ، إلا أنه عندنا لم يُخْلَق بعد ، وسيخلق .

وإلى هذا المذهب يذهب أصحاب الحديث أيضاً .

وروى قاضى القضاة رحمه الله تعالى عن كافِى الكفاة أبى القاسم إسمعيل بن عبّاد

(١ — ١) ساقط من ب .

رحمه الله بإسناد متصل بعلىّ عليه السلام أنّه ذكر المهدىّ ، وقال : إنه من ولد الحسين عليه السلام ، وذكر حِليتَه[1] ، فقال رجل : أجْلَى الجبين ، أقنى الأنف ، ضخم البطن ، أزيل[2] الفَخِذين ، أبلج الثنايا ، بفخذه اليمنى شامة ...

وذكر هذا الحديث بعينه عبد الله بن قتيبة فى كتاب " غريب الحديث " .

(١) الحلية هنا : الصفة .

(٢) الزيل ، محركة : تباعد ما بين الفخذين ، وهو أزيل .

(١٧)

الأصل:

ومن كلام له عليه السلام في صفة من يتصدّى للحكم بين الأمّة وليس لذلك بأهل:

إنَّ أبْغَضَ الخَلَائِقِ إلَى اللهِ تعالى رَجُلَانِ:

رَجُلٌ وَكَلَهُ اللهُ إلَى نَفْسِهِ؛ فَهُوَ جَائِرٌ عَنْ قَصْدِ السَّبِيلِ، مَشْغُوفٌ بِكَلَامِ بِدْعَةٍ، وَدُعَاءِ ضَلَالَةٍ، فَهُوَ فِتْنَةٌ لِمَنِ افْتَتَنَ بِهِ، ضَالٌّ عَنْ هُدَى مَنْ كَانَ قَبْلَهُ، مُضِلٌّ لِمَنِ اقْتَدَى بِهِ فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَ وَفَاتِهِ. حَمَّالٌ خَطَايَا غَيْرِهِ، رَهْنٌ بِخَطِيئَتِهِ.

وَرَجُلٌ قَمَشَ جَهْلاً، مُوضِعٌ في جُهَّالِ الأُمَّةِ، عَادٍ[1] فِي أَغْبَاشِ الفِتْنَةِ، عَمٍ بِمَا فِي عَقْدِ الهُدْنَةِ، قَدْ سَمَّاهُ أَشْبَاهُ النَّاسِ عَالِماً؛ وَلَيْسَ بِهِ. بَكَّرَ فَاسْتَكْثَرَ مِنْ جَمْعٍ، مَا قَلَّ مِنْهُ خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ، حَتَّى إذَا ارْتَوَى مِنْ آجِنٍ، وَاكْتَنَزَ مِنْ غَيْرِ طَائِلٍ. جَلَسَ بَيْنَ النَّاسِ قَاضِياً، ضَامِناً لِتَخْلِيصِ مَا الْتَبَسَ عَلَى غَيْرِهِ. فَإِنْ نَزَلَتْ بِهِ إحْدَى المُبْهَمَاتِ؛ هَيَّأَ لَهَا حَشْواً رَثّاً مِنْ رَأْيِهِ، ثُمَّ قَطَعَ بِهِ. فَهُوَ مِنْ لَبْسِ الشُّبُهَاتِ فِي مِثْلِ نَسْجِ العَنْكَبُوتِ، لَا يَدْرِي أَصَابَ أَمْ أَخْطَأَ، فَإِنْ أَصَابَ خَافَ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَخْطَأَ، وَإِنْ أَخْطَأَ رَجَا أَنْ يَكُونَ قَدْ أَصَابَ. جَاهِلٌ خَبَّاطُ جَهَالَاتٍ، عَاشٍ رَكَّابُ عَشَوَاتٍ، لَمْ يَعَضَّ عَلَى العِلْمِ بِضِرْسٍ قَاطِعٍ. يُذْرِي الرِّوَايَاتِ إذْرَاءَ الرِّيحِ الهَشِيمَ، لَا مَلِيءٌ واللهِ بِإصْدَارِ مَا وَرَدَ عَلَيْهِ، وَلَا هُوَ أَهْلٌ لِمَا فُوِّضَ إلَيْهِ. لا يَحْسَبُ العِلْمَ فِي شَيْءٍ مِمَّا أَنْكَرَهُ، وَلَا يَرَى أَنَّ مِنْ وَرَاءِ مَا بَلَغَ مَذْهَباً لِغَيْرِهِ، وَإِنْ أَظْلَمَ عَلَيْهِ أَمْرٌ اكْتَتَمَ بِهِ، لِمَا يَعْلَمُ مِنْ جَهْلِ نَفْسِهِ، تَصْرُخُ مِنْ جَوْرِ قَضَائِهِ الدِّمَاءُ، وَتَعِجُّ مِنْهُ

(١) ج: «غاد».

الْمَوَارِيثَ إِلى اللهِ مِنْ مَعْشَرٍ يَعِيشُونَ جُهَّالاً ، وَيَمُوتُونَ ضُلَّالاً ؛ لَيْسَ فِيهِمْ سِلْعَةٌ أَبْوَرُ مِنَ الْكِتَابِ إِذَا تُلِيَ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ، ولا سِلْعَةٌ أَنْفَقُ بَيْعًا ، ولا أَغْلَى ثَمَنًا مِنَ الْكِتَابِ إِذَا حُرِّفَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ، ولا عِنْدَهُمْ أَنْكَرُ مِنَ الْمَعْرُوفِ ، ولا أَعْرَفُ مِنَ الْمُنْكَرِ .

***

الشَّرْحُ :

وكله إلى نفسه : تركه ونفسه ، وكَلْتُهُ وَكْلاً ووُكُولاً . والجائر : الضّال العادل عن الطريق . وقَمَش جهلا : جمعه . ومُوضِع : مسرع ؛ أوضع البعيرُ : أسرع ، وأوضعه راكبُه ، فهو مُوضِعٌ به ، أي أسرَع به .

وأغباش الفتنة: ظُلَمها ، الواحدة غَبَش ، وأغباش الليل : بقايا ظُلْمته ، ومنه الحديث في صلاة الصبح : « والنّساء متلفّعات بمُرُوطِهنّ ما يُعْرَفْن من الغَبَش » والماء الآجن : الفاسد . وأ كثر ، كقولك : «استكثر» ، ويروى : «اكتنز» ، أي اتخذ العلم كنزا .

والتخليص : التبيين ، وهو والتلخيص متقاربان ، ولعلّهما شيء واحد من المقلوب .

والمبهمات : المشكلات ؛ وإنّما قيل لها مُبْهَمَة ، لأنّها أبْهِمَت عن البيان ، كأنها أصمِتَتْ فلم يُجْعَلْ عليها دليل ولا إليها سبيل ، أو جُعِل عليها دليل وإليها سبيل ؛ إلا أنّه متعسّر مستَصعَب ؛ ولهذا قيل لما لا ينطق من الحيوان : بَهيمة ، وقيل للمصمَت اللّون الذي لا شِيَةَ فيه: بَهيم .

وقوله : « حشواً رثّاً » كلام مخرجه الذمّ ، والرثّ : الخَلَق ، ضدّ الجديد .

وقوله : «حشوا» يعني كثيرا لا فائدة فيه. وعاش: خابط في ظلام وقوله: «لم يَعَضّ» يريد أنه لم يُتقِنْ ولم يُحكم الأمور ، فيكون بمنزلة من يَعضُّ بالنّاجذ ، وهو آخر الأضراس وإنما

---

(١) مروطهن : أكسيتهن .

يطلع إذا استحكمت شبيبةُ الإنسان واشتدّتْ مِرّته ؛ ولذلك يدعوه العوامّ ضِرْس الحُلُم[1] ، كأنّ الحلم يأتي مع طلوعه ، ويَذهب نَزَق الصِّبا ؛ ويقولون : رجلٌ مُنَجَّذ ، أي مجرّب مُحكَّم ، كأنه قد عضّ على ناجذه وكَمل عقلُه .

وقوله : « يُذرِي الرّوايات » هكذا أكثر النسخ ، وأكثر الروايات « يُذرِي » من « أذرَى » رباعيا ؛ وقد أوضحه قوله : « إذرَاء الريح » ، يقال : طعنه فأذراه ، أي ألقاه ، وأذريتُ الحبّ للزرع ، أي ألقيته ، فكأنه يقول : يُلقِي الروايات كما يُلقِي الإنسان الشيء على الأرض ؛ والأجود الأصحّ الرواية الأخرى : « يَذرُو الرّوايات ذَرْوَ الريح الهشيم » ، وهكذا ذكر ابن قتيبة في " غريب الحديث " لمّا ذكر هذه الخطبة عن أمير المؤمنين عليه السلام ، قال تعالى : ﴿ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ﴾ ،[2] والهشيم : ما يبس من النّبت وتفتّت :

قوله : « لا مليء » ، أي لاقيّم به ، وفلان غنيّ مليء ، أي ثقة بيّن الملأ والملاء ، بالمد . وفي كتاب ابن قتيبة تتمة هذا الكلام : « ولا أهل لما قُرّظ به » ، قال : أي ليس بمستحِقّ للمدح الذي مُدح به . والذي رواه ابن قتيبة من تمام كلام أمير المؤمنين عليه السلام هو الصحيح الجيّد ؛ لأنه يُستقبَح في العربية أن تقول : لا زيدٌ قائم ، حتى تقول : ولا عمرو ؛ أو تقول : ولا قاعد ؛ فقوله عليه السلام : « لا مليء » أي لا هُوَ مليء ، وهذا يستدعي « لا » ثانية ، ولا يحسن الاقتصار على الأولى .

وقوله عليه السلام : « ما كتمٍ به » أي كتمه وستره . وقوله : « تصرخُ منه وتَعجّ » . العجّ : رفع الصوت ؛ وهذا من بابَ الاستعارة .

وفي كثير من النسخ : « إلى الله أشكو » ، فمن روى ذلك وقف على « المواريث » ،

---

(١) الحلم ، بالكسر : الأناة والعقل .

(٢) سورة الكهف ٤٥ .

ومن روى الرواية الأولى وَقَفَ على قوله : « إلى الله » ويكون قوله : « من معشر » من تمام صفات ذلك الحاكم ، أي هو من معشرٍ صفتهم كذا .

وأبْوَرَ «أفعل» من البَوْر: الفاسد ، بارَ الشيء ؛ أى فسد ، وبارت السلعة ؛ أى كسدت ولم تنفق ، وهو المراد هاهنا ، وأصله الفساد أيضا .

إن قيل: بيّنوا الفرْقَ بين الرَّجُلين اللذيْن أحدُهما وكَلَه الله إلى نفسه ، والآخر رجل قمش جهلًا ؛ فإنّهما فى الظاهر واحد .

قيــل : أمّا الرجل الأوّل ، فهو الضالّ فى أصول العقائد ، كالمشبِّه والمجبِرِ ونحوهما ؛ ألا تراه كيف قال: «مشغوف بكلام بدعة ،ودعاء ضلالة » ،وهذا يُشعر بما قلناه ؛ من أنّ مرادَه به المتكلّم فى أصول الدين ، وهو ضالّ عنِ الحقّ ؛ ولهــذا قال : إنّه فتنة لمن افتتن به ضالّ عن هُدَى مَنْ قبله ، مضلّ لمن يجىء بعده . وأما الرجل الثانى فهو المتفقّه فى فروع الشّرعيات ، وليس بأهل لذلك ، كفقهاء السوء ، ألا تراه كيف يقول : جلس بين الناس قاضيا .

وقال أيضا : « تصرُخ من جور قضائه الدماء ، وتعجّ منه المواريث » .

فإن قيل : مامعنى قوله فى الرَّجُل الأول : « رَهْن بخطيئته » ؟ قيل : لأنه إن كان ضالًا فى دعوته مُضلًا لمن اتّبعه ، فقد حمل خطاياه وخطاياغيره ، فهو رَهْن بالخطيئتين معاه وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ (١) .

إن قيل :مامعنى قوله « عمٍ بما فى عقد الهدنة » ؟ قيل :الهدنة أصلُها فى اللغة السّكون، يقــال : هَدَنَ إذا سكن ، ومعنى الــكلام أنّه لايعرف ما فى الفتنة من الشّر ، ولا ما فى السكون والمصالحة (٢) من الخير .

---

(١) سورة العنكبوت ١٣ (٢) ا : « المصلحة » ، تصحيف .

ويروى : « بما في غَيْب المدنة »، أي في طيّها وفي ضمنها . ويروى : « غارّ في أغباش الفتنة » ، أي غافل ذو غِرّة .

وروى : « من جمعٍ » بالتنوين فتكون « ما » على هذا اسما موصولا ، وهي وصلتها في موضع جَرّ لأنها صفة « جمع » ، ومن لم يرو التنوين في « جمع » حذف الموصوف ، تقديره : مِنْ جمع شيء ماقلّ منه خيرٌ مما كَثُر ، فتكون « ما » مصدرية ، وتقدير الكلام : قلّته خيرٌ من كثرته ، ويكون موضع ذلك جرا أيضاً بالصفة .

(١٨)

الأصلُ :

ومن كلام له عليه السلام فى ذم اختلاف العلماء فى الفُتيا :

تَرِدُ عَلَى أَحَدِهِمُ القَضِيَّةُ فِي حُكْمٍ مِنَ الْأَحْكَامِ ، فَيَحْكُمُ فِيهَا بِرَأْيِهِ ، ثُمَّ تَرِدُ تِلْكَ القَضِيَّةُ بِعَيْنِهَا عَلَى غَيْرِهِ ،فَيَحْكُمُ فِيهَا بِخِلَافِ قوله(١) ، ثُمَّ يَجْتَمِعُ القُضَاةُ بِذَلِكَ عِنْدَ الإِمَامِ الَّذِي اسْتَقْضَاهُمْ ،فَيُصَوِّبُ آرَاءَهُمْ جَمِيعاً وَإِلَهُهُمْ وَاحِدٌ ، وَنَبِيُّهُمْ وَاحِدٌ ، وَكِتَابُهُمْ وَاحِدٌ .

أَفَأَمَرَهُمُ اللهُ تَعَالَى بِالاخْتِلَافِ فَأَطَاعُوهُ ! أَمْ نَهَاهُمْ عَنْهُ فَعَصَوْهُ ! أَمْ أَنزَلَ اللهُ(٢) سُبْحَانَهُ دِيناً نَاقِصاً فَاسْتَعَانَ بِهِمْ عَلَى إِتْمَامِهِ ! أَمْ كَانُوا شُرَكَاءَ لَهُ فَلَهُمْ أَنْ يَقُولُوا وَعَلَيْهِ أَنْ يَرْضَى ! أَمْ أَنزَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ دِيناً تَامًّا فَقَصَّرَ الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ عَنْ تَبْلِيغِهِ وَأَدَائِهِ ؛ وَاللهُ سُبْحَانَهُ يَقُولُ : ﴿ مَافَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ(٣) ﴾ ، «وَفِيهِ تِبْيَانُ كُلِّ شَيْءٍ» . وَذَكَرَ أَنَّ الْكِتَابَ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضاً ، وَأَنَّهُ لاَ اخْتِلَافَ فِيهِ ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً(٥) ﴾ .

وَإِنَّ الْقُرْآنَ ظَاهِرُهُ أَنِيقٌ ،وَبَاطِنُهُ عَمِيقٌ ، لاَ تَفْنَى عَجَائِبُهُ ،وَلاَ تَنْقَضِي غَرَائِبُهُ وَلاَ تُكْشَفُ الظُّلُمَاتُ إِلاَّ بِهِ .

***

(١) كذا فى ا ومخطوطة النهج ، وفى ب « بخلافه » .
(٢) ا : « أم أنزل إليهم » . (٣) سورة الأنعام ٣٨ .
(٤ – ٤) فى ب : « وقال : فيه تبيان كل شيء » ؛ والأصوب ما أثبته من ا ، ومخطوطة النهج .
(٥) سورة النساء ٨٢ .

الشرح :

الأنيق : المعجِب ، وآنقنى الشىء ، أى أعجبنى ؛ يقول : لا ينبغى أن يُحمَل جميعُ ما فى الكتاب العزيز على ظاهره ؛ فكم من ظاهرٍ فيه غيرُ مرادٍ ، بل المراد به أمر آخر باطن ؛ والمراد الردّ على أهل الاجتهاد فى الأحكام الشرعية ، وإفسادُ قول من قال : كلّ مجتهد مصيب ، وتلخيص الاحتجاج من خمسة أوجه :

الأوّل : أنّه لمّا كان الإله سبحانه واحدا ، والرسول صلى الله عليه وآله واحدا والكتاب واحدا ، وجب أن يكونَ الحُكم فى الواقعة واحدا ؛ كالمَلِك الذى يُرسِل إلى رعيّته رسولا بكتابٍ يأمرهم فيه بأوامرَ يقتضيها مُلْكه وإمْرَتُه ، فإنه لا يجوز أن تتناقض أوامره ، ولو تناقضتْ لنُسِبَ إلى السَّفَه والجهل .

الثانى : لا يخلو الاختلافُ الّذِى ذهب إليه المجتهدون ، إمّا أن يكونَ مأمورا به أو منهيًّا عنه ، والأوّل باطل ، لأنه ليس فى الكتاب والسنّة مايمكّن الخصم أن يتعلق به فى كوْن الاختلاف مأمورا به . والثانى حَقّ ، ويلزم منه تحريم الاختلاف .

الثالث : إمّا أن يكونَ دينُ الإسلام ناقصاً أو تامًّا ، فإنْ كان الأول كان الله سبحانه قد استعان بالمكلّفين على إتمام شريعةٍ ناقصة أرسَل بها رسوله ، إمّا استعانةً على سبيل النيابة عنه ، أو على سبيل المشاركة له ، وكلاهما كفر . وإن كان الثانى ؛ فإمّا أن يكون الله تعالى أنزلَ الشرع تامًّا فقصّر الرسولُ عن تبليغه ، أو يكونَ الرسولُ قد أبلغه على تمامه وكماله ؛ فإنْ كان الأوّل فهو كفر أيضا ؛ وإنْ كان الثانى فقد بطَل الاجتهاد ؛ لأنّ الاجتهاد إنما يكون فيما لم يتبين ؛ فأمّا ماقد بُيِّن فلا مجال للاجتهاد فيه .

الرابع : الاستدلالُ بقوله تعالى : ﴿ مَافَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾(١) ، وقوله ﴿ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾(٢) ، وقوله سبحانه : ﴿ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ

---

(١) سورة الأنعام ٣٨ .

(٢) سورة النحل ٨٩ . وفى الأصول : وقوله : « فيه تبيان كل شىء » ، والتلاوة ما أثبته .

مُبِينٍ ﴾[١] ، فهذه الآيات دالّة على اشتمال الكتاب العزيز على جميع الأحكام ؛ فكلّ ماليس فى الكتاب وجب ألاّ يكون فى الشرع .

الخامس : قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾[٢] ، فجُعِل الاختلافُ دليلًا على أنّه ليس من عند الله ، لكنه من عند الله سبحانه بالأدلّة القاطعة الدّالة على صحة النبوّة ، فوجب ألاّ يكون فيه اختلاف .

واعلم أنّ هذه الوجوه هى الّتى يتعلق بها الإماميّة ونُفاةُ القياس والاجتهاد فى الشرعيّات وقد تكلّم عليها أصحابُنا فى كُتُبِهم ، وقالوا : إنّ أميرَ المؤمنين عليه السلام كان يجتهد ويَقيس ، وادّعَوْا إجْماعَ الصحابة على صحة الاجتهاد والقياس ، ودفعوا صحّةَ هذا الكلام المنسوب فى هذا الكتاب إلى أمير المؤمنين عليه السلام ، وقالوا : إنّه من رواية الإماميّة ، وهو معارَض بما ترويه الزّيدية عنه وعن أبنائه عليهم السلام فى صحة القياس والاجتهاد ، ومخالطة الزيدية لأئمة أهل البيت عليهم السلام كمخالطة الإمامية لهم ؛ ومعرفتهم بأقوالهم وأحوالهم ومذاهبهم كمعرفة الإماميّة ، لا فرق بين الفئتين فى ذلك . والزيدية قاطبةً جاروديّتها وصالحيّتها[٣] تقول بالقياس والاجتهاد ، وينقلون فى ذلك نصوصًا عن أهل البيت عليهم السلام . وإذا تعارضت الروايتان تساقطتا ، وعدْنا إلى الأدلة المذكورة فى هذه المسألة .

وقد تكلّمتُ فى " اعتبار الذريعة " للمرتضى[٤] على احتجاجه فى إبطال القياس والاجتهاد بما ليس هذا موضع ذكره .

---

(١) سورة الأنعام ٥٩ . (٢) سورة النساء ٨٢ .

(٣) الزيدية : أتباع زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ؛ وهم أصناف ثلاثة : جارودية ؛ وهم أصحاب أبى الجارود زياد بن أبى زياد ، وسليمانية ؛ وهم أصحاب سليمان بن جرير ، وصالحية ؛ وهم أصحاب الحسن بن صالح بن حى ؛ ومن هؤلاء البترية ؛ أصحاب كثير الأبتر . وانظر تفصيل مذهبهم فى الملل والنحل للشهرستانى ١ : ١٣٧ — ١٤٣ .

(٤) هو كتاب الذريعة إلى أصول الشريعة ؛ للشريف المرتضى ، شرحه ابن أبى الحديد وسمى شرحه الاعتبار على كتاب الذريعة ؛ فى ثلاثة مجلدات . وانظر كتاب الذريعة إلى تصانيف الشيعة ١٠ : ٢٦ .

(١٩)

الأصل:

ومن كلام له عليه السلام؛ قاله للأشعث بن قيس، وهو على منبر الكوفة يخطب، فمضى فى بعض كلامه شىء اعترضه الأشعث فيه، فقال: يا أمير المؤمنين، هذه عليك لا لك، فخفض إليه بصره عليه السلام، ثم قال:

وَمَا يُدْرِيكَ مَا عَلَيَّ مِمَّا لِي! عَلَيْكَ لَعْنَةُ اللهِ وَلَعْنَةُ اللَّاعِنِينَ؛ حَائِكٌ ابْنُ حَائِكٍ، مُنَافِقٌ ابْنُ كَافِرٍ. وَاللهِ لَقَدْ أَسَرَكَ الْكُفْرُ مَرَّةً وَالْإِسْلَامُ أُخْرَى، فَمَا فَدَاكَ مِنْ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مَالُكَ وَلَا حَسَبُكَ. وَإِنَّ امْرَأً دَلَّ عَلَى قَوْمِهِ السَّيْفَ، وَسَاقَ إِلَيْهِمُ الْحَتْفَ، لَحَرِيٌّ أَنْ يَمْقُتَهُ الْأَقْرَبُ، وَلَا يَأْمَنَهُ الْأَبْعَدُ.

قال الرضى رحمه الله:

يريدُ عليهِ السَّلَامُ أَنَّهُ أُسِرَ فى الكُفْرِ مرَّةً وفى الإسلامِ مرَّةً.

وأمَّا قَوْلُهُ عليه السَّلام: «دَلَّ عَلَى قَوْمِهِ السَّيْفَ»، فأراد به حديثاً كانَ للأشعثِ مع خالد بن الوليد باليمامةِ، غرَّ فيهِ قومَهُ، ومكر بِهِمْ؛ حتى أوقعَ بهم خالدٌ، وكان قَوْمُهُ بعدَ ذلك يُسمُّونَهُ عُرْفَ النّارِ، وَهُوَ اسْمٌ للغادر عندهم.

•••

الشرح :

خفّض إليه بصره : طأطأه . وقوله : « فما فداك » ، لا يريد به الفداء الحقيقيّ ، فإنّ الأشعث فُدِى في الجاهلية بفداء يضرب به المثل ، فقال : « أغلى فداء من الأشعث » ، وسنذكره ، وإنما يريد : ما دفع عنك الأسر مالُك ولا حَسَبُك . ويمقته : يبغضه ، والمقت : البُغْض .

***

[الأشعث بن قيس ونسبه وبعض أخباره]

اسم الأشعث معدى كرب ، وأبوه قيس الأشجّ ـ سمى الأشجّ ؛ لأنه شُجّ في بعض حروبهم ـ ابن معدى كرب بن معاوية بن معدى كرب بن معاوية بن جبَلة ابن عبد العُزّى بن ربيعة بن معاوية الأكرمين بن الحارث بن معاوية بن الحارث ابن معاوية بن ثَوْر بن مُرْتِع[1] بن معاوية بن كِنْدَة بن عُفَيْر بن عدىّ بن الحارث ابن مرّة بن أُدَد .

وأمّ الأشعث كبشة بنت يزيد بن شُرَحْبيل بن يزيد بن امرئ القيس بن عمرو المقصور الملك .

كان الأشعث أبدا أشعثَ الرأس ، فسمِّىَ الأشعث ، وغلب عليه حتى نُسِي اسمه ؛ ولعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث يقول أعشى همْدان[2] :

يابنَ الأشجِّ قريعِ كِنْـ ... دَةَ لا أبالى فيكَ عَتْبا[3]

(١) مرتع ، كمحدث ، وكمحسن أيضا . القاموس .

(٢) هو أبو مصبح عبد الرحمن بن عبد الله ؛ من أبيات فى ديوان الأعشين ٣١٩ ؛ أولها :

مَنْ مُبلِـغٌ الحجّاجَ أنّى قدْ ندبتُ إليـه حرْبا ... حرْبًا مُذَكَّرَةً عَـوا نًا تترُكُ الشُّبّانَ شُهبًا

(٣) فى الديوان :

لابنِ الأشجّ قريـعِ كِنْـ ... دَةَ لا أبينُ فيـه عتبا

أنتَ الرئيسُ ابنُ الرئيـ ... ـسِ وأنت أعلى النّاسِ كَعْبا[1]

وتزوج رسول الله صلى الله عليه وآله قُتَيْـلةَ أخت الأشعث ، فتوفِّيَ قبـل أنْ تصل إليه .

فأما الأمر الذى أشار أمير المؤمنين عليه السلام إليه فى الجاهلية فقد ذكره ابن الكلبيّ فى " جمهرة النسب " ، فقال : إنّ مُرادا لما قتلتْ قيساً الأشجّ ، خرج الأشعث طالبا بثأره[2] ، فخرجت كندة مُتسـاندين على ثلاثة ألوية : على أحد الألوية كَبْس ابن هانئ بن شُرَحْبيل بن الحارث بن عديّ بن ربيعة بن معاوية الأكرمين — ويعرف هانئ بالمطلِّـع ، لأنّه كان يغزو فيقول : اطّلعتُ بنى[3] فلان ، فسمّى المُطَلِّـع . وعلى أحدها القَشْعَم أبو جَبْر[4] بن يزيد الأرقم . وعلى أحدها الأشعث ، فأخطأوا مُرادا ، ولم يَقَعوا عليهم ، ووقعوا على بنى الحـارث بن كعب ، فقتِل كَبْس والقَشْعَم أبو جَبْر ، وأسِر الأشعث ، ففدِى بثلاثة آلاف بعير ، لم يُفْدَ بها عربيّ بعده ولا قبله ، فقال فى ذلك عمرو بن معدى كربَ الزُّبيدِيّ :

فَـكانَ فِداؤهُ أَلْفَيْ بَعيرٍ ... وَأَلْفاً من طريفاتٍ وَتُلْدِ

وأما الأمر الثانى فى الإسلام ، فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لما قَدِمَتْ كندة حُجّاجا قبل الهجرة ، عرض رسول الله صلى الله عليه وآله نفسَه عليهم ، كما كان يعرِضُ نفسَه على أحياء العرب ، فدفعه بنو وَليعةَ من بنى عمرو بن معاوية ولم يقبلوه ، فلما هاجر صلى الله عليه وآله وتمهدت دعوتُه ، وجاءته وفود العرب ، جاءه وفد كِنْدة ، فيهم الأشعث وبنو وَليعة ، فأسلموا ، فأطعم رسول الله صلى الله عليه وآله بنى وَليعة طُعْمَة من صدقات حَضْرَمَوْت ، وكان قد استعمل على حَضْرَموت زياد بن لَبيد البياضيّ الأنصاريّ ، فدفعها زياد إليهم ، فأبَوْا أخذها ، وقالوا : لا ظَهْرَ لنا[5] ، فابعث بها إلى بلادنا على ظَهْرٍ

(١) الديوان : « أعلى القوم » . (٢) ا : « ثأره » .
(٣) اطلع القوم : هجم عليهم . (٤) ا : « القاسم بن جبر » ، وصوابه من ب ، والاشتقاق ٣٦٥
(٥) الظهر : الركاب التى تحمل الأمتعة فى السفر ، سميت بذلك لحملها إياها على ظهورها .

من عندك ، فأبى زياد ، وحدّث بينهم وبين زياد شرّ كاد يكون حربا ، فرجع منهم قوم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، وكتب زياد إليه عليه السلام يشكوهم .

وفي هذه الوقعة كان الخبر المشهور عن رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال لبني وَليعةَ : « لَتَنْتَهُنّ يا بني وليعة ، أو لأبعثنّ عليكم رجلا عَدِيل نفسي ، يقتل مُقاتِلَتكم ، ويَسْبي ذراريّكم » . قال عمر بن الخطاب : فما تمنيت الإمارة إلا يومئذ ، وجعلت أنصِب له صدري رجاء أن يقول : هو هذا ، فأخذ بيد علي عليه السلام ، وقال : « هو هذا » .

ثم كتب لهم رسول الله صلى الله عليه وآله إلى زياد ، فوصلوا إليه بالكتاب وقد تُوُفّي رسول الله صلى الله عليه وآله ، وطار الخبر بموته إلى قبائل العرب ، فارتدّتْ بنو وليعة ، وغَنّتْ بَغاياهم ، وخَضَبْنَ له أيديَهنّ .

وقال محمد بن حبيب : كان إسلام بني وَليعة ضعيفا ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يعلَم ذلك منهم . ولما حجّ رسول الله صلى الله عليه وآله حجّة الوداع ، وانتهى إلى فَمِ الشِّعب دخل أسامة بن زيد ليبول ، فانتظره رسول الله صلى الله عليه وآله — وكان أسامةُ أسوَد أفطَس — فقال بنو وَلِيعةَ : هذا الحبشيّ حَبَسنا ! فكانت الرِّدة في أنفسهم .

قال أبو جعفر محمد بن جرير : فأمّر[1] أبو بكر زياداً على حضرَموت ، وأمره بأخذ البيعة على أهلها واستيفاء صدقاتهم ، فبايعوه إلا بني وليعة ، فلما خرج ليقْبِض الصّدقات من بني عمرو بن معاوية ، أخذ ناقةً لغلام منهم يعرف بشَيْطان بن حُجْر — وكانت صَفيّة[2] نفيسة ، اسمها شذرة — فمنعه الغلام عنها . وقال : خذ غيرَها ، فأبى زياد ذلك ولجّ ، فاستغاث شَيْطان بأخيه العَدّاء بن حُجْر ، فقال لزياد : دَعْها وخذ غيرها ، فأبى زياد ذلك ، وَلَجّ الغلامان في أخذها ، ولجّ زياد وقال لهما : لا تكونن شذرة عليكما كالبَسُوس ،

---

(١) تاريخ الطبري ٣ : ٣٣٢ ، ٣٣٣ ؛ مع تصرف .   (٢) الصفية : الناقة الغزيرة اللبن .

فهتف الغلامان : يا لَعمرو ! أنُضام ونُضطهد ! إنّ الذليل مَنْ أُكِلَ في داره . وهتفا بمسروق بن معدى كرب ، فقال مسروق لزياد : أطلقها ، فأبى ، فقال مسروق :

يُطْلِقُها شَيْخٌ بخَدَّيْه الشَّيْبْ[1] مُلَمَّعٌ فيه كَتَلْميع الثَّوْبْ[2]

ماضٍ على الرَّيْبِ إذا كان الرَّيْبْ[3]

ثم قام فأطلقها ، فاجتمع إلى زياد بن لَبِيد أصحابُه ، واجتمع بنو وليعة ، وأظهروا أمرَهم ، فبيّتَهم زياد وهم غارّون ، فقتل منهم جمعا كثيرا ، ونهب وسَبَى ، ولحقَ فَلُّهم بالأشعث بن قيس ، فاستنصروه فقال : لا أنصركم حتى تملّكونى عليكم . فملّكوه وتوّجوه كما يتوّجُ الملك من قحطان . فخرج إلى زياد فى جَمْعٍ كثيف ، وكتب أبو بكر إلى المهاجر بن أبى أمية وهو على صنعاء أن يسيرَ بمَنْ معه إلى زياد ، فاستخلفَ على صنعاء ، وسار إلى زياد ، فلقوا الأشعث ، فهزموه وقُتِل مسروق ، ولجأ الأشعث والباقون إلى الحصن المعروف بالنُّجَيْر[4] . فحاصرهم المسلمون حصارا شديدا حتى ضَعُفوا ، ونزل الأشعث ليلا إلى المهاجر وزياد ، فسألهما الأمانَ على نفسه حتى يقدَما به على أبى بكر فيرى فيه رأيَه ؛ على أن يفتح لهم الحِصْن ويُسْلِم إليهم مَنْ فيه .

وقيل : بل كان فى الأمان عشرة من أهل الأشعث .

فأمّناه وأمضيا شَرْطَه ، ففتح لهم الحصن ؛ فدخلوه واستنزلوا كلَّ مَنْ فيه ، وأخذوا أسلحتهم ، وقالوا للأشعث : اعزل العشَرَة ، فعزلهم ، فتركوهم وقتلوا الباقين – وكانوا ثمانمائة – وقطعوا أيدى النّساء اللواتى شَمِتْن برسول الله صلى الله عليه وآله ، وحملوا الأشعثَ

---

(١) الطبرى : « يمنعها » .

(٢) الطبرى :

مُلَمَّعٌ كما يُلَمَّعُ الثَّوْبْ

(٣) لم يرد هذا البيت فى الطبرى .

(٤) كذا ضبطه صاحب مراصد الاطلاع بالتصغير ، وقال : « حصن باليمن قرب حضرموت » .

إلى أبى بكر مُوثقاً فى الحديد هو والعشرة ، فعفا عنه وعنهم ، وزوّجه أختَه أمّ فروة بنت أبى قُحافة ـ وكانت عمياء ـ فولدت للأشعث محمدا وإسماعيل وإسحاق .

وخرج الأشعث يوم البناء عليها إلى سوق المدينة ، فما مرّ بذات أربع إلا عقرها ، وقال للناس : هذه وليمة البِناء ، وثمن كلّ عَقيرة فى مالى . فدفع أثمانَها إلى أربابها .

قال أبو جعفر محمد بن جرير فى التاريخ : وكان المسلمون يلعنون الأشعث ويلعنه الكافرون أيضاً وسبايا قومه ، وسمّاه نساء قومه عُرْفَ النار ، وهو اسم للغادر عندهم(١) .

وهذا عندى هو الوجه ، وهو أصحّ مما ذكره الرضىّ رحمه الله تعالى من قوله فى تفسير قول أمير المؤمنين : « وإن امرأ دلّ على قومه السيف » : انه أراد به حديثا كان للأشعث مع خالد بن الوليد باليمامة غرّ فيه قومه ، ومكر بهم حتى قتلهم ؛ فإنّا لم نعرف فى التواريخ أن الأشعث جرى له باليمامة مع خالد هذا ولا شبهه ، وأين كِندة واليمامة ! كِندة باليمن ، واليمامة لبنى حنيفة ، ولا أعلم من أين نقل الرضىّ رحمه الله تعالى هذا !

***

فأما الكلام الذى كان أمير المؤمنين عليه السلام قاله على مِنبر الكوفة فاعترضه فيه الأشعث ، فإنّ علياً عليه السّلام قام إليه ـ وهو يخطُب ، ويذكر أمرَ الحكَمَين ـ رجل من أصحابه ، بعد أن انقضى أمرُ الخوارج ، فقال له : نهيتَنا عن الحكومة ثم أمرتَنا بها ، فما ندرى أىّ الأمرين أرشَد ! فصفق عليه السلام بإحدى يديه على الأخرى ، وقال : هذا جزاء من ترَكَ العُقْدة . وكان مرادُه عليه السلام : هذا جزاؤكم إذْ تركتُم الرأىَ والحزم ، وأصرَرْتم على إجابة القوم إلى التحكيم ؛ فظنّ الأشعث أنه أراد : هذا جزائى حيثُ تركت الرأى والحزم وحكّمت ، لأنّ هذه اللفظة محتملة ؛ ألا ترى أنّ الرئيس

(١) الطبرى ٣ : ٣٣٨ ؛ وعبارته : « كلام يمان يسمون به الغادر » .

إذا شَغَب عليه جُنده وطلبوا منه اعتماد أمرٍ ليس بصواب ، فوافقهم تسكينا لشَغَبهم لا استصلاحا لرأيهم ، ثم ندِموا بعد ذلك ، قد يقول : هذا جزاء مَنْ ترك الرأى ، وخالف وجْه الحزم ؛ ويعنى بذلك أصحابَه ؛ وقد يقوله يعني به نفسَه حيث وافقهم أمير المؤمنين عليه السلام، إنما عَنَى ما ذكرناه دون ما خَطر للأشعث ، فلما قال له : هذه عليك لا لك ، قال له : وما يدريك ما علىّ مما لى ، عليك لعنة الله ولعنة اللاعنين !

وكان الأشعثُ من المنافقين فى خلافة علىّ عليه السلام، وهو فى أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام ، كما كان عبد الله بن أبىّ بن سَلُول فى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله كلّ واحد منهما رأسُ النفاق فى زمانه .

وأما قوله عليه السلام للأشعث : « حائك ابن حائك » ، فإن أهل اليمن يعيّرون بالحياكة ؛ وليس هذا مما يَخُصّ الأشعث .

ومن كلام خالد بن صفوان : ما أقول فى قوم ليس فيهم إلا حائك بُرْد ، أو دابغ جِلد ، أو سائس قِرْد ؛ ملكتهم امرأة ، وأغرقتهم فأرة ، ودلّ عليهم هُدْهُد !

(٢٠)

الأصْلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

فَإِنَّكُمْ لَوْ قَدْ عَايَنْتُمْ مَاقَدْ عَايَنَ مَنْ مَاتَ مِنْكُمْ ، لَجَزِعْتُمْ وَوَهِلْتُمْ ، وَسَمِعْتُمْ وَأَطَعْتُمْ ، وَلَكِنْ مَحْجُوبٌ عَنْكُمْ مَاقَدْ عَايَنُوا ؛ وَقَرِيبٌ مَايُطْرَحُ الْحِجَابُ .

وَلَقَدْ بُصِّرْتُمْ إِنْ أَبْصَرْتُمْ ، وَأُسْمِعْتُمْ إِنْ سَمِعْتُمْ ، وَهُدِيتُمْ إِنِ اهْتَدَيْتُمْ ؛ وَبِحَقٍّ أَقُولُ لَكُمْ[١] : لَقَدْ جَاهَرَتْكُمُ الْعِبَرُ ، وَزُجِرْتُمْ بِمَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ، وَمَا يُبَلِّغُ عَنِ اللَّهِ بَعْدَ رُسُلِ السَّمَاءِ إِلَّا الْبَشَرُ .

* * *

الشَّرْحُ :

الوَهَل : الخوف ، وَهِلَ الرجل يَوْهَل .

و« ما » في قوله : « مايُطْرَحُ » مصدرية ؛ تقديره : « وقريب طَرْح الحجاب » ، يعني رفعه بالموت .

وهذا الكلامُ يدلّ على صِحّة القول بعذاب القبر ، وأصحابنا كلُّهم يذهبون إليه ، وإن شنّع عليهم أعداؤهم من الأشعرية وغيرهم بجحده .

وذكر قاضي القضاة رحمه الله تعالى : أنه لم يعرف[٢] معتزلياً نَفَى عذابَ القبر ، لامن

---

(١) كلمة « لكم » ساقطة من ا .
(٢) ج : « لا يعرف » .

متقدّميهم ولا من متأخّريهم ؛ قال : وإنّما نفاه ضِرار[1] بن عمرو ، لمخالطته لأصحابنا وأخذه عن شيوخنا ، مانُسِب قوله إليهم .

ويمكن أن يقول قائل : هذا الكلام لا يدلّ على صحّة القول بعذاب القبر ؛ لجواز أن يعني بمعاينة من قد مات ، مايشاهده المحتضَر من الحالة الدالّة على السعادة أو الشقاوة ، فقد جاء في الخبر : « لا يموت امرُؤ حتى يعلَم مصيره ؛ هل هو إلى الجنّة أم إلى النار » . ويمكن أن يعني به مايعاينه المحتضَر من ملك الموت وهَوْل قدومه . ويمكن أن يعني به ما كان عليه السلام يقوله عن نفسه : إنه لا يموت ميّت حتى يشاهدَه عليه السلام حاضراً عنده . والشيعة تذهب إلى هذا القول وتعتقدُه ، وتروى عنه عليه السلام شعراً قاله للحارث الأعور الهَمْدانيّ :

يا حارِ هَمْدانَ مَنْ يَمُتْ يَرَنِي ... مِن مؤمنٍ أو منافق قُبُلَا
يَعرِفُنِي طرفُهُ وأعرِفُهُ ... بِعَيْنِه واسمِه وَمَا فَعَلَا
أقول للنّار وهي توقد لل ... عَرْضِ ذَرِيهِ لَا تَقْرَبِي الرَّجُلا
ذَرِيهِ لا تقربيه إنّ لَهُ ... حَبْلًا بحَبْلِ الوصيّ مُتَّصِلا
وَأنْتَ يا حارِ إن تمتْ ترَنِي ... فلا تَخَفْ عَثْرَةً ولا زللا[2]
أسْقيكَ مِنْ باردٍ على ظمأٍ ... تخَالهُ في الحلاوةِ العَسَلا

وليس هذا بمنكَر ؛ إن صحّ أنّه عليه السلام قاله عن نفسه ، ففي الكتابِ العزيزِ مايدلّ على أنّ أهل الكتاب لا يموت منهم ميّت حتى يصدّق بعيسى بن مريم عليه السلام ؛ وذلك قوله : ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ

---

(١) ضرار بن عمرو ، صاحب مذهب الضرارية من فرق الجبرية ، وكان في بدء أمره تلميذاً لواصل ابن عطاء المعتزلي ، ثم خالفه في خلق الأعمال وإنكار عذاب القبر . الفرق بين الفرق ٢٠١ .

(٢) هذا البيت والذي يليه لم يذكرا في ب .

ٱلْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً﴾[1] ؛ قال كثيرٌ من المفسرين : معنى ذلك أنّ كلّ ميت من اليهود وغيرهم من أهل الكتب السالفة إذا احتُضِر رأى المسيح عيسى[2] عنده ، فيصدّق به مَنْ لم يكن فى أوقاتِ التكليف مصدّقاً به .

وشبيه بقوله عليه السلام : «لو عاينتم ماعاين مَنْ مات قبلكم » قولُ أبى حازم لسليمان ابن عبد الملك فى كلام يعظه به : إنّ آباءك ابتزّوا هذا الأمر من غير مشورة ، ثم ماتوا ، فلو علمت ماقالوا وما قيل لهم ! فقيل : إنه[3] بكَى حتى سَقَط[3] .

(١) سورة النساء ١٥٩ . (٢) ساقطة من ب .

(٣ ـ ٣) ا : « إن سليمان بكى حتى سقط » .

(٢١)

الأصلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

فَإِنَّ الغَايَةَ أَمَامَكُمْ ، وَإِنَّ وَرَاءَكُمُ السَّاعَةَ تَحْدُوكُمْ . تَخَفَّفُوا تَلْحَقُوا ، فَإِنَّمَا يُنْتَظَرُ بِأَوَّلِكُمْ آخِرُكُمْ .

* * *

قال الرضى رحمه الله :

أقول : إِنَّ هذا الكَلَامَ لَوْ وُزِنَ بَعْدَ كلام اللهِ سُبْحَانه ، وَبَعْدَ كَلَامِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِكُلِّ كَلَامٍ لَمَالَ بِهِ رَاجِحاً ، وَبَرَّزَ عَلَيْهِ سَابِقاً .
فَأَمَّا قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَام : « تَخَفَّفُوا تَلْحَقُوا » ، فَمَا سُمِعَ كَلَامٌ أَقَلُّ مِنْهُ مَسْمُوعاً وَلَا أَكْثَرُ مَحْصُولاً ، وَمَا أَبْعَدَ غَوْرَهَا مِنْ كَلِمَةٍ ! وَأَنْقَعَ نُطْفَتَهَا مِنْ حِكْمَةٍ ! وَقَدْ نَبَّهْنَا فى كتاب " الخصائص[١] " ، عَلَى عِظَمِ قَدْرِهَا ، وَشَرَفِ جَوْهَرِهَا .

* * *

الشرحُ :

غاية المكلّفين هى الثواب أو العقاب ، فيحتمل أن يكونَ أراد ذلك ، ويحتمل أن يكون أراد بالغاية الموت ، وإنما جعل ذلك أمامنا ، لأنَّ الإنسان كالسائر إلى الموت أو كالسائر إلى الجزاء ، فهما أمامه ، أى بين يديه .

---

(١) كتاب خصائص الأئمة للشريف الرضى . انظر الذريعة فى مصنفات الشيعة ٧ : ١٦٤ .

ثم قال : « وإن وراءكم الساعةَ تحدوكم » أي تسوقكم ، وإنّما جعلها وراءنا ، لأنها إذا وُجِدت ساقت الناس إلى موقف الجزاء كما يسوقُ الراعي الإبل ، فلما كانت سائقةً لنا ، كانت كالشئ يحفِزُ الإنسان من خَلْفه ، ويحرّكه من ورائه ، إلى جهة ما بين يديه .

ولا يجوز أن يقال : إنّما سماها « وراءنا » ، لأنها تكون بعد موتنا وخروجنا من الدنيا ، وذلك أنّ الثوابَ والعقاب هذا شأنُهما ، وقد جعلهما أمامنا .

وأما القطب الراونديّ ، فإنه قال : معنى قوله : « فإنّ الغاية أمامكم » ، يعنى أنّ الجنة والنار خَلْفكم . ومعنى قوله : « وراءكم الساعة » أي قدّامكم .

ولقائل أن يقول : أما الوراء بمعنى القدّام فقد ورَد ، ولكن ما ورد « أمام » بمعنى « خلف » ، ولا سمعنا ذلك .

وأما قوله : « تخففوا تلحقوا » ، فأصله الرجل يسعى وهو غير مُثقَل بما يحمله ، يكون أجدَر أن يلحق الذين سبقوه ، ومثله قوله : « نجا المخفّفون » .

وقوله عليه السلام : « فإنما ينتظر بأوّلكم آخركم » ، يريد : إنّما يُنتظر ببعث الذين ماتوا في أوّل الدهر مجيء من[1] يخلقون ويموتون في آخره ، كأمير يريد إعطاء جنده إذا تكامل عرضُهم ، إنما يعطى الأول منهم إذا انتهى عَرْض الأخير .

وهذا كلام فصيح جداً .

والغَوْر : العمق . والنّطفة : ما صفا من الماء ، وما أنقع هذا الماء ! أي ما أرواه للعطش !

---

(١) ج : « مجيء الذين يخلقون » .

(٢٢)

الأصْـلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

أَلَا وَإِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ ذَمَّرَ حِزْبَهُ، وَاسْتَجْلَبَ جَلَبَهُ، لِيَعُودَ الْجَوْرُ إِلَى أَوْطَانِهِ(1)، وَيَرْجِعَ الْبَاطِلُ إِلَى نِصَابِهِ.

وَاللهِ مَا أَنْكَرُوا عَلَيَّ مُنْكَراً، وَلَا جَعَلُوا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ نَصَفاً؛ وَإِنَّهُمْ لَيَطْلُبُونَ حَقّاً هُمْ تَرَكُوهُ، وَدَماً هُمْ سَفَكُوهُ؛ فَإِنْ كُنْتُ شَرِيكَهُمْ فِيهِ؛ فَإِنَّ لَهُمْ لَنَصِيبَهُمْ مِنْهُ، وإن كَانُوا وَلُوهُ دُونِي؛ فَمَا التَّبِعَةُ إِلَّا عِنْدَهُمْ. وَإِنَّ أَعْظَمَ حُجَّتِهِمْ لَعَلَى أَنْفُسِهِمْ؛ يَرْتَضِعُونَ أُمّاً قَدْ فَطَمَتْ، وَيُحْيُونَ بِدْعَةً قَدْ أُمِيتَتْ.

يَا خَيْبَةَ الدَّاعِي! مَنْ دَعَا! وَإِلَامَ أُجِيبَ! وَإِنِّي لَرَاضٍ بِحُجَّةِ اللهِ عَلَيْهِمْ، وَعِلْمِهِ فِيهِمْ، فَإِنْ أَبَوْا أَعْطَيْتُهُمْ حَدَّ السَّيْفِ، وَكَفَى بِهِ شَافِياً مِنَ الْبَاطِلِ، وَنَاصِراً لِلْحَقِّ!

وَمِنَ الْعَجَبِ بَعْثَتُهُمْ إِلَيَّ أَنْ أَبْرُزَ لِلطِّعَانِ، وَأَنْ أَصْبِرَ لِلْجِلَادِ. هَبِلَتْهُمُ الْهَبُولُ! لَقَدْ كُنْتُ وَمَا أُهَدَّدُ بِالْحَرْبِ، وَلَا أُرَهَّبُ بِالضَّرْبِ. وَإِنِّي لَعَلَى يَقِينٍ مِنْ رَبِّي، وَغَيْرِ شُبْهَةٍ مِنْ دِينِي.

***

(1) ا : « قطابه ».

الشرح :

يروى : « ذَمَر » بالتخفيف ، و « ذمّر » بالتشديد ، وأصله الحضّ والحثّ، والتشديد دليل على التكثير .

واستجلب جَلَبه ، الجلَب بفتح اللام : ماتُجلب ، كما يقال : جَمَع جَمْعَه . ويروى : « جُلْبَه » و « جِلْبَه »؛ وهما بمعنًى ، وهو السحاب الرقيق الذى لا ماء فيه، أى جمع قوما كالجهام الذى لا نفع فيه . وروى : « ليعودَ الجَوْرُ إلى قِطابه » ، والقِطاب : مِزاج الخمر بالماء ، أى ليعود الجوْر ممتزجاً بالعدل كما كان . ويجوز أن يعنِيَ بالقِطاب قِطاب الجَيْب ، وهو مدخل الرأس فيه ، أى ليعودَ الجوْر إلى لباسه وثوبه .

وقال الراونديّ : قِطابه : أصله ؛ وليس ذلك بمعروف فى اللغة .

ورُوِيَ « الباطلَ » بالنصب ؛ على أن يكون « يرجع » متعديا ، تقول : رجعت زيدا إلى كذا ؛ والمعنى : ويردّ الجورُ الباطل إلى أوطانه .

وقال الراونديّ : « يعود » أيضاً مثل « يرجع » ، يكون لازما ومتعديا، وأجاز نصب « الجوْر » به ؛ وهذا غير صحيح ؛ لأن « عاد » لم يأت متعديا ، وإنما يعدّى بالهمزة .

والنَّصَف : الذى يُنصِف .

وقال الراونديّ: النَّصَف : النَّصَفة[1]؛ والمعنى لايحتمله ؛ لأنه لامعنى لقوله: ولاجعلوا بينى وبينهم إنصافا ، بل المعنى : لم يجعلوا ذا إنصاف بينى وبينهم .

يرتضعون أمًّا قد فَطَمت ، يقول : يطلبون الشىء بعد فواته ؛ لأنّ الأم إذا فَطَمت ولدها فقد انقضى إرضاعها .

وقوله : «ياخيبة الداعى» ، هاهنا كالنداء فى قوله تعالى:﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾[2]، وقوله : ﴿ يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا ﴾[3] أى ياخيبة احضرى فهذا أوانك !

(١) كذا فى ا ، وفى ب : « النصف » ، والنصفة : العدل .
(٢) سورة يس ٣٠ (٣) سورة الأنعام ٣١ .

وكلامُه فى هذه الخطبة مع أصحاب الجمل ؛ والداعى هو أحدُ الثلاثة:الرجلان والمرأة.

ثم قال على سبيل الاستصغار لهم ، والاستحقار : « مَنْ دَعَا ! وإلى ماذا أجيب ! » أى أحقِرْ بقومٍ دعاهم هذا الداعى ! وأقبِحْ بالأمر الذى أجابوه إليه،فما أفحشه وأرذله !

وقال الراوندىّ : ياخيبة الداعى ؛ تقديره : ياهؤلاء ، فحذف المنادَى ، ثم قال: خَيْبة الداعى ؛ أىْ خاب الداعى خيبةً . وهذا ارتكاب ضرورة لا حاجةَ إليها ، وإنما يُحذف المنادَى فى المواضع التى دَلّ الدّليلُ فيها على الحذف ، كقوله :

« يا فَانْظُرَا أيمَنَ الوَادِى على إضَمٍ »

وأيضاً ، فإنّ المصدر الذى لا عامل فيه غير جائزٍ حذفُ عامله ؛ وتقدير حذفه تقديرُ مالا دليلَ عليه .

وهَبِلته أمه ، بكسر الباء : ثَكِلته .

وقوله : « لقد كنتُ وما أُهدَّد بالحرب »، معناه : مازلتُ لا أُهَدَّد بالحرب،والواو زائدة . وهذه كلمة فصيحة كثيرا ماتستعملها العرب . وقد ورد فى القرآن العزيز « كان » بمعنى « مازال » فى قوله : ﴿ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴾[1] ونحو ذلك من الآى ، معنى ذلك:لم يزل الله عليما حكيما. والذى تأوّله المرتضى رحمه الله تعالى فى "تكملة الغرر والدرر"[2] كلام متكلّف ، والوجه الصحيح ما ذكرناه .

***

وهذه الخطبة ليست من خُطَب صِفِّين كما ذكره الراوندىّ،بل من خُطَب الجمل،وقد ذكر كثيرا منها أبو مِخنف رحمه الله تعالى، قال : حدّثنا مسافِر بن عفيف بن أبى الأخنس

(١) سورة النساء ١٧٠
(٢) تكملة الغرر والدرر ٢ : ٣٠٠ ـ ٣٠٢

قال : لما رجعتْ رُسُل عليّ عليه السلام من عند طلحة والزّبير وعائشة يُؤْذِنُونه بالحرْب ، قام فحمِد الله وأثنى عليه ، وصلّى على رسوله صلى الله عليه ، ثم قال :

أيُّها النّاس ، إنّي قد راقبتُ هؤلاء القوم كي يرعَوُوا أو يرجعوا ، ووبّختُهم بنَكْثهم ، وعرّفتهم بَغْيَهُمْ فلم يستحيُوا ، وقد بعثوا إليّ أن أبرُزَ للطعان ، وأصبر للجِلاد ، وإنّما تُمنّيك نفسك أمانى الباطل ، وتَمِدُّك الغرور . ألا هَبِلَتْهم الهَبول ، لقد كنت وما أُهَدَّدُ بالحرب ، ولا أُرَهَّبُ بالضرب ! ولقد أنصفَ القارةَ مَنْ راماها[1] ، فليُرعِدُوا وليُبْرِقوا ، فقد رأوني قديماً ، وعرفُوا نِكايتى ، فكيف رأوْنى ! أنا أبو الحسن ، الذى فَلَلْتُ حدّ المشركين ، وفرّقتُ جماعتهم ، وبذلك القلب ألقى عدوّى اليوم ، وإنّي لعلى ما وعدنى ربّى من النصر والتأييد ، وعلى يقينٍ من أمرى ، وفى غير شُبهة من دينى .

أيُّها الناس ، إن الموت لا يفوتُه المقيم ، ولا يُعْجِزه الهارب ، ليس عن الموت مَحيد ولا محيص ، مَنْ لم يُقتَلْ مات .

إنّ أفضلَ الموت القتل ، والذى نفس عليّ بيده لألفُ ضربة بالسيف أهونُ من موتةٍ واحدة على الفراش . اللّهمّ إنّ طلحة نكث بيْعتى ، وألّبَ عَلَى عثمان حتى قتله ، ثم عَضَهَنى[2] به ورمانى .

اللهم فلا تُمهِلْه . اللهمّ إنّ الزبير قطع رَحِمِى ، ونكث بيْعتى ، وظاهَر عليّ عدوّى ، فاكْفِنِيه اليوم بما شئت .

ثُم نزل .

---

(١) قد أنصف القارة من راماها : مثل ، والقارة : قوم رماة من العرب . وفى اللسان (٦ : ٤٣٦) عن التهذيب : « كانوا رماة الحدق فى الجاهلية ؛ وهم اليوم فى اليمن ينسبون إلى أسد ، والنسبة إليهم قارىّ » ، وزعموا أن رجلين التقيا ؛ أحدهما قارى والآخر أسدى ، فقال القارى : إن شئت صارعتك ، وإن شئت سابقتك ، وإن شئت راميتك ، فقال : اخترت المراماة ، فقال القارى : لقد أنصفتنى ، وأنشد :

قد أنصف القارةَ مَنْ رَامَاهَا ... إنّا إذا ما فِئَةٌ نلقاهـــــا

* نردّ أولاها على أُخراها *

ثم انتزع له سهما فشك فؤاده

(٢) عضهه ، أي قال فيه ما لم يكن .

[خطبة علىّ بالمدينة فى أول إمارته]

واعلم أنّ كلامَ أمير المؤمنين عليه السلام وكلام أصحابه وعمّاله فى واقعة الجمل ، كلّه يدورُ على هذه المعانى التى اشتملت عليها ألفاظُ هذا الفصل ؛ فمن ذلك الخطبةُ التى رواها أبو الحسن علىّ بن محمد المدائنىّ ، عن عبد الله بن جُنَادة ، قال : قدِمْتُ من الحجاز أريد العِراق ؛ فى أوّلِ إمارة علىّ عليه السلام ، فمررت بمكة ، فاعتمرت ، ثم قدِمْتُ المدينة ، فدخلت مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ إذ نودى : الصّلاة جامعة ؛ فاجتمع الناس ، وخرج علىّ عليه السلام متقلّداً سيفَه ، فشخَصت الأبصارُ نحوه ، فحمِد الله وصلى على رسوله ، صلى الله عليه وآله ، ثم قال :

أما بعد ، فإنّه لما قَبَض الله نبيّه صلى الله عليه وآله ، قلنا : نحن أهلُه وورثته وعِترته ، وأولياؤه دون الناس ، لا ينازِعُنا سلطانَه أحد ، ولا يطمع فى حقّنا طامع ؛ إذ انبرى لنا قومُنا فغصبونا سلطان نبيّنا ، فصارتِ الإمْرة[1] لغيرنا . وصرنا سوقة ؛ يطمع فينا الضعيف ؛ ويتعزّز علينا الذليل ؛ فبكتِ الأعين منّا لذلك ، وخَشُنَتِ[2] الصدور ، وجزِعت النفوس . وايمُ الله لولا مخافة الفُرْقة بين المسلمين ، وأن يعودَ الكفرُ ، ويبورَ الدين ، لكنّا على غيرما كنّا لهم عليه ، فولىَ الأمْرَ ولاة لم يألوا الناسَ خيرا ، ثم استخرجتمونى أيها الناس من بيتى ، فبايعتمونى على شَيْنٍ مِنّى لأمرِكم ، وفِراسة تَصْدُقنى مافى قلوب كثير منكم ، وبايعنى هذان الرجلان فى أوّل مَنْ بايع ، تعلمون ذلك ، وقد نكثا وغَدَرا ، ونهضا إلى البصرة بعائشة ليفرّقا جماعتكم ، ويُلقِيا بأسَكم بينكم . اللّهمّ فخذهما بما عمِلا أخذةً رابية[3] ،

(١) ا : « الإمارة » . (٢) كذا فى ج ، وخشنت أى أوغرت ، ومنه قول عنترة :

* وَخشنتَ صَدْرًا جيبُه لك ناصحُ *

وفى ا « خشيت » ، والوجه ما أثبته من ا

(٣) ب : « أخذة واحدة رابية » ، وما أثبته عن ا . وأخذة رابية ، أى أخذة تزيد على الأخذات ، وقال الجوهرى : أى زائدة ، كقولك : أربيت ، إذا أخذت أكثر مما أعطيت ، قال تعالى : ﴿ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً ﴾ .

ولا تنعش[1] لهما صرعة، ولا تُقِل لهما عثرة، ولا تمهلهما فواقا[2]، فإنهما يطلبان حقا تركاه. ودماً سفكاه. اللهم إنى أقتضيك وعدك، فإنك قلت وقولك الحق: «ثم بُغِى عليه لينصرنه الله[3]» اللهم فأنجز لى موعدك، ولا تكلنى إلى نفسى، إنك على كل شىء قدير.

ثم نزل.

***

[خطبته عند مسيره للبصرة]

وروى الكلبى قال: لما أراد على عليه السلام المسير إلى البصرة، قام فخطب الناس، فقال بعد أن حمد الله وصلى على رسوله، صلى الله عليه:

إن الله لما قبض نبيه، استأثرت علينا قريش بالأمر، ودفعتنا عن حق نحن أحق به من الناس كافة، فرأيت أن الصبر على ذلك أفضل من تفريق كلمة المسلمين، وسفك دمائهم. والناس حديثو عهد بالإسلام، والدين يُمخَض مخض الوطب، يُفسِده أدنى وهن، ويعكسه أقل خلف. فولى الأمر قوم لم يألوا فى أمرهم اجتهاداً، ثم انتقلوا إلى دار الجزاء، والله ولى تمحيص سيئاتهم، والعفو عن هفواتهم. فما بال طلحة والزبير، وليسا من هذا الأمر بسبيل! لم يصبرا على حولا ولا شهرا حتى وثبا ومرقا، ونازعانى أمراً لم يجعل الله لهما إليه سبيلا، بعد أن بايعا طائعين غير مكرهين، يرتضعان أمّا قد فطمت، ويحييان بدعة قد أميتت. أدم عثمان زعما! والله ما التبعة إلا عندهم وفيهم، وإن أعظم حجتهم لعلى

(١) النعش: الرفع؛ نعشت فلانا، إذا جبرته بعد فقر، وأقلته بعد عثرة.

(٢) الفواق، بفتح الفاء وضمها: مابين الحلبتين من الوقت؛ لأنها تحلب ثم تترك سويعة يرضعها الفصيل لتدر ثم تحلب؛ يقال: ما أقام عندنا إلا فواقا، أى قدر فواق.

(٣) الآية بأكملها فى سورة الحج ٦٠: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾.

أنفسهم ، وأنا راضٍ بحجة الله عليهم وعمله فيهم ، فإنْ فاءا وأنابا فحظَّهما أحرزا ، وأنفَسهما غنِما ، وأعظِمْ بها غنيمة ! وإنْ أبَيَا أعطيتُهما حدّ السيف ، وكفى به ناصراً لحقّ ، وشافياً لباطل .

ثم نزل .

***

[خطبته بذى قار]

وروى أبو مِخْنف عن زيد بن صُوحان ، قال : شَهِدتُ عليا عليه السلام بذى قار(1) ، وهو معتمّ بعمامة سَوْداء ، ملتفّ بساج يخطب ، فقال فى خطبة :

الحمد لله على كلّ أمر وحال ، فى الغُدوّ والآصال ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأنّ محمداً عبدُه ورسولُه ، ابتعثه رحمةً للعباد ، وحياة للبلاد ، حين امتلأت الأرض فتنة ، واضطرب حبلُها ، وعُبِد الشيطان فى أكنافها ، واشتمل عدوّ الله إبليسُ على عقائد أهلها ، فكان محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، الذى أطفأ الله به نِيرانها ، وأخمدَ به شرارها ، ونزع به أوتادَها ، وأقام به مَيْلَها ، إمام الهُدى ، والنبىّ المصطفى ، صلّى الله عليه وآله . فلقد صَدَعَ بما أُمِرَ به ، وبلّغ رسالاتِ ربّه ، فأصلح الله به ذاتَ البيْن ، وآمن به السُّبُلَ ، وحقَن به الدماء ، وألّف به بين ذَوِى الضغائن الواغِرة فى الصدور ، حتى أتاه اليقينُ ، ثم قبضه الله إليه حَميدا . ثم استخلف الناسُ أبا بكر ، فلم يألُ جُهْدَه ، ثم استخلف أبو بكر عمر فلم يألُ جُهدَه ، ثم استخلف الناس عثمان ، فنال منكم ونلْتُم منه ، حتى إذا كان من أمره ما كان ، أتيتُمونى لتبايعُونى ، لا حاجةَ لى فى ذلك ، ودخلتُ منزلى ، فاستخرجتُمونى فقبَضْتُ يدِى فبسطتموها ، وتداككتم(2) علىّ ، حتى ظننتُ أنكم قاتلىّ ، وأن بعضكم قاتلُ بعض ، فبايعتمونى وأنا غيرُ مسرور بذلك ولا جَذِل .

(1) ذوقار : موضع قريب من البصرة ؛ وهو المكان الذى كانت فيه الحرب بين العرب والفرس .
(2) تداككتم : تزاحمتم .

وقد علم الله سبحانه أني كنتُ كارها للحكومة بين أمة محمد صلى الله عليه وآله، ولقد سمعتهُ يقول: «ما من والٍ يَلي شيئاً من أمرِ أمتي إلا أُتِيَ به يوم القيامة مغلولةً يداه إلى عنقه على رءوسِ الخلائق، ثم يُنشَر كتابه، فإن كان عادلاً نجا، وإن كان جائراً هَوَى»، حتى اجتمع عليَّ مَلؤكم، وبايعني طلحة والزبير، وأنا أعرفُ الغَدْرَ في أوجههما، والنَّكْثَ في أعينهما، ثم استأذناني في العُمْرة، فأعلمتُهما أن ليس العمرةَ يريدان، فسارا إلى مكةَ واستخفَّا عائشة وخدعاها، وشخص معهما أبناء الطُّلَقاء[1]، فقدِموا البصرة، فقتَلوا بها المسلمين، وفعلوا المنكر. ويا عجبًا لاستقامتِهما لأبي بكر وعمر وبَغْيِهما عليَّ! وهما يعلمان أني لست دون أحَدِهما، ولو شئت أن أقول لقلت؛ ولقد كان معاوية كتب إليهما من الشام كتاباً يخدَعهُما فيه، فكتَماه عنّي، وخرجا يُوهِمان الطَّغَام أنهما يطلبان بدم عثمان؛ والله ما أنكرا عليَّ منكَرا، ولا جعلا بيني وبينهم نصَفاً، وإنَّ دم عثمان لمعصوبٌ بهما، ومطلوب منهما. ياخَيْبة الدَّاعي! إلامَ دعَا! وبماذا أُجيبَ؟ والله إنهما لعلَى ضلالةٍ صمّاء، وجهالة عمياء، وإنَّ الشيطان قد ذمَّر لهما حِزْبه، واستجلب منهما خَيْله ورَجْله، ليعيدَ الجورَ إلى أوطانه، ويرُدَّ الباطل إلى نصابه.

ثم رفع يديه، فقال: اللهمَّ إنَّ طلحة والزُّبيْر قطعاني، وظلماني، وألَّبا عليَّ، ونكثا بيعتي، فاحلُلْ ماعقدا، وانكُثْ ما أبرما، ولا تغفر لهما أبداً، وأرِهما المساءة فيما عمِلا وأمّلا!

قال أبو مِخْنف: فقام إليه الأشتر فقال:

الحمد لله الذي منّ علينا فأفضَل، وأحسن إلينا فأجمَل، قد سَمِعْنا كلامَك يا أمير المؤمنين، ولقد أصبت ووفّقت، وأنت ابن عمّ نبينا وصهره ووصيّه، وأوّل مصدّقٍ به، ومصلٍّ معه، شهدتَ

---

(١) الطلقاء: هم الذين خلى عنهم الرسول عليه السلام يوم فتح مكة، وأطلقهم فلم يسترقهم، واحدهم طليق، فعيل بمعنى مفعول، وهو الأسير إذا أطلق سبيله.

مشاهدَه كلَّها ، فـكان لك الفضلُ فيها على جميع الأمة ، فمن اتبعك أصاب حظَّه ، واستبشرَ بفَلَجِه ، ومَنْ عصاك ، ورغِب عنك ؛ فإلى أمّه الهاوية ! لعمرى يا أمير المؤمنين ما أمرُ طلحة والزبير وعائشة علينا بمُخيل ، ولقد دخل الرجلان فيما دخلا فيه ، وفارقا على غير حَدَث أحدثت ، ولا جوْر صنعت ؛ فإن زعما أنّهما يطلبان بدم عثمان فليقِيدا من أنفسهما فإنهما أولُ من ألبَ عليه وأغرَى الناسَ بدمه ، وأُشهِدُ الله ، لئن لم يدخلا فيما خرجا منه لَنُلْحِقَنَّهُما بعثمان ، فإنّ سيوفَنا فى عواتقنا ، وقلوبَنا فى صدورنا ، ونحن اليوم كما كنّا أمس . ثم قعد

(٢٣)

الأصـلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ الْأَمْرَ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ كَقَطْرِ الْمَطَرِ إِلى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا قُسِمَ لَهَا مِنْ زِيَادَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ ؛ فَإِنْ (١) رَأَى أَحَدُكُمْ لِأَخِيهِ غَفِيرَةً فِي أَهْلٍ أَوْ مَالٍ أَوْ نَفْسٍ ؛ فَلَا تَكُونَنَّ لَهُ فِتْنَةً ، فَإِنَّ الْمَرْءَ الْمُسْلِمَ مَالَمْ يَغْشَ دَنَاءَةً تَظْهَرُ فَيَخْشَعُ لَهَا إِذَا ذُكِرَتْ وَيُغْرَى بِهَا لِئَامُ النَّاسِ ؛ كَانَ كَالْفَالِجِ الْيَاسِرِ الَّذِي يَنْتَظِرُ أَوَّلَ فَوْزَةٍ مِنْ قِدَاحِهِ تُوجِبُ لَهُ الْمَغْنَمَ ، وَيُرْفَعُ عَنْهُ بِهَا الْمَغْرَمُ . وَكَذَلِكَ الْمَرْءُ الْمُسْلِمُ الْبَرِيءُ مِنَ الْخِيَانَةِ يَنْتَظِرُ مِنَ اللهِ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ؛ إِمَّا دَاعِيَ اللهِ فَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لَهُ ، وَإِمَّا رِزْقَ اللهِ ؛ فَإِذَا هُوَ ذُو أَهْلٍ وَمَالٍ ؛ وَمَعَهُ دِينُهُ وَحَسَبُهُ .

إِنَّ الْمَالَ وَالْبَنِينَ حَرْثُ الدُّنْيَا ، وَالْعَمَلَ الصَّالِحَ حَرْثُ الْآخِرَةِ ؛ وَقَدْ يَجْمَعُهُمَا اللهُ تعالى لِأَقْوَامٍ ؛ فَاحْذَرُوا مِنَ اللهِ مَا حَذَّرَكُمْ مِنْ نَفْسِهِ ، وَاخْشَوْهُ خَشْيَةً لَيْسَتْ بِتَعْذِيرٍ ، وَاعْمَلُوا فى غَيْرِ رِيَاءٍ وَلَا سُمْعَةٍ ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعْمَلْ لِغَيْرِ اللهِ يَكِلْهُ اللهُ إِلَى مَنْ عَمِلَ لَهُ . نَسْأَلُ اللهَ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ ، وَمُعَايَشَةَ السُّعَدَاءِ ، وَمُرَافَقَةَ الْأَنْبِيَاءِ .

أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّهُ لَا يَسْتَغْنِي الرَّجُلُ وَإِنْ كَانَ ذَا مالٍ عَنْ عَشِيرَتِهِ وَدِفَاعِهِمْ عَنْهُ بِأَيْدِيهِمْ وَأَلْسِنَتِهِمْ ؛ وَهُمْ أَعْظَمُ النَّاسِ حَيْطَةً مِنْ وَرَائِهِ ، وَأَلَمُّهُمْ لِشَعَثِهِ ، وَأَعْطَفُهُمْ

(١) ب : « فإذا » .

عَلَيْهِ عِنْدَ نَازِلَةٍ إن(١) نَزَلَتْ بِهِ ، وَلِسَانُ الصِّدْقِ يَجْعَلُهُ اللهُ لِلْمَرْءِ فى النَّاسِ خَيْرٌ لَهُ مِنَ الْمَالِ يُورِّثُهُ غَيْرَهُ .

ومنها :

أَلَا لَا يَعْدِلَنَّ أَحَدُكُمْ عَنِ الْقَرَابَةِ يَرَى بِهَا الْخَصَاصَةَ أَنْ يَسُدَّهَا بِالَّذِى لَا يَزِيدُهُ إِنْ أَمْسَكَهُ ، وَلَا يَنْقُصُهُ إِنْ أَهْلَكَهُ . وَمَنْ يَقْبِضْ يَدَهُ عَنْ عَشِيرَتِهِ ؛ فَإِنَّمَا تُقْبَضُ مِنْهُ عَنْهُمْ يَدٌ وَاحِدَةٌ ، وَتُقْبَضُ مِنْهُمْ عَنْهُ أَيْدٍ كَثِيرَةٌ .

وَمَنْ تَلِنْ حَاشِيَتُهُ يَسْتَدِمْ مِنْ قَوْمِهِ الْمَوَدَّةَ .

***

قال الرضىّ رحمه الله(٢) :

أقولُ : الغَفِيرَةُ ها هنا الزِّيادَةُ وَالْكَثْرَةُ ؛ مِنْ قَوْلِهِمْ للجمعِ الكثيرِ : الجَمُّ الغفير ، وَالجمّاء الغَفِير . وَيُرْوَى : « عَفْوَةً من(٣) أهلٍ أوْ مال » ، وَالعَفْوَةُ : الخِيار من الشَّىء ؛ يقال : أكلتُ عَفْوَةَ الطعام ، أى خِيارَه .

وَما أحْسَنَ المعنى الذى أرادهُ عليه السلامُ بقولِهِ : « ومن يَقْبِضْ يدهُ عَنْ عَشِيرَتِهِ ... » إلى تمام الكلام ، فإنَّ المُمْسِكَ خَيْرَهُ عَن عَشِيرَتِهِ ، إنما يُمْسِكُ نَفْعَ يَدٍ واحدةٍ ، فإذا احتاجَ إلَى نُصْرَتِهِمْ وَاضطُرَّ إلى مرافدتِهِمْ ، قعَدُوا عن نصرِهِ ، وَتَثاقَلوا عن صوْته ؛ فَمُنِعَ تَرافُدَ الأيدى الكثيرةِ وَتَناهُضَ الأقدامِ الجَمَّةِ .

***

(١) ب : « إذا » .

(٢) ساقطة من ا .

(٣) ا « فى » .

الشرح :

الفالج : الظافر الفائز ، فَلَج يَفْلُج ، بالضم ، وفى المثل : « مَنْ يأت الحكَم وحده يَفْلُج » . والياسر : الذى يلعب بالقداح ، واليَسَر مثله ، والجمع أيسار . وفى الكلام تقديم وتأخير ، تقديره : كالياسر الفالج ، أى كاللاعب بالقِداح المحظوظ منها ، وهو من باب تقديم الصفة على الموصوف ، كقوله تعالى : ﴿ وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾(١) ، وحسَّن ذلك هاهنا أنّ اللفظتين صفتان ، وإن كانت إحداهما مرتّبةً على الأخرى .

وقوله : «ليست بتعذير» ، أى ليست بذات تعذير ، أى تقصير ، فحذف المضاف ، كقوله تعالى : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ ٱلْأُخْدُودِ * ٱلنَّارِ ﴾(٢) أى ذى النّار .

وقوله : «هم أعظم الناس حَيْطة» كَبَيْعَة ، أى رعاية وكلاءة ، ويروى : «حِيطة» ، كِنيبة ، وهى مصدر حاط أى تحنّنا وتعطفا .

والخصاصة : الفقر ، يقول : القضاء والقدر ينزلان من السماء إلى الأرض كقطر المطر ، أى مبثوث فى جميع أقطار الأرض إلى كلّ نفس بما قُسِم لها من زيادة أو نقصان ، فى المال والعمر والجاه والولد وغير ذلك . فإذا رأى أحدُكم لأخيه زيادة فى رزق أو عمر أو ولد وغير ذلك ؛ فلا يكوننّ ذلك له فِتنةً تفضى به إلى الحسد ، فإنّ الإنسان المسلم إذا كان غيرَ مُواقِع لدناءة وقبيح يَستحيي من ذكره بين الناس ، ويخشع إذا قُرِّع به ، ويغرَى لئام الناس بهتْك ستره به ، كاللاعب بالقِداح ؛ المحظوظ منها ، ينتظر أول فَوْزَة وغلبَة من قِدَاحه ، تجلب له نفعا ، وتدفع عنه ضرّا ؛ كذلك مَنْ وصفْنا حالَه ، يصبر وينتظر إحدى الحسنيين ؛ إمّا أنْ يدعُوَه الله فيقبضَه إليه ، ويستأثرَ به ، فالذى عند الله خير له . وإما أنْ يُنْسَأ فى أجَله ، فيرزقه اللهُ أهلا ومالا ، فيصبحَ وقد اجتمع له ذلك مع حَسَبه ودينه ومروءته المحفوظة عليه .

ثم قال : « المال والبنون حرث الدنيا » ، وهو من قوله سبحانه : ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ

---

(١) سورة فاطر ٢٧ (٢) سورة البروج ٤ ، ٥

زِينَةُ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنيَا ﴾[١] ، ومن قوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي ٱلْآخِرَةِ مِن نَصِيبٍ ﴾[٢].

قال : وقد يجمعهما الله لأقوام ، فإنّه تعالى قد يرزقُ الرجل الصالح مالًا وبنين ، فتجتمعُ له الدنيا والآخرة .

ثم قال : « فاحذروا من الله ما حذّركم من نفسه » ، وذلك لأنه تعالى قال : ﴿فَاتَّقُونِ ﴾[٣] ، وقال : ﴿فَارْهَبُونِ ﴾[٤] ، وقال : ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ ﴾[٥] ، وغير ذلك من آيات التحذير .

ثم قال : ولتكن التقوى منكم أقصى نهايات جهدكم ، لا ذات تقصيركم ، فإنّ العمل القاصر قاصر الثواب ، قاصر المنزلة .

* * *

[فصل في ذم الحاسد والحسد]

واعلم أن مصدرَ هذا الكلامِ النهيُ عن الحسد ، وهو من أقبح الأخلاق المذمومة .

وروى ابن مسعود عن النبيّ صلى الله عليه وآله : « ألا لا تعادُوا نعم الله » ، قيل : يا رسول الله ، ومن الذى يعادِى نعم الله ؟ قال : « الذين يحسدون الناس » .

وكان ابن عمر يقول : تعوّذوا بالله من قَدَرٍ وافق إرادةَ حسود .

---

(١) سورة الكهف ٤٦ .

(٢) سورة الشورى ٢٠ .

(٣) سورة البقرة ٤١ : ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴾ .

(٤) سورة البقرة ٤٠ . ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ .

(٥) سورة المائدة ٤٤ .

قيل لأرسطو : ما بالُ الحسود أشدّ غمّاً من المكروب ؟ قال : لأنه يأخذ نصيبَه من غموم الدنيا ، ويضاف إلى ذلك غمّه بسرور الناس .

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان ، فإنّ كلّ ذى نعمة محسود » .

وقال منصور الفقيه[1] :

مُنَافَسَةُ الْفَتَى فِيمَا يَزُولُ ... عَلَى نُقْصَانِ هِمَّتِهِ دَلِيلُ
وَمُخْتَارُ الْقَلِيلِ أَقَلُّ مِنْهُ ... وَكُلُّ فَوَائِدِ الدُّنْيَا قَلِيلُ

ومن الكلام المرويّ عن أمير المؤمنين عليه السلام : لله درّ الحسد ! ما أعدله ! بدأ بصاحبه فقتَله .

ومن كلام عثمان بن عفان : يكفيك من انتقامك من الحاسد أنه يغتمّ وقتَ سرورك .

وقال مالك بن دينار : شهادة القرّاء مقبولة فى كلّ شىء إلا شهادة بعضهم على بعض ، فإنّهم أشدّ تحاسدا من التّيوس فى الوبَر .

وقال أبو تمام :

وَإِذَا أَرَادَ اللهُ نَشْرَ فَضِيلَةٍ ... طُوِيَتْ ، أَتَاحَ لَهَا لِسَانَ حَسُودِ[2]
لولا اشْتِعَالُ النَّارِ فيما جَاوَرَتْ ... مَا كَانَ يُعْرَفُ طِيبُ عَرْفِ الْعُودِ
لَوْلَا مُحَاذَرَةُ الْعَوَاقِبِ لَمْ تَزَلْ ... للحاسِدِ النُّعْمَى عَلَى الْمَحْسُودِ[3]

وتذاكر قوم من ظرفاء البصرة الحسَد ، فقال رجل منهم : إنّ النّاس ربّما حسدوا على الصّلب ؛ فأنكروا ذلك ، ثم جاءهم بعد ذلك بأيام ، فقال : إنّ الخليفة قد أمر بصلْب

---

(١) هو منصور بن إسماعيل بن عيسى التميمى أحد فقهاء الشافعية . طبقات السبكى ٢ : ٣١٧ .
(٢) ديوانه ١ : ٤٠٢ (٣) الديوان : « لولا التخوف للعواقب » .

الأحنف(١) بن قيس(١) ، ومالك بن مِسْمَع ، وحَمْدان الحجّام؛ فقالوا: هذا الخبيثُ يُصْلَب مع هذين الرئيسين ! فقال : ألم أقلْ لكم إنّ الناس يحسُدون على الصَّلب !

وروَى أنس بن مالك مرفوعا: «إنّ الحسَد يأكل الحسناتِ كما تأكل النارُ الحطب».

وفى الكتب القديمة : يقول الله عز وجل : الحاسِد عدوّ نعمتى ، متسخّط لفعلى ، غير راضٍ بقسمتى .

وقال الأصمعىّ : رأيتُ أعرابيًّا قد بلغ مائة وعشرين سنة ، فقلت له : ما أطولَ عمرَك ! فقال : تركتُ الحسدَ فبقيت .

وقال بعضهم : مارأيتُ ظالما أشبهَ بمظلوم من حاسد .

قال الشاعر :

تراهُ كأنّ الله يجدَعُ أنفَه ... وأذْنيه إنْ مولاه ثابَ الى وَفْرِ

وقال آخر :

قُلْ للحسُود إذَا تَنفّس ضِغْنُهُ ... ياظالماً وَكأنّهُ مَظلُومُ !

ومن كلام الحكماء : إيّاك والحسَد ، فإنّه يَبِينُ فيك ولا يَبين فى المحسود .

ومن كلامهم : من دناءة الحاسِدِ أنّه يبدأ بالأقرب فالأقرب .

وقيل لبعضهم : لزمتَ البادية ، وتركتَ قومَكَ وبلدك ! قال : وهل بقِىَ إلا حاسدُ نِعْمة ، أو شامتٌ بمصيبة !

بينا عبد الملك بن صالح يسيرُ مع الرّشيد فى موكبه ، إذ هتف هاتف : ياأميرالمؤمنين، طأطئْ من إشرافه ، وقَصّر من عِنانه ، واشْدُدْ من شِكاله ـ وكان عبدُ الملك منهما

---

(١) ساقط من ب

عند الرشيد بالطَّمَع في الخلافة ـ فقال الرّشيد : مايقول هذا ؟ فقال عبدُ الملك : مقالُ حاسد ودسيسُ حاقدٍ يا أمير المؤمنين . قال : قد صدقت ، نقصَ القومُ وفضلتَهم ، وتخلفوا وسبقتَهم ؛ حتى برز شأوُك ، وقصَّر عنك غيرُك ، ففي صدورهم جمراتُ التخلُّف ، وحزازاتُ التبلّد . قال عبد الملك : فأضرِمْها يا أمير المؤمنين عليهم بالمزيد .

وقال شاعر :

يَا طَالِبَ الْعَيْشِ فِي أَمْنٍ وَفِي دَعَةٍ   مَحْضـاً بِلَا كَدَرٍ ، صَفْواً بِلَا رَنَقِ
خَلِّصْ فُؤَادَكَ مِنْ غِلٍّ وَمِنْ حَسَدٍ   فَالْغِلُّ فِي الْقَلْبِ مِثْلُ الْغُلِّ فِي الْعُنُقِ

ومن كلام عبد الله بن المعتز : إذا زال المحسودُ عليه ، علمتَ أنّ الحاسد كان يحسدُ على غير شيء .

ومن كلامه : الحاسدُ مغتاظ على من لا ذنب له ، بخيل بما لا يملكه .

ومن كلامه : لا راحةَ لحاسد ، ولا حَياءَ لحريص .

ومن كلامه : الميت يقلّ الحسدُ له ، ويكثر الكذبُ عليه .

ومن كلامه : ماذلّ قوم حتى ضَعفُوا ، وما ضَعفُوا حتى تفرّقوا ، وما تفرّقوا حتى اختلفوا ، وما اختلفوا حتّى تباغضوا ، وما تباغضوا حتى تحاسدوا ، وما تحاسدوا حتى استأثر بعضهم على بعض .

وقال الشاعر :

إِنْ يَحْسُدُونِى فَإِنِّى غَـيْرُ لَائِمِهِمْ   قَبْلِى مِنَ النَّاسِ أَهْلُ الْفَضْلِ قَدْ حُسِدُوا[1]
فَـدَامَ لِى وَلَهُمْ مَابِى وَمَا بِهِمُ   وَمَاتَ أَكْثَرُنَا غَيْظـاً بِمَا يَجِـدُ

---

(١) من أبيات في أمالي المرتضى ١ : ٤١٤ ، ونسبها إلى الكميت بن زيد ؛ وهي في شرح المختار من شعر بشار ٦٧ من غير نسبة ، وعيون الأخبار ٢ : ١١ ، وأمالي القالي ٢ : ١٩٨

ومن كلامهم : ماخلا جَسَدٌ عن حسد .

وحدُّ الحسد هو أن تغتاظَ مما رُزِقَه غيرُك ، وتودّ أنه زال عنه وصار إليك . والغبطة : ألّا تغتاظ ولا تودّ زوالَه عنه ؛ وإنما تودّ أن تُرْزَقَ مِثْله ، وليست الغبطة بمذمومة .

وقال الشاعر :

حَسَدُوا الْفَتَى إِذْ لَمْ يَنَالُوا سَعْيَهُ ... فَالْكُلُّ أَعْـداءٌ لَهُ وَخُصُومُ (١)
كَضَرَائِرِ الْحَسْنَاءِ قُلْنَ لِوَجْهِهَا ... - حَسَداً وَبَغْياً - إِنَّهُ لَدَمِيمُ

* * *

[فصل في مدح الصبر وانتظار الفرج]

واعلم أنه عليه السلام بعد أن نهى عن الحَسَد أمر بالصبر وانتظار الفرَج من الله ، إما بموتٍ مريحٍ ، أو بظفرٍ بالمطلوب .

والصبرُ من المقامات الشريفة ، وقد وَرَدت فيه آثارٌ كثيرة ، روى عبد الله بن مسعود عن النبيّ صلى الله عليه وآله : « إنّ الصبر نصفُ الإيمان ، واليقين الإيمان كلّه » .

وقالت عائشة : لو كان الصبر رجلا لكان كريما .

وقال عليّ عليه السلام : الصّبر إمّا صبر على المصيبة ، أو على الطاعة ؛ أو عن المعصية ؛ وهذا القسم الثالث أعلَى درجةً من القسمين الأوّلين .

وعنه عليه السلام : الحياء زينة ، والتقوى كرم ، وخير المراكب مركب الصبر .

وعنه عليه السلام : القناعة سيفٌ لا ينبُو ، والصبر مَطِيّةٌ لا تكبو ، وأفضل العدّة الصبرُ على الشدّة .

قال الحسن عليه السلام : جرّبْنا وجرّب المجرّبون ، فلم نرَ شيئا أنفعَ وِجدانا ، ولا أضرّ فِقدانا من الصبر ؛ تُداوَى به الأمور ، ولا يداوى هُوَ بغيره .

---

(١) لأبي الأسود الدؤلي ، ملحق ديوانه ٥١ .

وقال سعيد بن حُمَيد الكاتب[1] :

لَا تَعْتَبَنَّ عَلَى النَّوَائِبْ ... فَالدَّهْرُ يُرْغِمُ كُلَّ عَاتِبْ
وَاصْبِرْ عَلَى حَدَثَانِهِ ... إِنَّ الأُمورَ لَهَا عَوَاقِبْ
كَمْ نِعْمَةٍ مَطْوِيَّةٍ ... لَكَ بَيْنَ أَثْنَاءِ النَّوَائِبْ[2]
وَمَسَرَّةٍ قَدْ أَقْبَلَتْ ... مِنْ حَيْثُ تُنْتَظَرُ المَصَائِبْ

ومن كلامهم : الصبر مُرّ ، لا يتجرّعه إلا حُرّ .

قال أعرابيّ : كُنْ حُلْوَ الصَّبْرِ عندَ مَرارة النّازلة .

وقال كسرى لِبُزُرْجِمِهر : ماعلامةُ الظفر بالأمور المطلوبة المستصعبَة ؟ قال : ملازمة الطّلب ، والمحافظة على الصبر ، وكِتمان السر .

وقال الأحنف بن قيس : لست حليماً ؛ إنّما أنا صبور ، فأفادني الصبر صِفَتِي بالحلم .

وسئل عليّ عليه السلام : أىّ شيء أقربُ إلى الكفر ؟ قال : ذو فاقة لا صبر له .

ومن كلامه عليه السلام : الصبر يُناضِل الحدَثان ، والجزع من أعوان الزمان .

وقال أعشى هَمْدان :

إنْ نِلْتُ لم أفرَحْ بشيء نِلْتُهُ ... وإذا سُبِقْتُ به فلا أتلهَّفُ[3]
وَمَتَى تُصِبْكَ من الحوادثِ نَكْبَةٌ ... فاصْبِرْ فكلّ غَيَابَةٍ تَتَكَشَّفُ

والأمر يذكر بالأمر ، وهذا البيت هو الذى قاله له الحجاج يوم قتله ، ذكر ذلك أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار الأنبارىّ فى "الأمالى" ، قال : لمّا أُتِيَ الحجاجُ بأعشى همدان أسيرا ؛ وقد كان خرج مع ابن الأشعث ، قال له : يابن اللخناء ! أنت القائل لِعدوّ الرحمن – يعنى عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث :

---

(١) البيتان : الثالث والرابع فى شرح المختار من شعر بشار ٣١٤ ، من غير نسبة .
(٢) شرح المختار : «كم فرجة » .
(٣) ديوان الأعشين ٣٥ ، مع اختلاف فى الرواية والترتيب .

يابنَ الأشجِّ قريعِ كِنْـ ـدةَ لا أبالى فيك عتبا[1]
أنت الرئيسُ ابنُ الرئيـ ـسِ ، وأنتَ أعلى الناسِ كعبا[2]
نُبِّئتُ حجاجَ بنَ يو سُـفَ خرَّ مِنْ زَلَقٍ فتبَّا
فانهضْ هُديتَ لعلَّهُ يجلو بك الرحمن كربا[3]
وابعثْ عطيةَ فى الحرو بِ يكبهنَّ عليه كبَّا

ثم قال : عبد الرحمن خرَّ من زَلَقٍ فتبَّ ، وخسر وانكبَّ ، وما لقىَ ما أحبَّ . ورفع بها صوته ، واهتزَّ منكباه ، ودرَّ ودجاه[4] ، واحمرَّت عيناه ، ولم يبق فى المجلس إلا من هابه ، فقال : أيها الأمير ، وأنا القائل :

أبى اللهُ إلاَّ أنْ يُتمِّمَ نورَهُ ويُطفئَ نارَ الكافرينَ فتخمُدا[5]
ويُنزِلَ ذُلاًّ بالعراق وأهله كما نقضوا العهدَ الوثيقَ المؤكَّدا
وما لبِثَ الحجَّاجُ أنْ سَلَّ سيفَه علينا ، فولَّى جمعُنا وتبدَّدا

فالتفت الحجَّاج إلى مَنْ حضر ، فقال : ما تقولون ؟ قالوا : لقد أحسن أيها الأمير ، ومحا بآخِرِ قوله أولَهُ ، فليسعْه حِلْمُك . فقال : لاها الله ! إنه لم يُرِدْ ما ظننتم ، وإنما أراد تحريضَ أصحابه ، ثم قال له : ويلك ! ألست القائل :

إنْ نِلْتُ لَمْ أفرحْ بشىءٍ نِلْتُهُ وإذا سُبِقْتُ به فلا أتلهَّفُ
ومتى تُصبْكَ مِنَ الحوادثِ نكبةٌ فاصبرْ ، فكلُّ غيابةٍ تتكشَّفُ

أما والله لَتُظلِمَنَّ عليك غيابةٌ لا تتكشف أبدا ، ألست القائل فى عبد الرحمن :

إذا سألتَ المجدَ أين محلُّهُ فالمجدُ بينَ محمدٍ وسعيدِ

---

(١) ديوان الأعشين ٣١٢
(٢) ديوان الأعشين : « أعلى القوم » .
(٣) ديوان الأعشين : « هديت » .
(٤) يقال : در العرق ، إذا امتلأ دماً ، والودجان : عرقان فى العنق .
(٥) ديوان الأعشين ٣٢٠ ، مع اختلاف فى الرواية وترتيب الأبيات .

بَيْنَ الأَشَجِّ وَبَيْنَ قَيْسٍ نَازِلٌ   بَخٍ بَخٍ لِوالِدِهِ وللمولود[1]

والله لا يُبَخْبِخُ[2] بعدها أبدا : ياحرسيّ اضرب عُنُقَه .

***

ومما جاء فى الصبر قيل للأحنف : إنك شيخٌ ضعيف ، وإنّ الصيام يَهُدّك . فقال : إنى أعدّه لشرّ يوم طويل ، وإنّ الصبرَ على طاعة الله أهونُ من الصبر على عذاب الله .

ومن كلامه : مَنْ لم يَصْبِرْ على كلمةٍ سَمِعَ كلمات . ربّ غيظٍ قد تجرّعتُه مخافة ما هو أشدّ منه .

يونس بن عبيد : لو أُمِرْنا بالجَزَع لصبرنا .

ابن السمّاك : المصيبة واحدة ، فإن جزع صاحبُها منها صارت اثنتين . يعنى : فقدَ المصاب وفقد الثواب .

الحارث بن أسد المحاسبيّ : لكل شىء جوهر ، وجوهر الإنسان العقل ، وجوهر العقل الصبر .

جابر بن عبد الله : سئل رسول الله صلى الله عليه وآله عن الإيمان ، فقال : « الصبر والسماحة » .

وقال العتابيّ :

اصْبِرْ إذا بَدَهَتْكَ نَائِبَةٌ   مَاعَالَ مُنْقَطِعٌ إلى الصَّبْرِ

الصَّبْرُ أَوْلَى مَا اعْتَصَمْتَ بِهِ   وَلَنِعْمَ حَشْوُ جَوانِحِ الصَّدْرِ

ومن كلام علىّ عليه السلام : الصّبر مفتاح الظَّفر ، والتوكّل على الله رسول الفَرَج .

ومن كلامه عليه السلام : انتظارُ الفَرَج بالصّبْرِ عبادة .

أكْثَم بن صَيْفِيّ : الصبرُ على جُرَعِ الحِمَام أعذب من جنَا النّدَم .

---

(١) ديوان الأعشى ٢٢٣ .

(٢) بخبخ الرجل ؛ إذا قال : بخ بخ ، وفى اللسان : « والله لابخبخت بعدها » .

ومن كلام بعض الزهّاد: واصبر عَلَى عملٍ لا غَناء بك عن ثوابه، واصبرْ عن عملٍ لا صَبْرَ على عقابكَ به.

وكتب ابنُ العميد: أقرأُ في الصَّبْرِ سُوَرا، ولا أقرأ في الجزع آية. وأحفَظُ في التماسك والتجلُّد قصائد، ولا أحفظُ في التهافُت قافية.

وقال الشاعر:

وَيَوْمٍ كيَوْمِ الْبَعْثِ مَا فِيهِ حَاكِمٌ ... وَلَا عَاصِمٌ إِلَّا قَنـاً وَدُرُوعُ
حَبَسْتُ بِهِ نَفْسِي عَلَى مَوْقِفِ الرَّدَى ... حِفَاظاً وَأَطْرَافُ الرِّمَاحِ شُرُوعُ
وَمَا يَسْتَوِي عِنْدَ الْمُلِمَّاتِ إِنْ عَرَتْ ... صَبُورٌ عَلَى مَكْرُوهِهَا وَجَزُوعُ

أبو حية النُّميريّ:

إِنِّي رَأَيْتُ وَفِي الْأَيَّامِ تَجْرِبَةٌ ... لِلصَّبْرِ عَاقِبَةً محمودةَ الْأَثَرِ
وَقَلَّ مَنْ جَدَّ فِي أَمْرٍ يُحَاوِلُهُ ... وَاسْتَصْحَبَ الصَّبْرَ إِلَّا فَازَ بِالظَّفَرِ

ووصف الحسنُ البصريّ عليًّا عليه السلام، فقال: كانَ لا يَجْهَلُ، وإنْ جُهِلَ عليه حَلُمَ. ولا يَظْلِمُ، وإنْ ظُلِمَ غفَرَ. ولا يَبْخَلُ، وإنْ بَخِلَتِ الدُّنيا عليه صَبَرَ.

عبد العزيز بن زُرارةَ الكلابيّ:

قَدْ عِشْتُ فِي الدَّهْرِ أَطْوَاراً عَلَى طُرُقٍ ... شَتَّى فَقَاسَيْتُ مِنْهُ الْحُلْوَ وَالْبَشِعَا[1]
كُلًّا بَلَوْتُ فَلَا النَّعْمَاءُ تُبْطِرُنِي ... وَلَا تَخَشَّعْتُ مِنْ لَأْوَائِهَا جَزَعَا
لَا يَمْلَأُ الْأَمْرُ صَدْرِي قَبْلَ مَوْقِعِهِ ... وَلَا يَضِيقُ بِهِ صَدْرِي إِذَا وَقَعَا

ومن كلام بعضهم: مَن تَبَصَّرَ تَصَبَّرَ. الصَّبْرُ يفسحُ الفَرَج، ويفتح المرتَتج. المحْنة إذا تُلُقِّيت بالرِّضا والصَّبْرِ كانت نعمةً دائمة، والنِّعمة إذا خلت من الشُّكر كانت مِحْنةً لازمة.

---

(١) ديوان المعاني ١ : ٨٨ ؛ وفى نسبة هذه الأبيات وروايتها خلاف ، انظره فى حواشى اللآلى ٤١٢ .

قيل لأبي مسلم صاحب الدولة . بِمَ أصَبْتَ ما أصَبْتَ ؟ قال : ارْتَدَيْتُ بالصّبر ، واتزرت بالـكِتْمان ، وحالفتُ الحزم ، وخالفتُ الهوى ، ولم أجعل العدوّ صديقـا ، ولا الصديقَ عدوّا .

منصور النَّمَرِيّ في الرَّشيد .

وَلَيْسَ لأعْباء الأُمُورِ إذَا عَرَتْ بمُكتَرِثٍ لكِنْ لَهُنَّ صَبُورُ
يُرَى ساكِنَ الأطْرافِ باسِطَ وَجْهِهِ يُرِيكَ الهُوَيْنَى والأُمُورُ تَطِيرُ

من كلام أمير المؤمنين عليه السلام : أوصيكم بخمس لو ضربتُم إليهن آباطَ الإبل كانت لذلك أهلا : لا يرجُوَنّ أحدُكُم إلّا ربّه ، ولا يخافَنّ إلا ذَنْبَه ، ولا يستحيَنّ إذا سئلَ عمّا لا يعلم أنْ يقولَ لا أعلم ، ولا يستحيي إذا جهل أمرا أن يتعلّمه . وعليكم بالصّبر ، فإنّ الصبرَ من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، فـكما لا خَيْرَ في جَسَدٍ لا رأس له ، لا خيرَ في إيمانٍ لا صَبْر معه .

وعنه عليه السلام : لا يعدَمِ الصّبور الظّفَر ، وإن طال به الزمان .

نهشل بن حَرِّيّ :

ويوم كأنّ المصطلين بحرّهِ وإنْ لم يكنْ جَمْراً قيامٌ على جَمْرِ
صَبَرْنا لهُ حَتّى تجلّى وإنّما تُفَرَّجُ أيامُ الـكَرِيهَةِ بِالصَّبْرِ

عليّ عليه السلام : اطرَحْ عنك وارداتِ الهموم بعزائم الصَّبْر وحسن اليقين .

وعنه عليه السلام : وإن كنت جازِعاً على ما تفلّتَ من يديك ، فاجزَعْ عَلَى كلّ ما لم يصل إليك !

وفي كتابه عليه السلام الذي كتبه إلى عَقيل أخيه : ولا تحسبَنّ ابن أمّك ـ ولو أسلمه الناس ـ متضرّعا متخشعا ، ولا مقرّا للضيم واهنا ، ولا سَلِسَ الزمام للقائد ، ولا وطىء الظّهر للراكب ، ولـكنّه كما قال أخو بني سُلَيْم :

فإنْ تسأليني كيفَ أنتَ فإنني صَبُورٌ على رَيْبِ الزّمانِ صَلِيبُ(١)
يَعِزّ عليّ أن تُرَى بِي كآبةٌ فَيَشْمَتَ عادٍ أو يُساءَ حبيبُ

***

[فصل فى الرّياء والنهى عنه]

واعلم أنه عليه السلام، بعد أنْ أمَرنا بالصّبر ، نهى عن الرّياء فى العمل، والرّياء فى العمل منهىٌّ عنه ، بل العملُ ذو الرّياء ليس بعملٍ على الحقيقة ، لأنّه لم يُقصَدْ به وجه الله تعالى. وأصحابُنا المتكلّمون يقولون : ينبغي أن يعمل المكلّف الواجبَ لأنه واجب ، ويجتنبَ القبيح لأنه قبيح ، ولا يفعل الطاعة ويترك المعصية رغبةً فى الثواب ، وخوفا من العقاب؛ فإنّ ذلك يُخرِج عَمَلَه من أن يكون طريقا إلى الثواب ؛ وشبّهوه بالاعتذار فى الشيء ؛ فإنّ مَنْ يعتذِرُ إليك من ذنبٍ خوفا أن تعاقِبَه على ذلك الذنب ، لا نَدَماً على القبيح الذى سبق منه ، لا يكون عُذْرُه مقبولا، ولا ذنبُه عندك مغفورا. وهذا مقامٌ جليل لا يصِلُ إليه إلا الأفراد من ألوف الألوف .

وقد جاء فى الآثار من النّهى عن الرياء والسمعة كثيرٌ ، روى عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنه قال : « يُؤتَى فى يوم القيامة بالرّجل قد عَمِل أعمال الخير كالجبال – أو قال : كجبال تِهامة – وله خطيئة واحدة ، فيقال : إنما عَمِلْتَها لِيُقال عنك، فقد قيل؛ وذاك ثوابُك وهذه خطيئتك ، أدخِلوه بها إلى جهنم » .

وقال عليه السلام : « ليست الصلاة قيامَك وقعودَك ، إنّما الصلاة إخلاصُك، وأنْ تُريدَ بها الله وحده » .

وقال حبيب الفارسيّ : لو أنّ الله تعالى أقامنى يوم القيامة وقال : هل تعدّ سجدةً سَجدتَ ليس للشيطان فيها نصيب لم أقدِرْ على ذلك .

---

(١) مجموعة المعانى ٧٢ ، وهما لصخر بن عمرو السلمى ، والأول من أبيات أربعة فى الأغانى ١٥ : ٧٩

توصّل عبدُ الله بن الزُّبير إلى امرأة عبدالله بن عمر - وهى أخت المختار بن أبى عُبيد الثّقفىّ - فى أن تُكلّم بعلَها عبدَ الله بن عمر أن يبايعه . فكلّمته فى ذلك ، وذكرتْ صلاتَه وقيامه وصيامه ، فقال لها : أما رأيتِ البغَلات الشُّهْب التى كنّا نراها تحت معاوية بالحِجْر إذا قدم مكّة ؟ قالت : بلى ، قال : فإياها يطلب ابنُ الزُّبير بصومه وصلاته !

وفى الخبر المرفوع : « إنّ أخوف ما أخاف على أمّتى الرياء فى العمل ، ألا وإنّ الرياء فى العمل هو الشركُ الخفىّ » :

صَلّى وَصامَ لأمْرٍ كان يَطْلُبُهُ   حتّى حَوَاهُ فَلاَ صَلّى وَلاَ صاماَ

* * *

[فصل فى الاعتضاد بالعشيرة والتكثّر بالقبيلة]

ثم إنه عليه السلام بعد نهيه عن الرياء وطلب السمعة ؛ أمر بالاعتضاد بالعشيرة والتكثّر بالقبيلة ؛ فإنّ الإنسان لا يستغنى عنهم وإن كان ذا مال ، وقد قالت الشعراء فى هذا المعنى كثيرا ؛ فمن ذلك قول بعض شعراء الحماسة (١) :

إذَا المَرْءُ لم يَغْضَبْ لَهُ حين يَغْضَبُ   فَوَارِسُ إن قيلَ ارْكَبُوا الموتَ يَرْكَبُوا

ولم يَحْبُهُ بالنَّصرِ قَوْمٌ أعِزَّةٌ   مَقَاحِيمُ فِى الأَمْرِ الَّذِى يُتَهَيَّبُ (٢)

تَهَضَّمَهُ أدْنَى العُدَاةِ فَلَمْ يَزَلْ   وإنْ كانَ عِضًّا بالظّلامَةِ يُضْرَبُ (٣)

فَآخِ لحال السّلْمِ مَنْ شِئْتَ واعْلَمَنْ   بِأنْ سِوَى مَوْلاَكَ فى الحَرْبِ أجْنَبُ

وَمَوْلاَكَ مَوْلاَكَ الّذِى إنْ دَعَوْتَهُ   أجَابَكَ طَوْعًا والدِّمَاءُ تَصَبَّبُ

فَلاَ تَخْذُلِ المَوْلَى وإنْ كانَ ظَالِماً   فإنّ بِهِ تُثْأَى الأُمُورُ وتُرْأَبُ (٤)

---

(١) فى الحماسة ٢ : ٢١١ : « قراد بن عباد » ، وصححه التبريزى : « قراد بن العيار » ، وقال : « أبوه العيار أحد شياطين العرب » .

(٢) مقاحيم : جمع مقحام ؛ وهو الذى يخوض قحمة الشىء ؛ أى معظمه .

(٣) تهضمه ، أى كسره وأذله . والعض : المنكر الشديد اللسان .

(٤) تثأى : تخرق وتفتق .

ومن شعر الحماسة أيضاً :

أَفِيقُوا بَنِي حَــزْنٍ وأهْوَاؤُنَا مَعاً ... وَأَرْحَامُنَا مَوْصُــولَةٌ لَمْ تُقَضَّبِ(١)

لَعَمْرِي لرهطُ المَرْءِ خَــيْرُ بَقِيَّةٍ ... عَلَيْهِ وإنْ عالَوْا بِهِ كُلَّ مَرْكَبِ

إذا كُنْتَ في قوم وأمُّكَ منْهُمُ ... لَتُعْزَى إليهمْ في خَبِيثٍ وَطَيِّبِ

وإنْ حَــدَّثَتْكَ النَّفْسُ أنكَ قادِرٌ ... على ما حَوَتْ أيْدِي الرِّجالِ فَــكَذِّبِ

ومن شعر الحماسة أيضاً :

لَعمرُكَ ما أنْصَفْتَنِي حينَ سُمْتَنِي ... هَوَاكَ مَعَ المَوْلَى وأنْ لا هَوَى لِيَا(٢)

إذا ظُلِمَ المَــولى فَزِعْتُ لِظُلْمِهِ ... فَحَرَّقَ أحشَــائِي وَهَرَّتْ كِلاَبِيَا

ومن شعر الحماسة أيضاً :

وَمَا كُنْتُ أبْغِي العمَّ يَمْشِي على شَفاً ... وإنْ بَلَغَتْنِي مِنْ أذَاهُ الجَنادِعُ(٣)

ولَــكِنْ أُوَاسِيــهِ وأنسَى ذُنُوبَهُ ... لِتَرْجِعَــهُ يوماً إلى الرَّوَاجِعُ

وَحَسْبُكَ مِنْ ذُلٍّ وسُــوءِ صَنِيعَــةٍ ... مُنَاوَاةُ ذِي القُرْبَى وأنْ قِيلَ قاطِعُ(٤)

ومن شعر الحماسة أيضاً :

ألاَ هَلْ أَتَى الأنصارَ أنَّ ابنَ بَحْدَلٍ ... حُمَيْــداً شَفَى كَلْباً فَقَرَّتْ عيونُهَا(٥)

فإنَّا وَكَلْباً كاليَدَيْنِ مَتَى تَقَعْ ... شِمَالُكَ في الهَيْجَا تُعِنْهــا يَمِينُهَا

---

(١) ديوان الحماسة (١ : ٣١٨) بشرح المرزوق ، ونسبه التبريزى (١ : ٢٩٧) إلى جندل بن عمرو . معا ، أى مجتمعة . والقضب : القطع ؛ ولم يرد في الحماسة سوى البيت الأول .

(٢) ديوان الحماسة (١ : ٣٥٠) بشرح التبريزى ، ونسبه إلى حريث بن جابر .

(٣) ديوان الحماسة (١ : ٣٨٠) بشرح التبريزى ، ونسبه إلى محمد بن عبد الله الأزدى وروايته : « لا أدفع ابن العم يمشى . . . » ، وشفا الشىء : حرفه . والجنادع : الدواهى .

(٤) يجوز فتح همزة « إن » وكسرها ، وانظر التبريزى .

(٥) ديوان (الحماسة ٢ : ٥٢٢) بشرح المرزوق وهى هناك أربعة أبيات ؛ هنا الأول والرابع منها ، ونسبها إلى بعض بنى جهينة .

ومن شعر الحماسة أيضاً :

أخوكَ أخوكَ مَنْ يَنأى وَتَدْنُو مَوَدَّتُهُ وإنْ دُعِيَ استجابا[1]

إذا حارَبْتَ حارَبَ مَنْ تُعادِي وَزَادَ غَنـــاؤه مِنكَ اقترابا[2]

يُواسِي فِي كَرِيهَتِـــه وَيَدْنُو إذَا مامُضلِعُ الحَـدَثانِ نَابا[3]

***

[فصل فى حسن الثناء وطيب الأحدوثة]

ثم إنه عليه السلام ذكَرَ أنَّ لسانَ الصدق يجعله الله للمرء فى الناس خيرا له من المال يورِّثه غيرَه . ولسانُ الصدق هوأن يُذكَرَ الإنسانُ بالخير،ويُثنَى عليه به ، قال سبحانه : ﴿ وَٱجْعَلْ لِى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْآخِرِينَ ﴾[4] .

وقد ورد فى هذا المعنى من النثر والنظم الكثير الواسع،فن ذلك قولُ عمر لابنة هَرِم: ما الذى أعطى أبوك زهيراً ؟ قالت:أعطاه مالاً يَفنى ، وثيابا تَبلى.قال : لكن ما أعطاكم زُهير لا يُبليه الدّهر ، ولا يُفنِيه الزمان .

ومن شعر الحماسة أيضاً :

إذا أنتَ أعطيتَ الغنى ثُمَّ لم تَجُدْ بِفَضْلِ الغِنَى أُلْفِيتَ مالَكَ حامدُ[5]

وقلَّ غَناء عنك مالٌ جمعتَه إذا كان ميراثاً وواراكَ لَاحِدُ

وقال يزيد بن المهلّب : المال والحياة أحبُّ شىء إلى الإنسان ، والثناء الحسَنُ أحبّ إلىّ منهما ؛ ولو أنى أعطيتُ مالم يُعطَهُ أحدٌ لأحببتُ أن يكون لى أُذُنٌ أسمع بهما مايقال فىّ غدا وقد مِتُّ كريما .

وحكى أبو عثمان الجاحظ عن إبراهيم السندىّ ، قال : قلت فى أيام ولايتى الكوفة

---

(١) ديوان الحماسة — بشرح المرزوقى ٢ : ٥٤٢ ، ونسبها إلى ربيعة بن مقروم
(٢) الحماسة : « وزاد سلاحه » .
(٣) لم يذكر هذا البيت فى الحماسة . (٤) سورة الشعراء ٨٤ .
(٥) ديوان الحماسة ٣ : ١١٩٩ بشرح المرزوقى ، من أبيات نسبها إلى محمد بن أبى شحاذ .

لرجل من وجُوهها ــ كان لا يجفّ لِبْدُه ولا يستريح قلبُه ، ولا تسكن حركته فى طلب حوائج الناس ، وإدخال السرور على قلوبهم ، والرِّفقِ على ضعفائهم ، وكان عفيفَ الطُّعمة . خبِّرنى عمّا هوّن عليك النَّصَبَ ، وقوّاكَ على التعب ؟ فقال : قد والله سمعتُ غِناء الأطيار بالأسحار ، على أغصانِ الأشجار ، وسمعتُ خَفْقَ الأوتارِ ، وتجاوُبَ العُودِ والمِزْمار ، فما طربتُ من صوتٍ قطّ طَرَبى من ثناء حَسَن على رجل محسِن ، فقلتَ : لله أبوك ! فلقد مُلئتَ كَرَماً .

وقال حاتم :

أماوِىَّ إنْ يُصْبِحْ صَدَاىَ بِقَفْرَةٍ ... مِنَ الأرْضِ لا ماءٌ لدىَّ ولا خَمْرُ(١)

تَرَىْ أنّ ما أنفقتُ لم يكُ ضَرَّنى(٢) ... وأنّ يدى ممّا بخلتُ به صِفْرُ

أماوِىَّ ما يُغْنِى الثَّراءُ عَنِ الفَتَى ... إذا حَشْرَجَتْ يَوْماً وَضَاقَ بِها الصَّدْرُ(٣)

بعض المحدثين :

مَنِ اشْتَرَى بمالِهِ ... حُسْنَ الثَّناءِ غُبِنا

أفْقَرَهُ سَماحُهُ ... وذلكَ الفقرُ الغِنَى

ومن أمثال الفرس : كلّ ما يُؤْكل ينتن ، وكلّ ما يُوهَب يأرَج .

وقال أبو الطيِّب :

ذِكْرُ الفَتَى عُمْرُهُ الثَّانى وَحاجَتُهُ ... ما قاتَهُ وَفُضُولُ العَيْشِ أشْغالُ(٤)

* * *

[فصل فى مواساة الأهل وصلة الرحم]

ثم إنه عليه السلام بعد أن قرّظ الثناء والذِّكر الجميل ، وفضّله على المال ، أمر بمواساة

---

(١) ديوانه ١٦٨ .

(٢) الديوان : « ما أهلكت » .

(٣) الديوان : « إذا حشرجت نفس » .

(٤) ديوانه ٣ : ٢٨٨ .

الأهل ، وصلة الرحم ، وإنْ قلّ ما يواسى به ، فقال : «ألا لا يعدِلَنّ أحدُكم عن القرابة...» ، إلى آخر الفصل ، وقد قال الناس فى هذا المعنى فأكثروا .

فمن ذلك قول زهير :

وَمَنْ يَكُ ذَا فَضْلٍ فَيَبْخَلْ بِفَضْلِهِ   عَلَى قَوْمِهِ يُسْتَغْنَ عَنْهُ وَيُذْمَمِ (١)

وقال عثمان : إنّ عمر كان يمنع أقرباءه ابتغاء وجه الله ، وأنا أعطيهم ابتغاء وجه الله ، ولن تروْا مثل عمر .

أبو هريرة مرفوعا : « الرحِمُ مشتقّة من الرحمن ، والرحمن اسم من أسماء الله العظمى ، قال الله لها : من وصلك وصلتُه ، ومَنْ قطعك قطعته » .

وفى الحديث المشهور : « صلة الرحم تزيد فى العمر » .

وقال طَرَفة يهجو إنسانًا بأنه يصل الأباعد ويقطع الأقارب :

وأنتَ على الأدنى شَمالٌ عرِيَّةٌ   شآمِيَةٌ تزْوِى الوجوه بَليلُ (٢)

وأنتَ على الأقصى صَبًا غيرُ قَرَّةٍ   تَذَاءَبُ مِنْها مُرْزِغٌ وَمُسِيلُ (٣)

ومن شعر الحماسة :

لَهُمْ جُلُّ مالى إنْ تَتَابَعَ لى غِنًى   وإنْ قَلَّ مَالى لا أُكَلِّفُهُمْ رِفْدَا (٤)

وَلا أَحْمِلُ الحِقْدَ القديمَ عَلَيْهِمُ   وليسَ رَئيسُ القومِ مَنْ يَحْمِلُ الحِقْدَا

---

(١) ديوانه ٣٠

(٢) ديوانه ١١٩ . الأدنى : الأقرب . والشمال : ريح غير محمودة . بليل : ريح باردة .

(٣) الأقصى : البعيد . والصبا : ريح مهبها من مطلع الثريا ، وهى محمودة عندهم . وقرة : باردة .

(٤) للمقنع الكندى ، الحماسة بشرح المرزوقى ٣ : ١١٨٠ .

(٢٤)

الأصْلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

وَلَعَمْرِي مَا عَلَيَّ مِنْ قِتَالِ مَنْ خَالَفَ الْحَقَّ ، وَخَابَطَ الْغَيَّ ، مِنْ إِدْهَانٍ وَلَا إِيهَانٍ . فَاتَّقُوا اللهَ عِبَادَ اللهِ ، وَفِرُّوا إِلَى اللهِ مِنَ اللهِ ، وَامْضُوا فِي الَّذِي نَهَجَهُ لَكُمْ ، وَقُومُوا بِمَا عَصَبَهُ بِكُمْ ، فَعَلِيٌّ ضَامِنٌ لِفَلْجِكُمْ آجِلاً إِنْ لَمْ تُمْنَحُوهُ عَاجِلاً .

***

الشَّرْحُ :

الإدهان : المصانعة والمنافقة ، قال سبحانه : ﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾[1] .

والإيهان : مصدر أوهنتُه ، أى أضعفته ، ويجوز وهنته ، بحذف الهمزة . ونَهَجه : أوضَحه وجعلَه نَهْجاً ، أى طريقا بيّنا . وعصَبه بكم : ناطه بكم وجعله كالعِصابة التى تشدّ بها الرأس . والفلْج : الفوز والظفر .

وقوله : « وخابط الغيّ » كأنه جعله والغيّ متخابِطَيْن ، يخبِط أحدهما فى الآخر ؛ وذلك أشدّ مبالغة من أن تقول : خَبَط فى الغيّ ، لأنّ من يَخبِط ويَخبِطه غيره يكون أشدّ اضطرابا ممن يخبِط ولا يخبطه غيرُه . وقوله : « وفِرّوا إلى الله من الله » ، أى اهربوا إلى رحمة الله من عذابه . وقد نظر الفرزدق إلى هذا فقال :

إِلَيْكَ فَرَرْتُ مِنْكَ وَمِنْ زِيَادٍ ... وَلَمْ أَحْسِبْ دَمِي لَكُمُ حَلَالَا[2]

---

(١) سورة القلم ٩ .

(٢) ديوانه ٦٠٨ ، فى مدح سعيد بن العاص ، وروايته : « ولم أجعل دمى » .

(٢٥)

الأصْـلُ:

ومن خطبة له عليه السلام وقد تواترت عليه الأخبار باستيلاء أصحاب معاوية على البلاد ، وقدم عليه عاملاه على اليمن ، وهما عبيد الله بن عباس وسعيد بن نِمْران ، لما غلب عليهما بسر بن أرطاة ، فقام عليه السلام على المنبر ضجراً بتثاقل أصحابه عن الجهاد ، ومخالفتهم له فى الرأى ؛ فقال :

مَا هِيَ إِلَّا الْكُوفَةُ أَقْبِضُهَا وَأَبْسُطُهَا ، إِنْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا أَنْتِ تَهُبُّ أَعَاصِيرُكِ فَقَبَّحَكِ اللهُ !

وتمثل بقول الشاعر :

لَعَمْرُ أَبِيكَ الْخَيْرِ يَا عَمْرُو إِنَّنِي عَلَى وَضَرٍ مِنْ ذَا الْإِنَاءِ قَلِيلِ[1]

ثم قال عليه السلام :

أُنْبِئْتُ بُسْراً قَدِ اطَّلَعَ الْيَمَنَ ، وَإِنِّي وَاللهِ لَأَظُنُّ أَنَّ هٰؤُلَاءِ الْقَوْمَ سَيُدَالُونَ مِنْكُمْ بِاجْتِمَاعِهِمْ عَلَى بَاطِلِهِمْ ، وَتَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ ، وَبِمَعْصِيَتِكُمْ إِمَامَكُمْ فِي الْحَقِّ ؛ وَطَاعَتِهِمْ إِمَامَهُمْ فِي الْبَاطِلِ ، وَبِأَدَائِهِمُ الْأَمَانَةَ إِلَى صَاحِبِهِمْ وَخِيَانَتِكُمْ ، وَبِصَلَاحِهِمْ فِي بِلَادِهِمْ وَفَسَادِكُمْ ، فَلَوِ ائْتَمَنْتُ أَحَدَكُمْ عَلَى قَعْبٍ لَخَشِيتُ أَنْ يَذْهَبَ بِعِلَاقَتِهِ .

اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ مَلِلْتُهُمْ وَمَلُّونِي ، وَسَئِمْتُهُمْ وَسَئِمُونِي ، فَأَبْدِلْنِي بِهِمْ خَيْراً مِنْهُمْ

(١) الوضر : بقية الدسم فى الإناء .

وَأَبْدِلْهُمْ بِي شَرًّا مِنِّي ! اللَّهُمَّ مِثْ قُلُوبَهُمْ كَمَا يُمَاثُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ . أَمَا وَاللهِ لَوَدِدْتُ أَنَّ لِي بِكُمْ أَلْفَ فَارِسٍ مِنْ بَنِي فِرَاسِ بْنِ غَنْمٍ :

هُنَالِكَ لَوْ دَعَوْتَ أَتَاكَ مِنْهُمْ فَوَارِسُ مِثْلُ أَرْمِيَةِ الْحَمِيمِ (١)

***

ثم نزل عليه السلام من المنبر :

قال الرضيّ رحمه الله :

أقولُ : الأَرْمِيَةُ جمع رَمِيّ ؛ وهو السحابُ . والحميمُ ها هنا : وقتُ الصَّيفِ ، وإنما خصّ الشاعر سحابَ الصيفِ بالذِّكر لأنه أشدُّ جفُولاً ، وأسرعُ خُفُوقاً ، لأنه لا ماء فيه ، وإنما يكون السحابُ ثقيلَ السَّيرِ لامتلائه بالماء ؛ وذلك لا يكون فى الأكثر إلا زمانَ الشتاء ؛ وإنما أراد الشاعر وصفَهم بالسُّرْعةِ إذا دُعُوا ، والإغاثةِ إذا استُغِيثُوا ، والدليل على ذلك قوله :

* هُنَالِكَ لَوْ دَعَوْتَ أَتَاكَ مِنْهُمْ *

الشّـرْحُ :

تواترات عليه الأخبار ، مثل ترادفَتْ وتواصلت . الناس من يطعَن فى هذا ، ويقول : التواتر لا يكونُ إلا مع فترات بين أوقات الإتيان ، ومنه قوله سبحانه : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى ﴾(٢) ، ليس المراد أنهم مترادفون ، بل بين كلّ نبيّين فترة ، قالوا : وأصل « تترى » من الواو ، واشتقاقها من « الوِتر » ، وهو الفرد : وعدّوا هذا الموضع مما تغلط فيه الخاصة .

---

(١) البيت فى اللسان (١٩ : ٥٤) ، ونسبه إلى أبى جندب الهذلى ، وروايته : « رجال مثل أرمية الحميم » .

(٢) سورة « المؤمنون » ٤٤ .

[نسب معاوية بن أبي سفيان وذكر بعض أخباره]

ومعاوية هو أبو عبد الرحمن معاوية بن أبي سفيان صَخْر بن حَرْب بن أميّة ابن عَبْد شمس بن عبد مناف بن قُصَيّ .

وأمّه هِند بنت عُتْبة بن رَبيعة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قُصيّ . وهي أم أخيه عُتْبة بن أبي سفيان . فأما يَزيد بن أبي سفيان ، ومحمد بن أبي سفيان ، وعَنْبسة ابن أبي سُفْيان ، وحَنظلة بن أبي سفيان ، وعمرو بن أبي سُفْيان ؛ فمن أمّهات شتى .

وأبو سفيان هو الذى قادقُريشاً فى حُرُوبها إلى النبي صلى الله عليه وآله؛وهو رئيس بنى عبد شمس بعد قَتْل عُتْبة بن ربيعة بِبَدْر ، ذاك صاحب العِير ، وهذا صاحب النَّفير ، وبهما يضرب المثل ، فيقال للخامل : « لا فى العير ولا فى النفير » .

وروى الزُّبَيْر بن بَكّار أنّ عَبدالله بن يزيد بن معاوية جاء إلى أخيه خالد بن يزيد فى أيّام عبد الملك ، فقال : لقد همتُ اليوم يا أخى أن أفتِكَ بالوليد بن عبد الملك،قال: بئسما هَمَمْتَ به فى ابن أمير المؤمنين،وولىّ عهد المسلمين ! فما ذاك ؟ قال:إنّ خيلى مرّت به فعبِثَ بها وأصغرنى ، فقال خالد : أنا أكفيك ، فدخل على عبد الملك والوليد عنده ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إنّ الوليد مرّت به خيل ابن عمّه عبد الله ، فعبث بها وأصغره - وكان عبدُ الملك مطرِقاً - فرفع رأسه،وقال : ﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾[1]،فقال خالد:﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً ﴾[2] ، فقال عبد الملك : أفى عبدِ الله تكلّمنى ! والله لقد دخل أمس علىّ فما أقام لسانه لحنا ! قال

---

(١) سورة النمل ٣٤ (٢) سورة الإسراء ١٦ .

خالد : أفعلَى الوليد تعوِّل يا أمير المؤمنين ! قال عبد الملك: إن كانَ الوليدُ يلحن فإنّ أخاه سليمان [لا][١] . فقال خالد : وإن كان عبدُ الله يلحَن ، فإنّ أخاه خالدا [لا][١] ، فالتفت الوليدُ إلى خالد وقال له: اسكتْ ويحكَ ! فوالله ما تُعَدّ فى العِير ولا فى النَّفِير ، فقال : اسمع يا أميرَ المؤمنين ، ثم التفت إلى الوليد ، فقال له : وَيْحكَ! فمن صاحبُ العِير والنّفير غير جدّى أبى سفيان صاحبِ العير ، وجدّى عُتْبة صاحب النفير ! ولكن لو قلت : غُنَيْمات وحُبَيْلات والطائف ، ورحم الله عثمان » ، لقلنا : صَدَقْتَ [٢] .

* * *

وهذا مِنَ الكلام المستحْسَن ، والألفاظ الفصيحة ، والجوابات المسكتة ؛ وإنما كان أبو سُفيان صاحبَ العِير، لأنه هو الذى قدِم بالعِيرِ التى رام رسولُ الله صلى الله عليه وآله وأصحابه أن يعترضوها ، وكانت قادمةً من الشام إلى مكة تحمل العِطْر والبُرّ ، فنذِر بهم أبو سفيان، فضرب وجُوه العِير إلى البحر ، فساحَل [٣] بها حتى أنقذها منهم، وكانتْ وقعة بدر العظمى لأجلها ، لأنّ قريشا أتاهم النذير بحالها ، وبخروج النبى صلى الله عليه وآله بأصحابه من المدينة فى طلبها ، لينفروا ، وكان رئيسُ الجيش النافر لحمايتها عُتْبة بن ربيعة ابن عبد شمس جدّ معاوية لأمه .

وأما « غُنيمات وحُبَيْلات ... » إلى آخر الكلام، فإنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله لما طرد الحكَم بن أبى العاص إلى الطائف لأمور نَقَمَها عليه ، أقام بالطائف فى حُبْلة ابتاعها ــ وهى الكَرْمة ــ وكان يرعى غُنَيْمات اتخذها ، يشرب من لبنها. فلما وَلِىَ أبو بكر، شفع إليه عثمان فى أنْ يَرُدَّه ، فلم يفعل، فلما ولىَ عمر شفَع إليه أيضاً فلم يَفعل، فلما وَلِىَ هو الأمر ردّه . والحكَم جَدُّ عبد الملك ، فعيّرهم خالد بن يزيد به .

* * *

وبنو أمية صِنْفان : الأعياص والعنابس ، فالأعياص : العاص ، وأبو العاص ،

---

(١) من مجمع الأمثال .

(٢) الخبر فى مجمع الأمثال ٢ : ٢٢٢ .

(٣) ساحل بها : أتى بها ساحل البحر .

والعِيص، وأبو العِيص. والعَنَابس: حرب، وأبو حرب، وسفيان، وأبو سفيان. فبنو مروان وعثمان من الأعياص؛ ومعاوية وابنه من العَنابس؛ ولكلّ واحد من الصنفين المذكورين وشيعتهم كلام طويل، واختلاف شديد في تفضيل بعضهم على بعض.

• • •

وكانت هند تذكر في مكة بفجور وعُهْر.

وقال الزمخشري في كتاب «ربيع الأبرار»: كان معاوية يُعْزَى إلى أربعة: إلى مسافر بن أبي عمرو، وإلى عُمارة بن الوليد بن المغيرة، وإلى العباس بن عبد المطلب، وإلى الصبّاح؛ مُغَنٍّ كان لعمارة بن الوليد. قال: وقد كان أبو سفيان دَمِيماً قصيراً، وكان الصبّاح عَسِيفاً[1] لأبي سفيان، شابّاً وسيماً، فدعته هند إلى نفسها فغشيها.

وقالوا: إنّ عُتْبة بن أبي سفيان من الصبّاح أيضاً، وقالوا: إنها كرهت أن تدعه في منزلها، فخرجت إلى أجياد، فوضعته هناك. وفي هذا المعنى يقول حسان أيام المهاجاة بين المسلمين والمشركين في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله قبل عام الفتح[2]:

لِمَنِ الصَّبِيُّ بجانب البَطْحا   في التُّرْبِ مُلْقًى غَيْرَ ذي مَهْدِ
نَجَلَتْ بِهِ بَيْضاءُ آنِسَةٌ   مِنْ عَبْدِ شَمْسٍ صَلْتَةُ الْخَدِّ[3]

والذين نزّهوا هنداً عن هذا القذف رووا غير هذا. فروى أبو عُبيدة معمر بن المثنّى أن هنداً كانت تحت الفاكه بن المغيرة المخزوميّ، وكان له بيتُ ضيافة يَغْشاه الناس، فيدخلونه من غير إذْن، فخلا ذلك البيتُ يوماً، فاضطجع فيه الفاكه وهند، ثم قام الفاكه وترك هنداً في البيت لأمر عرض له، ثم عاد إلى البيت، فإذا رجل قد خرج من البيت، فأقبل إلى هند فركَلَها برجله، وقال: مَنِ الذي كان عندكِ؟ فقالت: لم يكن عندي

(١) العسيف: الأجير. (٢) ديوانه ١٠٧

(٣) نجلت به: ولدته. وصلتة الخد: الأملس؛ وفي الأصول: «سلبة» تصحيف.

أحد ، وإنما كنت نائمة . فقال : الحقِي بأهلك ، فقامت من فورها إلى أهلها ، فتكلّم الناس فى ذلك ، فقال لها عُتْبة أبوها : يابنيّة ، إنّ الناس قد أكثروا فى أمرك ، فأخبرينى بقصتك على الصّحة ، فإن كان لكِ ذنب دسستُ إلى الفاكه مَنْ يقتله ، فتنقطع عنك القالة . فحلفتْ أنها لا تعرف لنفسها جُرْما ، وإنه لكاذب عليها . فقال عتبة للفاكه : إنك قد رميتَ ابنتى بأمر عظيم ، فهل لك أن تحاكِمَنى إلى بعض الكهنة ؟ فخرج الفاكِه فى جماعة من بنى مخزوم ، وخرج عُتْبة فى جماعة من بنى عبد مناف ، وأخرج معه هندا ونسوة معها ، فلما شارفوا بلادَ الكاهن تغيَّرت حالُ هند ، وتنكّر أمرها ، واختطف لونُها . فرأى ذلك أبوها ، فقال لها : إنى أرى ما بكِ ، وما ذاك إلا لمكروه عندك ! فهلّا كان هذا قبل أن يشتهر عند الناس مسيرُنا ! قالت : يا أبتِ ، إنّ الذى رأيتَ منى ليس لمكروه عندى ، ولكنى أعلم أنكم تأتون بشرا يخطئ ويصيب ، ولا آمن أن يَسِمنِى مِيسمًا يكون علىّ عارا عند نساء مكة . قال لها : فإنى سأمتحنه قبل المسألة بأمر . ثم صفَر بفرس له فأدلى ، ثم أخذ حبّة برّ فأدخلها فى إحليله ، وشدّه بسير وتركه ؛ حتى إذا وردوا على الكاهن أكرمهم ونحر لهم ، فقال عتبة : إنا قد جئناك لأمر ، وقد خبأتُ لك خبيئا أختبِرُك به ، فانظر ما هو؟ فقال : ثمرة فى كَمَرة ، فقال : أبْيَنُ من هذا ، قال : حَبّة بُرّ ، فى إحليل مهر ، قال : صدقت ، انظر الآن فى أمر هؤلاء النسوة . فجعل يدنُو من واحدة واحدة منهنّ ، ويقول : انهضى ، حتى صار إلى هند ، فضرب على كتفها ، وقال : انهضى غيرَ رَقْحاء ولا زانية ، ولتلدِنّ مَلِكا يقال له معاوية . فوثب إليها الفاكِه ، فأخذها بيده وقال : قومى إلى بيتك ، فجذبت يدَها من يده ، وقالت : إليكَ عنّى ، فو الله لا كان منك ، ولا كان إلا من غيرك ! فتزوجها أبو سفيان بن حرب .

الرقحاء : البغىّ التى تكتسب بالفجور ، والرّقاحة : التجارة .

* * *

وولىَ معاوية اثنتين وأربعين سنة منها اثنتان وعشرون سنة ولىَ فيها إمارة الشام منذ مات أخوه يزيد بن أبى سفيان ، بعد خمس سنين من خلافة عمر ، إلى أن قتل أمير المؤمنين على عليه السلام فى سنة أربعين . ومنها عشرون سنة خليفة إلى أن مات فى سنة ستين .

ومرّ به إنسان وهو غلام يلعب مع الغلمان ، فقال : إنى أظنّ هذا الغلام سيسودُ قومَه ، فقالت هند : ثَكِلْتُهُ إن كان لا يسود إلا قومَه !

ولم يزل معاويةُ ذا همّة عالية ، يطلب معالىَ الأمور ، ويرشّح نفسَه للرياسة ، وكان أحدَ كتّاب رسول الله صلى الله عليه وآله . واختُلف فى كتابته له كيف كانَتْ ، فالذى عليه المحققون من أهل السيرة أنّ الوحىَ كان يكتبه علىّ عليه السلام وزيد بن ثابت ، وزيد بن أرقم ، وأن حنظلة بن الربيع التيمىّ ومعاوية بن أبى سفيان كانا يكتبان له إلى الملوك وإلى رؤساء القبائل ، ويكتبان حوائجَه بين يديه ، ويكتبان ما يُجْبَى من أموال الصدقات وما يُقْسَم فى أربابها .

وكان معاوية على أسّ[1] الدهر مُبغِضاً لعلىّ عليه السلام ، شديدَ الانحراف عنه ، وكيف لا يُبغضه وقد قتل أخاه حَنظلة يوم بدر ، وخالَه الوليد بن عتبة ، وشرِك عمّه فى جده وهو عُتْبة ــ أو فى عمه ، وهو شيبة ، على اختلاف الرواية ــ وقتل من بنى عمه عبد شمس نفراً كثيرا من أعيانهم وأماثلهم ؛ ثم جاءت الطامّة الكبرى واقعة عثمان ، فنسبها كلّها إليه بشبهة إمساكه عنه ، وانضواء كثير من قَتَلته إليه عليه السلام ، فتأكّدت البِغْضة، وثارت الأحقاد ، وتذكّرت تلك التِّرات الأولى؛ حتى أفضى الأمرُ إلى ما أفْضَى إليه .

وقد كان معاوية ، مع عِظَم قَدْرِ علىّ عليه السلام فى النفوس ، واعترافِ العرب بشجاعته ، وأنّه البطل الذى لا يُقامُ له ، يتهدده ــ وعثمان بعدُ حىّ ــ بالحرب والمنابذة ، ويراسله من الشام رسائلَ خشنة ؛ حتى قال له فى وجهه ما رواه أبو هلال العسكرى فى كتاب " الأوائل " ، قال :

(١) أس الدهر ؛ بفتح الهمزة أو ضمها أو كسرها : قدم الدهر ووجهه .

قدم معاوية المدينة قدمة أيام عثمان فى أواخر خلافته ، فجلس عثمان يوما للناس ، فاعتذر من أمور نُقِمَت عليه ، فقال : إن رسولَ الله صلى الله عليه وآله قَبِل توبة الكافر ، وإنى رددتُ الحكمَ عمى لأنه تاب ، فقبِلت توبته ، ولو كان بينه وبين أبى بكر وعمر من الرَّحم ما بينى وبينه لآوياه . فأمّا ما نقمتم علىّ أنى أعطيتُ من مال الله ، فإنّ الأمر إلىّ ، أحكُم فى هذا المال بما أراه صلاحا للأمة ، وإلا فلماذا كنت خليفة ! فقطع عليه الكلامَ معاوية وقال للمسلمين الحاضرين عنده : أيها المهاجِرون ، قد علمتم أنه ليس منكم رجل إلّا وقد كان قبل الإسلام مغمورا فى قومه ، تُقطعُ الأمور من دونه ، حتى بعث الله رسوله فسبقتم إليه ، وأبطأ عنه أهلُ الشرف والرياسة ، فسُدْتُم بالسبق لا بغيره ؛ حتى إنه ليقال اليوم : رهط فلان ، وآل فلان ؛ ولم يكونوا قبلُ شيئاً مذكورا ، وسيدوم لكم هذا الأمر ما استقمتم ؛ فإن تركتم شيخنا هذا يموت على فراشه وإلا خرج منكم ، ولا ينفعكم سبقكم وهجرتكم .

فقال له علىّ عليه السلام : ما أنت وهذا يابن اللَّخْناء ! فقال معاوية : مهلا يا أبا الحسن عن ذكر أمى ، فما كانت بأخسّ نسائكم ، ولقد صافحها رسول الله صلى الله عليه يوم أسلَمَتْ ولم يصافح امرأةً غيرَها ، أما لو قالها غيرُك ! فنهض علىّ عليه السلام ليخرج مُغضَبا ، فقال عثمان : اجلس ، فقال له : لا أجلس ، فقال : عزمت عليكَ لتجلسنّ ، فأبى وولّى ، فأخذ عثمان طرفَ ردائه فترك الرداء فى يده وخرج ، فأتبعه عثمان بصرَه ، فقال : والله لا تصِلُ إليك ولا إلى أحد من ولدك .

قال أسامة بن زيد : كنتُ حاضرا هذا المجلس ، فعجِبتُ فى نفسى من تألّى عثمان ، فذكرته لسعد بن أبى وقّاص ، فقال : لا تعجب ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه يقول : « لا ينالُها علىّ ولا ولده » .

قال أسامة : فإنّى فى الغد لَفِى المسجد ، وعلىّ وطلحة والزبير وجماعة من المهاجرين جُلوس ؛ إذ جاء معاوية ، فتآمروا بينهم ألّا يوسِّعوا له ، فجاء حتى جلس بين أيديهم ،

فقال : أتدرون لماذا جئت ؟ قالوا : لا ، قال : إنى أقسِم بالله إن لم تتركوا شيخَكم يموت على فراشه لا أعطيكم إلا هذا السيف ! ثم قام فخرج .

فقال علىّ عليه السلام : لقد كنت أحسِب أنّ عند هذا شيئا ، فقال له طلحة : وأىّ شىء يكون عنده أعظم مما قال ! قاتله الله ! لقد رَمَى الغَرَض فأصاب ؛ والله ماسمعتَ ياأبا الحسن كلمةً هى أملأ لصدرك منها .

ومعاوية مطعون فى دينه عند شيوخنا رحمهم الله ، يُرْمَى بالزندقة .

وقد ذكرنا فى نقض « السفيانية » على شيخنا أبى عثمان الجاحظ مارواه أصحابنا فى كتبهم الكلامية عنه من الإلحاد والتعرض لرسول الله صلى الله عليه وآله ، وماتظاهر به من الجبر والإرجاء ؛ ولو لم يكن شىء من ذلك ، لكان فى محاربته الإمام مايكفى فى فساد حاله ، لا سيما على قواعد أصحابنا ، وكونهم بالكبيرة الواحدة يقطعون على المصير إلى النار والخلود فيها إن لم تكفرها التوبة .

***

[بسر بن أرطاة ونسبه]

وأمّا بُسْر بن أرطاة ، فهو بُسر بن أرطاة - وقيل ابن أبى أرطاة - بن عويمر بن عمران بن الحُلَيس بن سيّار بن نزار بن معيص بن عامر بن لؤىّ بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة .

بعثه معاوية إلى اليمن فى جيش كثيف ، وأمره أن يقتل كلّ مَنْ كان فى طاعة علىّ عليه السلام ، فقتل خلقا كثيرا ، وقتل فيمن قتل ابنىْ عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب ، وكانا غلامين صغيرين ، فقالت أمهما ترثيهما .

يامَنْ أحسّ بُنيّىَّ اللذين هُما ... كالدُّرَّتين تَشَظَّى عنهُما الصَدَفُ[1]

فى أبيات مشهورة .

(١) تشظى : تفرق شظايا . والأبيات فى الكامل ٨ - ١٥٨ - بشرح المرصفى .

[عبيد الله بن العباس وبعض أخباره]

وكان عبيد الله عاملَ علىٍّ عليه السلام على اليمن ، وهو عبيد الله بن العبّاس ابن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصيّ . أمه وأم إخوته عبد الله وقُثَم ومعبد وعبد الرحمن ، لبابة بنت الحارث بن حَزْن ، من بنى عامر بن صعصعة . ومات عبيد الله بالمدينة ، وكان جوادا ، وأعقب،ومن أولاده : قُثَم بن العباس بن عبيد الله بن العباس ولّاه أبو جعفر المنصور المدينة ، وكان جوادا ممدوحا ، وله يقول ابن المَوْلَى (١) :

يا ناقُ إنْ أَدْنَيْتِنِي مِنْ قُثَمْ ... أَعْفَيْتِ مِنْ كُورٍ وَمِنْ رِحْلَتِهِ

فِى وَجْهِهِ نورٌ وفى باعِهِ ... طُولٌ وفى العِرْنِينِ مِنْهُ شَمَمْ

ويقال : ما رُئِى قبور إخوة أكثر تباعُدا من قبور بنى العباس رحمه الله تعالى : قبر عبدالله بالطائف ، وقبر عبيدالله بالمدينة،وقبر قُثَم بسمَرْقَنْد ، وقبر عبد الرحمن بالشام، وقبر مَعْبد بإفريقيّة .

***

ثم نعود إلى شرح الخطبة :

الأعاصير : جمع إعصار ، وهى الريح المستديرة على نفسها،قال الله تعالى : ﴿ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ ﴾ (٢) .

والوضَرُ : بقيّة الدَّسَم فى الإناء . وقد اطّلع اليمن ، أى غشِيَها وغزاها وأغار عليها .

وقوله : « سَيُدالون منكم »،أى يَغلِبونكم وتكون لهم الدولة عليكم.وماث زيدالملح فى الماء : أذابه .

وبنو فِراس بن غَنْم بن ثعلبة بن مالك بن كنانة ، حىٌّ مشهور بالشجاعة ؛ منهم

(١) كذا بهذه النسبة فى نسب قريش ٣٣ ، وهما من أبيات تنسب إلى داود بن سلم ، فى الأغانى ٦ : ٢٠ ، ٩ : ١٦٩ ، وفى الكامل ٢ : ٢٢٩ منسوبة إلى سليمان بن قتة .

(٢) سورة البقرة ٢٦٦ .

علقمة بن فِراس ، وهو جِذْل الطِّعان. ومنهم رَبيعة بن مكدَّم بن حُرْثان بن جَذِيمة بن علقمة بن فِراس، الشجاع المشهور، حامى الظُّعُن حيًّا وميتًا، ولم يحم الحريمَ وهو ميت أحدٌ غيره؛ عرضَ له فُرْسان من بنى سُلَيم، ومعه ظعائن من أهله يحميهم وَحْدَه، فطاعنهم، فرماه نُبَيْشَة بن حبيب بسَهم أصاب قَلْبه، فنصب رمحه فى الأرض، واعتمد عليه وهو ثابت فى مَرْجه لم يَزُلْ ولم يمل. وأشار إلى الظعائن بالرَّواح، فسِرْنَ حتى بَلَغْنَ بيوت الحىّ ، وبنو سُلَيم قِيام إزاءه لا يُقْدِمون عليه ، ويظنونه حيًّا ؛ حتى قال قائل منهم : إنى لا أراه إلّا ميتا، ولو كان حيًّا لتحرك ؛ إنّه والله لمائل راتب على هيئة واحدة ، لا يرفع يَده ، ولا يحرك رأسه . فلم يقدِم أحد منهم على الدنوّ منه ، حتى رموْا فرسَه بسهم ، فشبَّ من تحته، فوقع وهو ميت ، وفاتتهم الظعائن .

وقال الشاعر :

لَا يَبْعَدَنَّ رَبِيعَةَ بْنُ مُكَدَّمٍ ... وَسَقَى الْغَوَادِى قَبْرَهُ بِذَنُوبِ[(١)]

نَفَرَتْ قَلُوصِى مِنْ حِجَارَةِ حَرَّةٍ ... بُنِيَتْ عَلَى طَلْقِ الْيَدَيْنِ وَهُوبِ

لَا تَنْفِرِى يَا نَاقُ مِنْــهُ فَإِنَّهُ ... شِرِّيبُ خَمْرٍ مِسْعَرٌ لِحُرُوبِ

لَوْلَا السِّفَارُ وَبُعْدُ خَرْقٍ مَهْمَهٍ ... لَتَرَكْتُهَا تَحْبُو عَلَى الْعُرْقُوبِ

نِعْمَ الْفَــتَى أَدَّى نُبَيْشَةُ بَزَّهُ ... يَوْمَ اللِّقَاءِ نُبَيْشَةُ بْنُ حَبِيبِ

وقوله عليه السلام : « ماهىَ إلّا الكوفة » ، أى ماتَملَّكتِى إلا الكوفة . أقبضها وأبسطها ، أى أتصرَّف فيها كما يتصرّف الإنسان فى ثوبه ، يقبضه ويبسطه كما يريد .

ثم قال على طريق صرف الخطاب : « فإن لم تكونى إلا أنت » ، خرج من الغيبة إلى خطاب الحاضر ؛ كقوله تعالى: ﴿ اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ . مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ . إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ، يقول : إن لم يكنْ لى من الدنيا مُلْك إلا مُلْك الكوفةِ ذاتِ الفِتَن ، والآراء المختلفة ، فأبعدها الله !

---

(١) لحسان بن ثابت ، وقيل هى لضرار بن الخطاب ، وهى فى الأغانى ١٦ : ٥٨ والكامل ٤ : ٨٩ مع اختلاف فى الرواية .

وشبّه ما كان يحدُث من أهلها من الاختلاف والشّقاق بالأعاصير ؛ لإثارتها التراب وإفسادها الأرض . ثم ذكر عِلّة إدالة أهل الشام من أهل العراق ؛ وهى اجتماعُ كلمتهم وطاعتهم لصاحبهم ، وأداؤهم الأمانة وإصلاحهم بلادهم .

***

[أهل العراق وخطب الحجاج فيهم]

وقال أبو عثمان الجاحظ : العِلّة فى عِصْيانِ أهلِ العراق على الأمراء وطاعة أهل الشام أنّ أهلَ العراق أهلُ نظرٍ وذوو فِطَنٍ ثاقبة ، ومع الفطنة والنظر يكون التنقيب والبحث، ومع التنقيب والبَحْث يكون الطعن والقَدْح والترجيحُ بين الرجال ، والتمييزُ بين الرؤساء، وإظهارُ عيوب الأمراء . وأهلُ الشّام ذَوُو بلادة وتقليدٍ وجمود على رأى واحد؛ لا يرون النظر ، ولا يسألون عن مغيَّب الأحوال .

وما زال العراق موصوفاً أهلُه بقلّة الطاعة ، وبالشقاق على أولى الرئاسة

***

ومن كلام الحجّاج (١) :

يا أهلَ العراق ، يا أهل الشقاق والنفاق، ومساوئ الأخلاق ! أما والله لألْحُوَنّكم لَحْوَ العصا ، ولأعصِبَنّكم عَصْبَ السَّلَم ، ولأضرِبَنّكم ضَرْب غرائب الإبل ؛ إنّى أسمع لكم تكبيراً ليس بالتكبير الذى يُراد به الترغيب؛ ولكنّه تكبير الترهيب. ألا إنّها عجاجة تحتها قَصْفٌ (٢) ، يابنى اللّكيعة (٣) ، وعبيدَ العصا ، وأبناء الإماء ! إنّما مَثَلى ومَثَلكم كما قال ابنُ بَرّاقة (٤) :

وَكُنتُ إذَا قَوْمٌ غَزَوْنى غَزَوْتُهُمْ فَهَلْ أنَا فِى ذَا يَالَ هَمْدَانَ ظَالِمُ ! (٥)

---

(١) البيان والتبيين ٢ : ١٣٧ مع اختلاف فى الرواية .

(٢) العجاجة : شدة الغبار ، والقصف : شدة الريح . (٣) اللكيعة : اللئيمة .

(٤) هو عمرو بن الحارث بن عمرو بن منبه بن شهر بن سهم الهمدانى ؛ وبراقة أمه ، ينسب إليها .

(٥) البيتان من قصيدة طويلة له ذكرها القالى فى الأمالى ٢ : ١٢٢ ، فى خبر له مع حريم المرادى حين أغار عليه .

مَتَى تَجْمَعِ الْقَلْبَ الذَّكِيَّ وَصَارِماً ... وَأَنْفاً حَمِيّاً تَجْتَنِبْكَ الْمَظَالِمُ

واللهِ لا تَقْرَعُ عصاً عصاً إلا جعلتها كأمسِ الذاهب.

وكانت هذه الخطبة عَقِيب سماعه تكبيراً مُنكَراً في شوارع الكوفة، فأشفق من الفتنة.

* * *

ومما خَطَب به في ذمّ أهل العراق بعد وقعة دَيْرِ الجماجم[1]:

يا أهلَ العراق، يا أهل الشقاق والنفاق؛ إنّ الشيطان استَبطَنَكم، فخالط اللحم والدم والعَصَب، والمسامع والأطراف والأعضاء والشَّغاف؛ ثم أفضى إلى الأمخاخ والأصماخ؛ ثم ارتفع فعشَّش، ثم باض ففرّخ، فحشاكم نِفاقاً وشِقاقاً، وملأكم غدراً وخلافاً؛ اتخذتموه دليلاً تَتَّبِعُونه، وقائداً تُطيعونه، ومؤامَراً تستشيرونه؛ فكيف تنفعكم تجربة، أو تعظكم واقعة، أو يحجزكم إسلام، أو يعصمكم ميثاق! ألستم أصحابي بالأهواز؛ حيث رُمْتُم المكر، وسعيتم بالغدر، وظننتم أنّ الله يخذُل دينه وخلافته؛ وأنا أرميكم بطَرْفي، وأنتم تتسلّلون لِواذاً، وتنهزمون سِراعاً! ثم يوم الزاوية[2]، وما يوم الزاوية! بها كان فشَلُكم وتنازُعكم وتخاذُلكم، وبراءةُ الله منكم، ونُكولُ وليِّكم عنكم؛ إذ ولَّيتم كالإبل الشوارد إلى أوطانها، النوازع إلى أعطانها؛ لا يسأل المرء عن أخيه، ولا يَلوِي الأبُ على بنيه؛ لمّا عضّكم السلاح، وقَصَمَتْكم[3] الرماح. ثم يوم دَيْر الجماجم، وما يوم دَيْر الجماجم!

---

(١) وقعة دير الجماجم، كانت بين الحجاج وابن الأشعث قرب الكوفة سنة ٨٣، وهزم فيها ابن الأشعث. والخطبة في البيان والتبيين ٢ : ١٣٨، والعقد ٤ : ١١٥، ونهاية الأرب ٧ : ٢٤٥ مع اختلاف في الرواية.

(٢) الزاوية: موضع قرب البصرة كانت به وقعة بين الحجاج وابن الأشعث قتل فيها خلق كثير، وذلك سنة ٨٢. الطبري (حوادث ٨٢).

(٣) قصمتكم: كسرتكم وغلبتكم. وفي البيان: « وقصتكم »، وهما بمعنى.

بها كانت المعارك والملاحم ، بِضَرْبٍ يزيل الهامَ عَنْ مقيله ؛ ويُذْهِلُ الخليلَ عن خليله[١]

يا أهلَ العِراق ؛ يا أهلَ الشِّقاق والنِّفاق ! الكَفَرات بعد الفَجَرات ، والغَدَرات بعد الخَتَرات[٢] ، والنَّزوة بعد النَّزَوات ! إن بعثتكم إلى ثغوركم غَلَلْتُم[٣] وخُنْتُم ، وإن أمِنْتُم أرْجَفْتُم ، وإن خِفْتُم نافقتم . لا تذكرون حسنة ، ولا تَشكُرون نعمة .

هل استخفَّكم ناكث ، أو استغواكم غاو ، أو استفزَّكم عاص ، أو استنصركم ظالم ، أو استعضدكم خالع إلا اتبعتموه وآويتموه ، ونصرتموه وزكيتموه !

يا أهلَ العِراق ؛ هل شغب شاغب ، أو نعبَ ناعب ، أو زَفَر كاذب[٤] ؛ إلا كنتم أشياعه وأتباعه ، وحماته وأنصاره !

يا أهل العراق ؛ ألم تزجرْكم المواعظ ! ألم تُنَبِّهْكم الوقائع ! ألم تردعكم الحوادث!

ثم التفت إلى أهل الشام وهم حول المنبر ، فقال :

يا أهلَ الشام : إنما أنا لكم كالظَّليم الرامح[٥] عن فِراخه ، ينفي عنها القَذَر[٦] ويباعد عنها الحجَر ، ويُكِنُّها من المطر ، ويحميها من الضباب ، ويحرسها من الذئاب !

يا أهل الشام ؛ أنتم الجُنَّة والرداء ، وأنتم العُدّة والحذاء .

ثم نزل .

***

---

(١) أخذه من رجز عمار بن ياسر يوم صفين ؛ وفيه :

ضَرْباً يُزِيلُ الْهَامَ عَنْ مَقِيلِهِ وَيُذْهِلُ الْخَلِيلَ عَنْ خَلِيلِهِ

ومقيله : موضعه . وانظر وقعة صفين ٣٦٦ — ٣٨٧ .

(٢) الختَرات : جمع خترة ، وهى الغدر والخديعة .

(٣) الغل هنا : الخيانة .

(٤) العقد : « زفر زافر » .

(٥) الظليم : ذكر النعام ، والرامح : المدافع .

(٦) البيان والعقد : « المدر » .

ومن خطبة له فى هذا المعنى وقد أراد الحج[1] :

يا أهل الكوفة ؛ إنّى أريد الحجّ وقد استخلفتُ عليكم ابنى محمدا ، وأوصيته بخلاف وصية رسول الله صلى الله عليه فى الأنصار ، فإنه أمر أن يقبلَ من محسنهم ، ويتجاوز عن مسيئهم ؛ وإنى قد أوصيتهُ ألّا يقبلَ من محسنكم ، ولا يتجاوزَ عن مُسيئكم . ألا وإنّكم ستقولون بعدى : لا أحسنَ اللهُ لهُ الصّحابة ! ألا وإنّى مُعجّلٌ لكمُ الجواب : لا أحسنَ اللهُ لكم الخلافةَ !

* * *

ومن خطبة له فى هذا المعنى :

يا أهل الكوفة ؛ إن الفتنة تُلْقَحُ بالنّجوى[2] ، وتُنْتَجُ بالشّكوى ، وتُحْصَدُ بالسّيف ؛ أما والله إن أبغضتمونى لا تضرّونى ؛ وإن أحببتمونى لا تنفعونى ! وما أنا بالمستوحِش لعداوتكم ، ولا المستريح إلى مودتكم ؛ زعمتم أنى ساحر وقد قال الله تعالى : ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ﴾[3] ، وقد أفلحتُ . وزعمتم أنى أعلمُ الاسمَ الأكبر ؛ فلمَ تقاتلون مَنْ يعلم مالا تعلمون !

ثم التفت إلى أهل الشام فقال :

لأزواجُكم أطيبُ من المسك ، ولأبناؤكم آنسُ بالقلب من الولد ؛ وما أنتم إلا كما قال أخو ذُبيان :

إذا حاولتَ فى أسدٍ فجوراً ... فإنى لستُ منكَ ولستَ منّى[4]

همُ دِرْعِى الّتى استلأمتُ فيها ... إلى يوم النّسارِ وهُمْ مِجَنّى[5]

---

(١) عيون الأخبار ٢ : ٢٤٥

(٢) النجوى : المسارّة .

(٣) سورة طه ٦٩

(٤) ديوانه ٧٩ (من مجموعة خمسة دواوين) .

(٥) استلأم : لبس اللأمة ؛ وهى الدرع . النسار : ماء لبنى عامر . والمجن : الترس .

ثم قال :

بل أنتم يا أهل الشام ؛ كما قال الله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [١] .

* * *

وخطب مرة بعد موت أخيه وابنه قال :

بلغني أنكم تقولون : يموتُ الحجاج ، ومات الحجاج ! فمَهْ ! وما كان ماذا ! والله ما أرجو الخيرَ كلَّه إلا بعد الموت ! وما رضِيَ الله البقاء إلا لأهونِ المخلوقينَ عليه إبليس ؛ ﴿ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴾ [٢] . ثم قال : يا أهل العراق ؛ أتيتُكم وأنا ذو لِمَّةٍ وافرة أرْفَلُ فيها ؛ فما زال بي شِقاقُكم وعصيانُكم حتى حَصَّ [٣] شعري . ثم كشف رأسه وهو أصلع ، وقال :

مَنْ يَكُ ذا لِمَّةٍ يُكَشِّفُهَا فإنني غيرُ ضائري زَعَرِي [٤]
لا يمنع المرء أن يسودَ وأنْ يضربَ بالسيفِ قِلَّةُ الشَّعَرِ

* * *

فأمّا قوله عليه السلام : « اللهمّ أبدِلني بهمْ خيراً منهم ، وأبدِلهم بي شرّاً مِنّي » ، ولا خيرَ فيهم ولا شرَّ فيه عليه السلام ؛ فإن « أفعل » ها هنا بمنزلته في قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمَّنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [٥] ، وبمنزلته في قوله : ﴿ قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ ﴾ [٦] .

---

(١) سورة الصافات ١٧١ - ١٧٣
(٢) سورة الأعراف ١٤ ، ١٥
(٣) الحص : ذهاب الشعر .
(٤) الزعر : ذهاب أصول الشعر .
(٥) سورة فصلت ٤٠
(٦) سورة الفرقان ١٥ .

ويحتمل أن يكون الذى تمنّاه عليه السلام من إبداله بهم خيراً منهم قوماً صالحين ينصرونه ويوفّقون لطاعته .

ويحتمل أن يريد بذلك ما بعد الموت من مرافقة النبىّ صلى الله عليه وآله .

وقال القطبُ الراوندىّ : بنو فراس بن غَنْم هم الروم . وليس بجيّد ، والصحيح ما ذكرناه .

والبيت المتمثّل به أخيرا لأبى جُنْدَب الهذلى ، وأول الأبيات :

ألا يا أمّ زِنْبَاعٍ أقِيمِى ... صُدُورَ العِيسِ نَحْوَ بنى تَمِيمِ

* * *

وهذه الخطبة ، خطب بها أمير المؤمنين عليه السلام بعد فراغه من صفين ، وانقضاء أمر الحكمين والخوارج ؛ وهى من أواخر خطبه عليه السلام .

* * *

تم الجزء الأول[1] من شرح نهج البلاغة بحمد الله ومنّه ؛ والحمد لله وحده العزيز ؛ وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين .

---

(١) من تجزئة المؤلف ؛ وهذه خاتمة نسخة ب ، ج ، وفى آخر نسخة ا : « هذا آخر الجزء الأول ، ويتلوه الجزء الثانى إن شاء الله » .

فهرس الخطب وما يجرى مجراها *

صفحة

١ ـ من خطبة لأمير المؤمنين على بن أبى طالب يذكر فيها ابتداء خَلْق السموات والأرض وخلق آدم .	٥٧
٢ ـ من خطبة له بعد انصرافه من صِفِّين	١٣١
٣ ـ من خطبة له وهى المعروفة بالشِّقْشِقية	١٥١
٤ ـ من خطبة له يذكر كمال دينه ويقينه واهتداء الناس به	٢٠٧
٥ ـ من كلام له لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم	٢١٣
٦ ـ من كلام له لما أشير عليه بألّا يتبع طلحة والزبير ولا يرضى لهما القتال	٢٢٣
٧ ـ من خطبة له فى ذم قوم باتباع الشيطان وركوبهم متن الزلل .	٢٢٨
٨ ـ من كلام له يعنى به الزّبير فى حال اقتضت ذلك	٢٣٠
٩ ـ من كلام له فى صفة قوم أرعدوا وأبرقوا وفشلهم فى ذلك	٢٣٧
١٠ ـ من خطبة له يوعد قوما	٢٣٩
١١ ـ من كلام له يخاطب به ابنه محمد بن الحَنَفية لمّا أعطاه الراية يوم الجمل	٢٤١
١٢ ـ من كلام له لما أظفره الله بأصحاب الجمل	٢٤٦
١٣ ـ من كلام له فى ذمّ أهل البصرة	٢٥١
١٤ ـ من كلام له فى ذمّ أهل البصرة أيضا	٢٦٧
١٥ ـ من كلام له فيما رده على المسلمين من قطائع عثمان	٢٦٩
١٦ ـ من خطبة له لمّا بُويع بالمدينة	٢٧٢

---

* وهى الخطب التى وردت فى كتاب نهج البلاغة .

صفحة

١٧ ـ من كلام له فى صفة من يتصدّى للحكم بين الأمّة وليس لذلك بأهل ٢٨٣
١٨ ـ من كلام له فى ذم اختلاف العلماء فى الفُتيا ٢٨٨
١٩ ـ من كلام له قاله للأشعث وهو على منبر الكوفة ٢٩١
٢٠ ـ من خطبة له فى تهويل ما بعد الموت وتعظيمه ، وفيها حث على الاعتبار ٢٩٨
٢١ ـ من خطبة له فى تذكير المسلمين بالساعة وباليوم الآخر ٣٠١
٢٢ ـ من خطبة له فيمن اتهمه بدم عثمان ٣٠٣
٢٣ ـ من خطبة له فى المال وقسمة الأرزاق بين الناس ٣١٢
٢٤ ـ من خطبة له فيمن خالف الحقّ وخابط الغىّ ٣٣١
٢٥ ـ من خطبة له وقد تواترت عليه الأخبار باستيلاء معاوية على البلاد ٣٣٢

فهرس الموضوعات *

	صفحة
مقدمة المؤلف	٣
القول فيما يذهب إليه المعتزلة فى الإمامة والتفضيل والبُغَاة والخوارج	٧
القول فى نسب أمير المؤمنين على بن أبى طالب وذكر لُمَع يسيرة من فضائله	١١
القول فى نسب الرضى وذكر طرف من خصائصه ومناقبه	٣١
القول فى شرح خطبة نهج البلاغة	٤٢
القول فى الملائكة وأقسامهم	٩١
اختلاف الأقوال فى ابتداء خَلْق البشر	١٠٣
تصويب الزنادقة إبليس لامتناعه عن السجود لآدم	١٠٦
اختلاف الأقوال فى خلق الجنة والنار	١٠٨
القول فى آدم والملائكة أيهما أفضل	١٠٩
القول فى أديان العرب فى الجاهلية	١١٧
فصل فى فضل البيت والكعبة	١٢٤
فصل فى الكلام على السجع	١٢٦
باب لزوم ما لا يلزم وإيراد أمثلة منه	١٣٣
ما ورد فى الوصاية من الشعر	١٤٣
نسب أبى بكر ونبذة من أخبار أبيه	١٥٥
مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم وإمرة أسامة بن زيد على الجيش	١٥٩
عهد أبى بكر بالخلافة إلى عمر بن الخطاب	١٦٣
طرف من أخبار عمر بن الخطاب	١٧٣
قصة الشورى	١٨٥
نتف من أخبار عثمان بن عفان	١٩٨

* وهى الموضوعات التى وردت فى أثناء الشرح .

	صفحة
ذكر طائفة من الاستعارات	٢١٤
اختلاف الرأى فى الخلافة بعد وفاة رسول الله	٢١٨
طلحة والزّبير ونسبهما	٢٢٥
خروج طارق بن شهاب لاستقبال علىّ بن أبى طالب	٢٢٦
أمر طلحة والزبير مع علىّ بن أبى طالب بعد بيعتهما له	٢٣٠
مقتل حمزة بن عبد المطلب	٢٤٣
محمد بن الحنفيّة ونسبه وبعض أخباره	٢٤٣
من أخبار يوم الجمل	٢٤٧
من أخبار يوم الجمل أيضا	٢٥٣
من كلام للحجاج وزياد نسجا فيه على منوال كلام علىّ	٢٧٨
الأشعث بن قيس ونسبه وبعض أخباره	٢٩٢
خطبة علىّ بالمدينة فى أوّل إمارته	٣٠٧
خطبته عند مسيره للبصرة	٣٠٨
خطبته بذى قار	٣٠٩
فصل فى ذم الحاسد والحسد	٣١٥
فصل فى مدح الصبر وانتظار الفرج	٣١٩
فصل فى الرّياء والنهى عنه	٣٢٥
فصل فى الاعتضاد بالعشيرة والتكثّر بالقبيلة	٣٢٦
فصل فى حسن الثناء وطيب الأحدوثة	٣٢٨
فصل فى مواساة الأهل وصلة الرّحم	٣٢٩
نسب معاوية بن أبى سفيان وذكر بعض أخباره	٣٣٤
عبيد الله بن العبّاس وبعض أخباره	٣٤١
أهل العراق وخطب الحجاج فيهم	٣٤٣